إيكاريا

أوفا تيم

رواية

ترجمة
هبة الله فتحي

إيكاريا



Ikarien

Uwe Timm

إيكاريا - رواية

تأليف: أوفا تيم

ترجمتها عن الألمانية: هبة الله فتحي

تصميم الغلاف: فادي العساف

ISBN: 8 - 07 - 641 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2020

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH　　fb.com /Adwan.Publishing.House

أوفا تيم

إيكاريا

رواية

ترجمتها عن الألمانية:
هبة الله فتحي



Litrix.de
GERMAN LITERATURE ONLINE

The translation of this work was supported by Goethe-Institute, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its program Litrix.de.

إلى داجمار

لا تجوز لرجُل العِلم الأمنيات والمشاعر
قلبٌ من حَجرٍ فقط.
(شارلز داروين)

أمرٌ قاتلٌ أن يحلّ محلّ الربّ القديم
عالمٌ محمودٌ ومُبهجٌ، يتقدّم دوماً إلى الأمام.
(جوستاف لانداور)

Eritis sicut Deus, scientes bonum et malum

وتكونان كالله عارفين الخير والشرّ.

إنّه على قَيد الحياة

أنا شاهد

لقد نَجا من الموت



تجوّل في الشّارع، وضحك، وصاح بشيءٍ ما، رقص على نحوٍ أخْرق، لكنّها كانت رقصةً، وصفّق بيَديه. لمْ يره شخصٌ من قبْل، كأنّه سقط من السّماء، كان مندفعاً، يتفوّه بكلماتٍ غير مفهومةٍ، تجاوز الشارع، ومرّ من أمام حُطام منزلٍ يقع على الناصية تدلّت على واجهته الرماديّة ملاءات فراشٍ بيضاء، ومن أمام دكّان الحليب، ومحلّ الأحذية، ودكّان بيع الأسماك «الأخضر». جاء أدولف أندرسن من الاتّجاه المعاكس، لم يرتدِ -في ذلك اليوم الرّبيعي- بزّته بنيّة اللّون، وحذاءه الشتوي اللّامع، بل ارتدى ملابس خضراء لا تلفت النظر. «ملابسي كلّها خضراء خضراء خضراء»، كما لمْ يرفع -مثل الأمس- ذراعه نحو الأعلى، ولمْ يصح «هايل»، لا، خلع قبّعته، ألقى تحيّةً فيها مبالغة إلى اليمين وإلى اليسار، تردّد، ثمّ توقّف، قابله الصبيّ الراقص المبتسم، وهو يمدّ يده بأصابعها القصيرة، صافحه أندرسن في اندهاشٍ وإحراج، ثمّ استمرّ الصبيُّ في المشي بخطواتٍ ثقيلةٍ، مُصدِراً صيحاتٍ غريبةً أشبه بالغَرغرة، صرخات بلا ألم، أقرب إلى اللّذة، ربّما الاثنين معاً؛ صرخات ألم ولذّة. خرجت كلماتٌ متلعثمةٌ من فَمٍ بدا صغيراً على هذا اللّسان: سُحُبٌ -في الأغلب- واحدةٌ، وشجرٌ مختلفٌ، وسماءٌ واحدة. هل قال: (هيملر)؟

لا، قال: «سماء»[*].

عاد الصبيُّ إلى التصفيق بيديه، رقص رقصةً غريبةً بالفعل، صفّق على إيقاع نغمةٍ بطيئةٍ، متوجّهاً إلى الشجرة، الشجرة الوحيدة التي نَجتْ من القنابل والحرائق، ومن أن تُقطع في الشتاء، شجرة كستناء بأوراقٍ أشبه بالأخفاف الخضراء الصغيرة. تسلّل الصبيُّ إلى جذْع الشّجرة، وتحسّس القشرة، وسَيْلٌ من أصوات الغَرغرة يخرج من فمه. عَبَرَ الشارع، وحرّك ذراعيه كأنّه يحاول الطيران، أطلق صيحاتٍ مبحوحةً، تعقّب الغربان، وقلّد هُتافهم.

مرّت ثلاثة أشهرٍ، أو أربعة، اعتاد في غضونها ما ينبغي أن يكون طبيعيّاً مرّةً أُخرى، بدأ الأطفال بإزعاجه، لمْ يفهموه. هدّدهم برفْع قبضته، ولكنْ وإنْ نجح في الإمساك بأحد الأطفال، لمْ يكن يضربه؛ بلْ كان يكتفي بقوله: «اخْلد إلى النّوم بأدب!»، ثمّ قال: «بهدوء!».

- لِمَ النّوم؟

هكذا تحدّث الطفل. كنت الأصغر عُمراً، ودافعت عنه أطول وقتٍ ممكن. كم كان المشهد عجيباً حينما أراد إزاحة السحاب بالمكنسة!

حينما بدأتُ أنا أيضاً بمضايقته، قالت الأم: «لماذا تفعل ذلك؟».

- لأنه غريب.

- لا، إنّه ليس غريباً، ولا شرّيراً. قد يكون لدى الأطفال قدرةٌ على الشرّ، أمّا هو، فلا، لنْ يؤذي أحداً، سيظلّ طفلاً بعض الشيء.

(*) كلمة سماء بالألمانية هي Himmel، وهي قريبة من لفظ اسم Himmler السياسي النازي ورئيس البوليس السري الجيستابو. (المترجمة).

هكذا دار الحديث تقريباً. ارتبط به شعورٌ بالخجل، سببه خيانة شخصٍ ما من أجل نَيْل إعجاب الآخرين.

أخفاه الوالدان في الشقّة على مدار اثني عشر عاماً.

كان منزلاً للإيجار بثماني شقق، في الدَّور الرابع، الشقّة الأخيرة في العمارة. عاش فيها شخصان وطفل. كان على الطفل البقاء في المنزل، وكان يجب الاكتفاء بما يُوزّع على شخصين، كان قد خصّص لهما على بطاقة التموين: الزبدة، والخبز، والجُبن، والخضراوات، والبطاطا. كان الطعام بالكاد يكفي شخصين، فما بالك بثلاثة أشخاص. تناول الصبيُّ الكثير من الطعام، شعر بالجوع باستمرار، بحسب قول الأُمّ. مثل الحصّادة، بحسب قول الأب، الذي كان يُحضّر من عمله بعض الطعام، والجزر، وقليلاً من الكرنب، وقطع صابون، وفي مرّاتٍ نادرةٍ جدّاً عسلاً. كان أحد زملاء الوالد في مصلحة شؤون المياه يمتلك -في حديقة منزله- خليّتيْ نحلٍ، وكان يعرف أمْر الصبيّ ومَخبأه. كان عسل النّحل بمنزلة احتفاليّة.

هل كان المستأجرون يعلمون بالأمر؟ ربّما واحدٌ منهما، أو اثنان، ربّما القاطنون في الدَّوْر الأسفل، الذين كانوا بالتّأكيد يسمعون صوت حركة أكثر من شخصين، وإن ارتدوا الجوارب فقط. لمْ يفشوا السرّ. لقد كان مختلفاً بعض الشيء؛ كانوا سيقتلونه.

لقد التزموا الصمت.

هل كانوا سيلتزمون الصمت لو أنّ الأُسْرة يهوديّة؟

الرعب، ما لا يمكن النطق به.

يجب النطق به.

الأطلال. امتدت الطُّرقات في الصيف وسط تلال الحطام، كانت طرقاتٍ مختصرة. تجوّل قاتل الحطام هناك. الرماد هناك، وبقايا العظام هناك، وبقايا الطوب، والدبال، وخضرة كثيفة، ونبات الترمس، ونبات البلاّن، وحشيشة السعال أيضاً. تطايرت السُّحب الصغيرة من وسط المنخفضات، إنّه الكرنب الأبيض. قال المتقدّمون في العمر: إنّ عدد الفراشات بلغ أقصاه في صيف عام 1945. قالوا: إنّها حشراتٌ ضارّةٌ؛ لقد التهمت الكرنب، الذي كان محدوداً حينها، بشراهةٍ كبيرة. كان الأطفال يصطادون هذه الحشرات، يضربونها بجذوع الصفصاف الرقيقة، تتهتّك أجنحتها، فتسقط على الأرض.

كنّا نحن المنقذين، كنّا نقتل الحشرات الضارّة.

تمكّنتُ من الطيران في الحُلم، كان الأمر سهلاً؛ مددتُ ذراعيَّ، وسريعاً صِرتُ في الهواء. في الأسفل: منازلُ، وشوارعُ، وشجرٌ، والمدرِّس السيّد بلومنتال، الذي كان الشَّعر ينمو في أذنيه وثقوب أنفه، وهناك قائد الدرّاجة الذي كان يتأرجح وكاد يسقط، نعم سقط بالفعل. كنت أطير بمنتهى الاستمتاع؛ أتشوّق إلى الفراش، أتشوّق إلى الخلود إلى النوم.

بحسب ما أتذكّر: كان كارلشن يمضغ باستمرارٍ، يطحن فكّه طحناً بطيئاً، كأنّه يمضغ لسانه. ضحكته تجعل وجهه أعرض.

بحسب ما أتذكّر: سيّارة جيب، كم كانت بسيطةً، وكم كان التعرُّف إلى قدراتها سهلاً! إطاراتها بلا أيّة إضافاتٍ، عَجَلة القيادة، مقبض الغيار في السيّارة، التروس على هيئة كُرةٍ معدنيّةٍ مكشوفةٍ فوق المحور الخلفيّ،

الإطار البديل عند الباب الخلفيّ، وعلى الجانب الآخر مِجراف، كان رفع الزجاج الأماميّ مُتاحاً، ولمْ يكن للسيّارة أيّ أبواب، ركب الضبّاط بمنتهى السهولة، في حالة سقوط الأمطار كان يُرفع غطاءٌ مُثبّتٌ بقنطرتين نحو الأعلى.

كان ضبّاط الاحتلال الإنجليزيّ في هامبورغ يقودون سيّارة جيب أيضاً؛ أمّا السيّارة التي وقفت في شهر تموز/ يوليو في شارع إيبندورفر فيج، فكانت لها نجمة على غطاء محرّك السيّارة، وجلس في الأمام ضابطٌ أمريكيٌّ بالبزّة الكاكي الموحّدة، وبنطالٍ به ثنيةٌ قويّةٌ بالمكواة. بقي هذا المشهد في الذاكرة: كان يدخّن. لمْ يكن السائق أسْود، على الرّغم من أنّه سيتّضح -لاحقاً- أنّ العديد من السائقين كانوا من السُّود. كان يوزّع قطع اللّبان، يا له من غرضٍ ذاتيٍّ! طعم لا غير، ليروم لاروم لوفيلشتيل(*)، والمضْغ، هذه الحركة العنيفة في الوجه، التي كانت تهدّئ الجسد. فاحت رائحة المطّاط من السيّارة، رائحة البنزين التي تصْحبني منذ ذلك الحين، وهي ذكرى بعيدةٌ عمّا هو مختلفٌ وجديد.

الأمر المفاجئ أنّ الرجُل صاحب الزيّ الموحَّد كان يفهمنا، ويتحدّث اللّغة الألمانيّة. سأل الرجُل عن أسماء الأطفال، فذكروا أسماءهم وأعمارهم. كان كارلشن الأكثر شجاعةً، أو ربّما الأكثر فضولاً، تحسّس السطح المعدنيّ، والإطارات، والمرايا، ثمّ تحسّس -بأصابعه المتبلّدة- بزّة الضابط برِفق. سأله: «ما اسمك؟»، أجاب كارلشن: «كارلشن». كان عليه ذِكْر اسْمه مرّةً أُخرى، كما أعاد طرْح سؤاله: «هل تستطيع السيّارة القفز؟».

ضحك الضابط: «لا».

(*) أغنية شعبيّة ألمانيّة للأطفال، تُغنّى عند تناول الطعام، خاصّةً الحساء. (م).

أهدى الضابط كارلشن شريطةً ملفوفةً في ورقةٍ فضّيّةٍ، وحينما هَمَّ الصبيُّ بوضعها في فمه، أخذها الضابط منه، ونزع عنها الورقة، وأعطاها للصبيّ مرّةً أُخرى. مضغ كارلشن الشريطة، وأخذ يصفّق بيديه.

مخرج الطريق



رذاذ الأمواج. يقف شابٌّ على السفينة؛ إنّه في مهمّة. اسْمه هانزن، ميشائيل(*)، سُمّيَ على اسْم الملاك الذي يحسبه الألمان لأنفسهم دون غيرهم. اختار أبوه اسْمه الأوّل. هانزن شابٌّ عاديٌّ غير لافتٍ للنّظر، طويلُ القامة، تقول النّساء عنه: إنّه وسيمٌ، وقامتهُ المنتصبة في أثناء سَيره توحي بأنّه رياضيٌّ، وحركاتهُ هادئةٌ، وتعبّر عن قوّة. إنّه قادرٌ على الاستماع إلى الآخرين، وهذه فضيلةٌ، كما يطرح الأسئلة، كلّها صفاتٌ حميدةٌ، ولكنْ لا شيء يلفت الانتباه.

يقف الشابُّ مع زميلٍ له فوق السطح، ينظر إلى البحر أمامه، هذا المحيط الأطلسيُّ الممتدّ، الذي يمتزج مع السماء. نظراتهم مُجْهَدة، وهذه حال نظرات المتابعين من نقطة المراقبة فوق الجسر أيضاً؛ إنّهم يبحثون عن الذئاب الرماديّة(**). إنّهم يبحثون عن منظار غوّاصةٍ، أو آثار حركتها، وعن مجموعة الفقاقيع التي تنتج عن إلقاء القذائف المدمّرة للسُّفن. لا يوجد ذئابٌ يتعقّبها الرادار، وكذلك الطائرات والقنابل المائيّة. هذه السفينة،

(*) ميكائيل أو ميخائيل، رئيس الملائكة. (م).

(**) تكتيك حربي استخدمته الغواصات الألمانية في الحرب العالمية الثانية لتدمير السفن في المحيط الأطلسي. (م).

بلونها الرماديّ الداكن، تنقل فِرَق الجيش، بينما كانت سابقاً باخرةً تنقل الركّاب، بلونٍ أبيضَ ناصعٍ، وسُرعتها تفوق سُرعة هذه الذئاب.

هذا الشابُّ ضمن المجموعة التي استُدعِيت.

- لماذا هو؟

- إنّه يتحدّث اللّغة الألمانيّة، ومعه رُخصة قيادة.

- من استدعاه؟

- قِسْم الحرب النفسيّة، ولكنّه لا يعرف بهذا الأمر بعْد.

تطوّع منذ سبعة أشهُرٍ في الجيش الأمريكيّ، ودخل الفرقة المسؤولة عن شؤون الأخبار، يتّضح ذلك من العَلَمَيْن المرسومَيْن باتّجاهٍ معاكسٍ على أزرار زيِّه الموحَّد. حصل على حقيبتَيْ ظهرٍ من طرازَيْ: (أ) و(ب)، مربوطتَيْن بحزام وخطّاف البندقيّة الصغيرة، وكان عليه حَملهما على كتفه. أنهى مرحلة التأهيل الأساسيّة، وتعلّم طريقة نصْب الفِراش، وعرف معها تحرُّشات النظام: كان يجب شدّ غطاء الفِراش إلى درجةٍ تتيح لعُملة الربع سِنْت أن تقفز حينما يُلقي المدرِّبُ بها فوق الفراش. تعلّم الزّحف، وهو ممسكٌ ببندقيّته أمامه، والسيْرَ المتوازن فوق لوحٍ خشبيٍّ، والزحفَ تحت الأسلاك الشائكة، وتسلُّقَ الحيطان الخشبيّة، وممارسة تدريبات التوازن مرّةً أُخرى، والسيْرَ وسْط الغابات. كان قادراً على مواكبة هذه التدريبات؛ إذْ مارس لُعبتَيْ: كُرة السلّة، والتنِس في جامعة واشنطن. تعلّم إطلاق النار بالبندقيّة، واستُدعيَ إلى برنامج تأهيل الضبّاط بسبب تقييمه الجيّد. تعلّم التكتيكات وآليّات تبليغ الأخبار، الذي يجب أن يتمّ سريعاً، وبدقّةٍ

وإيجازٍ، بحسْب تعليمات العقيد المسؤول عن مدرسة الأخبار؛ إذْ إنّ لها دوراً حاسماً في كلّ معركة. حتّى أكثر الجنود مهارةً يضلّون الطريق عندما لا تصل التعليمات في وقتها، أو حين تكون غير دقيقة. ترجع الأعلام على الأزرار إلى فترةٍ سابقةٍ حين كانت الأوامر تُبعث عبْر أعلامٍ بإشاراتٍ تُحمل من جبلٍ إلى آخر؛ أمّا الآن، فالإمكانات المُتاحة هي الاتصال بنظام مورس، والاتصال الهاتفيّ، واللّاسلكيّ، فضلاً عن التشفير، وكذلك فكّ شيفرات الاتصالات اللّاسلكيّة للعدوّ؛ إنّه التنوير، وعليهم تقدير قوّة فريق العدوّ، وخططه الهجوميّة، وحالته المزاجيّة.

قال العقيد: «أنتم عقل هذه الفرقة، وخلاياها العصبيّة؛ أمّا الآخرون: المُشاة، والمدفعيّة، وفرقة الدبّابات، فهُم العضلات، والأوتار، والعظام، أو أفضل: أنتم الملائكة المبلّغون للرسائل جميعها. ترون كلّ شيءٍ، وتسمعونه. أنتم تراقبون العدوّ. لا تعرفون مواقع الفِرَق فحسْب، ولكنْ تفكير العدوّ، وأهدافه، وحالته المزاجيّة أيضاً».

أقْسَم هانزن -بعد مرور ستّة أشهُرٍ- قَسَم الضابط، وصار برُتبة مُلازمٍ ثانٍ. حالةٌ أُطلق عليها مُعجزة الأشهُر الستّة. بات مؤهّلاً لمحاربة الألمان الملتهمين للكرنب المخلّل، والنازيّين. كان أمريكيّاً، وإنْ ولد في ألمانيا. لمْ يسأله أحدٌ عن شعوره، وهو مُلزمٌ بالمحاربة هناك، ناهيك عن الخوف من الضرَر، أو الموت هناك.

دارت النقاشات في منزل والدَيْه، في رينجوود بالقُرب من نيويورك. لماذا تطوّع بعد دراسة الماجستير مباشرةً؟ صحيحٌ أنّه كان سيُستدعى، ولكنْ هناك سُبلٌ لإعفائه. كانت رغبته. خوف الأمّ التي قالت: «إنّ الحرب

هُراء». قالتها باللّغة الألمانيّة، واسْتطردت: «نعتني بالأطفال ونربّيهم، مع هذه الهموم كلّها، وهذا العناء كلّه، ثمّ يأتي هؤلاء من الأعلى ليرسلوهم إلى الحرب، ويُطلَق عليهم الرصاص». اعترض الأب أيضاً، ولكنْ لأسبابٍ أُخرى. كان قد قبِل منذ سنواتٍ بالجنسيّة الأمريكيّة، وتنازل عن جنسيّته الألمانيّة، قال: «لا يجب محاربة الدّولة التي وُلدت فيها، وفيها أقاربك بالدَّم».

ارتدى هانزن زيَّه الموحَّد، الضيّق بعض الشيء. اختلفت طريقة الصنْع والخامة عمّا كان يُفترض أن يرتديه بوصْفه شخصاً عاديّاً؛ ارتدى سُترةً خضراءَ داكنةً، وبأزرارٍ لامعةٍ، وبنطالاً ورديّاً، وقميصاً، وربطة عنق، وقبّعةً عليها صقرٌ ذهبيُّ اللّون، وعلى الكتف شريطٌ نحاسيٌّ صغير. كان الزيُّ الموحَّد خفيفاً وعمليّاً.

تعرّف إلى كاثرين قبْل سَفره إلى أوروبّا بثلاثة أشهُرٍ، قبْل احتفالات الميلاد بوقتٍ وجيزٍ، في القطار. أوقفت العاصفة الثلجيّة حينها حركة المواصلات في نيويورك تماماً.

كان قد حصل على إجازة نهاية عطلة أسبوعٍ مطوّلة. واكبَ بداية الرحلة سقوط الثّلوج، وحينما دخل القطار إلى المحطّة المركزيّة الكبرى، هبَّت عاصفةٌ ثلجيّةٌ شديدة. توقّفت الحافلات وسيّارات الأُجرة عن الحركة تماماً، وكذلك القطارات في الضّواحي. وقف مع سيّدةٍ شابّةٍ في مكان الانتظار، أمام الساعة في القاعة المغطّاة. كانت جالسةً في القطار بجانبه، والممرُّ يفصل بينهما، ودار بينهما حديثٌ بسيط. كان ينبغي أن يأتي صديقها ليأخذها من المحطّة. أعطاها هانزن بعض العُملات الفضّيّة

لاستعمال الهاتف، عرفت من والدَيْ صديقها أنّه تحرّك بالفعل، ولكنّه اتصل بهما في أثناء رحلته بسبب توقّف حركة المواصلات.

ذهب هانزن معها إلى الحانة الصغيرة الواقعة على الجهة المقابلة لمحطّة القطار، حيث وجدا مقعدين على منضدةٍ معدنيّةٍ غير ثابتة. انحشر الاثنان وسْط جموع المسافرين العالقين. كانت النوافذ مغبّشةً بالبخار بسبب الملابس الرطبة. رَأيَا من حينٍ إلى آخر الأضواءَ الكاشفة لبعض السيّارات المارّة. تناولا الجعّة معاً، وأصرّت هي أن يقتسِما آخر شطيرةٍ كانت متاحةً للبيع، كان لديهماً الوقت لتجاذب أطراف الحديث. نهضت في أثناء ذلك، وطلبت إليه قطع العُملة النقديّة مرّةً أُخرى لتُجري اتصالاً هاتفياً. رآها واقفةً بالقرب من البار، وهي تتكلّم في السمّاعة، وتهزّ رأسها. هذا الشَّعر الكثيف بلونه البُنّي الداكن، وبريقه الأحمر الخفيف، وبنطالٌ رماديٌّ ناعمٌ، وبلوفر ثقيل فاتح الّلون، بأشكالٍ من الجدائل، أظهر نهدَيْها قليلاً. عادت وقالت: إنّها أبلغتهم باسْم الحانة في حال اتّصل هوراس بهم. هذا الاسم، هوراس، واسمها هي؟ كاثرين. جلسا في هذه الحانة المزدحمة بتقاربٍ ليس معتاداً مع قِصَر مدّة التعارُف. كان يشعر بذراعها تلمس جسده حينما تضحك، وكانت تضحك كثيراً. تغيّرت لغة الحديث من الإنجليزيّة إلى الألمانيّة. سألها هانزن عن مهنتها، قالت: إنّها تدرس الأنثروبولوجيا في جامعة كولومبيا، وإنّها تحصل على دخلها من تدريس الّلغة الألمانيّة، خاصّةً للجنود الذين يذهبون إلى أوروبّا. سألها إذا ما كانت أُسرتها ألمانيّةً، فقالت: «لا، إنّها فرنسيّةٌ، لكنّها تتحدّث الألمانيّة في المنزل، بلد منشأها هي الإلزاس». كان والدها قد أرسلها قبل أربع سنوات عبْر إسبانيا إلى عمٍّ لها في أمريكا، وذلك بعد استسلام فرنسا. كان ذلك بمنزلة إجراءٍ وقائيٍّ؛ إذْ لَمْ يكن التنبّؤ بنهاية الحرب في هذه المرحلة ممكناً. ضمَّ الرايخ

الألمانيّ بعد الاستسلام منطقة الإلزاس إلى أرضه، وأُجبِرت أُسرتها على قَبول الجنسيّة الألمانيّة، ولكنّها كانت في أمان؛ أمّا أخوها، فلمْ يكن؛ إذْ إنّه كان يحارب مع الجيش الفرنسيّ، واقْتيد بعد الهزيمة إلى معسكرٍ للأسْرى في شرق بروسيا، ثمّ جُنِّد فيما بعد بجنسيّته الألمانيّة في الجيش الألمانيّ.

قالت: «يا له من زمنٍ، يا لها من فوضى! أرجو أن يكون على قيد الحياة، أرجو أن يكونوا على قيد الحياة». لمْ يصلها في الأشهر الثلاثة الماضية أيّ خبرٍ عن والديها.

وضع يَده على ذراعها بتلقائيّة، وقال: «الأمر الجيّد في الأخبار السيّئة أنّها تصل إلينا أسرع». نظرت إليه، ثمّ قال: «أنا أعمل في فريق الأخبار، ويجب أن أعرف ذلك». عرض عليها سيجارةً، فأخبرته أنّها لا تدخّن إلّا في المناسبات الاحتفاليّة، هكذا جلس الاثنان مدّةً جنباً إلى جنب، يدخّنان في صمتٍ متوافق.

انفتح الباب بعد مرور ساعتين مرّةً أُخرى، ودخل شابٌّ مُرتدياً معطفاً تغطّيه نُدف الثلج. حيّاهما، وعانق كاثرين، ومدَّ يده لمصافحة هانزن، ضغط بقوّةٍ على يَد هانزن، وردَّ هانزن مصافحته بالقوّة نفسها. كانت تحيّةً أشْبه باختبارٍ للقوّة، واستشعر لاحقاً الحَرج من هذا الموقف. تساءل إذا ما كان الشعور نفسه قد انتاب الشخص المقابل. قالت: «هذا هوراس»، ردّد تحيّته، ثمّ قال: «لا وقت للجلوس، مع الأسف؛ لأنّه لا يوجد مكان، والسبب الأهمّ أنّه أوقف السيّارة في مكانٍ ممنوعٍ، وعليهما التحرُّك سريعاً». أرادت دفع الحساب، وأراد هوراس الشيء ذاته، اعترض هانزن قائلاً: «إنّ الشطيرة قابلةٌ للمشاركة؛ أمّا ثمنها، فلا»، كان مُحقّاً فيما قاله؛ لأنّ الرقم كان أُحاديّاً. سمح الوقت بتبادل العناوين، كتب لها عنوان المعسكر، ورقم هاتف منزل والدَيْه. تأمّل بعد رحيلها بطاقتها المكتوب

عليها بخطٍّ بارزٍ: كاثرين فيكمان. شمَّ رائحة البطاقة، عِطْر، رائحة بعيدة، ثمّ وضعها في جيبه. وجد أنظار الجالسين من حوله موجّهةً إليه، نظر إلى وجوهٍ متحفّظةٍ ممتلئةٍ بالفضول. ربّما لم يكن مستحسناً أن يتحدّثا باللّغة الألمانيّة بهذا الأسلوب المتوافق، بلْ المتآمر. الاعتقاد بأنّهما جواسيس ألمان أمرٌ واردٌ؛ إذْ كانت اللّافتات في نيويورك تحذّر منهم.

تبادل هانزن وكاثرين كتابة الرسائل في الأشهُر الثلاثة التالية باللّغة الألمانيّة؛ حتّى لا يتمكّن زملاؤه في معسكر التدريب من قراءة الرسائل. لمْ تكن أموراً خاصّةً بكلّ حال، مجرّد الإعراب عن الرغبة في اللّقاء القريب. أعجبه أسلوبها في اللّغة الألمانيّة، الذي تخلّلته عباراتٌ قديمةٌ: فلْتصحبكَ السلامة.

قبل يومين من إبحاره إلى أوروبّا فوق ناقلة الفِرَق العسكريّة، التقى بها مساءً في مطعم (كينز ستيك هاوز). تجاذبا أطراف الحديث، وتناولا مشروباتٍ كحوليّة، وطلبا الطعام. أرادت التعرُّف إلى طبيعة عمل أُسْرته.

كان السبب في مجيئهم إلى أمريكا قِرْداً.

ضحكت وظنّتها مزحة.

حدث ذلك بالفعل؛ كان والده يعمل محنّطاً، وقام في ألمانيا بتحنيط غوريلا عُرِض في متحف برلين لعلوم الطبيعة. شاهد مدير متحف نيويورك لتاريخ الطبيعة القِرْدَ في أثناء رحلةٍ له إلى أوروبّا، وأُعجِب بالمظهر الطبيعيّ لشكل الحيوان. تلقّى الأب عَرْضاً من المتحف ليسافر إلى هناك، واستقدم عام 1932؛ أيْ: بعد مرور عامين، الأُسرة: الأمّ، وأخته الكبيرة، وهو نفسه. رُزقت والدته لاحقاً بطفلٍ آخر، صبيٍّ جاء متأخّراً. قال عنه هانزن: إنّه كان طفلاً هادئاً وحالماً، تظنّه حزيناً على العالم القديم، الذي لمْ يعرفه قطّ.

يجب عدم إغفال أنّ الغوريلا اتّسم بحيويّةٍ كانت تفزع زوّار المتحف الذين كانوا يدخلون القاعة ذات الضوء الخافت غير عالمين بما ينتظرهم. يبدو أنّ نظرته كانت خبيثةً للغاية، وتنبض بحيويّة. وقف بقوّةٍ فوق فرع شجرةٍ، كأنّه يريد القفز إلى أعلى، وحينما كانت تأتي طالبات مدارس الفتيات للزيارة كان يُغطّى عضوه التناسليُّ بمِئْزر.

ضحكا كثيراً على مدرّبي هانزن العسكريّين، وعلى العريفَيْن الغاضبَيْن، وعلى الزملاء. اعتاد هانزن طرح الأسئلة، والاستماع إلى الآخرين، ولكنْ مع تأثير المشروبات الكحوليّة، وتأثير ضحكتها العالية التي كانت تتلاشى كالنغمة، صار يحكي كثيراً. أشعرته ضحكتها بالسعادة.

لحظة خروجهما من المطعم كان الوقت قد تأخّر للّحاق بالقطار المتوجّه إلى رينجوود، فكان من المفترض أن يبحث عن فندق، أو أن يذهب إلى دار الضبّاط.

عرضت عليه قضاء الليلة في الشقّة التي تتقاسمها مع صديقةٍ لها، وأنّها ستنام مع صديقتها في غرفةٍ واحدة.

استقبلتهما في الشقّة شابّةٌ مرتدية بلوفراً وبنطالاً، رفعت النظّارة على شعرها.

كانت جيليان، وهي تستعدّ للامتحانات النهائيّة.

جلس الثلاثة حول المنضدة، وتبادلوا الأحاديث قليلاً.

قالت جيليان لكاثرين: «يمكنك النوم على الأريكة إن أزعجكِ ضوء مصباحي».

فرشت كاثرين فراشها لينام هو عليه. كاد يخبرها تلقائيّاً أنّ هذا غير ضروريّ، لكنّه طالما تمنّى النوم على ملاءتها المستعملة. أحضرت له

منشفتين. سمع لاحقاً همهمتها، وهي في الحمّام. جاءت وأطّلت برأسها من الباب، ثمّ قالت له: «إنّه دورك». اغتسلَ، وجفّف جسده، وظلّ يشمّ رائحة العطر إلى أن وجد مصدر رائحتها. ياسمين؟ أطفأ النور، وسمع من الغرفة المجاورة الحديث الهامس للسيّدتَيْن، ثمّ ساد فجأةً هدوءٌ تامّ، ظنّ أنّها قد نامت هناك. سمع -وهو يستغرق في النوم- صوت فتْح الباب، دخل ضوءٌ غير متوقّعٍ، ثمّ سمع صوت إغلاق الباب. دخلت الغرفة حافية القدمين، واستلقت بجانبه. همست: «يجب على جيليان مواصلة الاستذكار، وأنا لا أستطيع النوم بوجود نورٍ مُضاء». تلاحقت أنفاسها كأنّها قد صعدت الدَّرج سريعاً. بعد لحظة: «ولكنْ يجب أن نلتزم الهدوء».

وجهٌ نحيفٌ ومتناسقٌ، وشعرٌ أشقرُ بفرقٍ على اليسار. شابٌّ بفمٍ هادئٍ، وعينين حالمتين. يجب أن نضع هذا المظهر في الاعتبار، خاصّةً مع المنعطف المفاجئ في ليلة أمس. أمرٌ غير متوقّع، ولكنّه انصاع إلى الأمنيات. كان هناك أمرٌ آخر أيضاً، لمْ يذكره أيٌّ منهما، رحلته المُرتقبة إلى ساحات القتال الأوروبيّة، حيث كانت الحرب قد اقتربت هناك من النهاية، على عكس الأوضاع في المحيط الهادئ. لم يتحدّثا عن المستقبل، حلَّ الحُبُّ مكان الكلمات.

انصرفت زميلة السكن باكراً، تحدّثت كاثرين إليها قليلاً، ثمّ عادت: «ربّما كان صوتنا عالياً بالفعل؟». قالت: «لا، لا يجب أن نقلق من جيليان على الإطلاق. لقد ذهبت إلى المكتبة. نحن الآن في حاجةٍ إلى تعويض السعرات الحراريّة، نحن في حاجةٍ إلى عصير الفاكهة، والجُبن المحمّص، والبيض، والحليب».

نزلت بالمصعد. نظر هو من النافذة في الدَّور السابع إلى شارع 76 ويست، وتمنّى رؤيتها، وهي خارجة. خابت توقّعاته؛ يبدو أنّها مشت على صفّ المنزل. تأمّل الصورتَيْن الفوتوغرافيّتَيْن في البرواز الفضّيّ على مكتبها. أظهرت الصورة الأولى أُسرةً بملبسٍ راقٍ، الرجُل ببزّةٍ داكنةٍ، والسيّدة بفستانٍ أبيضَ، في الأغلب والداها، الصبيّ أخوها بزيّ البحّارة، والفتاة هي نفسها، بفستانٍ أبيض. جلس في الصورة الأُخرى شابٌّ عند دفّة مركبٍ شراعيّ. ضحك وأظهر العديد من الأسنان البيضاء، ظهر الفارق بين بشرته بنيّة اللّون وبين الفانلة البيضاء التي كان يرتديها. لمْ يتعرّف هانزن هوراس في الحال؛ إذْ حضر إلى الحانة متلفّحاً ومبتلّاً من الثلوج؛ لينقذها من الفوضى الناتجة عن سقوط الثلوج، كما لمْ يبتسم وقتها هذه الابتسامة بالأسنان ناصعة البياض.

كانت الملابس والمركب الشراعيّ الكبير دليليْن على انتمائه إلى أُسرةٍ ميسورة الحال.

عادت بكيسٍ ورقيٍّ كبيرٍ إلى الغرفة. عانقها، جلبت معها رائحة الهواء المنعش، والشمس. انسدل شعرها وتخلّلته نسائم الهواء، وتبعثرت خصلاته. جلسا إلى المنضدة، وتناولا شرائح الخبز المقرمش والقهوة، وحينما مدّت يدها إليه من فوق المنضدة سحبها إليه، وضعت هي ما تبقّى من شريحة الخبز من دون اهتمامٍ على المنضدة.

اصطحبت كاثرين هانزن إلى القطار المتوجّه إلى رينجوود، ثمّ سألها أخيراً عن هوراس.

«هوراس؟ نعم». قالت بعد تردُّدٍ: «إنّهما يخطّطان لخطوبتهما خلال شهرين». قالتها بخجلٍ، وبعد مدّة تردُّدٍ أُخرى قالت: «إنّها يجب أن تخبر

هوراس بما حدث. كلمة الندم؟ لا، ولكنْ يحزنها مجرّد التفكير في هوراس، وتخشى الحوار القادم بالطّبع. لا تعلم ما هو قادم، كيف لها أن تعلم ذلك».

الحديث عن الفراق، كانت تلك هي لحظة الوداع، عناقٌ طويلٌ، طلب إليها خلاله ألّا تحضر في اليوم التالي إلى السفينة. يجب عليه هناك الانتباه إلى أمّه، وأخواته، وأبيه أيضاً، فضلاً عن أنّ لحظات الوداع، التي عاشها وهو صبيٌّ، في محطّات القطار، وعلى الأرصفة، كانت معقّدةً للغاية: ذلك الانتظار الذي يأخذ وقتاً طويلاً، الانتظار لوهلةٍ، ثمّ الرحيل نهائيّاً، ألّا يكون ذلك كلّه تعذيباً. لمْ تشاركه ذلك الرأي، فالإحساس بالذات والآخر يكون في أقوى صوره، خاصّةً أنّ جزءاً من ذاتك ينفصل عنك.

حضرت على الرّغم من ذلك. وقفت السفينة الناقلة للفِرَق العسكريّة في منطقة هدسون، بطلاءٍ رماديٍّ، ونتوءاتٍ رماديّةٍ داكنةٍ، طلاءٍ تمويهيٍّ بطابع الاتّجاه التّكعيبيّ. تزاحم الجنود فوق سطح السفينة. صعد أصحاب الرتب المعاونة للفِرَق العسكريّة بالجوّالات فوق أكتافهم ممرَّ الصعود. وقف الأقارب والأصدقاء على الرصيف. جاءت الصيحات من أعلى. قام بحّارةٌ بحمْل صندوق الضابط الخاصّ بهانزن إلى أعلى. كان أستاذه قد أهداه للرحلة كتابَيْن: كتاب إرنست بلوخ (آثار)، وكتاب إيتا هوفمان (قطع الّليل)، مع ثمانيةٍ وأربعين رسماً لألفريد كوبين.

وقف هانزن مع والديه، وأُخته، وأخيه الصغير، وذكَر الأبُ له أسماء الأقارب الذين يجب على هانزن زيارتهم بعد استسلام ألمانيا، وهو أمرٌ لا شكّ فيه، وَعَده هانزن بذلك. قالت الأم: «وعليك إرسال خطاب بمجرّد وصولك». وَعَدها بذلك أيضاً. أدرك وجودها في تلك الّلحظة.

كانت كاثرين تقف بالفستان المزهّر على الرصيف. ذهب إليها، بلْ ركض إليها، وقال: «كم جميلٌ أنّكِ حضرتِ!». حينما أراد عناقها، قالت بحدّةٍ: «لا تلمسني! أردتُ فقط وداعك، ولا تكتب». استدارت وانصرفت. كان الموقف مثل صِدامٍ جسديّ.

وقف حائراً في أمره، وفكّر في الذهاب وراءها، وسؤالها عن معنى هذا الرفض العنيف، خاصّةً أنّها جاءت لوداعه، ولكنّها كانت في هذه اللّحظة قد اختفت وسْط جموع المنتظرين والملوّحين. جاء أخوه الصغير إليه، وجذبه من يده إلى أبويه وأُخته. كانت إجاباته عن الأسئلة والنصائح إجاباتٍ مرتبكةً، إلى أنْ قال والده: «أنت الآن في مكانٍ بعيدٍ جدّاً، يجب عليك الرحيل الآن».

تلقّى -بمجرّد وصوله إلى أنتفيرب- أمْراً من المُشير بوجوب المُثول أمام أركان حرب الجيش الثاني عشر الأمريكيّ في فرانكفورت. أخذته طائرةٌ إلى فرانكفورت، إلى مطارٍ حربيٍّ لمْ يمضِ على الاستيلاء عليه سوى ستّة أيّام. كانت بضع طائراتٍ حربيّة متضرّرة تقف في ممرّ الإقلاع.

-2 نيسان/ إبريل 1945-

الرحلة إلى فرانكفورت، سَلِم محيط المدينة من المعارك. تخرج العربات محمّلةً بالحشيش والسماد، يجرُّها فرسٌ صغير، تُسَنُّ المناجل، تقطف السيّدات الأعشاب الضارّة، ويقف الأطفال على طرفَيّ الطريق. البيوت ذات الإطار الخشبيّ بألواحها الأفقيّة المائلة. أفكّر حتماً في قصّة هينزل وجريتل التي كانت تقرؤها لنا أمهاتنا. لا توجد جرّارات. لا يمكن تصديق أنّ هذا البلد قد صنع الصواريخ والطائرات النفّاثة!

-3 نيسان/ إبريل 1945-

في فرانكفورت مشهدٌ مختلفٌ؛ قاعاتُ مصانعَ مدمّرةٍ، داخلها قطعٌ معدنيّةٌ ضخمةٌ وغامضةٌ، مواسيرُ منفجرةٌ، صناديقُ إشارةٍ، قطاراتُ سكّة حديدٍ محترقةٍ، جسرٌ مُفجّرٌ، رحلةٌ متأرجحةٌ فوق جسرٍ عائمٍ، أطلالُ منازل، واجهاتٌ ظلّت قائمةً، وخلفها حُطامٌ من رُكامٍ وأحجارٍ. سقطت واجهة منزلٍ مكوّنٍ من أربعة أدوار، وانكشفت غرفه للناظرين، كأنّه منزلُ عرائس: هناك بيانو، ومنضدةٌ، ومقعد. غريبةٌ هذه المقشّة المستندة إلى المنضدة. انشغلت سيّدةٌ في الشقّة التي كانت في الدَّور الأعلى بنشْر الغسيل، سقطت أشعّة الشمس على الغرفة بأكملها: على الخزينة، والمقاعد، والمنضدة. مطبخ، وأوانٍ فوق الموقع. تكوّمت على طرف الطريق ألواحٌ خشبيّةٌ متفحّمةٌ، وحواملُ حديديّةٌ منحنيةٌ، وبقايا أسوارٍ، ورائحة الملاط الرطب منتشرة في المكان، وانتشرت الأعشاب الضارّة وسْط جبال حُطام المنازل التي دُمِّرت في العام الثاني للحرب. يبدو أنّ هذا الربيع المُشمس هو السبب في أنّ هذا البؤس لا يتّسم بالكآبة، بلْ بالسطوع، ولكنّ الرائحة متوحّشةٌ، خليطٌ من العَفن، والجير، والكائنات المتحلّلة. لا تزال الجُثث في الأقبية، وتحت الأنقاض.

عددٌ قليلٌ من البشر في الشارع؛ معظمهم من النساء، ورجُلان، أو ثلاثة في عُمرٍ متقدّمٍ، كان أحدهم يجرّ خلفه عربةً محمّلةً بالأخشاب.

أمَرَ ضابطٌ من فيلق مكافحة التجسُّس في معسكر الجيش الثاني عشر الأمريكيّ لهانزن بسيّارة جيب وسائق، كان الأمر المكلّف به هو الذهاب إلى قِسْم المُشاة الثاني والأربعين في اتّجاه فورتسبورج. المهمّة: التحقيق وتقويم العدوّ.

دخان، كانت هذه هي المدينة.

منازلُ من الطراز الرومانسيّ، والباروكيّ، والروكوكو، والكلاسيكيّ. كنائسُ، الكثير من الكنائس، الكاتدرائيّة، ومدفنُ فالتر فون دير فوجلفايدة، المقرّ البابويّ بالتصوير الجصّيّ في السقف في تيبولو، له شهرةٌ عالميّةٌ، ويعرض أجزاء العالم الأربعة؛ إنّه تحفةٌ فنيّة.

في 16 آذار/ مارس، في الساعة التاسعة وخمس وعشرين دقيقة، هاجمت مئة وعشرون من قاذفات القنابل التابعة للفرقة الخامسة للطيران الحربيّ الملكيّ المدينة، وهي من المجموعة ذاتها التي هاجمت مدينة دريسدن. أُلقيت في البداية قنابل متفجّرة، دمّرت أسطح المنازل، والأبواب، والنوافذ، وأحدثت تيّاراتٍ هوائيّةً قويّةً، تبع ذلك إلقاء ثلاثمئةٍ وخمسة عشر ألف قنبلةٍ حارقة. أجْرت مجموعةٌ من العلماء عمليّاتٍ حسابيّةً كي تحدّد السرعة المُثلى للحرْق.

خرج من المدينة دخانٌ غطّى الأراضي، والوديان، والسهول، والأنهار. لمْ تعُد المدينة بعدها مدينةً، كانت أشبه بمُفاعلٍ كبيرٍ، درجة الحرارة تخطّت الألف درجة. ما استلزم بناؤه زمناً امتدّ إلى عقودٍ وقرونٍ لمْ يستغرق انهياره سوى عشرين دقيقة. احترق البشر في السراديب. يقول ملاك التاريخ: لقد رأيتهم. بشرٌ ينفجرون مثل النقانق المحمّرة على درجة حرارةٍ عالية. خرجت أحشاؤهم. حمل رجالٌ ألمان –معظمهم كبار في السّنّ– الجُثثَ بعيداً. ما تبقّى من الّلحم المتفحّم ذهب بعد رشّه بالجير إلى المقبرة الجماعيّة. الشمس تتحوّل إلى السواد، القمر ينزف، والبشر ينتحبون.

عَبَرَ روّاد فريق المُشاة الثاني والأربعين نهر الماين يوم الثالث من نيسان/ إبريل. دارت المعارك في أطلال مدينة فورتسبورج. لمْ تُظهِر الفِرَق الألمانيّة هذه المقاومة العنيفة منذ عبور الراين. سقطت فورتسبورج يوم السادس من نيسان/ إبريل.

قال أحدٌ من رئاسة الفرقة: «إنّ الألمان الملتهمين للكرنب المخلّل كانوا مثل الكرنب بالفعل، في حالةٍ من الفوضى، مجموعة جنودٍ غير متجانسة، شباب هتلر وبعض الرجال المسنّين الذين حاربوا بإصرار». استشهد ابن مدير الدائرة، وهرب رئيس الإقليم الذي كان من المفترض أنْ يحقّق معه هانزن.

-8 نيسان/ إبريل-

فورتسبورج. الكنائس والأبراج تحوّلت إلى حُطامٍ، وحُطام المنازل طمر الشوارع والأزقّة.

عَبَرْنا جسراً عائماً ضيّقاً جدّاً، كانت القوّات المتقدّمة قد نصبته عبْر نهر الماين. رائحة الحريق تملأ المكان، نفّاذة. رائحة الجُثث تثير الاشمئزاز. جثّةٌ داخل حفرةٍ بالشارع، مغطّاة بمفرشٍ بلاستيكيٍّ، تشير مسامير حذائه العسكريّ إلى كونه جنديّاً ألمانيّاً، أُلقيت جثّته جانباً بين الحُطام وبين مخلفات الأسلحة. وعلى مسافةٍ منه ناقلة جُنْدٍ ألمانيّةٌ مدرّعةٌ متوقّفةٌ وممتلئةٌ بآثار طلقات الرصاص.

كان المقرّ في فيلّا هرب صاحبها بعائلته. لمْ يتركوا سوى الخادمة التي قَدِمت من بولندا، وكانت تعمل بالسُّخرة. قادتنا إلى مخزن النبيذ في القبْو،

انطلقت من مذياع الشعب موسيقا راقصة من منطقة بيرومونستر، رقصة الفوكستروت السويسريّة مع بعضٍ من موسيقا الألب الراقصة. رقصت الفتاة بشجاعةٍ، خلعت حذاءها الخشبيّ الضخم، وكانت جريئةً؛ لأنّ قدمها في أثناء الرقص كانت تصطدم دائماً بالأحذية. ظلّت في إحدى المرّات تقفز على ساقٍ واحدةٍ، ممسكةً بقدمها العارية، ولكنّها كانت تضحك.

كنّا نسمع في فترات الاستراحة صوت المدفعيّة القادم من بعيد.

دار حديثٌ عن تدمير المدينة. قال أحدهم: «إنّ الألمان، آكلي الكرنب، يستحقّون ما حدث لهم». جميعهم بالفعل؟ نعم، جميعهم. قلت: «ربّما بالفعل»، ولكنّني عارضت بعد ذلك؛ لأنّ كلمة الجميع هذه بدتْ لي غاية في السهولة؛ ماذا عن الأطفال، وعن أولئك الذين قاوموا النازيّين؟

قال عقيدٌ: «إنّ القصف بالقنابل كان بلا أيّة فائدةٍ عسكريّةٍ، وضرباً من الجنون». في حين أنّ رائداً عدَّ القصْف في منزلة المحاكمة العادلة.

كان البشر يدورون في الشوارع، يبحثون عن الأقارب والأصدقاء. كُلِّفتُ بالتحقيق مع قسّيسٍ نجا من الحريق في سرداب إحدى الكنائس، احترق شَعره وحاجباه، وكسَت الحروق يديه ووجهه. سألته، وهزّ رأسه، كانت هزّة رأسه آليّةً، بلا كلمةٍ واحدة.

كان الأستاذ محقّاً؛ الكتابة تسهّل عليَّ الأمور قليلاً، تدفعها إلى درجةٍ من الاحتمال.

أهدى البروفسور كوبيتش هانزن في لحظات الوداع دفترين بغلافٍ من الكتّان مربوطين بالخيط من أجل أن يدوّن شهادته. هناك كتابٌ أساسيٌّ للملائكة، يسجّل الأعمال المشينة كلّها، والأعمال الخيّرة كذلك. إنّها

البيروقراطيّة في السماء. اكتب ما تراه كلّه، اكتب باللّغة الألمانيّة، سوف تقترب بذلك من نفسك، ومن البلد، ولكن مع حفظ المسافة بينكما.

وصل إليه في الصباح أمرٌ بالذهاب إلى قائد الفِرقة المسلّحة الحادية عشرة، التي زحفت في اتّجاه الشمال الشرقي. قاد عربة الجيب جو الأسمر. كان يُسمع بين الحين والآخر صوت ضرب المدافع من بعيد. لمْ يبدُ الصوت خطيراً على الإطلاق، بلْ لطيفاً؛ بوم. كان من المفترض أن يتقدّم هانزن إلى الأمام، إلى مركز قيادة الرتبة العُليا. حفر الجنود الألمان خنادقَ على طرف الطريق، ولكنْ يبدو من مدافع البازوكا وأقنعة الغاز المتناثرة أنّهم تركوها من دون خَوض المعركة.

دخلا بالسيّارة منطقةً ذات تضاريسَ عالية، انتشرت زهور شجر الكرز البيضاء في كلّ مكانٍ، وامتد اللون الأصفر لزهرة الفورسيثيا. قال هانزن لسائقه: «يا له من مشهدٍ طبيعيٍّ خلّاب!».^(*) أجابه باقتضاب: «أجلْ، بدون الألمان، آكلي الكرنب». لمْ يريا أيّ شخصٍ داخل الحقول. عَبرا غابةً صغيرةً بأوراق شجرٍ كثيفة. امتدّ فوق سهلٍ أمامهم مبنى، مزرعة ضخمة. فجأةً، طلقات في الأمام من بندقيّةٍ آلية؛ لقد صاروا في مقدّمة منطقة الهجوم.

خرجت الطلقات أمامهما من داخل المزرعة، ومن خندقٍ ممتدٍّ إلى يسارهما.

قفز السائق وهانزن من السيّارة الجيب، جو إلى اليسار، وهانزن إلى

(*) وردت بعض الجمل باللغة الإنكليزية في النص الأصلي، وتمت ترجمتها إلى العربية وإضافة رمز ^ إلى جانبها. (م).

اليمين، إلى داخل الخندق كما تعلّما في فترة التدريب. كانت طلقات البندقيّة الآليّة الألمانيّة عنيفةً، ولكنْ على مستوى مرتفع، تساقطت من فوق رأس هانزن داخل فروع الأشجار. ركض وسط الطين، سقطت الخوذة عن رأسه. كان قبلها قد أخرج مسدّسه، وأطلق النار في اتّجاه المزرعة، مُدركاً أنّه لن يتمكّن من إصابة أحدٍ من هذه المسافة، ولكنّه فعل شيئاً على الأقل. سمع من الأمام أوامرَ بالألمانيّة، ومن الخلف أوامرَ بالإنجليزيّة. من يركضون هناك هُم أهله الذين يردّون بإطلاق النار. يوجّه قائدٌ الأوامر صارخاً من جهازٍ لاسلكيٍّ. بعدها بفترةٍ، صارت طلقات المدفعيّة في الخلف مسموعةً. رأى هانزن المزرعة الكبيرة، وهي تحترق، بدأ الحريق بألسنة لهبٍ بسيطةٍ في النوافذ، ثمّ اشتعل الحريق في سطح المبنى. تقدّمت دبّابتان خفيفتان من كتيبة الدبّابات 761، ومن خلفها المُشاة الباحثون عن حمايةٍ، ومعهم هانزن الذي لبس الخوذة مرّةً أُخرى.

رفع الألمان بعدها بوقتٍ قليلٍ الراية البيضاء.

يقول هانزن لاحقاً: إنّ كلمة الراية كانت تبدو بطوليّةً بعض الشيء؛ كان قميصاً داخليّاً خلعه أحد الألمان. كانت هناك جثّتان مُلقاتان إلى جانب المزرعة المشتعلة، ورجُلٌ عجوزٌ يضع على ذراعه رمز ميليشا (عاصفة الشعب)، وصبيٌّ، ربّما في السادسة عشرة من عمره، بالزيّ الموحَّد لشباب هتلر. كان الصبيُّ مستلقياً، ووجهه نحو الأسفل داخل العُشب، والرجُل العجوز منحنياً على جنب، كأنّه يعاني من آلامٍ في بطنه. ما فاجأ هانزن هو كمُّ الدّم الذي سال من جسد الرجُل التابع لمجموعة (عاصفة الشعب). يقول لاحقاً: إنّ أمراً كهذا يشغل البال؛ أنْ يسيل هذا الكمُّ من الدّماء من مثل هذا الرجُل العجوز. لم يكن قد جفَّ بعد، ولكنْ تحوّل إلى اللّون الأحمر المختلط باللّون البنّيّ.

وقف الألمان على جانبٍ واحدٍ رافعين أذْرعهم، مجموعة متنوّعة، بعضهم بالزيّ الموحَّد، وآخرون بالزيّ المدنيّ. أطفالٌ بالزيّ الموحَّد لشباب هتلر، بعضهم بالسراويل القصيرة. استلقى المصابون، وجلس البقيّة إلى جانبهم على الأرض، كان صوت بكاءٍ طفوليٍّ مسموعاً. ما أدهشه لاحقاً أنّه من فرط الفضول والإثارة لمْ يشعر للحظةٍ بالخوف. لمْ يفكّر فيما كان يمكن أن يصيبه. تطوّرت الأمور سريعاً، صحبتها مراقبة ذاتيّة متحفّظة، من أجل التطبيق الصحيح لما تعلّمه في هذا الموقف العصيب. انزعج من سقوط الخوذة الحديديّة عن رأسه حين رمى نفسه على الأرض. ظنّ في اللّحظة الأولى أنّ رصاصةً أوقعت الخوذة عن رأسه، ولكنّه اكتشف أنّه لمْ يشدّ الرباط على ذقنه بعناية. يا له من أمرٍ تافه!

صرخ شخصٌ، اسْتُدعي المسعفون، أُصيب عريفٌ في ساقه، وتعرّض شابٌّ من تكساس لإصابةٍ سطحيّةٍ في رأسه. اخترقت الرصاصة خوذته بالفعل. أدْرك هانزن ذلك أيضاً؛ أنّ الخوذات لا تتحمّل الطلقات المباشرة.

دخل هانزن في يوم 11 نيسان/ إبريل مع الفرقة إلى مدينة كوبورج. كانت مدينةً صغيرةً مستعدّةً للدفاع عن نفسها؛ إذْ أُقيمت المتاريس من حجر الأرصفة على الشوارع الرئيسة، وحُفرت الخنادق على شاطئ النهر، نهر الإيتس يمكن عُبوره على الأقدام بسهولة. قصفت المدافع والدبّابات المدينة. رفرف العلم الأبيض فوق القلعة، فكّر هانزن في أنّ هذه الكلمة غاية في العراقة. أطلقت الوحدات النازيّة الخاصّة (إس إس) الرصاص على العَلم، ولكنّه رُفع بعدها بوقتٍ قليلٍ مرّةً أُخرى. يزعم أنّ الدوقة السابقة قد رفعت العَلم شخصياً، كانت بالفعل سيّدةً قويّةً، قُدّمت بوصفها لاجئةً من شيليزيا. أزاحت دبّابةٌ عَربة نقل أثاثٍ محمّلةً بحجر الأرصفة،

كانت واقفةً في عرض الجسر على حافّة الطريق. سارت الدبّابات في الشارع التابع لكتيبة العاصفة (الإس أي) إلى مقرّ البلديّة. كان اسم الشارع سابقاً (مورين)، وقد رفرفت فيه الملاءات البيضاء والمفارش. وقفت هناك الدبّابات الخفيفة من كتيبة الدبابات 761، خرجت الطواقم من الكوات، وتعجّب أهل مدينة كوبورج من الجنود السُّود.

العُمدة جرايم، الذي رفع شعار الدفاع عن المدينة حتّى آخر رصاصةٍ، وآخر فردٍ، كان قد غادر قبلها بيومٍ، مصطحباً زوجَه، وأطفاله، ومربّيتهم. سلّم القائم بالأعمال المدينة إلى الأمريكان. تجاهل العريف الأمريكيُّ يَد القائم بالأعمال الممدودة للتحيّة، وأمَرَ بأنْ: يستمرّ العمل في مصلحة المياه، والكهرباء، والمستشفيات، ويجب تسليم الأسلحة. «ويرولف ويل بي شَت، أني وان هو ريسزت ويل بي شَت». قام هانزن بالترجمة: «سيُطلق النار على أيّ مُستذئبٍ(*)، سيُطلق النار على أيّ مُقاوم».

لمْ تكن لافتات تعلميات الجيش الأمريكيّ الذي فرض حظْراً للتّجوال قد عُلّقت بعْد. كان هناك تأثير لممنوعات السُّلطة الأُخرى؛ يُطلق النار على الّلصوص والمتهرّبين من الخدمة العسكريّة. كانت تلك الّلحظة عند التحوُّل من نظامٍ إلى آخر هي لحظة الفوضى.

اشتعلت النيران في طرف المدينة في مستودعٍ للتموين تابعٍ للقوّات المسلّحة النازيّة. انطلقت النيران من نوافذ الجناح الأيمن للمبنى.

(*) المستذئبون (Werwolf): فصيل ألماني أنشئ ضمن خطة نازية لبناء مقاومة تعمل خلف خطوط الحلفاء مع تقدمهم في ألمانيا. (م).

سواء عن عمْدٍ أم من فرْط التوتُّر والخوف، كان يبدو أنّ الجنود الألمان المغادرين لمْ يحرقوا المستودع على نحوٍ صحيح. حملت النساء -الكثير منهنّ- المعلّبات من المستودع، بعضهنّ وضعْن أكياس السُّكّر والدقيق في عربات أطفال. ما من أثرٍ لرجُلٍ واحدٍ، ولمْ تنزعج النساء على الإطلاق في أثناء السرقة من طلائع الجنود الأمريكان الذين مرّوا من أمامهنّ في ناقلات الجنود المُدرّعة. قالت سيّدةٌ لهانزن: «هذه مشتريات». حينما طالبها بالاطّلاع على الأغراض، فتحت له حقيبة الظَّهْر، وجد داخلها معلّباتٍ تضخَّم حجمُها من الحرارة، ولكنّها لمْ تزل مغلقةً: نقانق مصنوعة من الكبدة، وكبدة الإوزّ الفرنسيّة. من الواضح أنّها من التموين المخصّص للضبّاط. نظرت إلى هانزن في خوفٍ؛ هل سيأمر بالقبض عليها؟

أشار إليها بالانصراف.

عُلِّقت في المدينة في اليوم التالي اللّافتات التي طُبعت في الولايات المتّحدة. يعاقب التصوير الفوتوغرافيّ بالإعدام. تمتدّ ساعات الحظْر من السادسة مساءً حتّى السابعة صباحاً.

لا للتآخي.

يبدو أنّ ألمانيا قد انهزمت. إنّك ترى الأطلال، ترى الورود، وترى المناظر الطبيعيّة الخلّابة. لا تجعل الأمر يُحيّرك، أنت في بلد الأعداء. فلْتكن حذراً، لا تثق في أحد؛ كلّ ألمانيٍّ يمثّل خطورة. لا مجال للتآخي. يعني التآخي أن نكوّن صداقاتٍ، ولكنّ الألمان ليسوا أصدقاءنا. لا يمكن أن يأتوا الآن بأيادٍ ممتدّةٍ قائلين: نحن نشعر بالأسى. إنّهم لا يشعرون بالأسى لأنّهم أشعلوا الحرب؛ بلْ لأنّهم خسروها.

-كوبورج، 14 نيسان/ إبريل 1945-

المطلوب عدم التعامل بلُطفٍ مع الألمان الذين أقابلهم، بلْ تجاهلهم، وألّا أردّ تحيّتهم، ولكنْ ماذا يعني: الألمان؟ بكلّ تأكيدٍ فإنّك تشعر بالنفور من بعضهم، المتحمّسين. هناك آخرون يُظهِرون تحفُّظاً واضحاً، بلا أيّة عواطف، ويبدو أنّ ذلك يعبّر عن كرامة المهزومين، ولكنْ ماذا عن الصبيّ الذي أحضر لي عقب سيجارتي، معتقداً أنّني فقدتها؟

كنت بالفعل قد رميتها بمنتهى البساطة. ألا يمكن أنْ أبتسم، أو أقول: «شكراً»، أو على الأقل: «ثانكس»، ما دام استعمال لغة العدوّ غير مسموحٍ به؟

إضافةً إلى ذلك: أوصلتنا الدبّابتان التابعتان لكتيبة رقم 761 إلى منطقة ديترسدورف. كانت هذه الكتيبة هي الوحدة العسكريّة الوحيدة المكوّنة من السُّود في الجيش: «الفهود السوداء»، كتيبة على مستوى عالٍ، وبروحٍ قتاليّةٍ ممتازة. نحن نشهد على ذلك.

أمَر هانزن بتوزيع المنشورات المُعدّة باللّغة الألمانيّة مرّةً أُخرى: أوقات حظْر التجوُّل، التسليم الفوريّ للأسلحة جميعها، سواء المُطلقة للنار أم الأسلحة البيضاء. حينما قَدّم نفسه لأركان الحرب، أمَره رائدٌ من قيادة أركان الحرب بكتابة تقريرٍ مفصّلٍ عن المعركة التي دخلها بمَحْض المصادفة، لا يمكن وصْف الوضع وصفاً مختلفاً.

ويرولفز؟ إيف سو، شوت زيم.

يُقال: «إنّ معظمهم كانوا يرتدون زيّاً موحّداً، رجُلان منهم بزيّ موظّفي السكّة الحديديّة». بحسْب التعليمات، ارتدى كلٌّ من رجُلَي السكّة الحديديّة والمدنيّين الستّة شاراتٍ مكتوباً عليها: «مجموعة عاصفة الشعب، القوّات المسلّحة النازيّة». يبدو أنّ القائد، الذي بلّغ عن وقوع

الاشتباك، لمْ يرَ هذه الشارات، أو ربّما لمْ يتمكّن من قراءتها. كان الخطّ صغيراً. على أيّة حالٍ، لمْ يعتقد أنّ هؤلاء الرجال بزيّهم المدنيّ: السُّترات، والمعاطف، والبناطيل القصيرة، جنودٌ، ولا الصِّبْية أيضاً، هذه المجموعة الأخيرة منهم، في الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة من عمرهم، بزيّ مجموعة شباب هتلر، بعضهم ببناطيل قصيرة، وواحدٌ ببنطالٍ جلديّ.

ومع ذلك، يجب على هانزن التحقيق معهم. يجب معرفة دوافع هؤلاء الصِّبْية لإطلاق النار ببنادق قصيرةٍ تشيكيّةٍ، عوضاً عن البحث عن فتياتٍ، بلْ وتقبُّل القتْل. يجب معاقبتهم على ذلك.

حقّق هانزن مع حامل الراية الذي كان يُصدر الأوامر لهذه المجموعة المشتّتة. كان في العشرين من عمره، يده اليُسرى مربوطةٌ، ابتلّ اللّون الأبيض بالدّم الأحمر.

ظهرت -على زيّه الموحَّد أيضاً- آثارُ دمٍ جاف. لَحظ نظرة هانزن، فقال: «إنّ هذا مجرّد خدْشٍ لا يستحقّ الاهتمام». قال: «إنّه لا يُتقن اللّغة الإنجليزيّة؛ فهي مُحتقرةٌ بالنّسبة إلى الطبقات العليا؛ إذْ يتعلّمون في المدرسة اللّغات: اليونانيّة، واللّاتينيّة، والفرنسيّة فحسب». كان قد رفض قبْلها السيجارة التي عُرضت عليه، ورفض أيضاً الجلوس على المقعد. أشار إلى قانون الحرب الدوليّ. تحدّث عن تفاصيل الرُّتب والوحدات، إنّهم مجموعةٌ من ضبّاط الصفّ الذين أُخرِجوا من دون سابق إنذارٍ من معسكر التدريب إلى الجبهة. أكّد أنّ مشاركة الجميع كانت طواعية. زاد استعداده للحديث عندما سأله هانزن عن أسباب قيادته لهذه المعركة عديمة الجدوى، التي مات فيها اثنان من رجاله، فقال: «إنّه أمرٌ، إنّه الواجب»، ويجب على هانزن، بوصفه ضابطاً، أنْ يفهم ذلك.

لقد خسرتم الحرب، المعركة بلا جدوى، كذلك القتلى، والاستمرار في تدمير الجسور والمنازل.

قال الشابُّ بذقنٍ مرفوعةٍ: «لمْ نخسرْ شيئاً بعْد، أنتم تملكون المواد، والأسلحة، والذخيرة، والطائرات، ونحن نملك ما هو أقوى، مثل: الشجاعة والإخلاص»، ثمّ سأل هانزن عن توقيت هجرته، بعد عام 1933؟

قال هانزن: «إنّه هو من يطرح الأسئلة»، ثمّ طلب الحرس. ندم على عرْضه سيجارةً على الرجُل.

غيت أوت!

أدّى حامل الراية التحيّة العسكريّة، قام بحركةٍ حادّةٍ إلى الخلْف، ثم أُخرِج من الغرفة. فكّر هانزن في حجم هذا الجمود في التفكير. من حُسْن حظّه أنّه لمْ يضطرّ إلى هذا الخيار. لو أنّ والده لمْ يرحل إلى الولايات المتّحدة، لربّما كان الآن في الموقف نفسه. سأل نفسه إذا كان سيتصرّف بالأسلوب ذاته، وبالجمود الفكريّ نفسه. اعترف أنّه لا يملك إجابةً أكيدة عن ذلك.

حقّق بعد ذلك مع رقيبٍ أوّل، شرح له عن كلّ وسامٍ، وهو يُزيله عن زيّه الموحَّد: هذا وسام (إي كا واحد)، هناك الوسام الفضّيّ للجرحى، ووسام المُشاة، وهذا الوسام الفضّيّ للاشتباك عن قُرب. يجب رؤية بياض عين الخصْم ثلاث مرّات.

– لن تحتاج إليهم مرّةً أُخرى.

– أين سأضعهم؟

– ضعهم في جيب بنطالك، إنْ وجدت مكاناً يتّسع لهذه الشجاعة كلّها. هل كنت تنتمي إلى حزب؟

– لا.

– كيف لك أن تتحلّى بهذه الشجاعة كلّها؟

- إنّها الأوامر، ولكنّه الغضب العارم أيضاً، أحياناً هي عدم المبالاة، وأخيراً التدريب، والحذر، والدهاء. قال الرجُل: «ولكنْ أهمّ شيءٍ هو هذا»، ووضع إصبعه على أنفه: «حاسّة الشمّ، إنّها جزءٌ من الوظيفة، ويمكنك أن تصير خبيراً في هذا الشأن. تطلق النار، وتقول لنفسك إنّك حقّقت إصابةً جيّدةً، وتكون راضياً حينما لا تصيبك رصاصةٌ بفضل حاسّة شمّك الصائبة. المحارب في حاجةٍ إلى الدهاء والغريزة. بالطّبع، هناك من يصبح بطلاً بالمصادفة».

فكّر هانزن أنّ لهذا الرجُل مَلمحاً فلسفيّاً. كان في حياته المدنيّة مختصّاً في البصريّات. مرحلة التأهيل كانت طويلة. لماذا يستمرّ في المعركة؟

- هل أتخلّى عن الرفقاء؟ إنّهم يمرّون بالظروف العصيبة نفسها.

قال هانزن: «أنت على حق». ثمّ أمر بعودته إلى مُعسكر السجناء.

كانت تلك هي الحالات المثيرة للاهتمام؛ أمّا الباقي، فكان يكرّر: كنّا مُجبرين، لمْ يكن أمامنا خيارٌ آخر، ولكنْ في داخلنا رفضنا الأمر. الواجب، الواجب، الطاعة، الامتناع كان بمنزلة الحُكم بالإعدام. لقد حاربنا باحترام. بعد التحقيق مع أربعة عشر سجيناً لمْ يعُد يقوى على سماع الكلمتين: «داخليّاً»، و«باحترام». كان يسمع كلمة «باحترام» في المنزل، إنّها كلمةٌ جلبها من ألمانيا، وكان يستعملها كثيراً: أنْ تبقى مُحترماً في العالم الجديد أيضاً. كان جميعهم محترمين هنا، وغيرُ المُحترمين هُم النازيّون، هؤلاء الذين على القمّة. شعبٌ من المُحترمين، قلّةٌ من غير المُحترمين الذين وجدوا من يطيعهم، وينتخبهم أيضاً. كان هانزن يعرف أنّهم ليسوا الأغلبيّة، وهذا ما كان والده يؤكّده. لمْ تنتخب الأغلبيّة النازيّين، ولكنّها أطاعتهم، بحماسٍ وخضوع.

-15 نيسان/ إبريل-

المفردات المستعملة لوصْف الوضع: الذنْب: حُججٌ مطوّلة. الخوف: يوصف عادةً بلغةٍ بذيئةٍ، تذكّره بالطفولة، ومرحلة التبرُّز في السراويل.

-16 إبريل / نيسان-

بعد مرور خمسة أيّامٍ، افتُتِح في المدينة فندقٌ صغيرٌ باسْم «المرساة الذهبيّة». مبنى قديمٌ بإطارٍ خشبيٍّ، وواجهةٍ أشْبه بالطراز الكلاسيكيّ شُيّدت أمام المبنى. ما زالت المعركة على مدينة نورينبرج دائرة. تلتقي مجموعتنا هنا بالنساء. يجلسون في الحانة تحت قرون الحيوانات البرّيّة التي قُتلت في غابات تورينجين. يطلّ رأس خنزيرٍ برّيٍّ بأنيابٍ مخيفةٍ على مائدة السَّمَر. صورةٌ ملوّنةٌ معلّقةٌ على الحائط، عليها الكونت إرنست يرتدي الزيّ الموحّد، إلى جانبها صورةٌ مرسومةٌ تحمل رسالةً دعائيّةً: شجرة البلّوط الألمانيّة. على ورق الحائط المواجه مستطيلٌ فاتح اللّون، يتكرّر في أماكن أُخرى، حيث كانت توضع صور هتلر.

على الرّغم من تفعيل حظْر التآخي، كانت بعض الفتيات والسيّدات الفاسدات يصْرخن، ويشْربن، ويجْلسن بتنّوراتٍ منزلقةٍ على سيقان الجنود، لكنّ شباب تكساس وميشيغن كانوا سيجيبون عن ذلك بأنّ هذا ليس بمنزلة التآخي، أو ممارسة الجنس مع العدوّ؛ لأنّ هؤلاء النساء من أوكرانيا وبولندا، عاملات في السُّخرة، أُجبِرْن على العمل في المصانع هنا. لسْنَ تابعاتٍ للعدوّ، بلْ من الإماء العاملات في السُّخرة، وهُم يحتفلون معهنّ بالتحرير. كان السقف الخشبيّ يهتزّ، والمصابيح فيه تتأرجح.

أفكّر بين الحين والآخر في الكتابَيْن الموجودَيْن في حقيبتي. لا وقت

للكتب، هذا الاضطّراب، لا تترك الانطباعات المتعاقبة والمُلحّة مجالاً للرغبة في القراءة، أو فتح الكتب أيضاً.

فحص هانزن الصورة التي في البرواز، كانت للقيصر فيلهيلم الأوّل بزيّ عامل حديقةٍ يرتدي قبّعةً من القشّ، ويحمل جرّافةً في يده. خلْفه مشهدٌ طبيعيٌّ به هضاب، يقف أمامه وليُّ العهد، بذقنٍ طويلةٍ، ومِئزرٍ أزرقَ اللّون، وفي يَده مذراة، يقف تحتهما بسْمارك، مرتدياً زيّاً ريفيّاً، وحذاءً شتويّاً، ومعه غليون، ومستنداً إلى فَرسٍ يجرّ محراثاً، يتوسّط الصورة نصٌّ: واحدٌ يحمل جرّافةً، والآخر مذراة؛ أمّا الثّالث، فيقود المحراث؛ هكذا سنحصل على ما يكفينا.

توّجت اللّوحة مظلّةٌ بألوان الأبيض، والأسود، والأحمر، وعليها العبارة: «محميٌّ من يأتي إلى هنا، ويصرف ماله بحُبٍّ ورغبة، لا يسبّب الفضائح، ولا يبحث عن الصفقات، ويدفع ما عليه، هذا هو الاتفاق».

كُلِّف هانزن من مأمور المدينة بالعثور على شخصٍ ليس نازيّاً، مع الافتراض أنّ هذا الشخص موجودٌ بالفعل.

هناك بالفعل أشخاصٌ غير نازيّين، ليسوا كثيرين، لكنْ هناك بعضٌ منهم: مدرّسون أُقيلوا باكراً، وشيوعيّون دخلوا السجن، وديمقراطيّون اجتماعيّون، وأعضاء من حزب الوسط، ونقابيّون. قلّة، بعضهم -الشيوعيّين السابقين خاصّةً- أمضى الاثني عشر عاماً الماضية في السجون، أو المعتقلات. ذُكِر رجُلٌ لهانزن، كان نقابيّاً سابقاً. كان من الممكن أن يطلب هانزن من الشرطة العسكريّة إحضاره، ولكنْ بعد أن عَلِم أنّ مجموعة العاصفة قد قبضت عليه عام 1933 ودخل السجن لمدّة

عامين، قرّر أن يسافر إليه حتّى لا يفزعه، ولكنّ الفضول كان يدفعه أيضاً لمعرفة المكان الذي يسكنه شخصٌ مثله.

شارعٌ فرعيٌّ في منطقةٍ سكنيّةٍ، منازلُ مصفوفةٌ تتكوّن من دَورٍ واحد. رَكَن هانزن سيّارة الجيب أمام المنزل، وعَبَر طريقاً وُضعت أحجاره بعنايةٍ، وصل إلى باب المنزل، ورنّ الجرس، فتحت له شابّةٌ ترتدي سترةً تجمع بين اللّونين: الأزرق والأحمر، كانت زوجَ ابنه. أذِنت لهانزن بالدخول، وصَحِبته إلى مقعدٍ في حُجرة المعيشة الصغيرة. كانت الأريكة مغطّاةً بوسائد إضافيّة. وجد مجموعةً من التماثيل المصنوعة من البورسلين لراعيَتَيْ غنمٍ، انكسرت يَد إحداهما، وهي مرفوعةٌ باعتزاز. صورةٌ زيتيّةٌ تعرض بوّابةً ما من العصور الوسطى، ويبدو أنّها موجودةٌ في هذه المدينة. ظهر الرجُل بعد مدّةٍ، في أواخر الخمسين. مدّ هانزن يَده إليه، وعرض عليه سيجارةً، رفضها الرجُل قائلاً: «إنّه لا يدخّن».

سأل هانزن الرجُل، الذي كان يوماً مسؤولاً في الحزب، عن أسباب عدم القيام بإضرابٍ عامٍّ بعد تولّي الحُكم.

هل تحارب الديمقراطيّة بسبب نتائجها؟ لقد وقع الاختيار على ذلك الرجُل، ثمّ بدأت المحظورات، في البداية الشيوعيّون، ثمّ الديمقراطيّون الاجتماعيّون.

- ألم يتوجّب الاعتراض؟

قال الرجُل: «هذا ما فعلته». ثمّ أخرج طقم الأسنان من فمه، وأكمل: «وكانت هذه هي الإجابة».

- كيف قضيت السنوات التي تلت السجن؟

عملتُ حدّاداً في السكك الحديديّة التابعة للرّايخ الألمانيّ. قمتُ بعملي، ولكنْ بأقلّ شكلٍ ممكنٍ؛ حتّى لا تدور عَجَلة الانتصار. لمْ يكن ذلك بالكثير، بالأحرى كان أمراً بسيطاً للغاية، لكنّه على الأقلّ كان شيئاً، ولو أنّ بعضهم قام بهذا القليل ما كان ليحدث ما حدث.

أحضرت السيّدة القهوة، التي لمْ يكن طعمها يمتّ للقهوة بأيّة صِلة. قرّر هانزن أن يحضر معه قهوةً في المرّة القادمة.

أخيراً، سأله هانزن عن استعداده للعمل في إدارة المدينة مؤقّتاً.

قال الرجُل: «نعم، متى؟».

- حالاً.

ركب مع هانزن في السيّارة الجيب المحاطة بالأطفال، وذهبا إلى مبنى البلديّة. انتشرت في طريقهما إلى المكاتب رائحة البراز. مرَّ الاثنان من أمام مرحاضٍ خرج من تحت بابه سائلٌ بُنّيٌّ إلى الممرّ.

وقف في مبنى البلديّة نُوّاب مجلس المدينة بوجوهٍ شاحبةٍ، وأنوفٍ تدلّ على احتساء الخمر، وبزّاتٍ ببناطيل واسعةٍ، وياقاتٍ عريضةٍ تفسح مساحةً لتثبيت وسام شرف كلّ ألمانيٍّ، الصليب المعقوف بالدبّوس. لمْ يعُد أيّ شخصٍ من هؤلاء السادة الرجال يرتديه.

سأل مأمور المدينة الرجال عن انتمائهم إلى الحزب. بدأ واحدٌ منهم الحديث عن عدم وجود خيارٍ آخر، وغياب القناعة الداخليّة، وآخر-كان واضحاً من المساحة فاتحة اللّون تحت أنفه أنّه حلق شارب هتلر الأسْود الصغير منذ يومين- تحدّث عن الألمانيّ المحترم، بحسْب ترجمة هانزن، الذي أدّى واجبه والتزاماته. انتفض حينها مأمور المدينة قائلاً: أوت! وأشار إلى الباب. فهمها الرجال، لمْ يكن هانزن في حاجةٍ إلى ترجمة

هذه العبارة. فُوِّض الحدّاد بالقيام بأعمال عُمدة المدينة. كانت المراحيض جميعها في مبنى البلديّة مسدودةً، وكان البراز يملأ المكان. أوّل عملٍ قام به، وهو في المنصب، استعمال فرشاةٍ حديديّةٍ طويلةٍ لإخراج سدّادةٍ برائحةٍ كريهةٍ، تعلّقت بها شاراتٌ بالصليب المعقوف، وصورةٌ فوتوغرافيّةٌ لهتلر، وشهاداتٌ ممزّقةٌ، وأوسمةٌ من الحزب. أمَر مدير الإدارة، بالمساحة الفاتحة تحت أنفه، بجمْع البراز، والتخلُّص منه.

فكّر هانزن في زيارة العمّ الذي تعلّم والده منه فنّ التحنيط. حينما حصل في اليوم الثامن من احتلال المدينة على أمرٍ أعلى بالعودة إلى فرانكفورت، تحرّك لزيارة حيّ اليهود. اختفت الملاءات البيضاء التي كانت معلّقةً على المنازل. تلقّى المدير السابق لهذه الدائرة أمراً بأنْ يكنس الشارع بالزيّ البُنّيّ الموحَّد للحزب. جالت المدينة سيّارة جيب بكلبٍ دانماركيٍّ محنّطٍ على الرفراف، هذه المدينة ببوّابتها التي تعود إلى العصور الوسطى، والمغطّاة بالحجر. قال هانزن عن القلعة الضخمة المشيّدة فوق الجبل: إنّها بالفعل جذّابةٌ مثل اللّوحات التي كان يعرفها في منزله. إنّه عالمٌ مختلفٌ عن سانت لويس، أو حتّى نيويورك، مختلفٌ أيضاً عن مدينة طفولته، هامبورغ، بقطار الترام، وشقق الإيجار العالية، والمصانع، والميناء. كان يتذكّر صفّارات السفن المستمرّة في الخريف، وأجهزة دقّ المسامير التي لا تتوقّف في حوض بناء السفن.

عَبَر شارع (مورين) الذي كان قد تغيّر اسْمه قبل اثني عشر عاماً إلى شارع (مجموعة العاصفة)، ثمّ عاد إلى اسْمه القديم الآن، كأنّ شيئاً لمْ يكن. استمرّ في سَيره إلى حيّ (ماركت جاسة)، الذي عاد إلى اسْمه، حيّ اليهود مرّةً أُخرى، ولكنّ الاسم كُتب، وأُلصِقَ على اللّوحة في عُجالة.

سأل عن المُحنّط شرودر، وعرض عليه رجُلٌ، بزيٍّ تقليديٍّ، وأزرارٍ مصنوعةٍ من قرون أيِلٍ، وقبّعةٍ خضراء، أنْ يَصحبه، قاده إلى منزلٍ قديمٍ مكوّنٍ من دَوْرَيْن، متحدّثاً في أثناء ذلك إلى هانزن بلغةٍ إنجليزيّةٍ ضعيفةٍ، وغير مفهومة. في نافذة العرض انتصب ثعلبٌ محنّطٌ ومغبرٌّ، في فمه ريش، وأمامه إوزٌّ مقتول. كان المطلوب من خيال المشاهد أن يتصوّر الإوزّ كأنّه مقتولٌ في الحال. كان هذا العمل المغطّى بالأتربة هو إنجاز أستاذ أبيه العبقريّ. خطرت كلمة منْع التآخي على بال هانزن. لمْ يكن يعرف إذا كان العمّ الذي سيجتمع به من خلال الزيارة نازيّاً في السابق أم إنّه لا يزال كذلك. بعد لحظاتٍ من التردّد دخل المتجر، رأى في الظلّ بعض العصافير على الحائط، وكلبَ الباك، ولعبةً محنّطةً ترقص مع الرياح. يبدو أنّ أصحاب هذه الطلبات لمْ يجدوا الشبه المأمول بين المنتج وأحبّائهم، أو ربّما نسوهم في مرحلة التحوُّل من الموت إلى ما يشبه الموت.

ظهر رجُلٌ عجوزٌ بشعرٍ رماديٍّ وذقنٍ مدبّبةٍ، قال بوجهٍ متجهّمٍ: إنّه قد سلّم بندقيّته الخرطوش، كما أنّه لم ينتمِ إلى الحزب قطّ.

ذكر هانزن اسْمه، وقال: «إنّ والده قد تعلّم التحنيط هنا، ويعيش الآن في نيويورك، ويرسل إليه تحيّاته».

دمدم العجوز بشيءٍ ما، أشبه بـ«حسناً»، و«ماذا إذاً»، ولمْ يُبدِ أيّ ذهولٍ، أو فضولٍ، ناهيك عن أيّة سعادة. قال بعد وهلةٍ: «كان والدك تلميذاً جيّداً». نظر إلى هانزن، ثمّ إلى نافذة العرض، ثمّ انتفض قائلاً: «إنّ عليه العودة إلى العمل».

-24 نيسان/ إبريل-

القريب: عجوزٌ سيّئ المزاج، سلّم بندقيّته الخرطوش، ولمْ يكن نازيّاً،

هذا ما قاله على الأقلّ. الّلغة الألمانيّة مألوفةٌ، ولكنّ الّلهجة مختلفةٌ تماماً، وتوقظ ذكرياتٍ حول هامبورغ.

عُدتُ إلى المعسكر، مررتُ من أمام مجلس المدينة المبنيّ على طراز عصر النهضة، وعليه وجوه الملائكة رديئة الصنع، ومن أمام مبنى البلديّة المبنيّ على طراز عصر الباروك بنوافذه المزخرفة، وشرفاته المغلّفة، وتمثال القدّيس ماوريسيوس مع عصاه، وقد سُمّي رجُل النقانق المحمّرة؛ إذْ كان من الواجب، بحسب ما قيل لنا، أن تكون النقانق المحمّرة التي تُباع في السوق بطول العصا نفسه. مع هذا السلام كلّه، وهذا الهدوء، كيف يمكن أن تكون هذه المدينة الصغيرة هي أوّل مدينةٍ في ألمانيا تختار لنفسها عُمدةً نازيّاً في عام 1928؟ من أين أتت هذه الكراهية كلّها لليهود في منطقة فرنكن؟ هذه الكلمة: مدينة خالية من اليهود، مدينة بلا يهود. ماذا كان يدفع الناس لذلك؟ أليس كلّ شيءٍ هنا جميلاً ولطيفاً؟ أحجار المنازل الرمليّة بلونَيْها: الأصفر والبُنّي، والورود أمام النوافذ، والّلون الرماديّ للأسطح الحجريّة والمتحوّل إلى الأخضر الداكن. ربّما يكمن السبب في ذلك تحديداً، هذه الطيبة التي ينبع منها رضوخٌ أشبه بشيءٍ لم يتحقّق، ويبحث عن تحقيق العدالة الذاتيّة، يبحث عن الكراهية.

ما زال كشك بيع النقانق المحمّرة موجوداً، ولكنْ لا تُباع النقانق المحمّرة؛ لنقصٍ في الّلحوم.

في اليوم التالي، توجّه هانزن بالسيّارة الجيب إلى فرانكفورت، مرَّ مُجدّداً بالهضاب ذاتها، وقدّم نفسه بعد بحثٍ إلى الفرقة الطبيّة.

– أنا درست الأدب والتاريخ، وليس الطبّ.

قال الضابط: «لا يهمّ».

كان هانزن مقتنعاً أنّه أُدخِل بالخطأ إلى هذا القسم، ولكنّ الاعتراض سيكون بلا جدوى.

-27 نيسان/ إبريل-

قافلةٌ من المساجين الألمان في الشارع، إنّهم يسيرون إلى الشمال، متّجهين إلى معسكر. يظهرون بملابس ممزّقة. يصعب تخيُّل أنّ هذه الجموع بلونها الرماديّ كادت تحكم أوروبّا. على الجانب الآخر من الشارع، في اتّجاه الجنوب، أشخاصٌ بائسون بملابس ممزّقة، وعُمّالٌ بالسُّخرة من بولندا، وأوكرانيا، وروسيا، ومساجين من معسكرات الاعتقال، ثمّ مساجين حرب بلجيكيّون وفرنسيّون، بينهم لاجئون ألمان من الشرق، وسيّداتٌ، وأطفالٌ، ورجالٌ متقدّمون في العُمر، وعرباتٌ تجرّها الخيول، محمّلةٌ ببالات تبن، وحقائبُ، وأقفاصٌ، وعربات يَدٍ تجرّها النساء، وبقرةٌ مربوطةٌ بحبلٍ، وعربات أطفالٍ ممتلئةٌ عن آخرها. مجموعتان من البشر تسيران في اتّجاهين متعاكسين. لا يأخذ المقهورون بثأرهم، لا يتوعّدون، لا توجد صيحات، لا شيء، قافلة طويلة وصامتة، ورذاذ مطرٍ يزيد عليه هذه الكآبة، ولكنْ يُقال: إنّه بعيداً عن الشوارع قد وقعت السرقات والاغتصاب، وقتل المواطنون الألمان، وسُلبت مواشي الفلاحين، وذُبحت.

-فرانكفورت، 2 أيار/ مايو-

كان مقرُّنا في فيلّا استولي عليها، قبْل أربعة أسابيع كانت ملكاً لمدير شركة الكيميائيّات (إي جي فاربن). قصرٌ صغيرٌ مبنيٌّ من الطوب الرمليّ والحراريّ، بنوافذ تذكّرك بالنوافذ القوطيّة، والشرفات المغلقة، والقلاع

الصغيرة. قاعة استقبالٍ ضخمة، ومطلع درجٍ فاخر. في الدَّوْر الأوّل معرضٌ فنّيٌّ، وفي كلّ مكانٍ خشب البلّوط الثّقيل، ومتانة كئيبة، ونجف ثقيل، ومزهريّات صينيّة ثقيلة موضوعة على حاملات، وعلى الحيطان لوحاتٌ زيتيّةٌ؛ رجالٌ بذقونٍ، ووجوهٌ من مرحلة تأسيس الإمبراطوريّة، ولوحتان بمشاهد طبيعة، داخلها أبقار في المرعى وقت الغروب، حُفرت في العَمود عبارةٌ لاتينيّة: "FORTES FORTUNA ADIUVAT(*)".

حسناً.

اضطرّ هانزن إلى اقتسام الغرفة مع ملازمٍ أوّل يُدعى جورج، طويلٍ، ونحيفِ البنْيه، ووجهه منمّش، ويعمل طبيباً نفسيّاً، جاء من أوستين، وكان يشبه الأديب شيلر، ذلك بحسب رؤية هانزن الذي رأى صورته معلّقةً فوق مكتب البروفسور كوبيتش.

كانت لغرفة نوم المالك، الكبيرة والعالية، ثلاث نوافذ، تغطّيها ستائر من قماش القطيفة بلونٍ أخضرَ داكن. فراش الزوجيّة مفصولٌ على عَجَلٍ دوّارٍ، ومن الممكن سحْب كلّ ناحيةٍ على قضيب. هل كان كلٌّ من الزوجين يسْحب ناحيته وقت الشجار أم يضمّان الناحيتين وقْت الجماع فقط؟

قال جورج: «يجب أن أخبرك مقدّماً بأنّني أشْخر. صديقاتي كلّهنّ اشتكَيْن من هذا الأمر. أرجو أن تكون قادراً على تقبُّل الوضع». ^

يكبر جورج هانزن بثلاث سنوات فقط، وفي أثناء مذبحة معركة الأردين عالج الجرحى في مستشفى ميداني في بلجيكا. أخبره أنّ العسكريّين لا يأخذون الإصابات النفسيّة على مَحمل الجدّ، وأنّ هؤلاء الضبّاط الممارسين للوظيفة يملكون الحساسيّة العاطفيّة للخراتيت. لا

(*) القَدَر يُسْعد الشجعان.

يقبلون مصطلح الضرر النفسيّ. طلب إليه جنرالٌ أن يكشف على مجموعةٍ من السجناء الألمان الذين حاربوا في ستالينغراد، وعادوا مصابين على متن طائرةٍ، ثمّ عادوا إلى الخدمة بعد شفائهم على الفور. هذا البرود، والجوع، واليأس، والاستمرار على الرّغم من هذا كلّه، أمرٌ مدهشٌ يجب بحثه. اهتمّ الجنرال المسؤول عن تحفيزهم بهذا الشأن تحديداً. قال جنرالٌ ألمانيٌّ: «ما معنى الصدمة؟ فليحلموا بالصدمة، ولكنْ عليهم في اليوم التالي أداء واجبهم».

يظنّ هؤلاء العسكريّون أنّ تخطّي هذه الصدمات متعلّقٌ بالإرادة. لا يؤمنون بالاضطرابات النفسيّة العميقة. ما دامت الحرب مستمرّةً، فإنّ المرضى يقعون تحت شبهة الادّعاء. كانت هناك حالاتٌ غريبةٌ للإجهاد من المعارك، مثل: ذلك الجنديّ من المستوى (أي2)، الذي ادّعى أنّه يرى سواداً كلّما وقع انفجار. يستحيل أن يكون قادراً على أيّ ردّ فعلٍ في هذا الموقف، يستحيل أن يصوّب بندقيّته نحو الهدف، ناهيك عن إصابته. لمْ تصْحب رؤيته لهذا السواد أيّة رعشةٍ في يده.

أُرسِل جورج للبحث في بواطن هذا الهَلع، ولكنْ بعد هبوطه في أنتفيربن تلقّى أمراً بالتوجُّه إلى المستشفى الميدانيّ على الجبهة في أردين، نظراً لوجود عجْزٍ في الأطباء. قال عن نفسه: «إنّه لمْ يرَ الجُثث قبل ذلك إلّا في درس التشريح». طُلب إليه على نحوٍ مفاجئٍ إجراء عمليّاتٍ جراحيّة، أمور بسيطة في البداية، مثل: استخراج الشظايا، وخياطة الجروح. قال: «**أرجو ألّا يكرهني الناس حينما ينظرون في المرآة**».^

لمْ يكن مهتمّاً بالجراحة بحسْب قوله، كان يقوم في الجامعة بالتدريبات الإجباريّة فحسب: مراقبة المشهد، وإنهاء عمليّة خياطة الجرح فقط. كان مهتمّاً بالمخ، وفجأةً أمسك بالمشرط، وبدأ باستعماله على الأرجُل،

والصدور، والأذرُع؛ التعلُّم بالممارسة. يقول: «إنّ أحد الممرّضين من ذوي الخبرة قد قدّم إليه الدعم، ثمّ نُقل إلى هنا، ووضع المشرط جانباً، ثمّ جاءته حالاتٌ، مثل: ذلك العسكريّ الذي كان يرى سواداً كلّما أراد إطلاق النار». كان يبحث عن ساتر في خندقٍ في أثناء القصف، ثمّ رأى دبّابة شيرمان تصيبها بازوكة ألمانيّة. رفع رجُلٌ من الطاقم جسده خارج الكوة، وسقط على الأرض، والجزء الأسفل من جسده يحترق. ظلّ يدفع بالجزء الأعلى لجسده صارخاً، كأنّه يحاول القيام بتدريب الضغط، ثمّ مات. قال: **«أعلنت أنّه عاجزٌ عن القيام بالخدمة العسكريّة، وما زالت الحرب مستمرّةً في المحيط الهادي»**.[8]

كان جورج يشخر بالفعل بصوتٍ عالٍ، وباستمرار. لا يعرف هانزن إنْ كان هو نفسه يشخر أم لا. لم يحدّثه أحد زملائه من الثكنة العسكريّة في هذا الأمر، بخلاف أولئك، لمْ يكن لديه شهود؛ لأنّه لمْ يستطع التحدّث في هذا الأمر مع أيّ من الرفيقات الأربع اللّاتي دخلْن حياته لمدّةٍ قصيرةٍ، لأيّامٍ، أو بضعة أسابيع. كانت تنقصه الألفة الطويلة التي تسمح بطرح أسئلةٍ من هذا النوع، من دون إفساد حالة الرومانسيّة. حتّى الآن يفكّر في كاثرين كثيراً، في اللّيلة التي كان قُرب أنفاسها. تحدّثت ذات مرّةٍ، وهي نائمةٌ، قالت شيئاً غير مفهوم. كان هو مستيقظاً في الفراش، تملأه السعادة بكلّ حركةٍ منها، وبكلّ نفَسٍ تأخذه. أيقظها ذات مرّةٍ برفْقٍ، فردّت عليه بعد وهلةٍ بكلمة نعم. كان لا يزال يرى شريط الضوء الضيّق تحت باب الغرفة. لمْ ينطفئ الضوء إلّا في الصباح، وسمع هانزن رفيقة السكن، وهي تغلق باب الشقّة.

بدأ مرّتين بالكتابة إليها، ولكنّه جعّد الورقة، وألقى به في سلّة المهملات. لقد أمَرَته: «لا تكتب إليّ!».

سافر هانزن في يوم جمعةٍ مع الرائد ألكسندر في صالون سيّارة من نوعِ هورخ من فرانكفورت إلى ديلنبورج. قال ليو ألكسندر: «لقد عملت كلّ ما في وسعي لنحصل على سيّارةٍ مريحةٍ، وألّا نضطرّ إلى ركوب السيّارة الجيب في هذا الطقس السيّئ. ستكون رحلةً ريفيّةً لطيفةً، وإن كان السبب غير لطيف. سنهيّئ لأنفسنا جوّاً مريحاً. الرجُل الذي سنزوره هو نائب مدير معهد القيصر فيلهيلم لأبحاث المخّ، إنّه مكتشف متلازمة هالرفوردن–شباتس. شخصيّةٌ بارزةٌ في مجالها، ولكنّه يدعم وحدات (الإس الإس) منذ عام 1933، فضلاً عن مشاركته في حملة القتل الرحيم».
أكمل ألكسندر: «إنّهم مقتنعون بجرائمهم. أصْدر هتلر مرسوماً في العالم 1939 عن سُلطة التقدير للأطباء، وكان المقصود بالتقدير، بحسْب الوضع الحاليّ، قتل أكثر من مئة ألف شخصٍ في الفترة بين 1939 و 1941. كانت ستّ مؤسّساتٍ للموت تعمل على قدمٍ وساق. ما قيل إنّ المصابين بمرضٍ لا شفاء منه سيُقتلون قتلاً رحيماً، ولكنْ غُلّفت هذه الرحمة بسرّيّةٍ تامّة. لقد قُتلوا بالغازات السامّة، بأوّل أُكسيد الكربون. لقد رأيت موقع هادامار، هُدِم، لكنّ فريق العمل كان موجوداً: الممرضين، والأطبّاء، والممرّضات، وحقّقنا معهم. وصل المرضى في حافلاتٍ، وجُرِّدوا في غرفةٍ مخصّصةٍ لذلك من ملابسهم، تبع ذلك كشفٌ سطحيٌّ من جانب أحد الأطبّاء. سبب الوفاة: التهاب في الرئة، أو الزائدة. تُصوّر الضحيّة، ثمّ تدخل مع مرضى آخرين إلى غرفةٍ مبلّطةٍ، يُزعم أنّها غرفةٌ للاستحمام. البيروقراطيّة هنا أيضاً: يُسمح فقط لطبيب الموت أن يفتح حنفيّة الغاز. كان يراقب الموت

من نافذةٍ صغيرةٍ، من عشرين إلى ثلاثين دقيقة، ثمّ يفتح الباب، لتنقل الجُثث فوق عربةٍ إلى الفرن للحرْق. أطلق على رجال (الإس الإس) الذين يعملون هناك «الحارقون». بعد الوصول إلى عشرة آلاف حالة قتلٍ في عام 1940، حصل فريق العمل كاملاً: الموظّفون، والممرّضات، والممرّضون، والأطبّاء، والحارقون، على كأس جعّةٍ مجانيّ.

زادت الشكوى أيضاً؛ إذْ اشتكى السكّان في المنطقة من رائحة الحرق الكريهة، كما انتشرت الشائعات أيضاً، قيل: إنّهم يقتلون المسنّين أيضاً، كلّ من كان عديم الفائدة. على الأقلّ كانت هناك إضرابات، من جانب الكنيسة الكاثوليكيّة أيضاً. أوقف هتلر هذا الإجراء في شهر آب/ أغسطس لعام 1941. أتعرف لماذا؟».

– بسبب الحرب ضدّ الاتحاد السوفييتيّ؟

– نعم، كان مطلوباً ألّا تكون الأوضاع سيّئةً في الوطن. بدأ في الوقت ذاته إجراءٌ آخر أشْمل؛ طُلب إلى الحارقين ممارسة خبراتهم في الشرق.

بعد لحظات توقُّفٍ طويلةٍ، قال ألكسندر: «استمرّ العمل في المستشفيات والمصحّات على النّهج نفسه، على مسؤوليّتهم الخاصّة، ومن دون مرسومٍ من هتلر، من خلال الحرمان من الطعام، وإعطاء اللومينال والفيرونال، أو الحقن بالمورفيوم مع السكوبومالين. حينما حضرنا إلى هادامار، كان قد قُتل في اليوم السابق شابٌّ وفتاةٌ بمادّة اللومينال، كانا مصابَيْن بمتلازمة داون. لمْ يهرب أحدٌ من طاقم العمل. قال ممرّضٌ: «لماذا نهرب؟ نحن لمْ نسرق شيئاً، بينما تحدّث المدير، الدكتور فالمان، عن ضرورة إيجاد أماكن للجرحى وضحايا الانفجارات».

جلس ألكسندر وهانزن بعدها جنباً إلى جنبٍ في صمتٍ تامّ، نظر كلٌّ منهما إلى خارج النافذة، إلى طبيعةٍ تغلّفها أجواء بدايات الصيف، ذبول

شجر الفاكهة، لكنّ أوراق الشجر كان لونها أخضر فاتحاً. أعلى المشهد مرّت السُّحُب ببياضها الناصع.

نُقل معهد الدراسات الدماغيّة من برلين إلى مدينةٍ صغيرةٍ في ولاية هيسن اسمها ديلنبورج، إلى داخل مجمعٍ للثكنات العسكريّة.

اتّسم المكان بالبساطة، ولكنْ في المقابل كان الروس بعيدين، والبحث العلمي مستمرّ، بما في ذلك الأبحاث في علم الأنساب. كانت متميّزةً؛ لأنّها كانت متداولةً داخل دائرةٍ من الأفراد الذين يتحدّثون عن أنفسهم كثيراً، هذا بحسْب قول البروفسور هالرفوردن، رجُل يقِظ، في الستّين من عُمره، بشَعرٍ رماديٍّ قصيرٍ، وبعيونٍ زرقاء، يرتدي نظّارةً بدون ذراع، يخلعها مراراً في أثناء الحديث، ليغمز بعينيه، ثمّ يضعها مرّةً أُخرى. هل هذه عادة أم إنّه كان متوتّراً بسبب الحديث؟ أحضرت السكرتيرة القهوة. قال: «عِلْم الأنساب هذا هراء، كنّا نبحث وفق معايير علميّةٍ صارمة». عرض هالرفوردن على ألكسندر سيجاراً، وبعد تردّدٍ بسيطٍ على هانزن أيضاً، فرفض الاثنان. أخذ هالرفوردن واحداً لنفسه، أشعل السيجار بعود كبريت طويل على مَهلٍ، مؤكّداً أنّها من قبْل قيام الحرب، وليست مجرّد تبغٍ رخيص. نعم، كان يعرف عن مرسوم القتل الرحيم، قال: «ولكنْ لمْ تكن لي أيّة صِلةٍ بعمليّة القتل الرحيم نفسها». قال، وهو يدخّن: «إنّه بوصفه مشرّحاً للدماغ، فهو لا يتواصل مع المرضى تواصلاً مباشراً». يعتقد أنّه، على المستوى الأخلاقيّ؛ ليس هناك أسوأ من المشرّح الذي يعتني بجثمان المحكوم عليه بالموت؛ لأنّه يحتاج إلى مادّة بحثٍ في حالةٍ طازجة.

قرأ ألكسندر له من التقرير: «عمل البروفسور هالرفوردن سابقاً نائباً لمدير مؤسّسة جوردن/ براندنبورج، مع بداية العمل في عام 1940 كانت

هذه المؤسّسة تقع مباشرة إلى جانب «مؤسّسةِ للتصفية»؛ أي: غرفة للغاز تستعمل أوّل أكسيد الكربون، في السجن القديم لبراندنبورج».

قال هالرفوردن: «هذا صحيح، هنا تمكّنت شخصياً في أثناء هذا الصيف من تشريح خمسمئة دماغ لمضطّربين عقليّاً، وإعدادها للكشف».

- إذن، كنت على عِلمٍ بقتل المرضى؟

- سمعت أنّهم يقومون بذلك، فذهبت إليهم، وقلت لهم: «انظروا يا شباب، إذا كنتم ستقتلون هؤلاء البشر كلّهم، استخرجوا الأدمغة على الأقلّ؛ لنستفيد منها». سألوني: «ما العدد الذي تستطيع تشريحه؟». قلت لهم: «أيّ عدد، كلّما زاد كان ذلك أفضل». أعطيتهم مواد التثبيت، والأوعية الزجاجيّة، والعلب، وعلّمتهم كيفيّة استخراج الأدمغة وتثبيتها، ثمّ جاؤوا، وأحضروها مثل سيّارات توريد محالّ الأثاث.

- مثل سيّارات توريد محالّ الأثاث؟

- نعم.

جلس هانزن في طريق العودة إلى فرانكفورت في الأمام. طلب ذلك؛ لأنّه كان منذ طفولته يصاب بالإعياء عندما يجلس في الخلف. جلس ألكسندر في صالون السيّارة، ودوَّن بعض الملحوظات. قال مرّةً: «من وجهة نظره، يرى هالرفوردن المسألة في منتهى المنطقيّة؛ سيُقتل هؤلاء البشر على أيّ حال، فلِمَ لا أستغلّ الفرصة، وأدرس أدمغتهم، ماذا يزعجك في هذا المنطق؟».

فكّر هانزن، وقال: «اقتناعه بأنّه كلّما زاد العدد كان ذلك أفضل. كان يدخّن السيجار، وهو يقول ذلك».

قال ألكسندر: «أجلْ، بالضّبط».

-بدون تاريخ-

اسم مديري الجديد ليو ألكسندر، إنّه يتحدّث اللّغة الألمانيّة بلهجةٍ نمساويّة. كان يجري الأبحاث، بوصفه معيداً، حتّى عام 1933 في قِسْم علم النفس بالمستشفى الجامعي في فرانكفورت، ذهب بعد ذلك إلى أمريكا، وصار أستاذاً في كلّيّة الطبّ في جامعتَيْ: هارفارد وديوك. دخل في عام 1942 القسْم الطبّيّ للجيش، ومنذ ذلك الحين يؤدّي خدمته برُتبة رائد. يرتدي زيّاً موحّداً أنيقاً مُفَصّلاً، وهو أمرٌ مسموحٌ به للجنرالات فقط، من القلّة المدخّنة. المهمّة التي كُلّف بها ألكسندر هي التحقيق مع الأطبّاء الألمان المسجونين الذين كانوا مسؤولين عن عمليّات القتل الرحيم، وإجراء التجارب على البشر، كان المطلوب تقديمهم إلى المحاكمة.

المهمّة

تلقّى هانزن أمْراً بالتوجُّه إلى مكتب الخدمة في قسْم الحرب النفسيّة. أمَره الرائد إنْجل بالانتقال إلى ميونخ. كان الرائد قد درس الفلسفة في فرايبورغ لدى هوسرل، ثمّ حصل على منحةٍ، وتوجّه إلى أمريكا. ذلك المتعاطف مع الأمميّة البروليتاريّة قرّر البقاء في الولايات المتّحدة بعد تولّي النازيّين على الحُكم، ودَرَّس الكلاسيكيّات في هارفارد.

- هل سمعت عن تحسين النسل؟

- نعم، سمعت.

- سوف تشغل نفسك بهذا الموضوع في الفترة القادمة.

بدا الأمر لهانزن كأنّ القيادات العليا لا تعرف كيف توظّفه، كأنّهم يحرّكونه يميناً ويساراً. قال الرائد إنجل لهانزن، من دون أن يطلب الأخير استفساراً: «نحن مجموعة القلعة نراقبك. ألست عالماً في الأدب؟ لقد رأيت الحقيقة المُرَّة. كانت هذه البداية. الآن ستنتقل إلى الجانب الفكريّ. لقد وقع الاختيار عليك. أستطيع التصريح بذلك بنبْرةٍ احتفاليّة». قال إنجل باللّغة الألمانيّة، وبلهجةٍ برلينيّةٍ: «عُذراً؛ لأنّ اسمي لا ينتهي بحرف السين. أتفهمني؟ حسناً، المطلوب أن تذهب إلى ميونخ. هذا هو العنوان. كان

الرجُل مرشّحاً لجائزة نوبل عام 1936. إنّه متخصّصٌ في تحسين النسل، ومؤسّسٌ لمبدأ الطهارة العِرقيّة».

- لا داعي للتحقيق مع العائلة، هذه طريقةٌ ميؤوسٌ منها. كانوا جميعاً أرباب عائلاتٍ بقلوبٍ طيّبةٍ، يخبّئون البَيض في عيد الفصْح، وتغمر الدموع عيونهم في أعياد الميلاد المجيد حين يحضر الأطفال وقت الهدايا، ويُلقون قصائدهم. وجدت أجهزتنا رجُلاً ذهب مع هذا الطبيب إلى أمريكا. لقد توفّي الطبيب، لكنّ رفيقه ما زال على قيد الحياة؛ لقد قاموا بالبحث في القوائم. تهتمّ الأجهزة بطبيعة النشاط الذي مارساه هناك. التنظيمات السرّيّة التي أسّسها هناك: الباسيفيك، والقوس الشمالي، وأسماء أُخرى، هل ما زالت موجودة؟ من أعضاؤها؟ ما أهدافهم؟ هذه هي اهتمامات الجهاز. نحن أكثر دقّةً. اهتمامنا بنشأة نظريّة الطهارة العِرقيّة. أجرى الرجُل على مدار سنوات سلسلةً من التجارب في مجال الوراثة. الدكتور ألفريد بلوتز. هل سمعت الاسم من قبل؟

- لا يا سيّدي.

- هذا أفضل. ابحث عن تلميذه، وحقّق معه. لديك التفويض؛ صادر الأرشيف، وصادر القلعة.

- أصادر؟

- نعم، أنت في حاجةٍ إلى لباسك الرسميّ فقط، ورجُلَيْن، أو ثلاثة.

تلقّى جورج أيضاً أمْراً بالتوجّه إلى فريقٍ في ميونخ، يتابع الأبحاث الطبيّة التي أُجريت على المسجونين في معسكرات الاعتقال. نقلت سيّارة أشخاص تابعة للجيش هانزن وجورج من فرانكفورت إلى ميونخ. خصّصت لهما غرفة في نويهاوزن داخل فندقٍ مُصادَر.

سأل هانزن: «غرفة واحدة فقط؟».^

- أنت لست هنا في عطلة.^

تخوّف هانزن من أنّه لن يتخلّص من هذا الرجُل القادم من تكساس وشخيره. كان الفندق يقع في شارع نيمفنبورجر. لمْ تتعرّض سوى مبانٍ قليلة للدّمار، منزل دمّرته قذيفة هنا وهناك، رائحة الملاط تفوح من الحُطام، بعضها قد كساها العشب.

-10 أيار/ مايو-

وقع الاستسلام منذ يومين. كتب أحد الأشخاص كلمة سلام بلونٍ أبيض على أحد أسوار المنازل. سال الدهان على الحائط، كأنّ الكلمة تبكي. في الشوارع: سيّارات الجيب، وعربات النقل التابعة للجيش الأمريكيّ. قلّما تجد سيّارةً ألمانيّةً، بلْ عربات تجرّها الخيول. نظراً للعجز الحاليّ، يعود البشر إلى تقنيّاتٍ ظنّوا أنّ الزمن قد عفا عنها. تحمل عربات النقل أفراناً كبيرةً فوق جزء التحميل، تُستعمل كُتل الخشب للتدفئة. بعض المشاهد المضحكة أيضاً: سيّارةٌ بثلاث عَجلاتٍ يجرّها حصان، أُزيل الزجاج الأمامي؛ ليتمكّن السائق من قيادة فرسه الهزيل باللّجام، ومن دفْعه إلى الأمام، وسيّدةٌ بفستانٍ أزرقَ داكن، وقبّعةٌ عريضةٌ على رأسها، تدفع عربة أطفالٍ محمّلةً بكومةٍ من العشب. هل تربّي هذه السيّدة بأزيائها المتمدّنة الأرانب في منزلها؟

نرى في أثناء مرورنا بالسيّارة في شرفة إحدى العمارات متعدّدة الأدوار معزةً يحلبها رجُل. النساء أكثر من الرجال في الشوارع، يتسكّعن كأنّهنّ لا يعرفْن هدفاً لسيرهنّ. تسير النساء أسرع من الرجال، حتّى المسنّات منهنّ.

رفع شابٌّ أكمام بزّته المتهالكة، وثبّتها بدبّوسٍ، كان يسير متحدثاً إلى

رجُلٍ آخر إلى جانبه يجلس في سيّارةٍ صغيرةٍ بثلاث عَجلات، يحرّكها إلى الأمام بمقابض مثبّتة على جانبيّ العَربة.

في قلب المدينة على اليمين واليسار بقايا الواجهات، بخلاف ذلك حُطام وأطلال على مرمى البصر. أتساءل ما الأفضل: أن يُعاد البناء أم أن يخطّط قلب المدينة من جديد، مع الأخذ في الاعتبار أنّ الدمار في ميونخ ليس بحجم الدمار الذي لَحق بمدينة فورتسبورج.

تنظر النساء إلينا، الشابّات منهنّ، نظرةً عابرةً، نظرة فضولٍ واحتقار. الرجال، بدون حلاقةٍ في أغلب الأحوال، تغفلنا نظراتهم. النظرات العدائيّة نادرةٌ، تكون عادةً من جنودٍ خرجوا في الحال من السجن. كُتب على ظهرهم باللّون الأبيض «سجين حرب». تحوّل لون الزيّ الموحَّد الرماديّ إلى لونٍ أخضرَ مبقّع.

-14 أيار/ مايو-

ألقيت أوّل أمس عقب سيجارةٍ في الشارع، ورأيت رجُلاً بساقٍ مبتورةٍ ينحني لالتقاطه. نزل الرجُل، وهو مستندٌ إلى العكّازين إلى وضع القرفصاء، على ساقٍ واحدةٍ، وضع أحد العكّازين على الأرض، والتقط العقب.

شعرت بالعار؛ لأنّني رميت نصف السيجارة المدخّنة من دون اهتمام، كما شعرت بالخجل من أجل رجُلٍ، شابٌّ، بلا قُدرةٍ على الثبات، أو السلامة. فكّرت في إهدائه علبة السجائر المفتوحة، لكنْ أليست هذه إهانة أكبر؟ كنت قد توقّفت بالفعل، تردّدت، ثمّ رأيت أنّ مبتور الساق، وهو يدخّن سيجارتي التي تخلّصت منها، قد مشى مبتعداً، وهو يُمرجح ساقه بين العكّازين، وتحيط به سحابةٌ من الدخان.

هذا ما حدث أيضاً: كنت أراقب أحد السائقين التابعين لنا، بينما ينتظر في السيّارة أمام وحدة إصدار الأوامر، أهدى صبيّاً يراقب السيارة علبة علكة.

لا يمكن وصف الموقف إلّا كذلك: بتعبيرات وجْهٍ محتقرةٍ، ألقى الصبيُّ العلكة على الأرض.

-17 أيار/ مايو-

ذهبت أمْس مع جورج إلى معسكرٍ فرعيٍّ في إنجولشتات.

حصل السجناء الآن على الملابس، ولكنّني ما زلت أعرفهم، رؤوسهم بلا شعر، ومظهرهم هزيل. تحدّثت إلى رجُلٍ قادمٍ من تورن، دُفِع به من معسكرٍ في الشرق إلى معسكرٍ في الغرب، حتّى مع هذا الضعف الجثمانيّ، وهذا البؤس، كان هناك سجناء يسندون، بلْ يحملون سجناء آخرين؛ ليحموهم من الموت. من بقي راقداً على الأرض، يُطلق عليه النار.

قال الرجُل الذي كان بلجيكيّاً: «إنّ وحدة العاصفة لمْ تعرف كيف تتصرّف مع السجناء». مسيرة الموت قتلت أُسرته بالكامل. قال: «صاروا رماداً».

لقد نجا لأنّه يعمل صيدليّاً، ووظّفوه ممرّضاً في المعسكر.

على الرغم من تحرير المعسكر منذ خمسة أسابيع، مازالت تفوح رائحةٌ كريهةٌ من الثكنات العسكريّة، رائحة معقّم وكلور، ورائحة عفنٍ، وعرقٍ، وبراز مع غرغرينا أيضاً.

صارت الصدمة أكبر بعد انتهاء المعارك، وسوف يفوق حجمها التوقّعات كلّها حينما يختفي الجُناة تماماً. ليسوا وحوشاً، بلْ بشراً طبيعيّين، وطالما أنّهم على قيد الحياة، فسيقدّمون الكثير من المسوّغات

الصغيرة لهذا القتل الإلزاميّ عن طيب خاطر، و«الطبيعيّته». ربّما صاحَبهم في البداية تأنيبٌ للضمير، سيقولون: إنّه لمْ يكن أمراً صائباً، ولكنّه عملٌ يصير مع تكراره بدهيّاً. بالطبع، كان هناك منهم من يتلذّذون ويسعدون بالتعذيب والقهر، ويشعرون بالعزّة، وهُم يهينون الآخرين، ويتمتّعون بالسُّلطة المُطلقة فوق الحياة والموت. إنّها اللّذّة، اللّذّة العميقة للسُّلطة التي تنتقم لفنائها بقتل الآخرين.

-18 أيار/ مايو-

في حين أنّه كانت لديّ بعض الشكوك بين الحين والآخر في أسباب دخولنا الحرب (كان أبي ضدّ الحرب تماماً)، زالت شكوكي كلّها بعد الذي رأيته الآن.

-20 أيار/ مايو-

حظر التآخي. عُلّقت الصور التي تعرض مشاهد من معسكرات الاعتقال على الجدران والأعمدة: هذا ذنبكم. من هنا جاء منْع التآخي، مع العلم أنّ كلمة «تآخي» ليست في موضعها هنا. تمرّ الفتيات، توحي ضحكاتهنّ بدعوةٍ، هناك النظرات والصيحات. لقد تجاوز الضبّاط الأمريكان قانون منْع التآخي في الشوارع الجانبيّة، وتبادل للأحاديث والمزاح، وعلبة سجائر كاميل مقابل مضاجعةٍ سريعة.

أخبرني ضابط اتّصالٍ إنجليزيّ أنّه يجب على الألمان في منطقتهم المحتلّة، حين يقابلون الضبّاط الإنجليز، التوجُّه إلى طرف الطريق، ورفع قبّعاتهم. يظنّون أنّهم بالأساليب المتّبعة في الهند وإفريقيا، سيمرّغون أنوف هؤلاء الأسياد، الذين كانوا سابقاً أسمى الأعراق.

منزل على البحيرة

ذهب هانزن إلى هيرشينغ، قال عنها الرائد إنجل: إنّها منطقةٌ صغيرةٌ ولطيفةٌ، وإنّك لنْ تجد أيّ نازيٍّ فيها عن قناعة، وإنْ وجدته فلْتحافظ عليه؛ لأنّه الشاهد الحقيقيّ على ما وجدناه هنا؛ أمّا البقيّة، فكلّهم ضحايا، ضحايا الزمن، ضحايا وحدة العاصفة (إس إس)، ضحايا هتلر، وهكذا، وهكذا. شعب من الضحايا. ثمّة تنوّعٌ في أشكال الضحيّة؛ حين تأتي جديداً يكون ذلك مثيراً للاهتمام، ولكنّك تسأم هذه الحالة بعد مرور أسابيع قليلة.

على مكانٍ مرتفعٍ من هذه المنطقة كانت مدرسة الشؤون الماليّة للرايخ، مُلحق بها برج، ومبنيّة من أحجارٍ طبيعيّةٍ ضخمة. قيمة الأطلال كانت قد وُضعت في الحسبان عند التخطيط. هذا ما تمّ مع الكثير من المباني الحكوميّة في الرايخ الذي بلغ عمره اثني عشر عاماً، وأراد أن يبقى إلى ألف عام. لم تقع أيّة خسائر في هذا المبنى، وأُقيم داخله مستشفى ميدانيّ للطوارئ. وصلت سيّارة الجيب التي تقلّ هانزن ويقودها رقيب، وتبعتها سيّارةٌ أُخرى بثلاثة ضبّاطٍ من الشرطة.

ساروا على جانب البحيرة، أُسدل الغطاء؛ إذْ كان الجوّ دافئاً، والشمس ساطعةً، وجبال الألب تطلّ من بعيد. مرّوا على غابةٍ مظلمةٍ من أشجار

التنوب، ثمّ أخذوا المطلع إلى القصر، الذي عاش وأجرى فيه الطبيب وعالِم تحسين النسْل بحوثه.

وقع القصر بلونه الرماديّ على منحدرٍ، ويبدو أنّ اختيار هذا اللّون كان بقصد التمويه. كان على شكل مكعّبٍ بثلاثة أدوارٍ، بلا أبراجٍ، بخلاف بُرجٍ صغيرٍ بقبّةٍ على الجانب. يبدو أنّها كنيسةٌ بُنيت خصوصاً، أم بُنِيَ القصر إلى جانب الكنيسة؟ المدخل ليس فخماً، والبوّابة بسيطة. بقدْر ما كان القصر مخيّباً للظنون، كانت الطبيعة والأشجار المعمّرة باهرةً، وكذلك الحدائق، وأشجار الفاكهة، والحظائر، والمباني الإداريّة، وقصرٌ آخر إلى جانب القصر الأوّل، مدهونٌ أيضاً باللّون الرماديّ البسيط، ومرعى مُنحدرٌ يصل إلى البحيرة، ورؤيةٌ مفتوحةٌ على الشاطئ المواجه. أوضح الرقيب، الذي عسْكر في المكان منذ ثلاثة أسابيع مضتْ، أنّ هذه التلال هي مقدّمةٌ لجبال الألْب، وأنّ ما يرونه في الأفق بمنتهى الوضوح في هذا اليوم المشمس والصافي هي جبال الألْب، وقمّة (تسوغ شبيتسه). تمكّن هانزن من رؤية شيءٍ أبيضَ متوهّجٍ عبْر المنظار؛ إنّها القِمم الجليديّة.

دخل هانزن المكان بأسلوبٍ عسكريّ. سبقته في المقدّمة السيّارة الجيب بعجلاتها البيضاء، وداخلها ضبّاط الجيش الثلاثة، ثمّ تبعتها سيّارته. توقّفوا أمام القصر. خرج الضبّاط من السيّارة، هانزن أيضاً وفي يَده القرار وترجمته الألمانيّة. خرجت حينها مجموعةٌ من النساء من باب القصر، خمس، أو ستّ، وقد تشبّثت كلّ واحدةٍ بالأُخرى. قادتهنّ واحدةٌ بشعرٍ رماديٍّ، واجهت هانزن بحماسٍ وانفعالٍ، وصدمته السيّدة العجوز بعبارةٍ بلغةٍ إسبانيّةٍ، قبْل أن يتمكّن من إخبارها بمصادرة القصر. أعادت العبارة مرّتين، أو ثلاث، وأخبرته سائر النساء، اثنتان منهنّ متقدّمتان في العمر، وثلاثٌ في عُمر الشباب؛ بنظراتٍ متشكّكةٍ أنّ القصر ممتلئٌ باللّاجئين.

أعلن هانزن عن مصادرة أرشيف البروفسور، ووجوب إخلاء القصر. نظر عريفٌ من الشرطة العسكريّة إلى هانزن، وانتظر صدور التعليمات. أعطت السيّدة العجوز هانزن جواز سفرٍ في يده. أوضح الجواز أنّ السيّدة من الأرجنتين.

حينما سألها هانزن ما إذا كانت تملك القصر، أجابته بحسمٍ وثقةٍ: «نعم»، واتّضح أنّها تتقن الألمانيّة. تردّد هانزن، كانت الأرجنتين قد أعلنت الحرب على ألمانيا في أسابيعها الأخيرة، لقد صارت من الحلفاء إذن. هل يمكن مصادرة قصرٍ تملكه أرجنتينيّة؟ هل سيؤدّي ذلك في النهاية إلى تعقيداتٍ دبلوماسيّة؟ ولكنْ بعد إظهاره الأمر العسكريّ، سيكون هذا الانسحاب الهادئ والمضطّرب ضدّ مصلحته في العمل. سألها إنْ كان القصر الآخر ملكها أيضاً.

– لا.

استقلّ سيّارة الشرطة العسكريّة إلى المنزل، رأى سيّدتين ورجُلاً يعملون في بستان الخضار. خرج هانزن من السيّارة، وخلفه الشرطيّان العسكريّان ضخْما الجثّة. صودِر المنزل؛ يجب إخلاؤه خلال ساعتين. لا يُسمح سوى بأخذ المتعلّقات الشخصيّة: حقيبة سفر، وحقيبة صغيرة. إلى أين؟ إلى القصر. اشتكوا، وأكّدوا مرّةً أُخرى، بعد نشْر صورٍ في جرائد داخاو من معسكرات الاعتقال، أنّهم لا يعلمون شيئاً عن هذه الكوارث.

قال هانزن: «الكوارث كانت في كلّ مكان، عليكم بحزم الحقائب، أمامكم ساعتان».

انتقل في اليوم التالي إلى المنزل الأنيق، الذي بدا أثاثه جديداً. سأل العريف سيّدةً عجوزاً من المبنى المجاور للقصر إنْ كانت مستعدّةً لتولّي

أعمال التنظيف والغسيل، وافقت المرأة، السيّدة زاكس، الهاربة مع ابنتيها من شيليزيا، في الحال، حضرت وفرشت الفِراشَيْن، نظّفت النوافذ، وبدأت في تلميع الباركيه. عرضت عليهم طهْو الطعام، وإعداد القهوة، إنْ كان معهم شيءٌ منها. العريف الذي لا يُتقن الألمانيّة، وهي التي لا تُتقن الإنجليزيّة، نجحا في ترتيب هذه الأمور كلّها بالإشارات، وبدون مساعدةٍ من هانزن.

سُعِد هانزن بالمنزل الريفيّ الواسع، بنافذتين ناتئتين في السطح، وبغرفةٍ واسعةٍ في الدَّور الأوّل. كانت الرؤية من هناك تمتدّ عبْر البحيرة إلى جبال الألب. استقرّ في الدَّور الأوّل، وحين فتح النافذة المزدوجة، ونظر إلى الخارج، فكّر في أنّه يجب إحضار مركبٍ بمحرّكٍ لهذه البحيرة، ولكنّ الشاطئ كان منبسطاً ومغطّى بالأحجار. يجب أن يُمهّد الطريق لمرور المركب.

سأل العريف عن إمكانيّة جلْب المركب بالمحرّك. فَهِم العريف، وذهبا معاً إلى نادي المراكب الشراعيّة، حيث كان المركب يتألّق تحت أشعّة الشمس، امتلكه سابقاً القاضي الأعلى للحزب النازيّ، فالتر بوخ، وهو والد زوجِ مارتين بورمان. أُلقي القبض على بوخ، وأُودِع في معسكر. هو مركبٌ من خشب ماهاغوني، وبسطحٍ خلفيٍّ منبسطٍ يتيح أخْذ حمّام شمسٍ فوقه. يجب علينا تنظيفه.

جلَب العريف النشيط جرّاراً صغيراً من شركة بناء، وجنديّاً أمريكيّاً كان يخدم عند الروّاد، أعطاه عشرة دولارات مقابل أن يحفر ميناءً صغيراً. رُبط المركب بشجرة، وظلّ يتأرجح بخفّةٍ، يلمع بلونٍ بُنّيٍّ وأحمر، تلألأ الخشب الملمّع، وكذلك حديد المرابط، وأنابيب التهوية. أحضر الجيش قدْراً كافياً من الوقود، ولكنّ المركب رُبِط في أثناء رحلته الأولى إلى الميناء الجديد

بمركب صيدٍ؛ ليسحبه. فسّر العريف ذلك بأنّ محرّك المركب تنقصه أنبوبة توزيعٍ يجب شراؤها أوّلاً.

دخل جورج -أيضاً- المنزل بعد مرور ثلاثة أيام. أخذ حُجْرةً في الدَّور الأرضيّ قائلاً: «لا يجب أن يزعجك شخيري». جلس في الحديقة أمام المنزل، وأحضرت السيّدة زاكس القهوة. جلس جورج على مقعدٍ بيضاويٍّ، كان يدخّن واضعاً ساقيه على مائدة الحديقة، ويراقب السناجب، كانت مختلفةً تماماً عن السناجب الرماديّة مضطّربة الحركة في نيويورك. «انظر إلى هذه الحيوانات الصغيرة، إنّها بُنّية اللّون مثل حكّامها، لديها تركيزٌ عالٍ، سريعةٌ، ومُجدّةٌ، توحي لك بأنّها منظّمةٌ جدّاً». دخّن واحتسى القهوة، نظر إلى البحيرة، وقال: «**لقد استعدنا الجنّة**».^

ردّ هانزن: «**ليس إلى الأبد**».^

بين الحين والآخر، كان جورج يأخذ المكبّر الموجود بجانب المقعد البيضاويّ، ويحكي لهانزن عن الفرق بين أسلوب طيران الذعرات البيضاء وبين طيور نبات الغاب. لمْ يعرف هانزن أسماء الطيور التي ذكرها جورج بالإنجليزيّة، واستفسر عن معناها باللّغة الألمانيّة من فراو زاكس.



الرجُل العجوز

سار فاغنر على مهلٍ وبحذرٍ، عَبَر شارع شيلينج خطوةً خطوة. كان قد وقع منذ تسعة أشهر مضت، انكسرت ساقه اليمنى كسْراً مفتّتاً عولِج بالجبيرة، ولأنّ ألمانيا كانت في مراحل الحرب الأخيرة والحاسمة، رفض الجرّاح وضْع المسامير؛ هذا مجهودٌ زائدٌ بالنسبة إلى شخصٍ في الثمانين من عُمره. كانت المستشفيات الميدانيّة تعجّ بالجنود الشباب الألمان، وكان يتعيّن علاجهم سريعاً؛ كي يحاربوا من أجل الانتصار الأخير. الْتأمت الساق اليمنى للرجُل العجوز، ولكنّها أصبحت أقصر بثلاثة سنتيمترات. مكان الكسْر بقي يؤلمه، خاصّةً عندما يتغيّر الطقس، وتهبّ الرياح. آلامٌ أقوى في الرأس، ليس صداعاً نصفيّاً، بل ألماً في عظام الجمجمة. امتدّت ندبةٌ من الشَّعر حتّى الجبين، الْتأم الجُرح على نحوٍ سيّئ. كانت ضربةً بنبّوتٍ خشبيٍّ، حفر صاحبه عليه بحِرفيّةٍ: تحيّة من جماعة الشعب/ فريق العاصفة (إس إيه).

عَبَر هذا العجوز الشارع متحسّساً طريقه، ومتجنّباً الأحجار المتساقطة. لقد نجا من الرايخ صاحب الألف عام في قبْو. خرج في صيف عام 1933 من معسكر داخاو. لمْ يعرف السبب، كان رئيسه المباشر قد تقدّم باعتراضٍ إلى مسؤول المنطقة في الحزب النازيّ، كما سعى أيضاً إلى الاتّصال هاتفيّاً

بالشخص المسؤول في وزارة الصحّة، أرتور جوت. «مرحباً يا أرتور»، «أهلاً ألفريد». تحدّث جوت عن عمله المكثّف من أجل إصدار قانونٍ يمنع تكاثر حامِلي الأمراض الوراثيّة. يُفترض تفعيل هذا القانون يوم 14 تموز/ يوليو 1933. إنّها خطوةٌ جيّدةٌ ووطنيّةٌ لصالح عِلم تحسين النسْل، الذي سيصير بذلك مهمّة الدولة، وليس مجرّد شأنٍ خاصّ. قال المعلّم: «إنّ له طلباً، فاغنر، على اسم الملحّن فاغنر نفسه، الذي يفضّل ذِكْره دائماً، يعمل معه منذ سنوات، وسُجن بسبب عضويّته في حزبٍ اشتراكيٍّ في فترة 1918-1933؛ يريد أن يضمنه»، لكنّ المعلّم تلعثم، وقال: «يقهره». قال جوت: «إنّه سيفكّر فيما يمكن القيام به»، ثمّ واصل الحديث عن مسوّدة القانون، والفرصة المتاحة الآن للتدخُّل المفيد من أجل حماية جسد الشعب من الأمراض الضارّة. صار التعقيم الإجباريّ ممكناً، وهو وسيلةٌ متاحةٌ في الولايات المتّحدة، والدنمارك، والسويد. قال جوت: «لقد صارت الوسائل الإداريّة تحت تصرّفنا». قال بلوتز: «أجلْ، هذا تحقيقٌ لإنجاز حياتي».

كان بلوتز قد وجّه خطاب إخلاصٍ في نيسان/ إبريل إلى القائد، موجّهاً إلى الرجُل تحيّةً قلبيّةً؛ لأنّه قاد بإرادةٍ عِلمَ تطهير النسْل الألمانيّ من طريقه الوعْر في السابق إلى حقل الممارسة الحُرّة.

بعدها بأيّامٍ قليلةٍ، أُفرِج عن فاغنر من معسكر داخاو، الذي مُنِح الاسم الحالم «معسكَر الحبس الوقائيّ». حصل -بفضل وساطة معلّمه أيضاً- على وظيفةٍ في مكتبة كتبٍ قديمةٍ، اسْمها «أكستهيلم" في شارع شيلينج شتراسة. عمل هناك اثني عشر عاماً من الألف عام، ولكنْ توجّب أوّلاً العثور على سَكنٍ، بعد أن طرده المؤجّر من دون سابق إشعار، بعد سماعه بخبر سجْنه في داخاو.

انتظرته عند لحظة الإفراج نهاية شهر تموز/ يوليو سيّارة أُجرة عند البوّابة التي كُتب عليها: «العمل يطلق الحريّة». كان المعسكر حينها جديداً، وكان من الممكن أخْذ المُفرج عنهم من هناك. سُمِح لقلّةٍ بذلك، ولكنْ كانت هناك استثناءات في كلّ الأحوال. خرج من البوّابة، وحمل سائق الأُجرة الصندوق عنه، قائلاً: «إنّه كُلّف بتوصيله إلى شقّةٍ في شارع أدلبرت».

كانت أُجرة السيّارة مدفوعةً، وكذلك الإيجار لمدّة ستّة أشهُرٍ، بحسْب ما أبلغته السيّدة أوبرهوفر، وهي أرملُ تؤجّر هذه الشقّة الصغيرة على السّطح، وهي: غرفة، ومطبخ، وحوض في الممرّ، والمرحاض على السُّلّم.

حصل هانزن على عنوان فاغنر من مكتب فيلق مكافحة التجسّس الأمريكيّ. استفسر عن كيفيّة حصولهم على العنوان، فردّ عليه القائد: «أنا لا أعرف كلّ شيء، لكنّني أعرف معلوماتٍ عديدة».

في المساء، صعد هانزن السُّلّم الخشبيّ المتهالك من دون استئذانٍ، ودقّ جرس الباب. لمْ تبدُ الدهشة على الرجُل العجوز الذي فتح الباب، حينما وجد أمامه ضابطاً أمريكيّاً، بدا كأنّه كان ينتظر هانزن. قدّم هانزن نفسه، وقال إنّه في مهمّةٍ للاطّلاع على المستندات الخاصّة بأصحاب النظريّات العِرقيّة، ومنهم: عالِم تحسين النسْل ألفريد بلوتز، المتوفّى في عام 1940، فضلاً عن مساءلة الشهود، وإنّه - فاغنر - من بين هؤلاء الشهود.

تفقّد هانزن الشقّة الصغيرة بحيطانها المائلة، وفيها: فراش، ومنضدة، ومقعد، وكرسيّ. على الحائط الوحيد بزاويةٍ مستقيمةٍ مكتبةٌ مرتفعةٌ، في مقدّمة المكتبة على الجانبَيْن عَمودان رشيقان أسْودان، وفوقهما تاجان

بلونٍ ذهبيٍّ باهت، إلى جانب المكتبة لوحتان: واحدةٌ تعرض منزلاً، أمامه شجرة كستناء، وانعكاسات لأشعّة الشمس على أوراق الشجر، وفي مقدّمة اللّوحة بُحيرةٌ صغيرةٌ، وكانت اللّوحة الأُخرى مخبّأةً خلف السقف المائل، ولمْ يكن مضمونها ظاهراً. أتاحت النافذة الناتئة رؤية أسطُح المنازل الأُخرى.

أكّد هانزن أنّ هذا ليس تحقيقاً، بلْ مجرّد مساءلةٍ، واستطلاعٍ في صالح البحث العلميّ. المطلوب تجميع أقوال الشهود. ردّاً عن سؤالٍ عن عدد مرّات اللّقاء أجاب هانزن: «ثلاث، أو ربّما أربع مرّات». طُلب فاغنر في اليوم التالي ليحضر إلى ثكنة ماك جرو، المقرّ الرّئيس للجيش الأمريكيّ الثالث، في شارع تيجرن زيير شتراسة، المبنى العاشر.

تحمل المحاضر عناوين بحسب الأيّام، ولكنْ ينقصها التأريخ، ويبدو أنّ المساءلة قد امتدّت إلى أكثر من ثلاثة أشهُر.

اليوم الأوّل

- متى رأيت الدكتور بلوتز آخر مرّة؟

- في عام 1936، كان قد ترشّح من ساعته لجائزة نوبل للسلام. ليست المسألة أنّه كان حتّى هذا الحين يتجنّب لقائي، أنا حامل شارة معسكر الاعتقال، لا، كان يجلس في قصره المطلّ على جبال الألْب المكسوّة بالثلوج، حيث كان يتجوّل زرادشت، ويُشرف على معمله البحثيّ.

كانت الصّحافة الموجّهة والمُسيطَر عليها من برنامج التنسيق(*)، وزملاؤه خاصّةً، مقتنعين بأنّه سيحصل على الجائزة. ربّما تعلم أنّه كان في الدول الإسكندنافيّة وأمريكا حركةٌ قويّةٌ مؤيّدةٌ لتحسين النسْل، وكان يُطلق عليها مصطلح الحركة السلبيّة، على عكس ما يُسمّى بالحركة الإيجابيّة، التي كانت تهتمّ باختيار الشريك. في عام 1934، صدر في السويد قانون التعقيم الإجباريّ، وكان يُطبَّق قبلها في الدنمارك. بالمناسبة، جاء التقنين على أيدي الأحزاب الديمقراطيّة الاجتماعيّة. بعض الولايات في الولايات المتّحدة الأمريكيّة كانت تمارس أيضاً التعقيم الإجباريّ. احتفل العالم

(*) Gleichschaltung: التنسيق، إجراء اعتمده الحزب النازي للسيطرة والتنسيق الشموليين على جميع جوانب المجتمع الألماني والمجتمعات التي تحتلها ألمانيا النازية من جوانب اقتصادية وجمعيات تجارية إلى وسائل الإعلام والثقافة والتعليم.

بالمعلّم وصديقي القديم، بوصْفه رائد هذا التطهير من التركيب الجينيّ الحقير والمريض، كما كان يُطلق عليه. رُشِّح لأنّه كان يعدّ أنّ الحرب مضادةٌ للانتقاء. أجل، كان ضدّ الحرب، وهو ما يناقض تصوّره عن الصراع من أجل البقاء؛ إذْ تكون الحرب مستمرّةً في هذا السياق. التقيت به في الفترة التي كان ينتظر العالم فيها قرار الّلجنة في أوسلو.

في ذلك التوقيت، لمْ أكن أقضي وقتاً كثيراً في مكتبة الكتب القديمة، بلْ في القبْو، هذا القبْو الجافّ، حيث كانت الكتب الأقلّ مبيعاً -التافة منها- توضَع على رفوفٍ مخصّصةٍ لها. كانت أنيتا، زوجُه، تعرف مكاني، وتأتي لزيارتي بين الحين والآخر. تطلبني من هذا القبْو الثقيل. تأتي من الريف، من منطقة أمارلاند، الموجودة منذ العصر الجليديّ، بطرازها الباروكيّ، وطبيعتها الجبليّة. تجلب النقانق، وقطعة الّلحم المدخّن، وبعض البيض، ولحم الأرانب بالطبع، الطازج، ولكنّني كنت أستبدل الخبز به، على الرّغم من شعور الجوع المربك الذي كان يرافقني. كنت أنفر من هذا الّلحم القادم من القصر نفوراً واضحاً، ولكنْ يصعب تفسيره.

صعدت السُّلّم الحديديّ الضيّق إلى المتجر، كان يمكن غلق هذا الثقب المربّع ببابٍ في الأرض مصنوعٍ من خشب الباركيه. إنْ أردتَ من الممكن أن أُرِيكه في المكتبة.

-مقطع غير مفهوم-

لقد أنقذني هذا الباب مرّتين من الاعتقال. يُغلق، وتوضع أمامه منضدةٌ صغيرةٌ عليها كتبٌ، فلا يتوقّع أحدٌ أنّه مدخلٌ لعالمٍ أدبيٍّ خفيّ. يجب ذِكر كريستوف أكستهيلم هنا، وإنْ كان قد انضمّ إلى الحزب النازيّ مبكّراً، في العشرينيّات. حين تولّوا الحُكم، جمّد عضويّته. ظلّ متمسّكاً بتجميد عضويّته، على الرّغم من الإنذارات العديدة التي كان يتلقّاها أحياناً شخصيّاً

من مندوبٍ للحزب، الذي كان يحضر بزيٍّ موحَّد؛ ليطالب بتسديد رسوم العضويّة. لنقُلْ ببساطةٍ إنّه أُخرِج من الحزب لعدم دفع الرسوم.

لمْ يُخفِ أكستهيلم جلوسي في سرداب الكتب فحسْب، ولكنّه كذب أيضاً من أجلي، حينما قال: إنّني مريض، وسافرت إلى أقاربي في منطقة راينلاند. العنوان؟ ادّعى عدم معرفته. كنت أسمعه وهو يتحدّث في المتجر في الدَّور الأعلى. كنت أجلس في القبْو، واضطّررت إلى الإقامة الجبريّة فيه على مدار أربعة أشهُر. بعد انتهاء ساعات عمل المتجر، كان أكستهيلم يرفع الباب في الأرض، ويناولني الطعام.

لقد بلّغت زميلك، ضابط التحقيقات بهذا الأمر، حينما أرادوا سحْب رخصة متجر الكتب القديمة منه. إنّ أكستهيلم يعشق شتفان جورجه. ربّما تعرّف إلى رابطة ألمانيا السريّة، وأشياء أُخرى غريبة من هذا النوع: الأديب بوصْفه رقيباً ينطق أدبه بالمعنى الإلهيّ، الّلغة الأدبيّة بوصْفها وحْياً. لمْ ينضمّ أكستهيلم إلى المقاومة؛ كان ينظر إلى فكرة الرايخ الثالث للنازيّين على أنّها فكرةٌ غوغائيّةٌ، هكذا كان ينظر إلى من يمثّلهم، وكان، بوصْفه محافظاً؛ يحتقر عدم اتّساقهم. كان عالم أكستهيلم هو عالم الكتب القديمة؛ يجلس حتّى وقتٍ متأخّرٍ من الّليل؛ ليدرس العُروض والكتالوغات، يُصدر سنويّاً كتالوغاً مصوّراً على مستوى فنّيٍّ عالٍ، وكنت أشارك في إخراجه، هذا الكتاب الجميل: «الشِّعر بانتقاءٍ شخصيّ، الإصدارات الأولى».

في صيف عام 1934؛ أيْ: بعد مرور عامٍ على خروجي من المعسكر، بحثت الغيستابو عنّي مرّةً أُخرى. تكوّنت مجموعةٌ صغيرةٌ خارجةٌ عن القانون، وكنت عضْواً فيها. لمْ نتجاوز مرحلة الحديث والتخطيط، كنّا نرغب في كتابة المنشورات، وطبعها يدويّاً، وتوزيعها ليلاً على مداخل المنازل. كان أحد الرّفاق قد أخرج ماكينةً يدويّةً صغيرةً للتصوير من

منزل النقابة، ووضعها في منزلٍ ريفيٍّ في منطقة بازينج، ولكنْ كُشف أمر المجموعة قبْل أن يُكتب المنشور الأوّل. كنت قد انسحبتُ قبلها.

- لماذا؟

- كنت وقتها تحت المراقبة؛ مخابرات الدولة السرّيّة لمْ تكن بغباء الضبّاط في بريسلاو. كان يراقبني رجُلان، كلّما استدرت إلى الخلف، أجدهما يدّعيان انشغالهما بتبادل الأحاديث. كان مندوب الحزب يراقبني. السبب الآخر لانسحابي هو الدخول المفاجئ لأفرادٍ في هذه المجموعة غير القانونيّة، وهُم يدّعون عداءهم للنازيّين، ولكنْ كان أسلوبهم متطرّفاً ومستفزّاً، ولا يُنبئ إلّا بكونهم جواسيس، جواسيس هدفهم الاستفزاز، كان ذلك هو الوضع بالفعل.

قطعت الاتصالات جميعها قبْل أن يُلقى القبض على المجموعة. أصبحت منذ تلك اللّحظة، إنْ صحّ التعبير؛ حُرّاً، لمْ أعد أنتمي إلى مجموعةٍ، ولكنّني لمْ أكن متحرّراً من المراقبة. كانت تسري على الجميع. كان نظام المراقبة قائماً، على نحوٍ رسميٍّ ومرئيٍّ، من خلال الزيّ الموحَّد البُنّيّ والأسْود، وكذلك على نحوٍ مدنيٍّ، من خلال هؤلاء المخبرين كلّهم الذين سعوا إلى أيّة فائدةٍ ممكنة. قام هؤلاء السادة الرجال بزيارة مؤجّرتي، السيّدة أوبرهوفر، أرمل تاجر اللّحوم. هذه السيّدة البسيطة، بمعنى أدقّ: غير المسيّسة، التي كانت تقضي خريف عمرها في حياكة المفارش الجميلة، أتت إليَّ في متجر الكتب القديمة وحذّرتني: «حضر اثنان من الرجال بالملابس الجلديّة، وسألا عنك. قلت لهم: إنّني لا أعرف شيئاً».

قالا: «إنّك تقطن في السطح، ويفترض أنّني أسمعك حينما تصعد الدرج، أو تهبطه». قلت لهما: «إنّني ضعيفة السمع».

نزلت إلى القبْو في اليوم ذاته، وبقيت فيه الشهور الأربعة التالية. كان

لديّ الكثير من الوقت لأفكّر في نفسي. استعرضتُ حياتي الماضية تحت ضوءٍ بسيطٍ شبْه منعدمٍ لمصباحٍ طاقته خمسة وعشرون واطاً. لاحقاً، قمنا بتركيب مصباحٍ بقوّة ستين واطاً. عندما تشجّعت للخروج إلى ضوء النهار مرّةً أُخرى، اضطّررت إلى ارتداء نظّارةٍ سوداء. كان أكستهيلم قد اشتراها لي. يرتديها طاقم الغوّاصات حين يصعدون إلى ضوء النهار بعد مدّةٍ طويلةٍ تحت الماء.

لقد ذُكر اسْمي، وكنت تحت المراقبة، تفهّم هو بكلّ تأكيدٍ أنّني لمْ أرغب في أخذ هذه الإجازة الصعبة مرّةً أُخرى، هكذا كانت توصف وقتها. سكنت هذا القبْو إذن، كان جافّاً، لكنّ رائحة العفن كانت تفوح منه. نمتُ على فراشٍ مؤقّتٍ، وسْط الآلاف من الكتب. كنت أسمع أصوات خبطات الأحذية نهاراً، فأعرف من خلال توجُّه خطواتها عند أيّ رفٍّ يبحث صاحبها عن كتاب، فهناك: كتبٌ فنيّةٌ، وشِعرٌ، وروايات، وأدبٌ فرنسيٌّ، أو إنجليزيٌّ، أو ألمانيّ. كانت لدينا خزانةٌ للأدب الأمريكيّ، إلى أن أُعلنت الحرب على الولايات المتّحدة في كانون الأول/ ديسمبر 1941، فأصبحت هذه الكتب محظورة.

كنّا بدايةً نضع الأدب الألمانيّ في خزانةٍ للأدوية السامّة: كافكا، وهاينة، وهاينريش مان، وبريخت، وفويشتفانجر، ودوبلين. هل تعرف دوبلين وبريخت؟

– نعم، لقد درست الأدب الألمانيّ في سانت لويس،عند مهاجرٍ نمساويّ. أنا من التخصّص نفسه.

– عُذراً، زارتنا في خريف 1934 مراقبةٌ من الدار البُنيّة، وسُئل أكستهيلم عمّا إذا كان يرغب في بيع هذه الكتب المعادية للشعب، أم سيلقيها في القمامة. اضطّررنا بعدها إلى إفراغ خزانة الأدوية السامّة، وكان من

المفترض أن يسلّم أكستهيلم الكتب؛ حتّى لا يعرّض متجره للخطر، لكنْ أقنعته بإخفائها في القبو.

- بإخفائها؟

- نعم، وافق بعد شيءٍ من التردّد. أنزلت الكتب الممنوعة إلى القبْو، ووضعتها في الرّفوف التي فيها الكتب غير المهمّة: بين كتب الرحلات، والروايات البوليسيّة، والروايات العاطفيّة. هكذا جاورَ كتاب كافكا المدفأة كتاب رحلة ليزالوتة إلى السعادة، وكتاب دوبلين ميدان ألكسندربلاتس في برلين كتاب العروس الهاربة. كنت حريصاً كلّ الحِرص على ألّا تجاور الكتب التي أحترمها كتب شعراء النازيّين، مثل: كولبنهاير، وبلونك، وفيسبر.

حصلت كتبٌ أخرى، مع مرور السنوات؛ على حقّ اللّجوء إلى القبْو. كان الزبائن يُحضرونها إلى المتجر، وحصلنا مقابل ماركاتٍ قليلةٍ على الطبعات الأولى من إريش موزام، وبرتولت برشت، وإرنست تولر، وهاينريش مان. مجموعة مقالات إرنست بلوخ بعنوان: «رحلة عبْر الصحراء» حصلنا عليها هديّةً من رجُل عجوز كان سينتقل إلى دارٍ للمُسنّين. حضر إلى المتجر، وقال: «إنّه لا يريد إلقاء بلوخ في القمامة، ولا يمكنه أخْذه إلى الراهبات المتديّنات»، وطلب أن نحافظ نحن عليه. إنْ كان لك اهتمامٌ بهذا الشأن، فإنّها نسخةٌ جميلةٌ بالمناسبة، بتوقيعٍ شخصيٍّ من الكاتب.

- معي في حقيبتي كتاب «آثار» لبلوخ، ولكنّني لمْ أقرأه بعْد.

- إنّه كتابٌ مدهشٌ، اقرأ قصّة الحاخام الذي أعطى رحّالةً يهوديّاً عقب شمعةٍ، يبدو ظاهريّاً بلا فائدةٍ، ولكنّه يمنح ضوءاً، وينقذ حياة. توجد -أيضاً- نسخةٌ من كتاب «آثار» في القبْو. جمعتُ -خاصّةً- أعمال

جوستاف لانداور كلّها، وكذلك نسخةً نادرةً من طبعةٍ خاصّةٍ أصدرها لانداور، على الرّغم من فقره، لتقريرٍ بعنوان: عن موت هيدفيج لاخمان. إنّها قصّةٌ مؤثّرةٌ عن موت سيّدةٍ شابّةٍ، كانت شاعرةً ومترجمة. كتابٌ نادر. كانت هذه الكتب بمنزلة الفدائيّين وسْط الإصدارات التافهة، الباحثة عن إرضاء الآخرين، المتأقلمة، والمكروهة، ثمّ جئتم أنتم، سارت دبّابات شيرمان في شارع لودفيج، وحينما تجوّل أوّل زملائك في شارع شيلينج، خرج الممنوع والمخفيّ كلّه إلى ضوء النهار، أقول ذلك بالمعنى الحرفيّ، لقد أخرجنا كلّاً من هيمنغواي، وفولكنر، وودوس باسوس، وألفريد دوبلين، وهاينريش مان، وجوستاف لانداور من القبو، ووضعنا كتبهم في نافذة العرْض؛ لقد حصلوا هُم أيضاً على الحُريّة.

-مقطع غير مفهوم-

إنْ أردتَ وصفي كذلك، نعم، كنت محظوراً عن الحركة. لمْ تكن حياةً مريحةً هنا في القبْو، فوق فراشٍ مؤقّتٍ، ومعي صندوقٌ برتغاليٌّ تركه لي أحد الزبائن، من زمن الاحتلال، ومصنوعٌ من خشب الصندل. كنت أصنفره بين الحين والآخر؛ لأشمّ في الخشب رائحة البلاد البعيدة. كان في الصندوق ملابس داخليّة للغيار، يحملها أكستهيلم إلى المغسلة. كان المرحاض، الذي كنت أغتسل فيه أيضاً، في المتجر في الدَّور الأعلى، ولمْ يُتَحْ لي استعماله إلّا ليلاً. كنت أقضي حاجتي في أثناء النهار في وعاءٍ أغطّيه. عندما كنت أسمع جرس المتجر، كنت أنصت إلى الخطوات في الأعلى، كم كان لصوت خطوات الأحذية النسائيّة وقعٌ مهدّئٌ، وكم كانت الخطوات الثابتة للأحذية الشتويّة تزعجني. كنت أتساءل: هل صاحب هذه الخطوة رجُلٌ بمعطفٍ جلديّ؟ صحيحٌ أنّ الكتب في الرّفوف لمْ تمنحني الشعور بالأمان، ولكنّها كانت تلهيني. بدأت بإعادة ترتيب الكتب، رتّبتها

بنظامٍ لا يفهمه أحدٌ غيري، لا يتّضح سريعاً، فليست الكلاسيكيّات مثلاً هنا، والكتب الحديثة هناك، ليس ثمّة ترتيب أبجديّ، ولا زمنيّ، حتى أكستهيلم لمْ يفهم شيئاً.

كان جوستاف لانداور سيعجب بهذا الترتيب بكل تأكيد. لقد نقلت فكره السياسي عن اللامركزية إلى عالم الكتب، وأنقذتها بذلك من الاستيلاء عليها وتدميرها.

-شيء غير مفهوم-

كان أكستهيلم على عِلمٍ بما أقوم به، وموافقاً عليه، من دون الحديث عن الأمر مباشرةً. كنت أبحث نهاراً في الرفوف على ضوء مصباحٍ واحدٍ عن الكتب المطلوبة، وأضع الكتب التي يبيعها للهاوين في الدّور الأعلى. كانت من بينها نسخٌ جميلةٌ من المكتبة الخاصّة لتوماس مان. تمكّن أكستهيلم، بعد مصادرة منزل مان، من شرائها بمبالغ بسيطة، من خلال علاقته بالحزب.

- كنت تريد أن تحدّثني عن المرّة الأخيرة التي رأيت فيها بلوتز.

- صحيح، أرسلني أكستهيلم، في صبيحة أحد أيّام خريف عام 1936، إلى القبْو. طُلبتْ عبْر الهاتف الطبعة الأولى من مجموعة برنتانو «الصبيّ والبوق السحريّ». كان هذا الإصدار موجوداً في القبْو؛ لأنّ ختْم المالك كان يحمل اسم برنهايم، أتفهم؟ كان من المفترض أن تُقطع الصفحة الأولى، ولكنْ كان هذا الإجراء سيفسد هذه النسخة الجميلة بسبب الاسْم اليهوديّ، لذلك أخذت الأجزاء الثلاثة إلى القبو، أدخلتهم في الترتيب المتّبع هناك. بعد مدّة بحثٍ قصيرةٍ وجدتهم مرّةً أُخرى. سمعت صوت جرس الباب في الأعلى، حينما صعدت السُّلّم، وعَبَرت الفتحة في الأرض إلى المتجر، رأيت أمامي حذاءً، حذاءً جلديّاً أسْودَ ونظيفاً، كان هناك ثقبٌ

في الجلْد الجانبيّ لإحدى الفردتين؛ غالباً بسبب مسمارٍ في القدم. فوق الحذاء بنطالٌ رماديٌّ داكنٌ، بخطوطٍ رماديّةٍ فاتحةٍ وبسيطةٍ، ثمّ سمعت صوتاً، ظللت واقفاً على السُّلّم، وأنظر نحو الأعلى في وجهه، هكذا يجب وصْفه: يكسوه الّلون الرماديّ، ذقنٌ رماديّةٌ، وشَعرٌ أبيض. نظر إليَّ بعيونه التي تجمع بين الّلونيْن: الرماديّ، والأزرق، مثل أبٍ روحيّ. عجزت من فرْط الصدمة عن النطق بالكلام، كأنّ هذا الوصف خُلق من أجلي في هذه الّلحظة.

سمعته يقول: «كنّا نتحدّث في الحال عنك». انحنى بجهدٍ بسيطٍ انحناءً بسيطاً إلى الأمام، ثمّ قال: «هيّا! سأساعدك»، خاطبني بضمير «أنت» الأخويّ: «أعطني الكتب!».

حمل عنّي الكتب، وتمكّنت من الاتّكاء على يديّ لأصعد من القبْو، وهو أمرٌ متعبٌ للغاية. نظر إلى عناوين الكتب، قال: «جميلٌ جدّاً»، ثمّ ألقى مقطعاً من أغنية المساء التي كان يحفظها عن ظهر قلب:

غنّينا أغنية المساء

وأفرغنا الأكواب

أرنا أيّها الشاب

هيئتك بسيفك الّلامع

لمْ يسألني عن حالي، وأنا أتسلّق بجسدي العُلويّ من هذا الثقب، كان سيحصل على إجابةٍ مُحرجة. لقد أخبرته اليونانيّة عن حالي بكلّ تأكيد.

– اليونانية؟

– أنيتا زوجُه، كلّنا نطلق عليها هذا الوصْف؛ لأنّ والدتها كانت يونانيّة. قال: «إنْ سمح وقتك، ولك رغبة، دعنا نشرب شاياً، أو مشروباً

فوّاراً معاً». سألت أكستهيلم: «هل تحتاج إليّ؟». أجاب بلطفٍ مصطنعٍ: «بالطبع لا، خُذ وقتك»، ثمّ وجّه حديثه إلى الرجُل الآخر: «هل يرغب السيّد البروفسور في أخذ الكتب معه، أم أرسلها إلى القصر؟». أجلْ، كان قد حصل في الحال على لقب البروفسور الفخريّ من هتلر. طلب إرسال الكتب إلى المنزل، من دون استعجالٍ، خلال الأسبوع القادم.

عَبَرنا شارع شيلينج، مروراً من أمام المطبعة التي كانت تطبع هذا الهراء الشعبيّ المقزّز.

- أيّ هراء؟

- جريدة (مراقب الشعب). مشينا جنباً إلى جنب، وتحدّثنا عن الطقس، الذي كان دوماً يستحقّ الحديث في ميونخ، وتحدّثنا عن هبوب الرياح الدافئة. لمْ أذكر الصداع الشديد في الجانب الأيسر من رأسي، الذي كان يصيبني منذ ضربة النبّوت مع كلّ تغيُّرٍ مناخيٍّ، ويذكرني خاصّةً مع قيام الرياح الدافئة بالنداء: «استيقظي يا ألمانيا».

ذهبنا إلى أحد المطاعم في ميونخ. طلب لنفسه الشاي، وطلبت أنا الجعّة، ما أثار لديه ابتسامةً صغيرةً ساخرةً، ابتسامة أراد أن يبلغني من خلالها أنّه صار أكثر لطفاً، وأنّه لن يبدأ بالحديث عن التأثير المفسد للكحوليّات، كما كان يفعل سابقاً. طلب إلى النادل قليلاً من الحليب البارد للشاي. هذا أيضاً لم يتغيّر؛ شُربه للشاي بالطريقة الإنجليزيّة. قال، وهو يتأمّل الحليب المنتشر مثل السَّحَاب في كوب الشاي: «قرأت منذ عدّة سنوات مقالك عن جماعة أمانا الدينيّة. إنّه مثيرٌ للاهتمام، ولكنّه متديّنٌ بعض الشيء. هل تراجعت؟ هل انضممت إلى أصحاب الملابس السوداء والمتديّنين؟».

- أنا؟ أنا كما عرفتني من قبل، وسوف أبقى كذلك.

في فترة الصداقة التي كانت بيننا، وحينما كان -بوصفه ملحداً مقتنعاً ومناضلاً- يهين الربّ المنحرف، كنت أقول له: «إنّني لا أهتمّ بنظريّة العدالة الإلهيّة». كان الربُّ بالنسبة إليه رجُلاً عجوزاً وعاجزاً، يجلس على مقعدٍ في المسرح، ويشاهد ممارسات البشر: القتل، والحروب، والأوبئة. إنّه يستمتع بسُلطته المفقودة داخل مسرح الكوميديا الإنسانيّة.

التفكير في وجود الخالق من عدمه بدا لي باطلاً، على عكس مكافحة المعاناة هنا أمام كلّ بابٍ وبوّابة. جلسنا متقابلَيْن، أخاطب ذقْن الرُّسل الرماديّة هذه، ورأساً من حجر. قلت له: «إنّني أجد في إلحاده مبالغةً دراميّةً، وفكره الماديّ سطحيّ». أربَكته كلمة سطحيّ، لا بلْ صدمته، رأيت ذلك في عينيه، رأيت أنّه لم يعد متقبّلاً للاعتراض. بما أنّنا لا نعلم، يكفينا السؤال: كيف سأعيش؟ كيف سنعيش؟ في معركتنا المشتركة ضدّ المعاناة والموت، من أجل السعادة الدنيويّة.

قال: «حسناً، حسناً، ما زلت الشخص القديم نفسه. كانت هذه إصلاحاتكم المحدودة، أنتم أيُّها الديمقراطيّون الاجتماعيّون. أنت أفضل من يعلم إلى أين وصلنا، ووصل العالم الجميل، الذي قاده الفوضويّون. ما نعيشه الآن هو مرحلة تحوّلٍ حقيقيّةٌ، وبدايةٌ لعصرٍ جديد. تحوّلٌ له هدفٌ جماعيٌّ، قوّةٌ نابعةٌ من الشعب، بقوّةٍ تتجلّى واضحةً، تأتي بشحْذ القوى. لقد انشدّ القوس، والهدف أكثر من مجرّد أجورٍ أعلى، وساعات عملٍ أقلّ. هناك طاقةٌ لصنع مجتمعٍ جديدٍ، ولتنميةٍ وتطوّرٍ بأبعادٍ لمْ نصلْ إليها من قبل. كانت الأولمبياد في برلين إشارةً واضحةً، ربطت ربطاً جليّاً بين القوّة والجمال. فلْنأخذ الخدمة الاجتماعيّة مثالاً، ألمْ نتحدّث مراراً عن أهميّة العمل للجميع من الطبقات الاجتماعيّة كلّها؟

الخدمة الاجتماعيّة مفروضةٌ الآن على الشابّات والشبّان. إنّهم يجفّفون المستنقعات، ويشيّدون السدود، ويقتنصون الأرض أمام الزحْف المائيّ. ألم تتحقّق أحلام الأدب؟».

- أجلْ، وماذا عن فيلمون وباوسيس(*)؟ احترق منزلهم فوق رأسيهما! يجب أنْ ينهار القديم؛ إنّه قانون الطبيعة. بخلاف ذلك، كلّها عواطف اجتماعيّة. أخيراً، لدينا الفرصة لتطبيق ما توصّلنا إليه من معرفة. ألمْ يكن ذلك هدف عملنا وأبحاثنا كلّها؟ يقول دوماً: «أبحاثنا»، على الرّغم من يقينه بأنّها ليست أبحاثي. ها هو يجلس أمامي، صاحب السيادات المتعدّدة.

نزلت قناعاته عليَّ كالصاعقة. كان يُلقي حُججه بثقةٍ بالنفْس، وقوّةٍ في الإقناع، مثل أنبياء العهد القديم. حينما يذهب الربُّ، يحلّ الإنسان محلّه، ويتولّى مهامه، يشمل ذلك أيضاً تحسين نوعه؛ ليُخرج قدراته الكامنة.

ولكنْ، في الوقت الأخير، تغيّر الكثير؛ تكرّر في السنوات الأخيرة رفضي الحاسم، اضطّررت عن قناعةٍ إلى رفض المطلوب.

-مقطع غير مفهوم-

تكلّمنا أيضاً على الحُكّام، هؤلاء المصابين بالتخمة بملابسهم البنّيّة، وأقدامهم المسطّحة، هل هؤلاء هُم الجرمانيّون الأقوياء؟ هل هذا هو الإنسان الكامل الموعود؟ هيملر، الذي يحمل وجه موظّف حسابات؟ كانت صداقتنا الطويلة في وقتٍ لاحقٍ تسمح لي في هذا الوقت بالحديث الصريح. كان الحديث مع أيّ شخصٍ آخر يمثّل خطورةً كبيرةً؛ إنْ قلت: «جورينج»، هذا الرجُل السمين؟ «جوبلز»، هذا القزم الشتّام، كان يُطلق عليه الشرغوف؛ لأنّه -عُذراً- لا يملك سوى ذيلٍ وفَم. الحزب؟ هذا

(*) من الميثولوجيا اليونانية ورد ذكرهما في مسخ الكائنات لأوفيد في دلالة عن حسن الضيافة. (م).

التجمُّع من الرجعيّين مُحتسي الجعّة؟ إنّها شخصيّاتٌ هزليّةٌ، لا نضحك عليها؛ فقط لأنّها تحمل مسدّسات.

لمْ يكن قد دخل الحزب بعْد، سابقاً كان يرفض -بوصْفه عالماً- الانتماء إلى أيّ حزبٍ، أو منظّمةٍ، هذا الشخص آنذاك لا يعطي إجابةً قاطعة.

- والقائد، السيّد شيكلجروبر(*)؟ هل كان نداؤه بهايل شيكلجروبر ممكناً؟ إنّ تغيير الاسم ليتماشى مع القافية في بداية هايل أتاح وقوع الكارثة التاريخيّة.

ضحك، وكرّر: «القائد يصرخ كثيراً بعض الشيء، ولكنّه لا يشرب الكحوليّات». ضحك، وأشار إلى كأس الجعّة: «أنا أشعر بالعطش حينما أنظر إلى هذا الكأس؛ أمّا القائد، ففي الأغلب لا».

احتفظ على الأقلّ بقليلٍ من السُّخرية من نفسه.

- وماذا عن هذا الكره الغبيّ لليهود؟

إنّه غباءٌ لا يضاهيه غباء، خاصّةً لدى هذه المجموعة من البرجوازيّة الصغرى، التي تخشى منافسة المتاجر الكبرى لها، ببيعها للمعاطف من الفراء، والسُّترات، والحقائب الجلديّة بسعرٍ أقلّ. هل سيراعيهم صاحب المتجر الآريّ؟ قال: «لا، هذا هو السعي وراء الربح، وهو جزءٌ من النظام الاقتصاديّ الرأسمالي».

كان لا يزال قادراً على قول شيءٍ من هذا القبيل لاقتناعه الدفين به، ولكنّه سرعان ما شكّك فيما قال بإضافته عن إشكاليّة توغُّل اليهود من ناحيةٍ أُخرى في مجال القضاء وعالم الماليّات. قال: «ولكنّ هذه التجاوزات هي حماقات، سيُصلح الأمر مع الوقت. ما يجب النظر إليه

(*) اسم العائلة الأصلي لوالد أدوف هتلر قبل أن يتم تغييره إلى هتلر. (م).

هو أنّ هذه الحكومة قد أتاحت لي تطبيق إنجازات حياتي في الواقع، وهذا سبب سعادتي». أضاف: «إنّها فرصةٌ تاريخيّةٌ لن تتكرّر لنا، كأنّني أنتمي إلى هذه المجموعة؛ إنّها هديّةٌ لحركة تحسين النسْل على المستوى الدوليّ. إنّ أسلوب التناول التنظيميّ نموذجيّ. أجل، لقد سخّر نفسه لصالح هذه الحركة».

سألته عن جائزة نوبل للسلام، أشاح بيده قائلاً: «إنّها لا تعنيه، ولكنّها ستكون سنداً دوليّاً كبيراً لحركة تحسين النسْل، إنْ حصل عليها».

- إذن، فلْنشرب نخب الإنسان الخارق القادم. حيّاك الله!

سأل بارتباك: «ماذا تقصد بحيّاك الله؟».

كانت إجابتي مجرّد عطسة.

بدأ يدرك شيئاً فشيئاً أنّنا قد ابتعدنا عن بعضنا إلى درجةٍ لمْ تعُد معها تجاربنا المشتركة كفيلةً بخلق تواصلٍ بيننا. لقد فقدت قوّة حُجّته تأثيرها، بعد أن كادت تضاهي قوّته على خلق ما هو جديد. اتّضح له أيضاً أنّ إعجابي السابق بعمله ورؤيته للمستقبل قد تحوّل إلى رفْضٍ جذريّ. حاول مراراً استعادة التقارب القديم بيننا، وكانت محاولاتٍ مثيرةً للمشاعر. قال: «أعرف أنّك تواجه صعوبات. يمكنك في أيّ وقتٍ أن تأتي إلينا؛ لقد حكت اليونانيّة لي عن ظروفك». لمْ يذكر اسْمها قطّ في حضوري، كان يطلق عليها منذ تعارفنا اسم اليونانيّة.

لا أريد التذمُّر، لقد كان هذا الوضع باختياري.

الأحلام القديمة نفسها، إنّها أحلامٌ مشتركة. قال: «هذا ما يهمّني أيضاً، وإنْ زادت عليها معارف واكتشافات جديدة»، ثمّ قال بعد مدّة استراحةٍ قصيرةٍ: «إنّه تأثّر بهذا المقال عن الألم والدموع، الذي لمْ يقرأه سوى الآن في إحدى المجلّات».

أشَرتُ بالنّفي؛ مجرّد عملٍ عَرضيّ، أجلْ، ولكنْ كم تمنّيت التعبير عن سعادتي بدعمه لي. كم نكون في حاجةٍ ماسّةٍ إلى الدعم والثناء في لحظات الوحدة. لقد مُنعت المجلّة من زمنٍ طويلٍ، وأُلقي القبض على الناشر.

شعرت أنّه يرغب في إضافة شيءٍ، شيء ما يُحرّكه، ولكنّه صمتَ، ثمّ قال: «لقد حان وقت الرحيل، السيّارة تنتظرني».

تصافحنا من دون أيّة مشاعر، قلنا وداعاً، ورجَونا الخير لبعضنا، رأيته، وهو يَعبرُ شارع شيلينج، بجسده العريض، ووزنه الثقيل، والقبّعة السوداء فوق رأسه.

– هل تعبت؟ هل ننهي حوارنا اليوم؟

– لا، يجب أن تعرف أنّني كنت أنتظر هذه اللّحظة. أجلْ، يمكنني القول إنّني أنتظر منذ اثني عشر عاماً. كنت على يقينٍ من أنّني سأشهد يوماً ما، وكنت أقول لنفسي يجب أن أحتمل. حكيت لنفسي القصّة كثيراً، كما حكيتها لك الآن. دوّنتُ بعض الملحوظات؛ حتّى لا تخونني الذاكرة. أرجو ألّا تكون قد مللت القصّة.

– لا، أنا جالسٌ هنا لأسمعك. إذن، لقد انفصلتما حينها؟

نعم، هذه القبّعة السوداء التي اختفت، ما زالت أمام عيني. رجعت إلى متجر الكتب القديمة. إنّه يومٌ خريفيٌّ دافئٌ، قابلت المارّة بزيٍّ موحَّدٍ، وبملابس مدنيّة. وجّه أحدهم إليّ التحيّة رافعاً قبّعته، ما أفزعني؛ لأنّني لمْ أكن أعرفه، ونظرت إلى هذه التحيّة بوصفها إشارةً إلى انكشافي، ولكنّها ربّما كانت لطفاً بسيطاً لصديقٍ بعيدٍ، أو زبونٍ نسيت اسْمه.

قال أكستهيلم: «لمْ أعرف عن علاقتك الوطيدة مع البروفسور».

قلت: «أجلْ». ولمْ يطرح أكستهيلم أسئلةً أُخرى.

نزلتُ إلى القبْو، وجلستُ على المقعد الجلديّ، الذي كنت قد أنزلته إلى هناك منذ عامين، تحت المصباح مباشرةً؛ حتّى يكفيني الضوء للقراءة.

انتظرت النهاية في هذا القبْو، كنت أعرف ذلك منذ ستالينغراد، من خلال شخصيّاتٍ عامّة. لقد تجاوز الوباء البنّيّ ذروته. كلّ عدوى تصل إلى نقطة الذروة، ثمّ هناك تأكيدٌ إحصائيٌّ بانخفاض معدّلاتها وانهيارها. على مدار سنوات، كنت أجمع مادّةً علميّةً لهذا الافتراض، سَعياً لصياغة قانونٍ في هذا الشأن؛ أكملت دوراتٍ في زيورخ في عِلم الإحصاء والاحتمالات، ولكنْ صودِرت هذه المواد كلّها، ودُمّرت في الأغلب. كانت ستالينغراد مثالاً لهذه النقطة التي يصل إليها الوباء، قمّة الانتشار، ولكنْ يكمن في هذا الأداء الزائد ما ينفيها. كان يجب التحمّل حتّى النهاية، وأنا أردت رؤية النهاية على أيّ حال. هل تتخيّل أن يكون هذا هو هدف حياتك؟ نهاية للويل؛ لأنّ الويل لا يريد أن ينتهي. كانت هذه هي أمنيتي: لا سلام بعد مفاوضاتٍ مثل فرساي، بلْ هزيمة، هزيمة جذريّة، تقضي بضربةٍ واحدةٍ على الأحلام المغترّة بالسُّلطة العالميّة، والإيمان بفكرة الشعب المختار.

-مقطع غير مفهوم-

يجب أنْ أقول بنبْرةٍ دراميّةٍ: «إنّني أشعر بالأسف من كلّ قلبي»؛ لأنّ صديقي القديم لمْ يعش هذه النهاية، الحُطام، والجنود الألمان الأسْرى الذين عادوا بجواربهم، كيف خرجوا إلى المعركة بحركاتٍ حازمةٍ، وخطوات صارمةٍ. من أمام القيادة الصارخة، تخشخش أحذية العساكر بالمسامير، والآن، انسحب البشر الخارقون بلونهم البنّيّ، خلعوا بزّاتهم، وارتدوا الملابس المدنيّة، كأنّهم في حفلٍ للملابس الرثّة. لا حديث عن تحسين النسل، ولكنْ رغبة في عدم لفْت الأنظار، وفي الوسطيّة. إنّهم

يريدون الاختباء وسْط الجموع. إنّهم يحملون صفاتهم القديمة نفسها: ديوك مخصيّة، وسمينة، وغبيّة.

- يُقال إنّك كنت مساعده، وتعاونت معه.

- نعم، كنت في شبابي مساعداً له، وفضّلت البقاء في الظلّ. كنت معجباً به، وحينما تعرّفت إليه، كنت في التاسعة عشرة من عمري؛ أيْ: إنّه يكبرني بأربع سنوات. كان ما يسمّى بالقَدَر هو سبب مرافقتي له. أُتيحت لي فرصة متابعة حياته، أجلْ، أستطيع أن أقدّم شهادةً على ذلك، عن غطرسته، واللّعنة التي أصابته. كان عظيماً في حسْمه، وفي إخلاصه، وإيمانه بترقية الإنسان لما هو أفضل وأعلى. يجب أن أذكر تواضعه غير المشروط بوصْفه عالِماً، مع عدم إنكار قبوله بالحلول الوسطى في سبيل تحقيق أهداف البحث العلميّ التي كانت تهدف إلى الارتقاء بصحّة الشعب.

كان يستشهد دائماً بعبارة داروين: «لا تجوز لرجُل العلم الأمنيات والمشاعر، قلب من حجر فقط».

مثل كلّ شيءٍ، أخذ الصديق هذا كلّه على مَحمل الجدّ؛ كان لا يعرف التساهل، وأخذ كلّ ما كان لصالح مشاريعه البحثيّة، وسوّغ ذلك بالعلم والمعرفة. لا يرى سوى الخطأ والصواب، ولا شيء بينهما، منطقٌ باردٌ، وخلاف ذلك كلّها مشاعر لا تستحقّ الاحترام.

في الحقيقة، كان ربَّ أُسرةٍ مخلصاً، له أبناء: ولدان، وبنت. تولّى شؤون المنزل والحظيرة، ويجب القول: القصْر، والحظيرة، والخَدم، وشؤون أخيه أوم إريش أيضاً، هذا العجوز الذي هاجر إلى البرازيل، وصار هناك شخصاً غريب الأطوار.

تولّى قريبٌ له إدارة المقرّ، في حين جلس بلوتز في غرفته، منحنياً

على الميكروسكوب؛ ليراجع الجداول، ويحسب، ويفكّر، ويذهب مراراً إلى المعمل المقام داخل الثكنات. لمْ يكن هذا كلّه ممكناً إلّا بفضل هذه السيّدة، زوجِه، التي دخلت هذه الزيجة بكنزٍ ملكيٍّ، اشتروا منه هذا القصر. كانت سيّدةً جميلةً، موهوبةً، وقويّة.

- فلْنُنهِ حديث اليوم، سوف أحضر إليك الخميس القادم.

- أجلْ، شكراً.

اكتشافات

جلس جورج في الحديقة، وقال: «لنْ نغادر هذا المكان على الإطلاق». تقدّم بطلبٍ للإقامة في المنزل على البحيرة، متعلّلاً بأنّه يقع بين ميونخ ولاندزبيرج، حيث كان يقيم الأطبّاء المتّهمون بجرائم الحرب. أخذ في الحال منظاره المكبّر، وبدأ رحلة البحث في المنطقة المحيطة. كان الطقس في بداية العام حارّاً على غير العادة، ووضعت الطيور بيوضها للمرّة الثانية. جلسا لتناول الفَطور، الذي أعدّته السيّدة زاكس، أمام المنزل، وتحدّث عن الطيور المغرّدة، وطيور الدبق، التي انشغلت بالتقاط العشب فوق النجيل. أشار إليها بالسكّين، عرف هانزن لاحقاً من القاموس أسماءها باللّغة الألمانيّة. اكتشف جورج، بعد مرور يومين على وصوله، طائر نبات الغاب على شاطئ البحيرة، بعدها بقليلٍ اكتشف الثاني، إنّهما زوجان إذن؛ نبات الغاب ومجموعة الشجر، الأشجار عموماً، بينها ستّ أشجار بلّوطٍ عتيقةٍ، بعضها أجْوف، وبعضها قد غطّى اللّبلاب جذوعها، كلّها عوالم جميلة للطيور. كان جورج متحمّساً: «**إنّها جنّةٌ للطيور**».^

في صباح اليوم التالي، ذهب هانزن إلى ميونخ، إلى مبنى قيادة الجيش. كان هناك صقرٌ ضخمٌ من الحجر، وكان الضبّاط الأمريكان يستعملونه في التدريب على إطلاق النار. تغطّيه الآن لافتةٌ مؤقتةٌ مكتوبٌ عليها: «مقرّ

الجيش الأمريكيّ»، وعليها رسمٌ للصقر الأمريكيّ. استقبله قائدٌ في الإدارة العسكريّة، واقترح عليه تصوير عبارات النازيّين الدعائيّة، قد أعاد الألمان الطلاء فوقها جزئيّاً؛ وعلّل ذلك بأنّ هذه العبارات الدعائيّة دليلٌ على أبعاد الدعاية السياسيّة التي مارسها هذا النظام وتأثيرها. قال القائد، وهو يبحث مضطّرباً في كومةٍ من المستندات: «هناك بالطّبع ما هو أكثر أهمّيّةً، مثل: السيطرة على محطّات توليد الكهرباء، أو صيانة شبكة الصرف، ولكنْ على الملازم تصويرها».

مرّ هانزن من أمام حُطام المنازل المقصوفة، وذهب إلى الكاتدرائيّة الواقعة في مركز المدينة. أصابت القنابل كنيسة فراون كيرشة أيضاً، وانهدم سطح الكنيسة، ولكنْ ظلّت معظم الأسوار والأعمدة صامدة. دخل وسْط حُطام صحن الكنيسة، ووجد ألواحاً متفحّمةً وسْط طوب القرميد. وصلت الأعمدة العالية الضخمة إلى السماء الغائمة؛ أمّا في الصحن الجانبيّ، فكان هناك رجُلان عجوزان يبحثان عن شيءٍ ما وسْط الحُطام؛ بقايا تمثالٍ من حجرٍ رمليٍّ، يمكن تعرّفه من خلال السُّترة، وجزءٍ من الذراع، وبقايا يَد. كان هناك إصبعٌ سليمٌ، يبدو أنّه في وضعٍ مستقيمٍ، معلناً عن بيانٍ، ومحذّراً من شيءٍ ما. فكّر هانزن في وجوب التقاط هذا الإصبع المقدّس، والاحتفاظ به ذكرى لهذا الدمار، فوضع الإصبع الحجريّ في جيب سترة زيّه الموحَّد.

توجّه إلى محطّة القطار، حيث صارت المنازل جميعها حُطاماً أيضاً. وقف طابورٌ طويلٌ من البشر أمام مخبزٍ: سيّداتٌ بحقائب التسوّق، وبعض الرجال المتقدّمين في العُمر، كان يرتدي أحدهم خوذة رجال إطفاء الحرائق. لافتةٌ من الورق المقوّى معلّقةٌ على الباب: «لا يوجد خبز، لم يَرِد الدقيق». وقف البشر كأنّهم ينتظرون حدوث معجزةٍ، كأنّ الباب سينفتح

على حفل عُرس قانا(*). مرّ هانزن من أمامهم، لا كراهية، ولا فضول في وجوه المنتظرين، بلْ عدم اكتراثٍ بارد.

كان قد حصل على راتبه، وتوجّه إلى إحدى قواعد المُؤن؛ ليشتري كلّ ما هو ضروريّ: مسحوق الغسيل، والمناديل الورقيّة، ومعجون الأسنان، والخبز خاصّةً، والمعكرونة، والّلحم المحفوظ، والقهوة، والسُّكّر، والزبد.

-3 حزيران/ يونيو-

فكّرتُ في الرجُل العجوز، كان هزيلاً، البلوفر الخفيف مُهلَلٌ، ويتدلّى عليه مثل العباءة. لا يحاول طلب أيّ شيءٍ منّي؛ إنّه كبرياؤه. الطريق إلى الثكنة طويلٌ، والسير يُرهقه، فضلاً عن أنّ قاعة المكتب خاليةٌ توحي بأجواء التحقيق. سوف أحقّق معه في غرفة السطح الخاصّة به.

لقد بدأت في قراءة عمل «آثار».

استقلّ في اليوم التالي سيّارة كابريوليه على الطريق السريع إلى جاميش باتنكيرشن. كتب هانزن إلى الأهل في الوطن: «إنّها طبيعةٌ غاية في الجمال، مثل التي تراها في الكنائس الباروكيّة. كرّرها الآن: **إنّ الطبيعة في الريف مثل كنائس العصر الباروكيّ**».^

أومأت سارة برأسها. كانت ترأسه بحُكم رُتبتها ملازماً أوّلَ، تعمّد لذلك وضْع يده على ركبتها، قالت: «**وصفك جميل**».^ شعر بدفء جوربها الحريريّ ونعومته. أنزلا سقف السيّارة، وسارا وقت الظهيرة في

(*) إشارة إلى عرس قانا الذي قام بالمسيح بمعجزاته فيه. (م).

طريقهم. فتحت سارة المذياع، وسمعت الجبال في منطقة بافاريا العليا ما كان ممنوعاً في إذاعة الرايخ على مدار الاثني عشر عاماً الماضية: موسيقا الجاز، سمعا أغنية «أحبِبْني، أو اتركني» للمطرب بيلي أكستاين، وحين أعلن في المذياع عن أغنية «زهرتي الإيريش البريّة» للمطرب تشيك ويب رفعت سارة قبّعتها العسكريّة، وأخذ شعرها بلونه الوسط بين الأشقر وبين الأحمر يرفرف مع الرياح. أخذت يده، ووضعتها على الجزء الداخليّ من فخْذها، ورفعت سُترتها إلى أعلى قليلاً، وغنّت نَصَّ الأغنية: «سأقودك من يدك إلى طريق الجنّة...».

تعرّف هانزن إلى سارة في الفندق الذي صادره الجيش الأمريكيّ في ميونخ، كانت محاميةً، وعُيّنت في القضاء العسكريّ، وتطوّعت هي الأُخرى؛ لتخرج من مونتانا ومدينة بيلينجز الصغيرة. كانت الحرب هي الفرصة للتعرّف إلى العالم، فضْلاً عن الشعور بارتياح الضمير؛ لأنّ الحرب من أجل الحُريّة والديمقراطيّة.

جلس إلى جانبها على البار، وتطوّرت الأمور سريعاً، حكت عن دراستها، وحكى هانزن مرّةً أُخرى قصّة أبيه، ورحلته من هامبورغ إلى نيويورك بفضل قِرْد، فظلّت تضحك كثيراً وطويلاً.

تحدّثت إليه عن المحاكمات ضدّ الضبّاط الأمريكان، وهو تصرّفٌ ممنوعٌ في واقع الأمر. كانت معظم الحالات عبارةً عن استيلاءٍ غير قانونيٍّ على الممتلكات الألمانيّة، وأوامرَ سريعةٍ، وما ترتّب عليها من خسائرَ بشريّة، وما وقع أيضاً من: اغتصاباتٍ، ثمّ اتّهامٍ، ثمّ حُكمٍ وسجن. تسير الأمور حاليّاً على نحوٍ روتينيّ.

استولى هانزن في جيلشينج على سيّارة كابريوليه من طراز أدلر ترومبف، بمذياع، وهي رفاهيةٌ نادرة. كان يشعر أنّه يقوم بشيءٍ غير قانونيٌّ، ولكنْ ما قيمة ذلك في مرحلة التحوّل من نظامٍ إلى آخر؟ استسلم النظام القديم، ولكنْ لم ينتهِ منهجه تماماً؛ لأنّ أشخاصاً في الخدمة ما زالوا يتبنّونه. حصل هانزن على تفويضٍ بالاستيلاء على سيّارةٍ ألمانيّة. استُخرجت الأوراق من دون الاستفسار عن السبب، ولكنْ لم يبقَ في واقع الأمر كثيرٌ من السيّارات الخاصّة؛ فمعظمها قد استولت عليه القوّات المسلّحة النازيّة، أو لم تكن تعمل بسبب نقص قِطع الغيار. كان الرقيب يعرف في جيلشينج شخصاً يمتلك سيّارة كابريوليه، كان صيدليّاً ورئيساً للنقابة المحلّيّة للصيادلة. ظلّ يُوَلْوِلُ حين حضر هانزن بتفويض الاستيلاء، مُدّعياً أنّه في حاجةٍ إلى السيّارة بحُكم العمل. قال هانزن: «الدرّاجات موجودةٌ، وإنّ ركوب الدرّاجات صحّيٌّ، ألمْ يكن دوره تنشيط الناس؟». دقّ على جيب مسدّسه، وأظهر خطاب الجهة العسكريّة الذي يرخّص له الاستيلاء على سيّارةٍ مدفوعةٍ بالمحرّك^، ولكنْ هل انطبق ذلك على الكابريوليه أيضاً؟ أخذ هانزن مفتاح السيّارة، ورآه في المرايا الخلفيّة ينظر إليه، وشعره المصبوغ بالأسْود يلمع في ضوء الشمس.

كانت هناك أصواتٌ في المقرّ الرئيس تتحدّث عن هانزن في لحظات ظهوره بوصْفه سائحاً في بزّةٍ رسميّةٍ؛ إذْ كان يتمتّع بحُرّيّاتٍ كثيرةٍ بسبب خدمته في مكانٍ بعيدٍ، والمهمّة المبهمة المُكلّف بها للبحث في فِكْر مُحسِّن النسْل. توفّر لمهامّه الرسميّة كمٌّ كبيرٌ من الوقود.

حصل مقابل عشرة دولارات وعلبة سجائر على كاميرا فويجتلاندر بيسا بفيلمٍ ملفوفٍ، من موظّفٍ في مجال رعاية الغابات. بعد أيّام قليلةٍ، قدّم هانزنُ للرجُل المزيد مقابل بعض الأفلام الأُخرى. كان هذا بالأحرى

نوعاً من التجارة في السوق السوداء. تعجّب هانزن، الملتزم عادةً، من نفسه: لمْ يهتمّ بالأمر؛ كانت حالة طوارئ، ووجد أنّها تسري عليه أيضاً.

لمْ يشأ أن ينزل في كلّ مرّةٍ يرى فيها شعاراً، فكان يلتقط صوره من السيّارة. كان الحزب قد أمر بكتابة الشعارات التي ألّفتها وزارة الإعلام على الحيطان والجسور المرئيّة كلّها، مرّةً باللّون الأبيض، ومرّةً باللّون الأسْود، بحسب لون الخلفيّة. لا تزال عربات القطار تحمل شعار «العجل يدور من أجل النصر»، لكلمة النصر زهوةٌ خاصّةٌ، كأنّها رسالةٌ ضمنيّة.

ادّعى هانزن أنّهم يدرسون في الوطن محتوى تحقيقاته، ليس من الجانب اللّغويّ والتأثير السياسيّ فحسْب، كما هو واضحٌ في العبارة المذكورة، ولكنْ أيضاً من أجل إمكانيّة نقلها إلى مجال الدعاية للسجائر، والسيّارات، والويسكي. لماذا لا نستعين بهذه العبارة، ونكتبها باللّون الأبيض: «**المُتعة للزاحفين كلّهم فوق الرمال: سجائر كاميل**».

قالت سارة ضاحكةً: «**هذا هُراء، إنّها شعاراتٌ غبيّة**».^

قال هانزن: «**ربّما. كيلروي كان هنا، وتناول الويسكي جيم بيم الجيّد. سوف أطلب واحداً الآن**».^

- **لا تحاول العمل في مجال الإعلانات**.^

رافق شعار «كيلروي كان هنا" هانزن وفرقته في كلّ مدينةٍ ألمانيّةٍ انتصروا فيها: فورتسبورج، أوجسبورج، ميونخ، حتّى في كوبورج، حيث دخلت مقدّمة الفرقة العسكريّة، ووجد الضبّاط الأمريكان الشعار على كلّ تمثالٍ، وسورٍ، ومرحاضٍ، كأنّ فرقةً عسكريّةً خاصّةً وسرّيّةً قد سبقت الجيش بالطباشير.

كان لدى سارة في عطلة الأسبوع التالية وقت فراغ، حضرت إلى ميونخ بالقطار. جلس في الكابريوليه المفتوح، وانتظرها في محطّة قطار شتارنبرغ. وصل القطار، خرجت من قاعة الاستقبال المحمولة على الأعمدة الحديديّة، بشعرها الأحمر، ونهديها البارزين من بين أزرار الزيّ العسكريّ، بحيويّةٍ، وانفتاحٍ، وضحكاتٍ، ابنة طبيب الأرياف في مونتانا. بعد لقائهما الأوّل في الكازينو، وثلاث كؤوسٍ مزدوجةٍ من الويسكي، ذهبا إلى الغرفة التي تقطنها مع زميلاتها الأربع. خلعت سترتها، وجواربها، وملابسها الداخليّة، ولكنْ احتفظت بالجاكيت، قائلةً: «إنّها ستبقى بذلك رئيسته في العمل». طلبت إليه الاستلقاء على ظهره، وبدأت في تقبيله من ركبته فأعلى، لمست أزرار الزيّ العسكريّ ببرودتها بطنه وصدره. أمَرته: «**استرخِ، لا تتحرّك حينما أصعد إلى أعلى**».^ كان الأمر بهذه البساطة؛ لا وعود بالحُبّ، ولا تأكيدات. لمْ تنزعج من دخول إحدى زميلاتها إلى الغرفة. قالت: «**إنْ كان هذا يزعجك فاخرجي، وإلّا فادخلي، والتزمي الصمت**».^

بقيت الزميلة في الغرفة.

ماذا لو رآها أبوها من مونتانا في هذا الوضع؟ هذا الطبيب المنتمي إلى جماعة الكويكرز الدينيّة، هل سيتحدّث عن الإغواء، وعن أسباب الظروف التي تخلّى الإله عنها، أم سيتحدّث عن الشرّ القائم في كلّ مكانٍ فحسْب؟

ذهب هانزن مع سارة إلى المنزل المُطلّ على البحيرة. كانت سيّدة شابّة تزور جورج، تعرّف إليها منذ أسبوعٍ في ميونخ، زوجها هو الذي كان يقطع الأشجار في زيبيريا، ويقبع حاليّاً في السجن. ألقى هانزن وسارة نظرةً قصيرةً إلى داخل غرفة الحديقة؛ حيث كان الاثنان يجلسان متجاورين،

الشابّة جالسة على المقعد واضعة ساقاً فوق ساق. أمسكت لحظة دخول سارة بطرف سُترتها المرفوعة إلى فوق، في حين كانت هناك سيجارةٌ بين أصابع يَدها الأُخرى. في هذه اللّحظات، كانت تتعلّم التدخين. لمْ تتحدّث باللّغة الإنجليزيّة، وكان جورج يقرأ الألمانيّة ويفهمها، خاصّةً فيما يتعلّق بالموضوعات الطبّيّة، ولكنّه لم يكن قادراً على الحديث بها جيّداً.

قالت سارة، وهي تصعد الدَّرج: «**لا يحتاجان إلى التحدُّث، ولكنْ علينا نحن أن نتحدّث**».^

قالت سارة لاحقاً: «إنّ جورج يمارس التآخي. **لا تتوقّف، استمرّ**».^

استمرّت في الحديث، وهو يراها أمامه عاريةً: «**الحمد لله، تبّاً لمحكمة المقاطعة، لقد حان الوقت**».^ قبّلتْ كتفه، ولَعقت وجهه.

لاحقاً، سَمعا لهاث السيّدة. ما يعيشه هنا مختلفٌ تماماً عن فتيات الجامعة، وما عاشه مع كاثرين في نيويورك.

إلى جانبه تنام سارة، التي يسمع صوت مضغها بين الحين والآخر، وهو يفكّر في كاثرين، كيف خرج معها في صباح اليوم التالي إلى مطلع الربيع الباهر.

ارتدت في البداية فستاناً بزهورٍ ورديّة اللّون، ثمّ فستاناً بنقاطٍ زرقاء، وسألته: «هذا أم ذاك؟». أشار إلى الفستان بالنقاط الزرقاء: «هذا تحديداً».

ذهبا بعد تناول الفطور بالدرّاجة إلى حديقة سنترال بارك، لمْ يأخذ الاثنان كفايتهما من النوم، ولكنّهما كرّرا أنّهما ليسا مُجهدَيْن، بلْ في يقظةٍ تامّة. قال لها: «لكِ بريق». ذهبا إلى الحديقة، هو بزيّه العسكريّ، وهي بهذا الفستان الصيفيّ الخفيف. لَحظ أنّها تنتفض، واقترح عليها الذهاب إلى

مقهى. كان حديثهما يتنوّع بين الألمانيّة وبين الإنجليزيّة؛ يستعملان الّلغة الألمانيّة في لحظات الحديث وسط الحاضرين عن مشاعرهم الدفينة، والسعادة التي جلبتها لهما العاصفة الثلجيّة.

هل كان يقارن؟ نعم. ماذا كان يظنّ في نفسه؟ يا إلهي! هذا كلّه ممكن. هل كان يتعجّب من نفسه؟ نعم، لمْ يثق بقُدراته في أمورٍ كثيرةٍ أم كانت ذكراها بعيدة، كأنّها كانت في حياةٍ أُخرى، بعاداتٍ، وملابسَ، ومُتعٍ مختلفة؟ على أيّ حال، كتب مُحتفياً بنفسه: «العالم القديم هو عالمي الجديد. الأسُود قادمون *(Hic sunt leones)*».

-6 حزيران/ يونيو-

على طريق السفر إلى بحيرة كيم زي، لا تزال شعارات الصمود بالّلون الأبيض مرئيّةً على الجسور: «احموا السيّدات الألمانيّات من السُّود. القائد قد أمَر، ونحن نتبعه». في وقتٍ لاحقٍ، قام شخصٌ بإضافة الفاصلة بالّلون الأحمر. هناك شعاراتٌ أُخرى، أضيفت في الأغلب بعد الاستسلام، بلونٍ مختلف (أسْود): «القائد قد أمَر، ونتحمّل نحن (التبِعات)». تؤدّي لافتاتٌ لقاعدة الاحتلال الأمريكيّ دوراً تربويّاً: «تمهّلوا في أثناء القيادة، أيُّها المتجاوزون لقواعد القيادة الأوروبيّة».

مرّ طريق السفر عبْر منطقةٍ ذات تضاريسَ جبليّة، توجد شجرةٌ وحيدةٌ فوق أحد الجبال، ربّما تكون شجرة كُمّثْرى، شجر التنّوب، مَراعٍ، وفي الخلفيّة تقترب بشدّةٍ جبال الألْب، التي تغطّيها الثلوج. «العالم القديم هو عالمي الجديد. الأسود قادمون (Hic sunt leones)».

-7 حزيران/ يونيو-

الشمس البافاريّة وسماؤها كما عرفتهما؛ سُحُبٌ بيضاء وصغيرة في سماءٍ زرقاء رائعة. الحياة العسكريّة والحُبّ: يظهر النظامُ الهرميُّ في الزيّ الموحَّد مع التدرُّج الذي يعبّر عنه في الوقت ذاته عدد الزوايا، أو الشرائط المعدنيّة، إنّه نظامٌ واضحٌ للسُّلطة والمنزلة. أين نجد هذا النظام سوى في عالم الحيوان؟؛ إذْ ترمز نهايات قرون الغزلان إلى القوّة الإنجابيّة للحيوان. ما يخلق المسافة بين النظام وعمليّة الاختيار هو ذلك الوضع النفسيّ بالغ الحساسيّة. يذهب الجنود، ويأتي غيرهم. المغامرة العاطفيّة مقبولةٌ نفسيّاً. لقد أخفق الرجال الذين كانوا يحموننا، وجاء المنتصرون. تُقبَل الهدايا بضميرٍ مرتاح. صوت اللّهاث القادم من أسفل مسموع، الآنسة الألمانيّة التي تعدُّ سيّدةً ألمانيّةً محترمة، بعد ذلك: لا وجود للمحبّين المتألّمين، ولا نهايات معقّدة، ولا لحظات وداع؛ فالعِلْم بالوضْع المحدود زمنيّاً يحفّز العلاقة أكثر من التفكير في الارتباط العاطفيّ الذي يقوم على الأمل والاستمراريّة. حُبُّ الجنود: لقاءٌ عابرٌ بين الحين والآخر، ثمّ توقّفٌ تامٌّ، تقليلاً للإحراج. حالةٌ عاطفيّةٌ استثنائيّة.

-8 حزيران/ يونيو-

تعلّمت كلمةً ألمانيّةً جديدةً للجِماع: يُضاجع، ويقابلها في اللّغة الإنجليزيّة: سكروينغ.

أسمع مع كلمة مضاجعة صوت الفِراش.

قطّةٌ ببقعٍ بيضاء وسوداء جاءت اليوم مرّةً أُخرى، وضعت لها قليلاً من الحليب في طبق فنجان، فلَعقته بلسانها الذي أبهرني بسرعة حركته.

جاءتني، وقفزت مثل أمس وأوّل أمس على حِجْري. طردها جورج؛ لخوفه على طيوره المغرّدة.

غريبٌ ما قاله لي الرائد إنجل: «تتعرّف الحيوانات إلينا»، ولكنْ هل تتعرّف أنفسها من خلالنا؟ إنّ الحيوانات تطلب أن نفهمها، ولكنّ طلبها لا يُلبّى.

اليوم الثاني

- هل رأيتها؟ هل كنت في القصر؟

-مقطع غير مفهوم-

آهٍ، إنّها قصّةٌ معقّدةٌ، ليست واضحةً كما يبدو من الوهلة الأولى. ليست القصّة بالتأكيد كما ادّعى بعضهم همْساً أنّ أموال اليونانيّة هي سبب الطلاق من زوجِه الأولى باولينة. لا، لمْ تكن قادرةً على الإنجاب، وكان الإنجاب بالنسبة إليه، عالم الجينات، بالغَ الأهمّيّة. كانت أنيتا، التي أطلقنا عليها لقب اليونانيّة، سيّدةً في غاية الجمال.

أجلْ، لا تزال السيّدة العجوز بمظهرٍ جيّد. كان بلوتز لا يملك شيئاً؛ والده قد أفلس. والد أنيتا كان تاجراً من بريمن، حقّق ثروةً من تجارة القمح في الأرجنتين، كما امتلك مزرعةً كبيرةً للأبقار، نحو عشرين ألف بقرة من الوزن الثقيل، تنعم بالمراعي الأرجنتينيّة؛ لتتكاثر وتُربي لحْماً لإنجلترا الجائعة؛ أمّا والدة أنيتا، فكانت من عائلةٍ يونانيّةٍ عريقةٍ في القسطنطينيّة. لا، لا يُستحبّ سَرد القصّة من كثرة سذاجتها. يمكن وصْف أنيتا بأنّها كانت صفقةً رابحةً، ولكنّ الشائعات، التي تقول: «إنّ بلوتز قد تزوّجها فقط من أجل مالها»، لا تراعي روعة مظهرها، وموهبتها الفنّيّة، وروحها، وسعادتها

الطفوليّة، وخيالها الجامح الذي كانت ترى به الدنيا. هذا إضافةً إلى حبّها للحفلات وللظهور، كما كانت تقول. كانت تمنح العلاقة شيئاً يفتقده هو، بوصْفه عالِماً؛ أيْ: الجانب الفنّيّ، وخفّة الحياة الحُرّة. تعاملت في برلين مع الرسّامين، والنحّاتين، والأدباء، والممثّلين. كانت ترسم وتنحت، حين تشاهد تمثالها البرونزيّ لآلهة الحرب، سيكون لديك تصوّرٌ عن موهبتها. تتجلّى أيضاً في لوحاتها الزيتيّة. هل ترى الصورة هناك؟ إنّها هديّةٌ، طاحونةٌ مائيّةٌ في منطقةٍ جبليّةٍ ببولندا، ومنزلٌ ومعه بُحيرةٌ صغيرةٌ، يغطّيها نباتٌ مائيٌّ كثيف، تنعكس السماء الزرقاء في المياه بلونها بين الرماديّ وبين الأخضر، إنّها سماءٌ كالتي نراها في ذروة الصيف، تتجمّع السُّحب البيضاء بعيداً؛ لتعلن عن أمطارٍ مسائيّةٍ قادمة. هذه اللّعبة المنعشة وسْط أوراق الشجر بين الضوء وبين الظلّ. حينما أطلُّ من نافذة السطوح على سماء الشتاء الرماديّة، تعيدني هذه الصورة مرّةً أُخرى إلى الحاضر. شعورٌ داخليٌّ بسعادةٍ مُحتمَلة.

إنّها صورةٌ جميلةٌ، كأنّها نافذةٌ على الصيف.

يجب أن تكون على عِلمٍ بأنّ البنائيّين الروس هُم -بالنسبة إليّ- الفنّانون الأهمّ على الإطلاق، هذه الصورة الصغيرة في الخلف، التي لا تُظهر سوى أشكالٍ وألوانٍ، كنت قد حصلت عليها من مهاجرٍ روسيٍّ في برلين، اسْمه فلاديمير ليبيديف، كان ذلك في العشرينيّات.

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، بالطّبع، الصديق القديم.

-شيء غير مفهوم-

أفهم الوضع، أجلْ، أنا متأكّدٌ من أنّها كانت ستصبح رسّامةً مهمّةً، مثل:

غابرييل مونتر، لولا أنّها قد ضحّت بموهبتها لصالح زوجها. لاحقاً، كانت ترسم بين الحين والآخر، بألوانٍ مائيّةٍ أيضاً، وكان بينها بعض الأعمال الجميلة، ولكنّ الحياة اليوميّة، والأطفال، والقصور، استحوذت على وقتها كلّه. يجب القول: «إنّها لمْ تنشغل بالطهْو والتنظيف على الإطلاق؛ إذْ كان لديها بفضل إرثها فريقٌ من الخادمات، والطاهيات، وقائدي الحناطير، وعمّال الحدائق»، ولكنْ يجب مراقبتهم، وتوزيع المهامّ في القصر والحديقة. هذا كلّه مطلوبٌ؛ حتّى يتفرّغ الأستاذ لأبحاثه، ولمَنْحه الهدوء الذي طلبه. لمْ يطلبه بوضوحٍ، ولكنّه فرض نفسه من خلال تصرّفاته التي أحاطها بالسرّيّة. أخبرته، في إحدى زياراتها إلى متجر الكتب القديمة، بأنّه لا يجوز للفنّانة أن تتزوّج. هل يُسمح بضرب الأطفال على أصابعهم، حينما يلعبون بأنابيب الألوان، حينما يعبثون بالفخّار الذي استُعمل في الحال لتشكيل تمثال؟

لم تُوجّه إليه أيّ لومٍ على الإطلاق، ولمْ تتغيّر مشاعرها، أو تندم على اختياره. كانت تقول: «كنت متأكّدةً في الحال من أنّه الرجُل الذي أكنُّ له مشاعر إيجابيّة». كان ذلك يقبض قلبي؛ لأنّ كلماتها تعني أنّ هذه المشاعر لن تكون من نصيبي. لازمني ألمٌ شديدٌ لمدّةٍ طويلةٍ؛ لأنّ اختيارها لمْ يقع عليّ؛ أمّا هو، فلمْ يسْعَ وراءها طويلاً، وهي لم تراوغ، أو تفكّر، أو تتردّد. إنّها اللّحظة الأولى التي حَسمت الأمر، كما هي الحال دائماً مع القصص الغراميّة العنيفة.

على عكسه، كنت أتودّد إليها، وأراها كثيراً، وأتقرّب إليها، ولكنّني لمْ أبح بمشاعري؛ كان خجلي يمنعني، ما سهّل عليَّ الحديث عن لوحاتها ورسمها. ربّما مثّل إعجابي بفنّها عائقاً أمام الاقتراب الجسديّ منها والبوح بمشاعري. في لحظةٍ ما كان هذا مُتاحاً؛ كنت أزور هذه السيّدة الشابّة في

مرسمها بمنطقة برلين شتيجليتس، كان عبارةً عن قاعةٍ متّجهةٍ إلى الشمال، بنوافذ تصل حتّى السقف. وقع النظر على حديقةٍ ملأى بشجر الزان.

-مقطع غير مفهوم-

في إحدى الحفلات، كانت حفلة عيد ميلاد، دُعيتُ إليها بوصْفي عضواً في الكتلة البرلمانيّة الديمقراطيّة الاجتماعيّة داخل برلمان الرايخ. هذه السيّدة، التي تذكّرك رؤيتها بشواطئ البحر المتوسّط وأشجار الصنوبر والسرو، كانت تلفت -في محيط السيّدات الأُخريات القادمات من برلين، وبراندنبورج، وبوميرانيا- الأنظار إليها، بشَعرها البنّيّ الداكن الكثيف، المرفوع إلى أعلى، ولمعانه باللّون الأحمر، وبعيونها الغامقة والمشرقة، وبشفتيها ذواتَي الّلون الأحمر الطبيعيّ. قد يظنّ بعضهم أنّها كانت تتّبع تقليعة جديدة، وتضع مساحيق تجميلٍ قويّةً، ولكنّني راقبتُ تصرّفاتها الصغيرة المعبّرة عن إعجابها بنفسها، تضغط باستمرارٍ بأسنانها على شفتيها، ثمّ تعود إلى الصالون مرّةً أُخرى. كانت وقتها قد صارت زوجَ الصديق، وتمارس دورها الرسميّ.

كما قلت، في عيد ميلاد صديقٍ، رسّامٍ غير موهوبٍ مع الأسف، ولكنْ ورث أموالاً من عائلته، التقيت بها، وجمعتُ شجاعتي كلّها؛ لأسألها عن إمكانيّة رؤية لوحاتها، فدَعتني إلى المرسم، وزُرتها هناك كثيراً، كما أُتيح لي أن أكون مشاهداً صامتاً لعملها. عندما كانت ترسم لوحةً لمركبٍ في بحيرةٍ صغيرةٍ، كانت تقف أمام حامل لوح الرسم، في يَدها اليسرى مجموعة الألوان، وفي اليمنى الفرشاة -نظرتها وتردّدها- ثمّ ترسم بحذرٍ خطّيْن بالفرشاة. هكذا كنت أجلس على مقعدٍ يهتزّ، وأعايش لحظات رسمها. كان دليلاً على الثقة؛ لأنّني كنت أعلم بعدم حبّها للصحبة في أثناء العمل. حتّى اليوم، حين أشمّ مصادفةً رائحة التربنتين، ورائحة زيت

الألوان في أيّ مكانٍ، ينشرح صدري بعبيرٍ يبعث السعادة، ويطرد شجوني. كنت أفكّر في نَيْلي هذا الشرف، وهذه الثقة. وضعت ملاءةً بيضاء فوق الّلوحة غير الكاملة المعلّقة على الحامل، وجلست إلى جواري بالمعطف الأبيض المبقّع بالألوان. عرضتُ عليها سيجارةً من نوع سالم جولد، وتحدّثنا عن الفنّان مينسل، الذي كان يعجبنا نحن الاثنين؛ ليس بلوحاته التاريخيّة، بلْ بالّلوحات البسيطة التي تعرض مشاهد داخليّة. كانت تعشق لوحاته في الطبيعة، وخاصّةً الّلوحة المشرقة «عشاء حفلة الرقص»؛ أمّا أنا، فأحببت لوحة «مصنع الحديد». لمْ تكن قد رأت الّلوحة من قبل، وصفتها لها؛ تحفّزني نظراتها واهتمامها بي. وصْفتُ رسم مينسل لمشهدٍ داخليٍّ في مصنع. إنّه عالمٌ مختلف، لا تعرفة الأغلبيّة. إنّه لا يرسم شجر البتولا الأبديّ، ولا شجر الكستناء، ولا البحيرات الصغيرة التي لمْ أذكرها؛ لأنّ لوحتها الحاليّة كانت تعرض مركباً وسْط بحيرةٍ صغيرة. إنّه يرسم الماكينات، لأوّل مرّةٍ يعرض رسماً بالزيت المشهد الداخليّ لعمليّة إنتاجٍ تقنيّ، ولكنْ كيف قام بذلك؟ بنقل هذه الأجواء؟ الّلون البنّيّ للقاعة الذي يتداخل معه لونٌ أزرق يميل إلى الّلون الرماديّ، إنّه دخان الماكينات، الحرارة التي تخرج من ماكينة الدرفلة، التي أدخل إليها في هذه الّلحظة لوحاً من الحديد المشتعل فوق عربة. عاملان بزيٍّ واقٍ ثقيلٍ يحميهما من الحرارة يقلبان بكمّاشاتٍ كبيرةٍ هذا الّلوح المشتعل. فوقهما تشابكٌ للأنابيب، والوصلات، والتروس، والقنوات الناقلة. على حافّة المشهد عمّالٌ قد خلعوا الملابس العُلْويّة عن أجسادهم؛ انتهت فترة عملهم، ويغتسلون. في الركن الأيمن، الذي يفصله مجرّد لوحِ معدنيٍّ منبعجٍ عن القالب الحديديّ المشتعل، يجلس عاملٌ يلتهم طعامه من طبقٍ معدنيّ؛ إنّها استراحةٌ قصيرةٌ له وللجالسين إلى جانبه أيضاً. سيّدةٌ شابّةٌ قد أحضرت

إليه الطعام، تنظر إلى مُشاهد الّلوحة، وتعرض عليه سلّتها الفارغة. أجلْ، يلخّص هذا المشهد كلّ ما كان يقصده ماركس بتشيىء العامل، كيف أنّه يتحوّل إلى تابعٍ لماكينةٍ لا يملكها، كيف أنّه....

قاطعتني في هذه الّلحظة، وسألتني عن العلاقة بين الّلونين: البنّي، والأزرق في القاعة. لمْ تهتمّ بماركس، ولا بالجانب المجتمعيّ، ولا النقابيّ، ولا بالصراع الطبقيّ، ولا بالديمقراطيّين الاجتماعيّين. ماذا عن تدرُّج الألوان؟ لا يمكن وصفها، بلْ يجب رؤيتها. كم كان حجم سعادتي إذْ تأمّلت هذه الّلوحة معها! ربّما كانت هذه أمنية، أو أملاً في إقناعها برسم شيءٍ عن العمل في المصانع، عن عالم التقنيّات المضادّ لعالم الطبيعة المثاليّ.

أرسلت إليَّ مرّةً أُخرى بطاقة دعوةٍ إلى المرسم، كانت بطاقةً بريديّةً، ترسم عليها عادةً تفاصيل صغيرة وغريبة، مثل: أسطوانةٍ محطّمة، وقطعة كعكة، وفناجين مكسورة، وسكاكين مكسورة.

كتبت أنّها في حاجةٍ إلى مشورتي.

هلّلتُ فرحاً. أجلْ، بصوتٍ عالٍ. أعْذِرْني من هذه التفاصيل الخاصّة.

- لا، مطلقاً، واصل حديثك، أنا متفهّمٌ لشعورك.

- شكراً. إذن، أنت تتصوّر حالتي، وأنا ذاهبٌ إليها. كنت اتّخذت قراراً بطلب الزواج بها. إرثي، ومرتّبي المتواضع، والديمقراطيّة الاجتماعيّة، كانت كلّها أموراً مبنيّةً بالفعل على المثاليّة، ولا تنبئ بحياةٍ مرفّهةٍ، أو تتيح بناءَ أُسرةٍ جديدة. يجب التأكيد هنا على أنّني في ذلك الوقت لمْ أكن أعرف شيئاً عن ثرائها وإرثها الذي ينتظرها. فتحت الباب، وهي مرتديةٌ معطف الرسم، وأمسكت ذراعي بثقةٍ؛ لتقودني إلى الغرفة الكبرى ذات النوافذ العالية، ودفعتني إلى حامل الّلوحة المغطّى بالملاءة البيضاء. انتهت من

رسم الصورة، باستثناء مساحةٍ صغيرةٍ خلفيّتها باللّون الرماديّ الداكن، كنت أعرف أنّها تتركها دائماً حتّى النهاية. قاربٌ خشبيٌّ في بحيرةٍ صغيرةٍ يغطّيها المغيض، فوقه سماءٌ بسُحبٍ بيضاء، وشريطٍ أزرقَ صغيرٍ، وعلى الشاطئ شجرٌ وشجيراتٌ، وومضات ضوءٍ أخضر. رسمتْ هدوء ذروة الصيف في نقطة؛ وقفتُ في مكاني، وأصابتني الدهشة.

قالت: «رأيك يهمّني كثيراً». نظرت إليَّ، وتسارعت دقّات قلبي، كأنّني قد صعدت سُلّماً، قلت لنفسي: «فلْتهدأ يا قلبي».

هذا رائع، هل من الممكن أنْ...

السؤال، السؤال الآن الذي يوازي فعلاً. أعطيت نفسي دفعةً جسديّةً قويّةً، وقلت: «عزيزتي، حينما أراكِ في أثناء العمل، وأنتِ تلتفتين إلى الحامل واللّوحة بنظرةٍ متعمّقة، نظرتك، وأنت تمسكين برقّةٍ بالفرشاة، وتضعين لمساتك، وتداعبين القماش، فيتلألأ جمالٌ جديدٌ للبحيرة، وتداخلٌ رائعٌ للألوان، ثمّ ينفصل اللّون البنّيّ المحمّص للقارب عن لون الماء الذي يجمع بين الأخضر، والرماديّ، والأزرق، يجب عليّ في هذه اللّحظة طرْح هذا السؤال...».

قالت: «أجلْ، أعرف أنّ اللّون البنّيّ المحمّص لا يتّسق مع القارب، ولا الشاطئ، ولا الطريق الرمليّة أيضاً باللّون البنّيّ والرمادي؛ يجب تفتيح اللّون». رجعت بضع خطواتٍ إلى الخلْف بعيداً عن الحامل، تأمّلت الصورة، قالت: «أنت مُحقّ». أمسكت بالفرشاة، ومسحتها بزيت التربنتين.

كيف كان لي في هذا الموقف طلب يدها، وهي منشغلةٌ بغسيل الفرشاة؟ لاحقاً، انتابني الشكّ في أنّها كانت تقود مسار الحديث في هذا الاتّجاه تحديداً؛ لأنّها كانت داخليّاً منشغلةً بشخصٍ آخر. كنت في هذه الفترة قد عرّفتُ صديقي إليها. طلبت إليه بسبب خجلي أن يستكشف

مشاعرها تُجاهي. أعرف أنّ هذه الأمثولة القادمة من العصور الوسطى تخفّف من وطأة قصّتي: «المكلّف بإتمام الزيجة يفوز بالعروس لنفسه».

لمْ يخطر على بالي وقوع ما حدث؛ لأنّ صديقي كان متزوّجاً وقتها. كانت زيجته الأولى زيجةً فكريّةً؛ لأنّ زوجته باولينا هي أخت صديقه إرنست رودين، عالِم النفْس، والعالِم في تحسين الوراثة. كانت شخصيّةً مدهشةً، ذكيّةً، رقيقةً، ولكنْ تملك طاقةً جبّارة؛ إنّها أولى الطبيبات في ألمانيا وسويسرا، وكان يُفترض أن تسير في طريقٍ مختلفةٍ تماماً عن طريق الصديق. انتحرت وهي عجوز.

– من كانت هذه السيّدة؟

– هناك مشهدٌ وقع في زيورخ في عام 1889، ربّما 90؟ كنّا مجموعةً من الطلّاب، والأدباء، والاشتراكيّين، والفوضويّين، والثوّار، والحالمين، نجلس أمام مطعمٍ، ربّما كان اسمه كرويف، في يوم صيفٍ حارّ، في وقتٍ متأخّرٍ من الظهيرة، كنّا نحتفل بالامتحان الأخير لباولينا وبلوتز من دون تناول الكحول؛ كان في هذه الفترة قد توقّف عن الشُّرب، على الرّغم من تناوله المفرط للجعّة سابقاً، فألْزمنا معه بهذا الامتناع بحكاياته عن المستشفى؛ إذْ كان مدمنو الكحول والمرضى العقليّون يموتون ببطء. جلسنا إذن في الهواء الطلْق، وتبادلنا الأنخاب بشُرب عصير التفّاح والمشروبات الفوّارة. ظهرَ رجُلٌ بذقنٍ، غليظٌ ومخمورٌ، وكان يسبّ كلّ شيءٍ: الربّ، والدنيا، بدا عنيفاً؛ إذْ اقترب من الموائد بحجمه العريض والضّخم. نهض النساء والرجال، وهربوا إلى داخل المطعم. أراد النادل، شخصٌ إيطاليٌّ بجسدٍ هزيلٍ؛ إبعادَه، ولكنّه أزاحه بعيداً. قلبَ مائدةً بالأطباق وسلّة الخبز، وهاجم الطّاهي المفزوع الذي كان يمسك بالشوكة والسكّين. نهضت باولينا في هذه اللّحظة، وذهبت إلى الرجُل الثائر،

فسألته شيئاً، فصمت فجأةً، وتوقّف، وعاد إلى هدوئه، وجلس معها إلى مائدةٍ شاغرةٍ، وعاد الضيوف إلى أماكنهم. رآهما الجميع يتحدّثان، كأنّ مشهد الشّغَب لمْ يقع. ظلّت جالسةً معه، ثمّ نهض الاثنان، ومدّت يدها إليه، مسح على عينيه ورحل. لقد كنّا شهوداً على تحوّلٍ مدهش.

أردنا أن نعرف ماذا سألته.

هل يمكنني مساعدتك؟ هذا السؤال فقط. لقد كان إنساناً تعِساً، توفّيَتْ زوجُه، وكان يحتسي الخمور. لعلّ هذا ما يميّز الصديق القديم؛ عوضاً عن الإصرار في هذه اللّحظة على تقديره الصائب لأضرار الكحوليّات، قال لها: «باولينا، كان هذا رائعاً، هل تتزوّجيني؟».

عُذراً، أنا أخرج عن الموضوع. كنت أريد الحديث عن اليونانيّة، وكيفيّة فوز آلفريد بها. الصديق المتزوّج، الأستاذ الذي لمْ يعد منذ تلك اللّحظة أستاذاً في نظري، ولا الصديق الذي أنبهر به، مع العِلم أنّ الشعور بالقُرب من شخصٍ، ومشاركته ذكريات الماضي، لا يزولان سريعاً بمجرّد الاختلاف في الرأي. ذهب بناءً على طلبي إلى المرسم، وأستطيع سَرد ما حدث، كأنّني كنت معهما. لقد حكى عن اللّقاء، وعنها خاصّةً أيضاً، بمنتهى البراءة. لاحقاً، وجبَ عليّ الاعتراف لنفسي بأنّ قلبي قد انقبض، وهو في الطريق إليها.

من المؤكّد أنّها فتحت له الباب، وأدخلته إلى المرسم، وقدّمت إليه المقعد المُخلخل الذي اعتدتُ الجلوس عليه. بدأ في الأغلب الحديث عن الأطفال المصابين بالكُساح، الذين رآهم في طريقه عبْر منطقة موابيت. قال: «استمرّي في الرسم، لا تعطّلي نفسك». تحدّث عن ضعف ضوء الشمس في الأفنية الخلفيّة، وذكر السيقان المقوّسة، والضلوع المشوّهة، وما يُطلق عليه صدر الإوزّ. تحدّث فجأةً، وهي تضع بالفرشاة بفكرٍ مشتّتٍ

لمسةً بلونٍ أخضر في مقدّمة الّلوحة، عن أهمّيّة الرضاعة وإهمالها بسبب يوم العمل الطويل للعاملات، وخوف سيّدات الطبقة البرجوازيّة على قوامهنّ. وضعت هي خلال حديثِهِ ملاءةً بيضاء على الحامل والّلوحة. أراه أمامي، كأنّني كنت معهما، وهو ينهض من مقعده المُخلخل، وهي بمعطفها الأبيض، الذي كان يمكن أن يكون معطف طبيبٍ، لولا البقعُ الزرقاء والخضراء بين البقع الحمراء. تنظر في دهشةٍ إلى هذا الرجُل صاحب البزّة الداكنة، والقميص الأبيض، وربطة العُنق الحمراء التي بَدت غريبةً وقتها، وشعره المموّج الأشقر الكثيف الذي كان يعلو وجهه الجادّ. نظرت إلى عينيه، التي وصفت لي لونها لاحقاً كأنّها زرقاء بلون زرقة جبال الجليد، وقالت: «أنت على حق». يجب القول: «إنّ حماسه خَلا في هذه الّلحظة من الحذلقة والعِنْد الذي كان يظهر في سياقاتٍ أُخرى. كان ما يقوله ممزوجاً بشعور الاستياء والمطلب المتحمّس: يجب تغيير هذا الوضع». يبدو أنّه قد تذكّر في هذه الّلحظة سبب حضوره، ليسأل لذلك مباشرةً عمّا ترسمه، هذا العمل الذي لمْ ينتهِ بعد بحسب وصفه. تومئ برأسها، فيذهب إلى الحامل، ويرفع الغطاء عن الصورة برفقٍ. أريد التأكيد على أنّني لا أجرؤ على هذا التصرّف أبداً.

بحيرةٌ، وشجيراتٌ على الشاطئ، وفي الغاب مركب تجديفٍ قديم، لمْ يُبْنَ للرحلات الترفيهيّة، بلْ للاستعمال في الأغلب للصيْد. مع الأسف، حكت لي أنا، الشخص الوحيد الموثوق به، هذا كلّه لاحقاً، وأنا أيضاً سألتُ متألّماً؛ لأثبت لها اهتمامي. تأمّل الصورة إذنْ. لحظات تفكيرٍ طويلة، وأنا أعرف التأثير الآسر للحظات تفكيره. صمتٌ مترقّبٌ يثير الشكوك في كلّ شيء، وانتظارٌ لما سيقوله: «الموضوع مهمّ، وثمّة نقصٌ في الّلوحة، شيءٌ لا نراه».

– ماذا؟

- شيءٌ مهمٌّ ناقص.

- ماذا؟

- المركب عائم.

خرجت من فمها كلمة «ماذا»، وهي في حيرةٍ من أمرها.

قال: «يُفترض أن نرى المراكب عائمةً، ولكنْ تظهر أهمّيّة المركب كاملةً عندما يظهر نقصه. املئيه بالماء، سيظلّ عائماً، ولكنّه غير قابلٍ للاستعمال. مركب، ولا مركب في الوقت ذاته. الّلون الرماديّ والأخضر للمياه سيكون أيضاً لون المركب. المياه تحمله، ولكنْ ليس بوصفه مركباً. إنّه يشير باللّون فقط إلى العنصر الذي ينتمي إليه».

كنت قد دعمتها بثَنائي على توافُق الألوان؛ أمّا هو، فقال لها: «إنْ سمحتِ لي بإبداء رأيي، فأقترح عليكِ تغيير الألوان».

يبدو أنّه تحوّل بعد ذلك إلى الحديث عنّي؛ كي يَفي بوعْده. حكى عن عملي السياسيّ في زيورخ، وعن وضعي غير الهامشيّ، بوصْفي نائباً تابعاً لأوغوست بيبل في الكتلة البرلمانيّة الديمقراطيّة الاجتماعيّة. حكى عن رحلتنا المشتركة، وأنّني شخصٌ موثوقٌ به. يبدو أنّها أكّدت حديثه، وأنّها تراني شخصاً مثيراً للاهتمام، مستقيماً، ثمّ هذه الكلمة المدمّرة: أنّني لطيف. بالتأكيد، لمْ يقل إنّني معجبٌ بها مباشرةً، إنّما بحذرٍ تكتيكيّ. كلّما زاد حديثه، زاد اهتمامها به، بوصفه الطالب والسائل، يبدو أنّها شعرت للمرّة الأولى أنّ المتحدّث يصْبو إلى مجالٍ يخصّ شخصاً آخر، ولكنّه متاحٌ له أيضاً، كما أدرك في أثناء ذلك أنّ هذه المواصفات تنطبق عليه هو الآخر. منذ هذه الّلحظة، سوف يرى كلّ واحد منهما الآخر بعيونٍ مختلفة.

حينما التقى بي، قال برفقٍ: «إنّها تستلطفني، ولكنّه لا يعتقد أنّ ثمّة مشاعر أعمق من ذلك».

سألته: «وما رأيك؟».

- جميلة نسبيّاً، لها قدرٌ من الأهمّيّة. لديه القدرة على قول شيءٍ من هذا القبيل.

بدأت في إعادة رسم اللّوحة، ثمّ تركتها ولمْ تنتهِ منها. تزوّجته بعدها بعدّة أشهُر. يجب ذِكْر هذا أيضاً: كانت تحكي عنه بمديحٍ وحُبٍّ؛ الأمر الذي كان يصيبني بانقباضات. عُذراً؛ لأنّني حكيت لك عن أسرار قلبي.

- هذا أمرٌ طبيعيٌّ، لقد رأيت صوراً؛ إحداها صورة عائليّة، ربّما في مركز تصويرٍ فوتوغرافيّ: يتكئ بلوتز إلى منضدةٍ، مرتدياً بزّةً تبدو لي أنيقةً، وهي، التي تسمّيها اليونانيّة، تجلس أمامه، سيّدة أنيقة، بلْ أنيقة جدّاً، على حِجْرها فتاةٌ صغيرةٌ، ويركع على المنضدة صبيٌّ بزيٍّ بحّارةٍ، صبيٌّ أشقرُ جميل. عائلة منسجمة، ميسورة الحال، وربّما ثريّة.

- أجلْ، رجُلٌ محترمٌ، عريض المنكبَيْن، عينان زرقاوان بنظرةٍ صارمةٍ ومتفحّصة. كان وقت زواجهما طبيباً مُجازاً منذ مدّةٍ طويلةٍ، وقد نال سُمعةً طيّبةً بسبب محاضراته وأبحاثه المنشورة حول إشكاليّات الوراثة وعِلم الصحّة. كان رئيس تحرير إحدى المجلّات الي نشر فيها آراءه حول الانتقاء في المجتمعات البشريّة. كان مثيراً للجدل، ولكنْ أيّ عالمٍ يريد أن يكتشف شيئاً جديداً سيكون كذلك، خاصّةً إذا كان الأمر متعلّقاً بعلمٍ مثل تحسين النسْل، الذي كانت بداياته في تلك المرحلة. لمْ يُعانِ من مشكلاتٍ مادّيّةٍ، كان يساعدني في برلين بين الحين والآخر، كأنّه أمرٌ بدهيٌّ، بدعواتٍ على العشاء؛ لمْ يكن راتبي جيّداً، وكان يجب عليّ تحسين دخْلي بنشر مقالاتٍ، وإلقاء محاضرات. لمْ ألجأ قطّ إلى ميراثي، وحينما اضطررتُ إلى ذلك، اختفى المبلغ بسبب إفلاس البنك الصغير الخاصّ، الذي أكّد استقراره سابقاً. لمْ أكن موهوباً مثله في الحديث الحُرّ أمام جمهور، أنا

رجُلٌ أهوى المحادثة، لمْ يكن ذلك متاحاً في السنوات الماضية؛ كان زمن الصمت. كنت أتحدّث إلى أكستهيلم، وإلى مضيفتي بلغتها البافاريّة الجميلة. من فضلك أخبرني إن كنت أتحدّث باستفاضةٍ، كنت لمدّةٍ طويلةٍ أحكي لنفسي فقط، لِمن غيري كان يمكن أن أحكي؟

فيلا كاولباخ



وقف في الحمّام، كان قد وضع -في الحال- الصابون على وجهه، فإذا بجورج يناديه للردّ على الهاتف. نزل هانزن الدَّرج، وفكّر باندهاشٍ في كفاءة عمل الهواتف. تستمرّ الاتصالات، والتحويل، والتوجيه، وتسيل المياه من الصنبور، وتأتي القطارات وتذهب، صحيحٌ أنّ هناك تأخيراً وأوقات توقُّف، ولكنّ الإشارات والتحويلات قائمة. عمليّات التنظيم المعقّدة والدقيقة مستمرّةٌ في المدن والريف كما كانت. لمْ تقع عمليّات التخريب المتوقّعة. استمرّ العمل في الجهات الحكوميّة، والمصانع، والمستشفيات.

قال له صوتٌ على الهاتف: «إنّ الجنرال باتون غاضبٌ بشدّة». على هانزن الحضور إلى مقرّ القيادة. لم يقل له الصوت على الهاتف سبب الغضب. كلّ شيءٍ متوقّعٌ من العدوّ، بما في ذلك التنصُّت.

عاد هانزن إلى الحلاقة، جرح نفسه، وصبّ الّلعنات، ومسح على الجُرح بحجر الكيّ. هل هو السبب في نوبة غضب الجنرال؟ هل مصادرة المنزل هي السبب؟ هل اشتكت صاحبة القصر؟ كان يقال عن باتون: «إنّه متعاطفٌ إلى حدٍّ ما مع النازيّين، وعن تعبيره العلنيّ عن إعجابه العسكريّ

بأداء الإس الإس». لمْ يرَ هانزن الجنرال وجهاً لوجه، ولكنّه كان يعرف القصص كلّها عن هذا الضابط القادم من سلاح الفرسان. آخر وظيفةٍ شغلها هي قيادة الجيش الثالث الأمريكيّ. شعاره: الهجوم والاختراق. حقّق نجاحاتٍ في صقلية، والنورماندي، ووقت عبور نهر الراين، وفي تورينجن. أُقيل عام 1943؛ لأنّه صفع ضابطين مُصابَيْن بصدمةٍ نفسيّةٍ داخل مستشفى ميدانيّ: «**يا جبناء، أيُّها الكسالى المتسكّعون**».^ ثمّ أعاده أيزنهاور ليعيّنه بعد الاستسلام محافظاً عسكريّاً لبافاريا. كان مقرّه في منزل المتحدّث الصحفيّ السابق للرايخ، ماكس أمان، المطلّ على بحيرة تيجرن زي. كان مسدّسه العسكريّ، الذي استُعمل مرّةً واحدةً، والمغطّى بالنيكل، أسطورةً؛ إذْ قتل به عام 1916 ثوريّاً مكسيكيّاً شهيراً.

عُلّقت لافتةٌ مكتوبٌ عليها: «حكومة الجيش الأمريكيّ» على مدخل ثكنة ماك جرو في شارع تيجرنزير لاندشتراسة، القطاع العاشر. ظلّ هانزن يسأل إلى أن وصل إلى مكتب الجنرال، وسمع، وهو يجلس في غرفة الانتظار الخاوية، صراخ باتون، ورأى أصحاب مختلف الرُّتب العسكريّة، وهم يهرعون عبْر الغرفة، كأنّهم قد ضُربوا.

ماذا حدث؟ قيل لهانزن همْساً: «إنّ الجنرال غاضبٌ بسبب بيان البثّ الأوّل لشبكة القوّات الأمريكيّة، الذي أذاع بالأمس، 10 حزيران/ يونيو، على الهواء، ما يلي: «**صباح الخير! هذه شبكة القوّات الأمريكيّة، صوت الجيش السابع**».^ كان باتون قد تولّى في اللّيلة السابقة قيادة الجيش الثالث. أراد أن يحاكم رؤساء التحرير المسؤولين. في البداية، ظنّ هانزن أنّ هذه مزحة، ولكنّ أحد الضبّاط المنظمين قال: «**كلّا، إنّه جادٌّ تماماً**».^ أراد هانزن معرفة سبب طلبه، لمْ يكن أحدٌ يعرف السبب. ظلّ ينتظر، إلى أنْ أمره عقيدٌ بالتوجّه الفوريّ إلى مقرّ رئاسة تحرير شبكة القوّات الأمريكيّة.

هل فهمت؟ نعم سيّدي. شارع كاولباخ. إنْ قرّر باتون التوجّه إلى هناك، عليه الاستعداد للقيام بالترجمة.

ركب هانزن سيّارته من طراز أدلر المركونة بعيداً، وتوجّه إلى شارع كاولباخ. ركَن سيّارته الكابريوليه بالقرب من الحديقة الإنجليزيّة. تجمّع، في الفيلا التي زيّن مدخلها عَمودان بطرازٍ يونانيٍّ قديمٍ، طاقمُ تحرير البرنامج الجديد: رقيبان، وعريفان، ورجُلٌ بزيٍّ موحّدٍ، ولكنْ من دون رُتبة. الرقيب شتيفان، صبيٌّ ثريٌّ، يشغّل في غرفةٍ مفصولةٍ بلوحٍ زجاجيٍّ أسطوانات الموسيقا. جلس الرجال في غرفةٍ مغلّفةٍ بالخشب، وكانت الأجواء مبهجةً، على عكس المقرّ الرئيس. كانوا يدخّنون، ويشربون زجاجة نبيذ البوربون على منضدة اجتماعات التحرير، ورقيبٌ يفتح زجاجةً أُخرى. انبهر هانزن بشعور الاطمئنان لدى الفريق المهدّد بمحاكمةٍ حربيّةٍ، ولكنْ كان هناك من يراقب على سبيل الاحتياط ظهور باتون، وكان مكلّفاً بإرسال إشارةٍ بمجرّد قدومه. وضع شتيفان أسطوانة موسيقا شعبيّة؛ إذْ يقال: «إنّ باتون يحبّها»، وموسيقا المارش بالطبع. كانوا يسمعون أغنية: «النجوم والشرائط إلى الأبد».

دعوا هانزن إلى كأس بوربون. محكمة حرب؟ في أسوأ الظروف ستنخفض رواتبهم، أو سيعودون إلى أمريكا في وظيفةٍ مدنيّة. يعمل الرقيبان في المجال التقنيّ، والباقي في مجال الصحافة. عمل الرقيب كريس في الإذاعة في نيويورك، والرقيب شتيفان في الجرائد. البقاء في بلد العدم؟ اتفق الجميع على أنّ هذا رائع، بما فيهم العريف المتزوّج. هُم هنا في أفضل حال.

جاء وقت الظهيرة اتصالٌ هاتفيٌّ من المقرّ الرئيس، الجنرال ذهب إلى منزله على بحيرة تيجرن زي. أخذ معه كلبه فيلي، ما يُعدُّ إشارةً أكيدةً إلى

أنّه عائدٌ على الفَور. كان يترك فيلي في بعض الأحيان، عندما يضطرّ إلى مغادرة المكتب، ليجلس إلى جانب مكتبه والملفّات. إنّه أفضل مُخبرٍ لديّ.^

لمْ يشغّل شتيفان في المساء أيّة موسيقا مارش، ولا موسيقا شعبيّة، بلْ أغانٍ لبيني جودمان، وبيج باندز. سألوا هانزن عمّا يفضّله، فقال: «الديوك إلينجتون قطعة (أسود، بنّي، بيج)».^

قالوا له: «أحسنت». طلبوا إليه أن يحكي عن زيارته في نادي الجاز في سانت لويس، عن فريق إيدي راند، الذي كان يلعب فيه شابٌّ صغيرٌ جدّاً على آلة البوق. رائع! ولكنّه نسي اسم الصبيّ.

حضرتْ بعد التاسعة مساءً إلى الفيلا خمسُ ممرّضاتٍ فنلنديّات، يُطلق عليهنّ: لوتاس. كانت الفنلنديّات قد تطوّعنَ منذ سنتين للعمل في ألمانيا. حضرْنَ من المستشفى القريبة، تحيط بهنّ روائح الكولونيا والليسول. كانت مستشفى يوزيفينوم قد دُمِّرت في شباط/ فبراير بسبب سقوط القنابل الحارقة. أخذ فريق شبكة القوّات الأمريكيّة في أثناء بناء الأستوديو ألواحاً خشبيّةً، وصفيحاً مموّجاً، كان يُفترض أن يُغطّى به سطح المستشفى. أدّى ذلك إلى هذه العلاقة الحميمة، فرقص بعضهم، وأحضرت الممرّضات معهنّ الفودكا التي حصلنَ عليها بعد عمليّات مبادلةٍ معقّدة.

- هل هذا صحيح؟ فودكا بعد البوربون؟

ضحكوا عليه: من يهتمّ؟^

احتفلوا بانطلاق القناة، أيّاً كان صاحب البثّ، الجيش السابع أم الثالث. بدا في أثناء الرقص أنّ الممرّضات قاومْن السُّكْر أكثر من الضبّاط الذين جلسوا سريعاً. واصلت الفتيات الرقص. جلست إحداهنّ مع

ضابطٍ في وضعٍ حميميٍّ على السُّلّم. حاول هانزن تخيُّل ظهور باتون مع كلبه فيلي؛ إذْ تخلّى المراقب عن موقعه، وجلس بكأس فودكا في غرفة التحرير، مدخّناً، وواضعاً ساقيه فوق المنضدة.

عاد هانزن في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل إلى البحيرة، وسمع من محطّة المذياع (كاب كالوواي)، وفريق (ذا جنغل باند)، ثمّ (سيدني بيشيه). قدّمه الرقيب كريس بلسانٍ ثقيلٍ، وبتحيّةٍ إلى الملازم هانزن. سمع في الخلفيّة ضحكات الممرّضات. كانت الطريق الزراعيّة خاويةً، بين الحين والآخر يستعمل هانزن بوق السيّارة ليصاحب صوته إيقاع الموسيقا. استمرّ في الضغط على البوق، وهو مارٌّ بقريةٍ مظلمةٍ، ولكنْ لم يشعل أحدٌ النور. فكّر هانزن: «خسارة! تحذيرٌ آخر من استعمال الكهرباء».

-12 حزيران/ يونيو-

كان مقرّ شبكة الجيش الأمريكيّ داخل فيلا فاخرةٍ لمدير الإقليم المتوفّى، فاغنر. قال شتيفان: «إنّه كان معادياً عنيفاً للساميّة»، ثمّ حكى قصّة الفيلا: بناها الرسّام فريدريش أوغوست كاولباخ مع نهاية القرن التاسع عشر. رُسمت على أسقُف اللوجيا وحيطانها رسومات الغروتسك، في المدخل لوحةٌ للإلهة جيرمانيا بوجهٍ عابثٍ، كما تقف شخصيّة برونهيلد أمام حائطٍ ناريّ. باعت أرملُ الرسّام الفيلا لرابطة الطلّاب، وسلّموها هُم بعد ذلك إلى مدينة ميونخ. صارت الفيلا الفخمة بعد ذلك مقرّ عمل مدير الإقليم، فاغنر. أُسّس في عام 1933 بمبادرةٍ منه معسكر الاعتقال في داخاو.

قال شتيفان: «كم أودّ رؤية وجه مدير الإقليم والقائد الأعلى لوحدة

العاصفة، حين يرى في مكتبه يهودياً ألمانياً يضع أسطوانةً للمطرب لويس أرمسترونج، ولكنّ هذه الشخصيّة السياديّة قد توفّيت عام 1944، بسبب الجعّة، والنبيذ القويّ، والسيجار، ومشاعر الكراهية والحدّة».

-13 حزيران/ يونيو-

مررت صباح اليوم بمنطقة شوندورف، ووقفت أمام حديقة منزلٍ ريفيّ. خسّ، وخضراوات جذريّة، وفاصولياء: الأنواع كلّها مزروعةٌ بعناية، ولكنّ ما استوقفني، وجعلني أنزل من السيّارة، ورودُ عيد الفصْح، وزهور الأكيليجيا، وزهور القلب النازف، وفي ظلّ مخزنٍ خشبيٍّ زهرة البنفسج الناري. وقفت عند السور الخشبيّ، وقلت للفلّاحة: «يا لجمال هذه الحديقة!». على الرّغم من تحدّثي باللغة الألمانيّة ردّت: «أنا لا أفهم الإنجليزيّة». ذهبت إلى منضدةٍ، وعادت بحفنةٍ من الكرز، ومدّت يديها الاثنتين، كأنّها تعطيني هبة. كانت بشائر الكرز لهذا العام، بلونٍ أسْودَ داكن. شكرتُها وردّت: «عفواً».

تذكّرت باد أولدزلو، حيث كنّا نقضي الإجازة، شجرة الكرز التي أحيطت بحواجز خشبيّة لحمايتها من طيور الزرزور، ومع ذلك جاءت الطيور بدهائها وأكلت، مُحدثةً ضجيجاً.

اليوم الثالث

- سمعت عن المنظّمات السرّيّة التي أسّسها بلوتز. هل يمكنك قول شيء في هذا الشأن؟

- أسّس بلوتز العديد من التنظيمات السرّيّة، هل تقصد مجموعة باسيفيك الشيوعيّة؟ كارل وجرهارد هاوبتمان، شتاينميتز، لوكس، سيمون، أوتو برينجسهايم، القادمون السبعة من بريسلاو. سيَذيع صيتُهم لاحقاً. تعرّفت إليهم في الغرفة الخلفيّة لمطعم سمكة الشبّوط الذهبيّة في بريسلاو. كانوا مجموعةً مكوّنةً من عشرين، أو ثلاثين شخصاً، كلّهم في سنّ الشباب، بعضهم من الطلّاب، ومعظمهم من التلاميذ. لفت الانتباه إليه في الحال، واستحوذ على اهتمام الحاضرين. كانت الكلمات تفيض منه كأنّها مرّت قبلها بمانعٍ داخليٍّ: قوّة الكلمات، وصوت يحول دون ظهور أيّة شكوكٍ لدى المستمعين؛ لأنّ الاهتمام ينصبّ كلّه على اللّحظة التالية. كيف سيتمكّن الصوت من توضيح المضمون وتأكيده؟ اكتفوا بالأسلوب عوضاً عن المعرفة. لا، كان المضمون هو المنتظر من محاضراتي، أنا مختصٌّ بإلقاء المحاضرات في المؤسّسات التعليميّة للنقابات: الأجر والربح، وقضايا التأمين ضدّ الحوادث، والمستعمرات الألمانيّة، وطبقة العمّال. ولكنّ هناك مجالاً آخر كنت أكتب عنه، وأحاضر فيه: أفكار

اليوتوبيا الاجتماعيّة، ونشأة هذه المجتمعات، كما أسّسها إيتيان كابيه، وروبرت أوّن. أماكن عرفتها مباشرةً، وزرتها بمبادرةٍ منه، ومعه.

-مقطع غير مفهوم-

صحيح، مرحلة التعارف. كان الصديق قد قرأ، مع بداية دراسته في الفصل الدراسيّ الأوّل «رحلة إلى إيكاريا» للكاتب إيتيان كابيه. صدرت الرواية عام 1840 في فرنسا، وحقّقت انتشاراً واسعاً، كما لاقت اهتماماً وحماساً حين تُرجمت إلى اللّغة الألمانيّة. يجب التأكيد على أنّ الرواية لا تُعدُّ عملاً فنياً أدبياً: تكرارٌ لا ينتهي، ووصفٌ جافٌّ للمشاهد الطبيعيّة والبشر، كلّ شيءٍ كما ينبغي أن يكون، منظّمٌ وعاقلٌ، لا مكان للعنف، أو لمشاعرَ عظيمة، ولكنْ ما أبهرنا هو ذلك المجتمع الفاضل، ورؤية المستقبل، وشكل جديد للتعايش، هذا ما أشعل خيالنا. كان الصديق يحاضر عن أحداث الرواية المملّة بحماسٍ ناريّ، كان يأسر المستمعين، وأنا منهم. يترأّس هو هذا المجتمع الصغير النخبويّ. جميعهم يتمتّع بحماسٍ يافعٍ، ويؤثّر في من حوله، ولكنّه كان مختلفاً عن جرهارد هاوبتمان، بلْ وأكثر عن كارل؛ إذْ لمْ يكن ساذجاً على الإطلاق، ولمْ يكن صاحب كلماتٍ عظيمة. كارل هاوبتمان، العضو المؤسّس للمجموعة، كان ينخرط في أحاديث انفراديّةٍ مطوّلةٍ؛ ليكرّر الشرح لكلّ شخصٍ يلتقيه العالِم. كان الإنصات شيئاً غريباً عنه، والسؤال أيضاً، يجب أن يكون دائماً على حقّ، يدّعي لنفسه الأهمّيّة، ويسْخر من أيّ شيءٍ، وأيّ شخصٍ، ما عدا نفسه. لا ينتبه سوى إلى السيّدات الشابّات اللّاتي يتوقّع أنّ لهنّ إرثاً. أنا ظالمٌ بعض الشيء في حُكمي الحادّ عليه، ربّما لغيرتي منه في البداية لكون كارل هاوبتمان الصديق الأقدم لألفريد بلوتز. كان نقيضه في كل شيء؛ لمْ يكن لكارل هذه الجدّيّة، وهذا الحضور المتواضع، وهذا الحماس المُعدي،

وخصوصاً هذه المصداقيّة، التي كان يظهرها بلوتز من خلال مجهوده الفكريّ في الإعلان عن رسالته.

- أردت الحديث عن خطّة كابيه.

- أجلْ، عن تأسيس مجتمعٍ شيوعيٍّ تسوده المساواة، والحُرّيّة، والإخاء، ليس في أيّ وقتٍ، ولكنْ على الفور، في الحال، وفي اللّحظة. تنتهي رواية «رحلة إلى إيكاريا» بنداءٍ للهجرة إلى أمريكا. إنّه مطلب بالسفر الفوريّ. قام هذا المجتمع الإيكاريّ على أساسٍ مسيحيٍّ، نوع من الاشتراكيّة في مراحلها البدائيّة، ولكنْ لمْ يكن أساسها القلب. كان كابيه يمجّد ديكارت، ورؤية المجتمع المثاليّ قامت على العقل. الشابّ بلوتز، الذي كان مُلحداً عنيفاً، نفخ في هذه اليوتوبيا الجافّة روحاً دينيّةً، أجلْ، لقد كان يخطب خطاباً دينيّاً، كنت في التاسعة عشرة عندما سمعته أوّل مرّةٍ يتحدّث في أثناء أحد الاجتماعات. من المؤكّد أنّ حزقيال قد تحدّث بهذا الأسلوب: «إذا لمْ يكن للربّ وجود، وهو بلا وجودٍ بالفعل، فلنكن نحن الربّ». كان قادراً على قول عبارةٍ من هذا النوع بجدّيّةٍ تامّةٍ، ومشاعر عميقة. ستسود العدالة، هكذا تعرّفت إليه، وأراه حتّى اليوم ثوريّاً. كانت المسألة بالنسبة إليّ مثل صحوةٍ، سَمعته، وتبعته. قال له شابٌّ جالسٌ في مقدّمة قاعةٍ صغيرةٍ فيها نحو ثلاثين طالباً وتلميذاً: «أنا شيوعيّ». مسح بيده اليمنى على شعره الأشقر الجامح قائلاً: «يولد البشر سواسيةً، ولكنّنا لسنا سواسيةً في المجتمع؛ يولد هذا بملعقةٍ ذهبيّةٍ في فمه، ويولد الآخر في عتمة سردابٍ رطب. يأكل هذا الفطائر، في حين يأكل الآخر الخبز العفن. لماذا يجب أن يعمل فردٌ من أجل الآخر؟ هناك من يجلس إلى مائدةٍ مفروشةٍ، وتُقدّم إليه الوجبات والمشروبات، وهناك أيضاً من يستيقظ باكراً، يشعل النار، ويجهّز القهوة، ويضع الخبز والمخبوزات على المائدة، وهو نفسه

لا يشبع، ويأكل في السرّ بقايا الوجبة الفاخرة. هل هذا ممكنٌ بين إخوة الطبيعة وأخواتها؟ يقال: إنّ هناك من استحقّ هذه النِّعم؛ لأنّ عقله أرجح من الآخر، ولكنْ هل أُتيح لهذا الآخر تدريب عقله؟ وهناك من يملك عقل بقرةٍ، ولكنّه ورث المال. من يكدح من أجل الثروة؟ ومن يرثها؟ هل من الأُخوّة أن أجعل الآخرين يعملون من أجلي، في حين أنّني لا أعمل شيئاً؟ كلّ من يسمح بأن ينظّف الآخرون له حذاءه ينتهك قانون الإخْوة. أنت أخي، وأنتِ أختي؛ لأنّ المؤكّد أيضاً أنّ الرجُل مثل المرأة؛ لهما المنزلة نفسها، والحقوق نفسها. مثل هؤلاء الذين يعملون طوال حياتهم، عمّال النسيج هنا في شيليزيا، الذين يجلسون في المنزل إلى النّول، تحت إضاءةٍ سيّئةٍ، وينسجون، السيّدات والأطفال يجلسون بظهورٍ مُنحنيةٍ وينسجون. ينهضون في الصباح، ويتناولون حساء الخبز، الذي يُسخّن على الخشب المجمّع، يُسخّن حتّى يملؤوا بطونهم بأيّ شيء، والأطفال حُفاةٌ، حتّى في الشتاء، يقطعون الصوف، ويجلسون بأعوامهم السبعة إلى النّول، مثل آبائهم. يقول صاحب المصنع: «أنت حُرّ، أنت غير مُلزمٍ بممارسة هذا العمل». أقول أنا: «ما الحُرّيّة المتاحة لهم؟». حُرّيّة الجوع، ثمّ يستلم النسيج، ويقف صاحب المصنع بمعطفه المعزّز بالفراء، ويراقب موظّفه، وهو يكشف على النسيج».

كان بلوتز قادراً على إدخال عناصر متنوعة في خطبته، مثل: المسرح، بألوان مختلفةٍ، ولهجات.

يقول الموظّف: «هناك خيوطٌ مفكّكةٌ، هذه عيوب».

– اسْمح لي، هذه....

– لا أسمح، هذه خيوط مفكّكة.

– أجلْ، من فضلك، إنّ عددهم قليل...

- قليل؟ هذا عملٌ مُعيب. إنْ لمْ تُرِد العمل فلْترحل.

- لا، أبداً، زوجي وأولادي في المنزل.

- يهمّنا عملك فقط، وليس أولادك.

يقف صاحب المصنع جانباً، يقول: نعم ولا معاً، يُخفض السعر المتّفق عليه. يغادر عامل النسيج جائعاً وحائراً، ويذهب العمّال إلى الحانة من أجل الشُّرب، ثمّ الشُّرب، ثمّ يعودون إلى منازلهم. كنت أراهم في الممرّات المظلمة، عيونهم حمراء مثل الدّم، ووجوهٌ مكفهرّةٌ تثير الخوف، وجوههم متحجّرةٌ مثل القناع. تسأله الزوجة برهبةٍ عن النقود؛ إذْ يجب شراء الخبز، والحليب، وبعض الزبد. تبكي، فيغلبه الغضب والكراهية، كراهية لنفسه؛ لأنّه أُجبِر على التراجع، ولأنّه اضطرّ إلى الطلب، بلْ إلى التسوُّل. تقول الزوجة: «لم يبقَ سوى كِسْرة خبزٍ واحدةٍ»، ولأنّها صرخت، فإنّه يضرب زوجَه الباكية، ويضرب أطفاله الباكين، يريد في واقع الأمر ضرب نفسه. يترنّح مخموراً، ثمّ يستلقي ويشْخر. يعيشون في خوفٍ، في رُعبٍ، لا يعرفون ماذا سيقول صاحب المصنع: «لا أريد إنتاجك، أنت لا تصلح لشيءٍ، وجودك من دون قيمة».

إنّه أبشع ما يمكن أن تمرّ به؛ أن تكون عديم القيمة.

يقول صاحب المصنع للمرضى: «من لا يعمل، ولا يقدّم إنتاجاً، يتحمّل المسؤوليّة، سوف آخذ من يأتي بعده، ومن يأتي بعده دائماً أفضل؛ لأنّه متوفّرٌ باستمرار». إنّهم يعملون، ويجوعون. الأطفال يموتون، وعلى مسافة ثلاثمئة مترٍ يجلس صاحب المصنع إلى المائدة، يتناول صدور الديك البرّيّ الذهبيّ، وكبد الإوزّ، ويشرب الشامبانيا، ويتناول شربة الديك البرّيّ. يفعل ذلك من دون أيّ خجل. البؤس والرفاهية، الطمع والطموح، الغيرة والكراهية، الفتنة والنزاع: كلّها مصدر تعاسةٍ، ليس للفرد فحسْب،

بلْ للأمم بأكملها. أنا شيوعيٌّ عن قناعةٍ، ومن خلال دراستي لإيتيان كابيه أنا على استعدادٍ أن أهَب حياتي لقناعاتي الاجتماعيّة والسياسيّة.

-مقطع غير مفهوم-

كان بإمكانه أن يصير قائداً مهمّاً للعمّال، لولا هذا القلق الذي كان يعتريه، وهذا الدافع إلى البحث العلميّ لفَهْم العالَم، بلْ وتغييره؛ لأنّ...

- يقول الناس في القصر إنّه لمْ يكن شيوعيّاً...

- هذا هُراء، كان في وقتٍ سابقٍ شيوعيّاً، وإنْ أنكر ذلك لاحقاً، أو فسّره بأنّه طيش شباب. لا، كان مدافعاً مقتنعاً عن الشيوعيّة، ولمْ يرغب في الانتظار حتّى يأتي المجتمع الجديد، وفقاً لقوانين الاقتصاد وصراع الطبقات، مثلما اعتقد ماركس وبيبل، بلْ أراد أن يتحقّق هذا المجتمع هنا، وفي الحال، وفي اللّحظة. حالاً. كان يستشهد بكابيه، أنّه لا مفرّ من إلغاء الطبقيّة. يقول كابيه: «إنّه منذ بداية الخلق قامت طبقتان؛ طبقةٌ مُجدّةٌ ومعتدلة، وطبقةٌ كسولةٌ وغير معتدلة». لقد وجدت لك الاستشهاد التالي: «هؤلاء صنعوا الاختراعات، وأولئك يتمتّعون بها. هؤلاء أنتجوا، وأولئك استهلكوا. نهب الكسلان المجْد، ويستمرّ في نهبه يوميّاً. المبذّر يستنزف الحريص».

ما بالك بما يحدث حينما تزيد الإنتاجيّة في الصناعة، حينما تواجه قلّةٌ من المُلّاك كثيرين ممّن لا يملكون شيئاً، هنا المواطنون المالكون، وهناك العمّال. يحمي الجيش والشرطة مجموعةً من الأُخرى. لا يسمح بهذا كلّه من دون تأثّرٍ إلّا عديم المبالاة، عديم الضمير، والأنانيّ. التضامن، الجميع يساند شخصاً واحداً، وشخصٌ واحدٌ يمثّل الجميع.

- عفواً، ألم تكن هذه المقولة لهتلر؟

- لا، لا، لقد قال: «الفرد بلا قيمة، والشعب كلّ شيء»، ولكنّ كابيه

يقول: «الجميع يساند شخصاً واحداً، وشخصٌ واحدٌ يمثّل الجميع»، هذا ما قاله كابيه. كان إنجلز ينظر إلى كابيه بوصْفه حالماً، ماركس سَخر منه، وعَدّه من أصحاب اليوتوبيا المُبهمين، لطيفاً وودوداً، ولكنّ إيمانه مبالغٌ فيه. هذا خطأ، لا، كابيه كان أكثر راديكاليّة.

- أكثر راديكاليّة؟

- نعم، يجب خلْق مجتمعٍ يصنّف الإنسان، بوصْفه الأميز وسْط المخلوقات، تصنيفاً جديداً، وإنْ كان هذا المجتمع مجتمعاً صغيراً، فهو نموذجيٌّ في التعايش من دون غيرةٍ وحقد. إنّه مجتمعٌ قادرٌ على أن يكون نواةً لحياةٍ مختلفةٍ، حياةٍ مشتركةٍ ومتساوية. مجتمعٌ قادرٌ على أن يكون حركةً تجذب عدداً أكبر وأكبر من البشر، هكذا كان يتحدّث بلوتز. نحن نكافح أيضاً من أجل ترك الحيوانيّة خلْفنا، لنرقى في تطوّرنا، برغبةٍ في أن نكون أعظم، وأثرى، وأكثر حسْماً. أمامنا هذه الصورة اليونانيّة علناً: العيون الزرقاء التي تحمل داخلها لون السماء، وليس العيون البنّيّة التي تنظر بها الحيوانات إلينا، العدالة والجمال.

كانت هذه محاضرته في بريسلاو، سمعته، وتبعته، على الرّغم من انزعاجي من هذه المقارنة بعيون الحيوانات؛ لأنّ عيوني، كما ترى، لونها بنّي. لقد أربكتني هذه المقارنة، ربّما كان من منظورٍ أوّل ارتباكاً بسيطاً. لم أهتمّ لحظتها، وتحدّثت إليه في الّليلة نفسها. انتبه إليَّ بلُطفٍ، وسألني عمّا أعمل. كنت قد انتهيت من امتحان المرحلة الثانويّة، وأدرس الطبّ. قال: «ينقصنا الطبّ في مجموعتنا، نحن في حاجةٍ إلى سيادتك». ثمّ أعاد العبارة بتعديلٍ بسيطٍ أسَرني: «نحن في حاجةٍ إليك».

شعرت برغبةٍ في الاستجابة، وأنّني مُختار. نهضت مثل الإنجيليّ متّى، وتبعته. كان مثيراً للإعجاب أن يعمل دارساً للاقتصاد، ويتناقش، ويتحدّث

إلى الدوائر المهتمّة بهذا الأسلوب. يمكنك أن تقول: إنّني صرت تلميذه. كانت مرحلةً عمريّةً أبحث فيها عن فكرةٍ غير تقليديّةٍ، خاصّةً عندما يكون هدفها العدالة؛ لأنّ الظلم ينجلي سريعاً. عندما يطالب الشباب بالعدالة، يحملون كرامتهم داخلهم.

كان لهذا الثوريّ الشابّ ملمح راديكاليّ، امتدّ تأثيره إلى المجالات جميعها، من المعرفة حتّى الأمور اليوميّة. كان يشكّك فيما هو معتاد: الأمور الطبيعيّة، والاحتياجات الطبيعيّة أيضاً. وصل إلى درجة أنّه أراد الاستغناء عن النوم. كان ينظر إلى النوم بوصفه شيئاً حيوانيّاً، يبعدنا عن العمل الفكريّ. لم يكن بطبيعته يحبّ الجلوس في المنزل على الإطلاق، مثل هؤلاء الذين فضّلوا في شبابهم الاعتكاف للقراءة والدراسة، ولمْ يجرؤوا على مغادرة المنزل. بالعكس، كان هذا الشابّ الرياضيّ يلتهم ما يجد من معرفةٍ كلّه: عن الاقتصاد، وعلم الحيوان، والأحياء، والكيمياء أيضاً، وفي الوقت ذاته كان يتنزّه، ويسبح، ويركب الدرّاجة العالية ليشارك في سباق بريسلاو. كان يثير الإعجاب، وهو يركب هذه الدرّاجة لينطلق ويفوز بالسبّاق. سجّل نفسه في تخصُّص عِلم الاحتمالات بالجامعة. كانت الكثافة الاحتماليّة ودالّة التوزيع تشغلانه منذ أنْ كان طالباً. الآخرون، أصحاب الألسنة الشرّيرة، الحاقدون، الذين كانوا يهتمّون بالأشخاص الخارقين للعادة، تحدّثوا حينها عن موضوع التناسل المفضّل لديه. قرأ داروين وهيغل، واهتمّ بقضيّة الوراثة الجينيّة. كان حارسُ مصنع أبيه الصغير يربّي الأرانب، ويبدو أنّ هذه المسألة قد أثارت اهتمامه منذ الصغر. كان أبوه يملك مصنعاً لصناعة الصابون في زفينه موندة، وأنتج أيضاً الصابون المعطّر بالوصفة الفرنسيّة. كان لمنتج «صابونة البنفسج من زفينه موندة» سمعةٌ طيّبةٌ في منطقة بومرن، على الرّغم من ثقل الاسْم.

ضَمِن الأبُ صديقاً، كان قد تعثّر ماليّاً، فاضطرّ إلى بيع المصنع الصغير استجابةً لدائني الصديق.

– فهمت أنّ الأب صار بالمصادفة بلا مَورِد، أو فلْنقل: بسبب طيبته.

– صحيح، أردت القول: إنّ ظاهرة المصادفة قد شغلته. ما المصادفة، وما الضّروريّ، وفيمَ تكمن ضرورته؟ كيف يتجلّى ذلك في الطبيعة؟ هل هناك قانونٌ يتحكّم بالوراثة؟ مثلاً: يولد في فترة الحروب، مع كثرة وفَيات الرجال، عددٌ أكبر من الذكور، ذلك عن فترات السلام التي يولد فيها عددٌ أكبر من الإناث. هل نحن قادرون على إدراك قوانين الطبيعة، وبالتالي تطبيقها؟ جلس في غرفةٍ صغيرةٍ مثل غرفتي: فراش، ومقعد أمام نافذةٍ صغيرةٍ، جلس هناك ناظراً إلى الفناء الخلفيّ، فيه شجرة كُمّثرى قديمة، بجذعٍ قويٍّ، وثمرٍ وفير. كنت أجلس على الفراش، وأسمعه يتحدّث عن الطبيعة التي تحسب حساباتها، على نحوٍ ليس مفهوماً بعْد، ولكنْ يجب مراقبة الأنواع وبراعتها في التكيّف. بدأ حينها تجربةً أراد من خلالها الاستغناء عن النوم. خفّض ساعات نومه اليوميّة تدريجيّاً، من خمس إلى ساعتين يوميّاً. كانت صحّته حقاً بأفضل حال، ولكنْ بعد مرور أسبوعين، عجزت مالكة سَكنه عن إيقاظه، كما كان قد كلّفها؛ كان نومه مثل الموت. طلبتني السيّدة المفزوعة، وأنا أيضاً لمْ أفلح في تحريره من أحضان مورفيوس(*). تحرّك لوهلةٍ جفنه الأيمن مرّةً واحدةً، ورأيت بعض الزرقة. كنت في أوّل فصلٍ دراسيٍّ في الطبّ، ولكن كان عقلي يقول: إنّ جسده يعوّض ساعات النوم التي حُرم منها؛ نام عشرين ساعة متواصلة، وصل بعدها إلى درجةٍ بطوليّةٍ من اليقظة، سمحت له باستيعاب هذه المادّة كلّها، وتطبيقها. أقول من منظور اليوم: إنّ قراءة كتاب «المعركة من أجل روما»

(*) إله الأحلام في الأساطير الإغريقية. (م).

في هذا العُمر الصغير والحسّاس كان وبالاً عليه. هذا الساعي إلى المعرفة كانت تملؤه الرغبة بالقوّة، والحيويّة، والصحّة الواضحة، كان ميموناً بهذه الصحّة، يشرب ويتقيّأ، ثمّ يعاود طلب الجعّة مرّةً أُخرى. لاحقاً، تحوّل في زيورخ إلى النقيض التام؛ تحوّل إلى رافضٍ صارمٍ للكحوليات؛ أمّا في بريسلاو، فكان يشرب في اتّحاد الطلّاب شُرباً مفرطاً، في حين كنت أنا أطلب القهوة في أمسيةٍ لجذْب أعضاء جُدد، فلمْ أُدْعَ مرّةً أُخرى. كان يتورّط في اشتباكات، صدمه طالبٌ منفعلٌ، من دون قصدٍ، أو ربّما عمْداً. في بعض الاتّحادات الطلّابيّة المعروفة كان عددٌ كبيرٌ من المرشّحين يصرّون على جولات المبارزة. قال بحُسن نيّةٍ كلمة: هوبلا (عفواً)، فاعترض طريقه رجُلٌ يساويه في البنْية القويّة، وبأسنانٍ كبيرةٍ وملحوظةٍ: «ماذا قلت؟».

أعاد الصديق، بحُسن النيّة، الكلمة نفسها: «هوبلا».

- هوبلا؟ هل نحن هنا في سيرك؟

- «وما اعتراض سيادتك على السيرك؟». قالها بنطقٍ معزّزٍ لكلمة: «سيادتك».

ردّ الرجُل القويّ: «أطالب بردّ الاعتبار». كان في وجهه جُرحان؛ ما دلّ على كونه معتاداً على الضرب.

- معتاداً على الضرب؟

- أي رجل بارزَ كثيراً. قال الصديق: ردّ اعتبار؟ فلْتحصل على ما تريد.

ليس وقتها، ولكنْ في اليوم التالي ضغطت على الصديق كي ينْهي هذا الموقف السخيف بتصريحٍ رسميّ. يمكنه الإعلان عن أنّ كلمة هوبلا ليست من عالم السيرك وسباق الخيل، فلْتقل: «إنّها كلمةٌ مستعملةٌ استعمالاً عاديّاً في بومرن».

قال: «لا، لهذا الرجُل فكّ فَرسٍ، ونحن لا نقدّم للفرس تفسيرات».

حقّاً، لقد كان العنْد، والتحدّي، ورفض الاستسلام من طبعه، ولكنْ يكمن السبب أيضاً في هذه القراءة المذكورة سلفاً لكتاب «المعركة من أجل روما». أجلْ، قراءة الروايات تثقّف، ولكنّها قد تخلق أيضاً الانفعال المبالغ فيه. أراد أن يوجّه الموقف: «سوف أصمد». ظلّ مدّة أسبوعٍ يتلقّى درساً في المبارزة، كان خصْمه، كما عرفت؛ مبارزاً متمرّساً.

عُقدت المباراة في مساء يوم جمعة، في قاعة مبارزة اتّحاد ماركومانيا. كان شعار المباراة: الاحترام بالإيمان الصادق والمُخْلص مع ممارسة القوّة.

كنت بوصْفي كاثوليكيّاً -لمْ أكن وقتها قد خرجت من الكنيسة- وبقناعاتي الجمهوريّة، والاشتراكيّة لاحقاً؛ ضدّ المبارزة بشدّة. أعزف أيضاً عن تناول الجعّة تناولاً مفرطاً، ولكنّني كنت في المقام الأوّل قلقاً على الصديق. قيل عن ذاك المتمرّس: إنّه قطع لأنداده في مسابقات مبارزةٍ غير مؤمنةٍ آذانَهم وأنوفَهم. قد تسيل الدماء، وأنا لا أحبّ رؤية الدماء. بالمناسبة، كان هذا هو السبب، وإنْ لم يكن السبب الحاسم، في أنّني تخلّيت لاحقاً في الفصل الدراسيّ الأوّل للطبّ الإكلينيكيّ عن الدراسة، وانتقلت إلى الاقتصاد. بالأحرى لا أحبّ رؤية دمٍ يسيل من دون سبب.

لمْ أذهب إلى المبارزة، ولكنْ حُكيَ لي عنها، وندمت قليلاً لعدم ذهابي؛ لأنّه قطع في الجولة الثانية أذن المتمرّس ذاك بضربةٍ حاسمة. أظنّها كانت الأذن اليسرى. زحف المدرّبون على الأرض باحثين عن قطعة اللّحم الصغيرة، ولكن من دون جدوى. ادّعى المدرّب في وقتٍ لاحقٍ وجود قطّةٍ في القاعة. هذه القصص معتادةٌ في اتّحادات الطلّاب على أيّ حال. من المؤكّد أنّ الصديق قد قال كلمة هوبلا بعد الضربة القاضية

التي أدّت إلى نهاية المباراة. كان خصمه منشغلاً بالأذن التي فقدها، فلمْ يستوعب هذا التجاوز. اتّفق المدرّبون سريعاً على أنّ الكلمة التي تفوّه بها لمْ تكن هوبلا، بلْ «ابعد عنّي»، وإلّا كان الصديق سيدخل جولة مبارزةٍ أُخرى مع أحد أعضاء اتّحاد الطلّاب.

قال لي لاحقاً: «لقد كنت محقّاً، كانت حماقةً، ولكنْ يجب المرور بحماقاتٍ بعينها؛ حتّى ندرك حجمها».

– هل يمكن الرجوع إلى الحديث عن هذا الاتّحاد السرّيّ مرّةً أُخرى؟ ما خطّة مجموعة باسيفيك تحديداً؟ وما علاقتها بالمحيط الهادي؟

– كتبت كلمة باسيفيك بحرف السين(*). من المفترض أن يكون معناها سلاماً، سلام العالم، وسلام البشريّة، جنّة عدْن، هل تفهمني؟ لمْ تكن مجموعة السبعة لترضى بأيّ شيء. أجلْ، كانت حالة حراك. أمرٌ مدهش! لقد أسّسوا اتّحاداً، اتّحاداً لمجتمعٍ جديدٍ يقوم على المساواة، والسلام الاجتماعيّ، والعِلم، والثقافة الجديدة الأرقى. (الرحلة إلى إيكاريا): كان كابيه قد حصل مع أتباعه في عام 1848 على قطعة أرض، وأسّس بلديّة. من المذهل إدراك كابيه المبكّر لأهمّيّة التصنيع، وكيف تعمل الماكينات على خفض المجهود الجسمانيّ، ورفع الإنتاجيّة والقيمة المضافة في الوقت ذاته. درس ماركس هذا كلّه، مع فارق أنّ ماركس رأى العنصر الحاسم للقيمة المضافة يكمن في قوّة العمل البشريّة، في حين أنّ كابيه قد وجد أنّ الماكينات تؤدّي إلى الرخاء، ليس فقط بسبب تخفيفها لحمل العمل فحسب؛ ولكنْ لأنّها توفّر الوقت، وتزيد الإنتاج، فيزيد الثراء، ويوفّر وقتاً بدون عمل.

–مقطع غير مفهوم–

(*) Pazifik تعني المحيط الهادئ، بينما Pacific تعني سلمي. (م).

عفواً، لقد تعمّقت في النظريّات. أردتُ القول: إنّ عدد ساعات العمل في إيكاريا لا يتجاوز ستّ ساعات، هذه هي الفكرة المثاليّة المطلوب تحقيقها. الإنتاج الزائد الأعمى، الذي لا يهمّه سوى الربح، يجب تعديله مع الحاجات المطلوبة من أجل مزيدٍ من الوقت الحُرّ والمستقلّ، من خلال توزيعٍ عادلٍ وعاقلٍ للعمل. تحقيق هذا الوعد هو محرّك النظريّة الإيكاريّة.

- حسناً، ولكن من هم هؤلاء السبعة؟

- أجلْ، اختير بلوتز رئيساً لهذه المجموعة، التي وصل عددها إلى سبعة أعضاء، يبرهن ذلك على كونه القوّة الدافعة لهذه المجموعة. كان جرهارد هاوبتمان وزير الثقافة، وكارل هاوبتمان وزيراً للشؤون العلميّة. كان لاختيار شارل شتاينميتز وزيراً للكهرباء والميكانيكا؛ أي: الهندسة، أهميّةٌ خاصّةٌ؛ أمّا العضوان الآخران: هاينريش لوكس، الذي صار لاحقاً من الديمقراطيّين الاجتماعيّين، وفرديناند سيمون، الذي تزوّج ابنة ببيل فيما بعد، فكانا وزيرين بلا اختصاص، وأنا كنت العضو العاديّ الوحيد، كانوا يوزّعون المناصب. الفكرة عظيمة؛ ضرورة وجود مجتمعٍ يجمع بين العدالة الاجتماعيّة والارتقاء بالفرد. كانت ستبقى حركةً صبيانيّةً، أو مجموعةً غوغائيّةً تعاني من جنون العَظَمة، لولا الأهمّيّة التاريخيّة التي اكتسبها الأعضاء، سواء بالنتائج الطيّبة أم بالنتائج المعقّدة، بلْ الكارثيّة أيضاً.

- هؤلاء الإيكاريّون شيوعيّون؟ (نحنحة، ثمّ شيء غير مفهوم)

- المجتمع الإيكاريّ مجتمعٌ مشروعيٌّ، أُلغيت الملكيّة الخاصّة. تخطيط العاصمة إيكار، كما صمّمه كابيه، خضع لمعايير هندسيّة صارمة. وفقاً لتخطيطٍ شاملٍ، لمْ تنحصر المساحة في دائرةٍ متكاملةٍ، ولكنْ غُيِّر مسار النهر إلى خطٍّ مستقيمٍ، وكان يجري بين حائطين. يتفرّع النهر في

مركز المدينة إلى فرعَيْن، وتقع بينهما جزيرةٌ مستديرةٌ. تصميم إيكاريا تصميمٌ متناظرٌ؛ الشوارع كلّها مستقيمةٌ وعريضةٌ، وفي المدينة خمسون شارعاً رئيساً، تسير في خطٍّ متوازٍ مع النهر، وخمسون أُخرى بزوايا قائمة. تجد الميادين بين الشوارع، والحدائق خلف المنازل، وكُلّفت العائلات بزراعتها، كما وجدت الكائنات الأُخرى مكانها في هذه الدولة الفاضلة؛ تجوّلت الطواويس بغرض الزينة في المدينة. إلى جانب هذا المشهد الغريب الذي أراده كابيه، كانت هناك الحيوانات المفيدة أيضاً، مع العلم أنّ الجميل في تصوّر كابيه عدم تعذيبها، وترْكُ مساحاتٍ حُرّةٍ لها، كما لا يجب استغلالها، أو قتلها بلا داعٍ.

- أليس هذا كلّه نظيفاً على نحوٍ مبالغٍ فيه، إنْ صحّ التعبير ؟ أنا قادمٌ من بلد المربّعات والشوارع الكبيرة المستقيمة، وأرى هنا، في مدينةٍ مثل كوبورج، الكثير من الزوايا، والمباني الزائدة، والانحناءات، بخلاف الأشكال المتناظرة التي تبعث دوماً على الملل.

- بكلّ تأكيد، ولكنْ في هذا التوقيت كان تحرُّراً هذا البّراح؛ تطلع إلى الضوء والهواء. رؤيةٌ مناقضةٌ لمدن العصور الوسطى بشوارعها المتداخلة، وضيقها المُظلم، وكثرة القاذورات والجرذان. وَعَدتْ خطّة كابيه بالانفتاح، والنور، والصحّة. صفاءٌ في الروح والحياة؛ هذا ما يميّز المجتمعات الفاضلة جميعها، إنّها تلتزم نفسها بالعقلانيّة، والتصميم، والرياضيّات، وتحاول تنظيم فوضى الميول الشخصيّة، والرغبات، والمشاعر المتقلّبة. يكمن في العواطف الجُبن، والكراهية، والبخل، ويمنع هذا كلّه حياةً عقلانيّةً، ويدعم حياةً مشتركةً تسودها الكراهية والعنف، سواء على مستوى الأفراد أم الشعوب. يُضيّع الظلمُ العدالة، التي يمكن قياس منزلتها، وتُدمَّر العدالة في المجتمع بمشاعر الأنانية، وحُبّ الاستعراض، والمصالح الشخصيّة.

عُذراً من حديثي عن الزمن القديم وتأثّري، ما أريد قوله كلّه: «تأثّرَ كابيه بكامبانيلا حينما كتب أنّ الإيكاريّين لا يقصدون بالتربية عالم الحيوان والنبات فحسْب، بلْ «تهذيب» المادة البيولوجيّة للبشر أيضاً. أجلْ، قرأ كابيه توماس موروس وتومازو كامبانيلا، وهذا فعله الصديق أيضاً».

يجب القول: إنّ فكرة التهذيب هذه قد أثارت لديّ حينها بعض الشكّ. قد نرتقي بالإنسان قلباً وعقلاً معاً، من خلال التعليم، ولكنْ من خلال التربية؟ في التربية يدخل التقويم؛ أي: محاربة الضعيف والمُخالف، والتخلّص منهما. كان الأفراد السبعة -الذين زاد عددهم إلى عشرين في منظمة الباسيفيك- أتباعاً متحمّسين لداروين. الإنسان ليس من خَلْق الربّ، ولكنّه جاء نتيجةً لقانون الطبيعة: نظرية التطوّر، الصراع من أجل الحياة، الانتخاب الطبيعيّ بوصْفه آليّة نظرية التطوّر. عصفت هذه النظريّة بالسياقات الميتافيزيقيّة كلّها. لسنا كتلة العجين التي شكّلتها اليَد الربّانيّة، بلْ نحن نتاجٌ للطبيعة. أليست هذه القوانين قابلةً للتطبيق علينا، ومن خلالنا، نحن الجنس البشريّ الواثق بنفسه؟ هل التصحيحات ممكنة؟ والتحسين أيضاً؟ أثارت هذه الفكرة حماس الكثيرين، ومنهم أعضاء مجموعة الباسيفيك، أجلْ، وأنا منهم. لاحقاً، ظنّ الصديق أنّه قد عثر على مفتاح تنظيم الأحداث المجتمعيّة عبْر قوانين الطبيعة، صاح: «نملك مفتاح قوانين الطبيعة في أيدينا». المعادلة لهذه الدنيا: كلّ شيءٍ صار ممكناً؛ الإنسان قادرٌ من خلال قوانين الطبيعة على تحديد مصيره. حينما كان يدرس الطبّ في زيورخ لدى أوغوست فوريل، الباحث في النمل، كان يقتحم غرفتي كثيراً؛ ليحكي عن التقدّم الخرافيّ في مجال الجراحة وعِلم البكتيريا، قريباً، ستتحرّر الإنسانيّة من تفشّي الأوبئة، ولنْ نسمع عنها إلّا في الأساطير والخرافات، ستنتهي خلال وقتٍ قصيرٍ: الدفتيريا،

والجدري، والكوليرا، والزهري، وكذلك السلّ الذي كان حينها منتشراً انتشاراً واسعاً؛ لقد اكتشفوا الجراثيم المسبّبة لهذه الويلات كلّها، ما سيؤدّي إلى زوالها قريباً، يُستثنى من ذلك مرض الفصام؛ لمْ يعرفوا عنه شيئاً، ولا عن الأمراض العصبيّة عموماً، كان هذا مثيراً للغضب.

وجد هذا الحماس الذي لا يفتر تأكيداً في معرفته، وحجم العمل الذي كان ينجزه بطاقةٍ تفوق طاقة البشر. يجب أن يرتقي الإنسان بتعليمه. كان، وهو طالبٌ؛ يحمل في جيب معطفه الداكن كتاب «تحسين الأخلاق في المجتمع الإيكاري»، كان كُتيّباً صغيراً ممزّقاً، جمع كاتبه فيه اثني عشر خطاباً، كتبه عن تعليم الجنس البشريّ وتربيته. لَحظ هذا الرقم، اثني عشر؛ مجموعةٌ تمثّل المجتمعَ الفاضل، وحياةً مختلفةً وحقيقيّةً، تتحقّق فيها الأخوّة، والمساواة، والسعادة للجميع، تمثّل مجتمعاً بحسٍّ مُرهفٍ، يستشعر الظلم، والاستغلال، والإقصاء، والقهر. يا لها من معجزةٍ أنْ يصيب الشباب -وأنا منهم- هذا الحماس! لمْ يَعد الصديق بالمساعدة فحسب، ولكنْ بدراسة الطبّ أيضاً، بهدف السيطرة على القوى العمياء للطبيعة؛ لهذا السبب، وإرضاءً للوالد، بدأت دراسة الطبّ بعد الانتهاء من المرحلة الثانويّة في مدرسة ماجدالينيوم في بريسلاو. أجلْ، كانت رغبة الوالد الذي امتلك مصنعاً صغيراً للخضراوات المجفّفة. أشعلت العلوم الطبيعيّة والهندسة حماس تشارلز بروتيوس شتاينميتز أيضاً. كان يدرس الهندسة الكهربائيّة، وينتمي إلى مجموعة السبعة في الباسيفيك. أعجبت الصديق فكرة الاتّحاد السرّي، أعجبت الجميع، ويجب أنْ أعترف: ومنهم أنا. لمْ يكن أمراً روتينيّاً؛ فقد أُجبِرت المجموعة على اللّقاءات السرّيّة؛ لأنّ قوانين بسمارك للاشتراكيّين كانت تمنع أيّ تجمّعاتٍ تنتقد الدولة. كان يُطلق حينها على الصديق «حامل الماجستير»، على الرّغم من

عدم حصوله على الماجستير، أو الدكتوراه، كان مجرّد دارسٍ للاقتصاد. عدَّ الجميع أنفسهم من الاشتراكيّين، ولكنّ شتاينميتز تحديداً قرأ كلّاً من ماركس وإينجلز. كان قزماً أحدبَ مثل أبيه، ولكنّه يتحرّك ببراعةٍ، ويدير ذراعيه في أثناء الحركة قليلاً. في يَده اليسرى حقيبة ملفّات، بدا أنّها كانت تسحبه بميلٍ إلى أسفل، وتسبّبت في تحدُّبه؛ أجلْ، لقد كانت بنْيته الجسمانيّة غير سليمة. كان شتاينميتز عبقريّاً في الهندسة، ومقتنعاً بأنّ تقدّم العلوم والهندسة سيجعل حياة الإنسانيّة أكثر عدالةً، ومساواةً، وسلاماً. كان مدمناً على العمل؛ شغل نفسه بنظريّات التيّار المتردّد، واخترع لاحقاً دارةً كهربائيّةً حملت اسْمه. كان هذا المظهر الخارجيّ كفيلاً بأن يجعل الصديق، المولع بالصحّة، يعيد التفكير في قصصه المزعجة عن الجرمانيّين، هذا الهراء الذي قام على فكرة: «العقل السليم في الجسم السليم»، والذي كان يدرّسه لنا مُدرّس التاريخ شابر في المرحلة الثانويّة. كان شابر بالمناسبة يعاني من القدم المسطّحة؛ ما أعفاه من الخدمة العسكريّة في بروسيا. هذا الولع بالصحّة ناقضَه شتاينميتز بوجوده، وبمظهره، وبرأسه الجميل المُثقل بالأفكار، والمحمول بهدوءٍ فوق كتفيه. اسمحْ لي بالانتقال إلى الحديث عن هايدريش الذي رأيته في مدرسةٍ للمبارزة في ميونخ: لمْ أذهب إلى هناك للمبارزة؛ بلْ كنت في أثناء إجازتي الصعبة مكلّفاً بالإنابة، تحت مراقبةٍ، بمسْح عرق الأقوياء والمُجدّين. كان هايدريش نائب رئيس شرطة بافاريا حينها، يتمتّع بصحّةٍ جيّدةٍ جدّاً، وكان رياضيّاً طويل القامة، ولكنْ هل كان عقله بصحّةٍ جيّدة؟ لو قصدنا بالعقل حُسن التنظيم والعمليّات الحسابيّة، ستكون الإجابة: نعم، ولكنْ ألا يجب مطالبة العقل بأكثر من الحسابات والتنظيم، ألا تنمّ هذه القوّة المدمّرة، وهذا الشرّ والشعور بالعظمة، عن مرضٍ عقليّ؟ أليس

التعاطف مطلوباً؟ وكذلك دعم ما يخدم الإنسان كلّه، ويسهّل حياته، ويُثريها؟ هذا ما كان شتاينميتز، ثريّ الروح، يقدّمه باختراعاته العلميّة بوصْفه مهندساً، وفي عمله الاجتماعيّ من أجل المجموعة بوصْفه اشتراكيّاً، يتمتّع بصحّةٍ جيّدةٍ؛ لأنّه صديقٌ للإنسان، رجُلٌ رقيقٌ وخدومٌ، نشأ ضمن الجالية اليهوديّة، وهاجر إلى أمريكا قبل أن يتولّى الرجال أصحاب البزّات البُنيّة الحُكم.

لمْ يكن بلوتز بالمناسبة في بداية عمله ضدّ اليهود، بلْ على العكس، كان يعتقد أنّهم ينتمون إلى العِرق الآريّ، وأنّهم فرعٌ قد فُقد في أثناء النزوح الجماعيّ الآريّ، كما عدَّ بني إسرائيل من أصحاب الموهبة الفذّة. حاول أن يفسّر ذلك بعِلم البيئة الداروينيّ: فبفضل مراحل النزوح الطويلة، تكوّنت لديهم قدرةٌ باهرةٌ على التكيُّف، تبرهن على ذلك قدرتهم على التعلُّم السريع للّغات، واستعمالها بمهارة، وهذا من جانبه دعم خيالهم؛ إذْ نشأت القصص في سياق هذه التجربة المتنوّعة مع مختلف الشعوب، تُحييها حركة النزوح، وتتنوّع أشكالها، مثل: المبالغة، الاحتيال، وأحياناً الكذب للضرورة. الفلّاحون والمواطنون المستقرّون ليسوا في حاجةٍ إلى الخيال، ولا يجب عليهم اختراع القصص التي تفسّر العالم؛ يقابل تنوّع فِكر اليهود بساطة فكْر المستقرّين. نجاحهم في الحفاظ على تماسكهم على مدار آلاف السنين أمرٌ مُذهل. لمْ يصرِّحْ بعد ذلك مرّةً أُخرى بمقولاتٍ من هذا النوع، كان تغيُّراً انعكس على صداقتنا أيضاً. رأى حينها في التقاء الشعوب المختلفة خطوةً مهمّةً نحو تقدُّم الجنس البشريّ. لاحقاً، سيتحوّل هذا الفِكر إلى تصوُّرٍ غامضٍ بالنسبة إليّ عن الخصوصيّة والتجانس، ما ينتمي إلى الشمال. اشتُقّ مصطلح الآريّة من علم اللّغة في العصر الرومانسيّ، وعُدَّ نموذجاً للمظهر عن فنّ الجمال في العصر الكلاسيكي، إنّه التكامل.

وضع يوهان يواخيم فينكلمان وجوه آلهة الإغريق نموذجاً: جبينٌ عموديٌّ عالٍ، وأنفٌ مستقيمٌ، وعيونٌ زرقاء تعكس زرقة السماء.

لمْ تكن اليونانيّة الجميلة بعيونٍ زرقاء، ولا شعرٍ أشقر، لمْ تناسب هذا التصوّر عن العِرق الشماليّ، عن شعب الفايكينج، ونساء الشعب الجرمانيّ بضفائرهنّ الشقراء.

لقد تعرّفت أنت إليها، ولكنْ وهي امرأةٌ عجوزٌ الآن. لقد باتت أقصر قليلاً، وزاد وزنها بعض الشيء، مع العلم أنّها كانت ضخمة الجثّة بملابس الإصلاح التي كانت تصمّمها بنفسها، ولكنْ من المؤكّد أنّ قدميها الصغيرتين الباهرتين على حالهما. كان شعرها كثيفاً وبُنيّاً داكناً بلمعةٍ حمراء. ترى هنا صورتها، وأنفها المعبّر والمتكامل، وعينيها ذواتَيْ اللّون البنّيّ الداكن بسوادٍ لامع. لها نظرةٌ هادئةٌ متأمّلة، هكذا كانت تقف أمام حامل اللّوحة، أو المكتب، حيث كانت تشكّل الفخّار، مثل هذا الأسد الذي تراه هناك فوق الخزانة، كأنّه يستعدّ للقفز، سيقفز بالأحرى في الحال، هذه القوّة التي ستُحرّر في هذا اللّحظة من التوتّر الشديد، وتتغلّب على الجاذبيّة الأرضيّة، لقد صبّته في مادّة البرونز. هل تستطيع إنزاله؟ كُن حريصاً، إنّه ثقيل. أجلْ، لقد كَسته بعض الأتربة، لقد كان هديّة عيد ميلادي الأربعين.

مولي

ذهب هانزن إلى موقع الخدمة في شارع أرسيس. أُقيمت في مبنى القائد القديم نقطة تجمُّعٍ رئيسة للأعمال الفنيّة المسروقة. كانت المديريّات الإقليميّة قد أمرت في أثناء الحرب بتخزين الأعمال المستولى عليها من المناطق المحتلّة في مخابئ الغارات الجوّيّة؛ أمّا في المباني الجديدة فكانت الحرب مأخوذةً في الاعتبار وقت التخطيط. سرق الألمان المجموعة ليلة دخول الأمريكان، في الأغلب كانوا قياداتٍ عليا في الحزب. اختفت ستّمئة لوحةٍ بين يومٍ وليلةٍ، معظمها من الفنّ الهولنديّ في العصر الذهبيّ.

لمْ يكن ليو ألكسندر، الذي طلب التحدّث إليه، قد وصل بعْد. عبَر هانزن ميدان كونيجس بلاتس بمبانيه الثلاثة التي تحاكي الطراز الكلاسيكيّ. بفضل هذا الميدان، أُطلق على ميونخ اسْم «أثينا المطلّة على نهر الإيزر». نصحه أستاذه في سانت لويس بضرورة زيارة مبنى متحف الجليبتوتيك، إنْ كان سليماً.

–13 حزيران/ يونيو–

دُمِّرَ متحف الجليبتوتيك، ونُقلت التماثيل الإغريقيّة والتوابيت إلى

مكانٍ آخر. تسلّلت عبْر الحُطام إلى داخل القاعات. أسوارٌ وحيطانٌ بالتصوير الجصّيّ، وفوق المشهد السماء؛ هكذا يمكن تخيُّل حُطام روما القديمة، منطقة دوموس أوريا.

كانت سيّدةٌ عجوزٌ تُطعم اليمام في حديقةٍ صغيرةٍ مجاورة: تكسر فُتات خبزٍ صغيرةً بعنايةٍ من الحافّة، وترمي القطع للطيور، وكانت تضع بين الحين والآخر قطعةً صغيرةً في فمها.

فكّرت في أنّها لمْ تكن تتضوّر جوعاً، ولكنْ هذه الفكرة الصغيرة: أليس تقاسمُ القليل مع كائنٍ آخرَ أمراً عظيماً؟ كأنّ كلمة كائن كلمةٌ جديدةٌ لم أستعملها قطّ، ويبدو أنّها تعود إلى فترة الطفولة.

إرنست بلوخ، «آثار»: «لا يقدّم المنشار رؤيةً أدقّ عن الشجرة، بل أثاثاً».

عاد هانزن إلى مبنى القائد، وطُلب إلى مكتب البروفسور ألكسندر. جلس ألكسندر المُحاط بدخان السيجار إلى مكتبٍ خشبيٍّ ثقيل. قال لهانزن: «مرحباً، ما تراه هنا هو مكتب القائد ومقعده، إنّه غير مُريحٍ بالمرّة. لا أستغرب أنّ الرجُل لمْ يكن يقرأ الملفّات قطّ. يبدو أنّ قائد الرايخ الألمانيّ قد صاحبه كسل الفنّانين المعروف في فيينّا». عرض ألكسندر على هانزن سيجاراً. ردّ هانزن على مدخّن السيجار بأنّه قد أصيب بالإعياء حينما دخّنه في السيّارة، كان ذلك قبل استماعه إلى حديث هالرفوردن.

عزيزي ميشائيل، أنت مهذّبٌ أكثر من اللّازم، كان يجب حينها أنْ ترفض. بدأ ليو ألكسندر بعد لفّ السيجار بعنايةٍ بإشعالها بولّاعة غاز. كان فرويد يستمتع أيضاً بطعم السيجار، من دون التفكير في أيّ شيءٍ آخر. وراء «التفكير في أيّ شيء» نظريّةٌ كاملةٌ حول الكبْت. نعرف أنّ هتلر

كان ضدّ التدخين تماماً، لمْ يشرب، ولمْ يدخّن، تفكيره محافظٌ، وذكيٌّ، وصاحبُ إرادةٍ، وقوة تدميرٍ لا يمكن استيعابها. جلسا معاً للحظةٍ، ولمْ يَشُب الصمتَ في أثناء الجلوس مع هذا البروفسور الشابّ المفكّر أيّ حَرج. سأل ألكسندر عن أستاذ تحسين النسْل، ووضع أرشيف تحسين النسْل، وعن تقدُّم هانزن في التحقيقات.

قال هانزن: إنّه أغلق الأرشيف بالشمع الأحمر، وعقد ثلاث جلسات مع الشاهد فاغنر. الرجُل في الحادية والثمانين من عمره، وتأثّر بالاعتقال في معسكر داخاو، كما أنّه تعرّض قبله للتعذيب. لا يمكن التحقيق معه إلّا لمدّةٍ محدودةٍ، ولكنْ تفكيره واضح، وذاكرته قويّة. لقد عاش حياةً مذهلة.

قال ليو ألكسندر: «خُذ وقتك، لا داعيَ للاستعجال».

مرّةً أُخرى، أكّد هانزن مرّةً أُخرى على أنّه ليس خبيراً في هذا التخصُّص.

أنا أعرف ذلك، كلّنا ندرك ذلك. ليس عليك تقييم نتائجه العلميّة، سيقوم الآخرون بهذه المهمّة. نريد أن نعرف كيف تحوّل بلوتز من الشيوعيّة إلى تأسيس عِلم تحسين النسْل. لا تحتاج لأسئلتك أيّة معرفةٍ طبّيّةٍ متخصّصة. ما هو الدافع وراء هذا الجنون العلميّ من أجل التحسين، وفي الوقت ذاته توحيد القياس، وإقصاء كلّ شاذٍّ، وغير طبيعيٍّ، أو مفيد؟ ربّما نجد ذلك لدينا، ولكنْ كيف وصلوا هنا إلى هذا الاحتراف في القتل؟ هذا الارتباط بين جنون عصور الوسطى وعقلانيّة الهندسة، مثل الحالة التي نحن بصددها الآن، هذا الرعب لدى الأساتذة. ضحك ألكسندر، وأرسل دائرة دخانٍ في الهواء، تابعها، وهو يهزّ رأسه. البروفسور لوفلر، الذي شارك في التحقيق معه، قال في المحضر: «إنّ الدفاع عن الحقيقة العلميّة طريقٌ محفوفةٌ بالمخاطر. سوف أقرأ عليك ما كتبه يوليوس شترايخر، مدير إقليم فرانكن ورئيس تحرير جريدة (دير شتورمر) في مجلّة (صحّة

الشعب الألمانيّ على أساس الدّم والأرض): «هناك حقيقة ثابتة لكلّ عالم: أوّلاً: البروتين من جنسٍ غريبٍ هو الحيوان المنويّ لرجُلٍ من جنسٍ آخر. يمتصّ الرحِم الأنثويّ، في أثناء الجِماع؛ الحيوانَ المنويّ الذكريّ كاملاً، أو جزئيّاً، ليدخل بذلك إلى الدّم. وقوع الجِماع، ولو مرّة واحدة، بين يهوديٍّ وبين سيّدةٍ آريّةٍ يكفي لتسميم دمها إلى الأبد. مع هذا البروتين الغريب تكون قد استوعبت داخلها روحاً غريبةً أيضاً. لن يتسنّى لها أبداً أن تُرزق بأطفالٍ آريّين، وإن تزوّجت بعد ذلك رجُلاً آريّاً، بلْ ستُرزق بأوغادٍ تسكن دمهم روحان، ويُظهر جسدهم أنّهم خليطٌ من جنسين. اليهوديّ هو المُسبّب والداعم لهذا الإجراء، وهو الذي يخفيه. إنّه يعرف منذ عقودٍ أسرار قضيّة الأعراق، ويمارس تدمير الشعوب الأرقى منه. أدواته العلم و«السُّلطات»؛ ليفرض معرفةً زائفةً، ويخفي الحقيقة».

قال لوفلر: «يقصي هذا التفسير أيّ اعتراضٍ علميٍّ؛ لأنّ الاعتراض سيُصنّف على أنّه اعتراضٌ يهوديٌّ، ما يعني أنّ الهُراء لا يمكن وصْفه بأنّه هُراء». عبّر على الرّغم من ذلك عن اعتراضه، في سياق تحريره لتقييم حالة ثبوت أبوّةٍ لامرأةٍ كان لها طفلان مع رجُلٍ يهوديٍّ، ثمّ عاشرت رجُلاً آريّاً، ورُزقت منه بطفل. وصف شترايخر هذا الطفل بأنّه يهوديٌّ أيضاً؛ أمّا لوفلر، فثبُت في نصّ تحكيمه تفصيليّاً أنّ حُجج شترايخر ليست صالحة.

وصل نصُّ التحكيم إلى شترايخر، وثار ثورته: «لو كان هذا الغبيّ أمامي، لضربته بسوط الكلاب».

قال لوفلر: صار وضعي مهدّداً؛ أعضاء الحزب النازيّ، ورجال فريق الإس إس يبتعدون، الأصدقاء أنكروني، الزملاء كانوا يغيّرون طريقهم عندما يرونني. اختفت الدعوات، وظهرت العداءات. أخبرني شخصٌ أعرفه، ورفض أنْ يُذكر اسْمه؛ أنّ مديريّة حفظ الأعراق تبحث في حقيقة

أصولي اليهوديّة. صار اسمي الألمانيّ الأصيل، لوفلر، محلّ شكٍّ، ربّما يكون من أصلٍ يهوديٍّ. اختلاف طريقة الكتابة، ما ثمنها؟ روجِعتْ سجلّات الكنائس. لمْ يعد العمل في الجامعة مثمراً؛ اعتذر طلّاب الدكتوراه، ولكنْ كان هناك على الجانب الآخر قلّةٌ من الزملاء الخاضعين للحقيقة العلميّة. قالوا: إنّ نظرية امتصاص البروتين ليست صالحة. أدرك الدكتور جروس -الذي كان يترأس مديريّة حفظ الأعراق- أنّ نظريّة الأعراق بأكملها صارت محلّ نقاشٍ، ودعا إلى المواجهة».

وقعت هذه المواجهة في فيلّا مدير الإقليم شترايخر في حضور حرّاسه وكلابه الألمان، واثنين من الأساتذة، ليس لهما أيّ رأي. قال لوفلر: «إنّه استعدّ جيّداً»، ووجّه حديثه في البداية إلى قضيّة الأمصال التي عارضها شترايخر وهيملر، ثمّ استشهد بطبيب وحدة الإس إس، الدكتور جرافيتس، الذي قال في حضور هتلر: «إنْ تحدّث شخصٌ بعد اندلاع الحرب ضدّ التطعيم، سوف أُطلق عليه النار».

أخذ شترايخر يلوّح بسوط الكلاب، وتمنّى حضور جرافيتس في هذه اللّحظة.

- هل مصير الدكتور جرافيتس معروف؟

لمْ يعرف لوفلر عنه شيئاً. قال ألكسندر: «ولكنْ أنا أعرف، لقد انتحر في نيسان/ إبريل، أطلق طبيب الرايخ على نفسه الرصاص».

من أين جاء هذا الجنون، أنْ تُحمّل مسؤوليّة كلّ شيءٍ للجينات الوراثيّة؟

كانت سيّارة الجيب التي استقلّها الرائد ألكسندر واقفةً أمام مبنى القائد. انتظر هانزن حتّى غابت السيّارة بسحابة الدخان عن المشهد، ثمّ ركب

سيّارته الكابريوليه الزرقاء التي استولى عليها، أنزل سقف السيّارة، وعَبَر شارع بارر ببطءٍ شديد، راقب المارّة: معظمهم من النساء، وبعضُ الأطفال في الشوارع، ورجالٌ متقدّمون في العمر، ومصابون، ورجالٌ يتّكئون على العكاكيز، ورجُلٌ بذراعٍ مبتور. مشهدٌ كئيبٌ ورَثٌّ، المشهد المعتاد؛ لهذا السبب تحديداً، لفتت سيّدةٌ شابّةٌ الأنظار إليها، بفستانٍ مزركشٍ بالورود، بلونٍ أحمر زاهٍ، جواربها البيضاء ملفوفة إلى أعلى، وفي يدها حقيبة، إضافةً إلى حقيبةٍ على ظهرها. كانت تسير سريعاً بحذائها الخشن. يبدو أنّ الحِمْل كان ثقيلاً؛ لأنّها كانت منحنيةً إلى الأمام، وربطت منديلاً أزرق في شعرها الأشقر الذي بعثرته الرياح، الغريب أيضاً أنّها كانت ترتدي نظّارة شمس. لمْ يكن قانون منع التآخي قد رُفع رسمياً تماماً، ولكنّ الحديث إلى الأطفال بات مسموحاً به، ومؤخّراً أيضاً مع السيّدات، مع تجنُّب عناقهنّ علناً. مرَّ هانزن من أمامها ببطءٍ، ثمّ توقّف بعد تردُّدٍ بسيطٍ، وفكّر في أنّ هذا أيضاً سيتغيّر سريعاً. رآها تقترب في المرآة الخلفيّة، حينما صارت إلى جانب السيّارة، قال لها: «هل يمكنني أن آخذك في السيّارة إلى جزءٍ من الطريق؟». كانت ترتدي نظّارة شمسٍ بزجاجٍ مستديرٍ داكن، نظرت إليه من خلالها، وهو يجلس إلى عَجلة القيادة بزيّه الموحَّد.

وضعت الحقائب على المقعد الخلفيّ، وأنزلت الحقيبة التي كانت على ظهرها، وقالت: «إنّ فيها فحماً مضغوطاً، ومن الأفضل وضْعها في حيّز الأمتعة». نزل، وفتح حيّز الأمتعة، وأخذ عنها حقيبة الظهر، ودُهِش من وزنها الثقيل.

– لمْ يكن هذا الحِمْل الثقيل واضحاً عليكِ. إلى أين؟

قالت: «**إلى شارع فايليتش من فضلك**».[8] أرادت أن تُظهر إتقانها للّغة الإنجليزيّة؛ تتحدّث ببطءٍ ووضوحٍ كما تعلّمته في المدرسة، مع التأكيد

على نطق حرف (ذ(*)). تحوّلت إلى اللّغة الألمانيّة، وحكت أنّها من برلين، وأنّها هربت في التوقيت المناسب من الروس. لمْ يبق لها إلّا الطفل وحقيبة، منزلها في برلين قد دُمِّر. قادته عبْر منطقة شفابنج إلى منزلٍ شُيّد مع نهاية القرن التاسع عشر، مكوّنٍ من أربعة أدوار، ويقع إلى جانب حُطام مبنى قدْ سقط. تقودك السلالم إلى السماء، جدار حمايةٍ بسبب المدافع، لا شجر، ولا شُجيرات.

- أيّ دَورٍ تقطنين؟

- الدَّور الثاني.

عرض عليها حمْل الفحم المضغوط، فوافقت بعد تردُّدٍ قصير.

شقّةٌ بثلاث غُرفٍ، وممرٌّ، ومطبخ. يسكن فيها سبعةُ بالغين، وثلاثة أطفال، وتقطن هي في غرفةٍ صغيرةٍ، كانت في الأغلب غرفة الساعي سابقاً. لديها مدفأةٌ صغيرةٌ، وتخرج ماسورة سُحب الدخان عبْر ثقبٍ في النافذة، وخزانة ملابس، وفراشٌ مصنوعٌ من النحاس الأصفر، ومقعد.

سألته إنْ أراد احتساء الشاي؛ إذْ لا توجد قهوة. جلس، على الرّغم من أنّ زيارة الألمان في منازلهم ممنوعة. سمع صوت حديثها في المطبخ، وأصواتاً: أصوات نساء وأطفال. عادت بإبريق، وقالت: إنّها قد استعارته. لا يوجد سُكّر، ولكنْ توجد مادّةٌ للتحلية. جلست على الفراش، ورأى سيقانها البنّيّة بالجوارب البيضاء الملفوفة، وذراعيها تحت الأكمام القصيرة، وصدرها المغطّى بورود الخشخاش المنثور، وشعرها الأشقر الغجريّ متوسّط الطول. لمْ يفكّر في كاثرين، ولكنْ للحظةٍ فكّر في سارة، للحظةٍ فقط، ثمّ سألها عن اسْمها. ماريا، ولكنْ يناديني الجميع بمولي،

(*) نطق حرفي th في كلمة The. (م).

على الرّغم من أنّه ليس اسماً ألمانيّاً أصيلاً. لمْ يحبّ الضبّاط أصحاب الزيّ البنّيّ هذا الاسْم، ولذلك أحبّته هي. لا يمكن اختيار اسْمك، ولكنْ يمكنك تصحيحه. جلست أمامه، ونظرت إليه ببرودٍ وتحفُّظ. ماذا عن وظيفتها؟ كانت قد درست تاريخ الفنّ، لا تفيد هذه الدراسة في شيء. سوف أبحث في الأمر، وأفتح متْجراً. حينما استفسر عن المزيد، قالت: «إنّها لا ترغب في الحديث عن الموضوع».

- وطفلك؟

الابن في مدينة براونشفايج عند حَميها وحماتها.

سألها عن رغبتها في زيارة إحدى الكنائس الباروكيّة معه في المناطق الريفيّة.

- لمَ لا؟

قالتها ببرودٍ وبمنتهى الموضوعيّة، ربّما ينطوي حديثها على رفْض.

رحل بعد ذلك، ولكن بنيّة العودة مرّةً أُخرى.

رأى جورج في المنزل عند البحيرة واقفاً بين الشُّجيرات، وظنّ أنّه يتبوّل، مرّ سريعاً، ولكنّ جورج أشار إليه بالاقتراب، ولكنْ في هدوء، وإصبعه يتّجه نحو أوراق الشجر. لمْ يكتشف هانزن ما يلفت نظره. قال جورج: «**انظر هناك، القرقف الممتلئ**».[8] ناول هانزن المكبّر، وأشار إلى المرعى قائلاً: «**أمرٌ رائع، عشُّ العصافير هناك**».[8] حكى عن بناء العشّ المعقّد الذي يأخذ شكل الجيب، تبنيه العصافير في ثلاثين يوماً بمشقّةٍ كبيرة. طلب إلى هانزن استعمال المكبّر، ووجد شيئاً يشبه الإزميل عالقاً وسط الأشجار، لونه يجمع بين البنّيّ والرمادي. حكى جورج عن كيفيّة قطْع هذه العصافير الصغيرة لأوراق الغاب، وربطها مثل الحبال، وحشوها

بحبوب اللّقاح لشجر الحور وشجر المراعي، إنّه عملٌ باهر. قال: «هل تسمع هذه النغمة؟»، ولكن كان على هانزن تعلُّم الاستماع أوّلاً؛ إذْ لم يسمع سوى زقزقة. لاحقاً، بحث في القاموس: طائر القرقف الممتلئ بجبينٍ أبيض.

أراد جورج أنْ يريه عصفور الصعو الأوراسيّ في بحيرةٍ راكدةٍ صغيرة. قال جورج: «إنّه العصفور الأصغر، ريشه الأعلى بنّيٌّ فاتح، وثمّة خطوطٌ فوق عينيه، ولديه ذيلٌ منتصبٌ نحو الأعلى، يحتفظ في فترة الحضانة بعددٍ من الإناث. يجب أنْ يكون هذا الطائر هو الشارة فوق عَلمنا». أُجبر هانزن -بوصْفه المتحمّس للحيوانات- على الذهاب معه إلى بحيرة الغاب الصغيرة، التي كانوا يربّون فيها سابقاً سمك الشبّوط في الأغلب. انظر إلى هذا الطائر الصغير، الصعو الأوراسيّ! أعطى هانزن المكبّر. تسلّق العصفور الصغير عبْر سورٍ خشبيٍّ مكسورٍ، وتأرجح بين الأسلاك الحديديّة الصدئة والمتدلّية. **إنّه ملك الأسوار.**^

انبهر هانزن.

لمْ يعرف هانزن أسماء الطيور باللّغة الألمانيّة، واضطرّ لذلك إلى البحث عنها في القواميس باستمرار. القرقف الممتلئ، كان يعرف العندليب بالطبع، كانت هذه أسماء معروفة: الشحرور، والعصفور الأسود؛ أمّا القرقف الممتلئ، فلمْ يتحدّث عنه أحدٌ في المنزل؛ وأمّا **ملك** الأسوار، فيتذكّره بصعوبةٍ منذ الطفولة، ربّما من أساطير غريم التي كانت تقرؤها أمّه له. عصفورٌ عجيبٌ، تماماً مثل أصوات الذّكَر، لا نسمع الأنثى تقريباً، أو نسمع لها صوتاً منخفضاً؛ أمّا الذّكَر: سيك سيك سيك، ثمّ صفير، ثمّ شَدْو من مكانٍ عالٍ. نمنة معناها ملك الأسوار، وجد هانزن الاسم الألمانيّ معبّراً بقدْرٍ أكبر.

تأثّر هانزن بحماس جورج لعلم الطيور، وبدأ بدراسة أصوات العصافير وأسمائها قليلاً. هذا التغريد وحْده معجزةٌ حقيقيّةٌ للخلق، غناءٌ بناؤه مثل سيمفونيّةٍ صغيرة: مقدّمة، تغريد مُدوٍّ، أصوات بينيّة، تغريد مُدوٍّ، صوت متدحرج، هذا كلّه يخرج من هذا الكائن الصغير، وبتنويعاتٍ أيضاً.

تكمن في هذا معجزة الخلْق بأكملها، ربّما كان داروين على حقّ، ولكنْ إمكانات هذا الإبداع، الذي يجد أيضاً الأذن التي تستمتع به، هذا ما يجب الحفاظ عليه.

- أخبر هذا المجنون بتحسين النسل بتلك المعلومة.^

- لقد مات.^

- أعرف، ولكن أخبره على أيّ حال.^

-15 حزيران/ يونيو-

للموظّف في متْجر الكتب القديمة أسلوب حديثٍ هادئ. بعد تفحُّص وجهه: هناك ندبةٌ ممتدّةٌ من شَعره الرماديّ الكثيف حتّى ثنيةٍ في جبينه، وذقنٌ رماديّةٌ مبتورةٌ بعض الشيء، ووجهٌ غير مُستوٍ، يعبّر عن الألم والعناد. على الجبين: تجاعيدُ مموّجةٌ، وثلاثة تجاعيدَ عَموديّةٍ بين عينيه. أستطيع تأمُّل وجهه؛ لأنّه يغلق عينيه في أثناء الكلام كثيراً، أحياناً بإحكامٍ، ولكنّ عينيه تتحرّكان تحت جفونه، كأنّه يبحث عن شيءٍ، أو يقرأ من ورقة. ذاكرته مُدهشة!

اليوم الرابع

- هل تسمح لي بسؤالك عن سبب إتقانك للّغة الألمانيّة؟

- كنّا نتحدّث بها في المنزل، ثمّ درست اللّغة الألمانيّة في سانت لويس لدى مهاجرٍ، أستاذٍ من فيينّا، هرب في عام 1938.

- أجلْ، حلّت الكارثة على اليهود هناك بين عشيّةٍ وضحاها؛ أمّا هنا في ألمانيا، فقد اعتادوا انتزاع الحقوق، إنْ صحّ هذا التعبير الساخر. سارت الأمور هنا تدريجيّاً وباستمرار، أطلقوا عليها «تولّي السُّلطة»، أو بمصطلحٍ أكثر دراميّة: «الانتفاضة القوميّة»: في البداية، حبسوا الشيوعيّين والديمقراطيّين الاجتماعيّين في معسكرات الحماية، يا لها من مسمّياتٍ كاذبة! أنا أعرف جيّداً ما أقوله، ثمّ استمرّ الحال، وحاربوا كل صاحب فِكرٍ ناقدٍ، ليحاربوا في النهاية اليهود والغجر كلّهم بطريقةٍ ممنهجة؛ أمّا في النمسا، فتحوّلوا بعد دخول الفِرق الألمانيّة بين يومٍ وليلةٍ إلى بشرٍ من الدرجة الثانية.

- بعد ضمّ النمسا، كما كانوا يطلقون على هذه العمليّة؛ أُقيل أستاذي من عمله بوصفِهِ مدرّساً، وأُلغي عقْد إيجاره. صاحب الكشك، الذي كان يناديه دوماً بلقب السيّد الدكتور، رفض بيع الجرائد له. حزم حقائبه، وثبّت

شارة مُصابي الحرب التي حصل عليها في موقعة إيزونسو، ثمّ توجّه إلى تشيكوسلوفاكيا، وهرب من هناك عبْر باريس إلى الولايات المتّحدة.

– كم كان عمرك حين وصلت إلى نيويورك؟

– كنت في الثانية عشرة من عمري.

– هل كنت تشعر بالحنين إلى الوطن؟

– في الحقيقة لا، كانت مغامرةً رحلة السفينة وحْدها. كان لوالدتي، وأختي التي تكبرني بعامين، ولنا، كابينة مخصّصة لنا وحْدنا. دفع ثمنها أبي. لا، كنت أقف على سطح السفينة، وأنظر من فوق الأمواج إلى الأسماك، فرأيت حوتَين، وهُما يطلقان نافورة الماء، ودُلفيناً. كنت متشوّقاً لأمريكا، ولأبي الذي ينتظرني هناك. تجوّلت في السفينة قَدْر المسموح، كان هناك الكثير لأتعرّف إليه، وأندهش منه. سمح لي بالبقاء مستيقظاً لحظة وصولنا إلى نيويورك. رأيت سلسلةً من الأنوار، شيئاً رائعاً، كأنّه وعْدٌ بما هو قادم. لا، لمْ يكن هناك حنين، ظلّت اللّغة وطننا؛ أمّا أختي، فقد عانت كثيراً، كانت تفتقد صديقاتها، أجلْ.

كنت تريد أن تحكي لي عن الأسد.

– صحيح، هذا الأسد المصنوع من البرونز. كانت هديّتها لي، حينما كنت أعكف على كتابة الخطاب الموجَّه إلى بيبل. لمْ يكن لها اهتمامٌ بالسياسة، ولكنّها كانت مرهفة الحسّ تُجاه ظُلم البشر. الخطاب الموجَّه إلى بيبل كان مسوّدةً ترفض السعي لامتلاك المستعمرات؛ لما تتعرّض له الشعوب هناك من قهر. لمْ يوافقوا في البداية على اقتراحي، وأخذوا اقتراحاً آخر، يهدف إلى دعم الديمقراطيّين الاجتماعيّين للعمل المدنيّ في المستعمرات.

أُتيح لها خلال زياراتها بين الحين والآخر متابعة اضطّرابي، وغضبي،

وتبرّمي، وسخطي من الموقف. هذه الوحشيّة الرهيبة التي مارسها فريق الحماية الألمانيّ في عام 1904 لإسقاط الانتفاضة التي وقعت في مستعمرات جنوب الغرب. الألمان، الذين ادّعوا أنّهم أصحاب الثقافة والحضارة، كانوا في حقيقة الأمر هُم المتوحّشين، وليس الهيريروس والناماس. كانوا يدافعون عن حُرّيّتهم وآدميّتهم في مواجهة توحُّش البِيض، الذين زادت السُّلطة المفرطة من قسوتهم. هذا التوحُّش تجده في المستعمرات الأوروبيّة كلّها. لقد انتفض الهيريروس والناماس؛ لِما أصابهم من مجاعاتٍ، ولانتهاك أعراض نسائهم، ولأنّ التجّار المحترمين، مثل لودريتس، قد نصبوا عليهم في بيع الأراضي.

عام 1889 قال بيبل أمام برلمان الرايخ: «أساس سياسة الاستعمار قائمٌ في واقع الأمر على استغلال شعبٍ آخر أقصى استغلال». كنت قد كتبت للخطبة المرتقبة أمام برلمان الرايخ مسوّدةً حادّةً، تكشف عن الأوضاع الحقيقيّة للاستغلال والانتهاك، ولكنّ الرفاق من الجناح الأيمن قالوا: «إنّ هذا تصرّفٌ غير مسؤول؛ لأنّه سيضرّ بالعمالة الألمانيّة في معركة المنافسة العالميّة». الألمان في حاجةٍ إلى المستعمرات أيضاً. تحدّثوا عن المهمّة الثقافيّة التي تحملها العمالة الألمانيّة على عاتقها. يجب تعليم الحضارة للبشر الذين يمشون عُراةً، لا يكتبون، ولا يقرؤون: النظام، والالتزام، والانضباط في المواعيد. من لا يعمل يتلقّى عدداً محدّداً من الضربات.

لقد دافعت عن المتمرّدين، وتحدّيت الرفاق في جناح اليمين. كانوا هُم بدورهم يفكّرون في العمّال أصحاب النزعة القوميّة، يفكّرون في الناخبين. تحدّث البرجوازيّون عن حربٍ عِرقيّةٍ، ستنتهي بالضرورة بسقوط قوميّةٍ، أو أُخرى. قيل: «إنّ الإفريقيّين في مراحل تطوّر الإنسان كانوا هُم الفرع الأضعف، ومحكومٌ عليهم في معركة البقاء الطبيعيّة بالسقوط. إنّهم

غير قادرين على التكيُّف؛ مستوى ذكائهم أقلّ، ولهم حركاتٌ انسيابيّةٌ في الرقص، وشهوة تكاثرٍ مفرطةٌ أقرب إلى عالم الحيوان». كانت هذه وجهة نظر بلوتز أيضاً. أرادوا التعجيل بعمليّة الانتقاء، لصالح أصحاب الشأن. أليس من مصلحة السكّان الأصليّين ألّا يعانوا الموت البطيء الممتدّ إلى أجيال؟ وأن يموتوا سريعاً بإطلاق النار، أو بتجويعهم؟ انظر إلى الكونغو، حيث قتلوا مئات الآلاف، أو في جنوب غرب إفريقيا الألمانيّة، في صحراء أوماهيكة. إنّها كراهية الرجُل الأبيض: الألمانيّ، والبلجيكيّ، والفرنسيّ، الذي وجد في هؤلاء البشر ما أخذته منه الحضارة: طيبة القلب، وحُسن التعاون، والصبر، والمساعدة المتبادلة، وإحدى صفاتهم الحميدة؛ أيْ عدم إساءتهم للطبيعة التي ينتمون إليها...

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ بالطبع، كانت هذه الشعوب تقوم أيضاً بسرقة المواشي، وشنّ المعارك، والقتل، ولكنْ ليس لديهم هذه الكراهية، وهذا الاحتقار، وهذه الرغبة في القتل الممنهج. أنت تعرف هذا الوضع عندكم في أمريكا. السود ليسوا إخوانكم وأخواتكم، ليسوا سواسية؛ هذا هو السبب في الفصل الصارم داخل المجتمع الذي لَحظته، وأنا هناك. هل تغيّر هذا الوضع؟

- لا، الوضع لدينا في الشمال مختلفٌ عن ولايات الجنوب. أظنّ أنّ الوضع تغيّر قليلاً، تغيُّراً بطيئاً. هناك انطباعٌ بأنّ السُّود أنفسهم ليسوا مهتمّين بتحمُّل المسؤوليّة.

- لا، هُم مستعبدون، ويتعرّضون للقهر. لقد وضع كروبوتكين تصوّراً مختلفاً عن البشر والحيوانات في تاريخ التطوّر: هناك تعاونٌ متبادلٌ في مراحل التطوّر. ترجم لانداور هذا الكتاب. كان كروبوتكين ولانداور هُما المعارضين لهؤلاء الداروينيّين كلّهم، وأصحاب نظريّة تحسين النسْل،

الذين كانوا يستنبتون الإنسان الخارق، ويتمحور تفكيرهم حول الصراع من أجل البقاء فقط.

بفضل لانداور كنت...

- من كان هذا؟

- لانداور، لا تعرفه، ليس هذا أمراً غريباً. لقد سقط في النسيان، لقد قُتل، وقُتلت ذكراه. كان ضحيّة جريمة قتل. إنسانٌ رائع، عرفته في مؤتمر الاشتراكيّين في زيورخ في عام 1893. حضره بوصْفه ممثّل الاشتراكيّين المستقلّين، ولكنّه مُنع -مثل سائر الموكّلين الفوضويّين- عن المشاركة. كان رجُلاً ضئيل الحجم، وشعره طويل، وتعبيرات وجهه توحي بالفكر، وله عينان ذكيّتان باللّونين: الرمادي والأخضر. انسحبت مجموعة الاشتراكيّين المستقلّين إلى داخل مطعم نادٍ صغير. أحاطت بي شبّورة زرقاء كثيفة، ودخان الغليون والسيجار، ليست الأنواع الجيّدة من كوبا، بل خليطاً رخيصاً من الحدائق المنزليّة. اختلطت هذه الروائح بروائح الجعّة والنبيذ. كان هذا أمراً لافتاً؛ لأنّ معظم الحاضرين كانوا ممتنعين عن الشرب. من المؤكّد أنّهم كانوا يعانون، وكذلك غير المدخّنين اقتناعاً، والنباتيّون بالطبع، وهؤلاء الذين يأكلون ما يعطيه الحيوانات والنبات طواعية. من المؤكّد أنّ هؤلاء البشر غريبو الأطوار، ولكنْ كانت هذه المواقف المبالغة في المسالمة تجذبني؛ ربّما لأنّني عاجزٌ عن اتّخاذ هذه المواقف بسبب إحساسي العميق بقلّة الثقة بنفسي. لمْ أملك هذه الطاقة التي كان يضعها هؤلاء المتطرّفون في قناعاتهم، مع عدم الاهتمام بأنفسهم، أو ما يعتقده الآخرون. كنت قد انضممت إلى حزب الديمقراطيّين الاجتماعيّين، وكانت تنقصني القدرة على عدم التشكّك. لا أعرف إنْ كنت تعرف هذه الشكوك.

-مقطع غير مفهوم-

هذا يسعدني، شكراً. أجلْ، يجب أن أعترف بذلك أيضاً. كنت وقت المشاركة في المؤتمر في التاسعة والعشرين من عمري، وكان في صفوف تجمُّع الفوضويّين الكثير من السيّدات الشابّات، الكثير من الطالبات الأجنبيّات، معظمهنّ روسيّات، من الطبقة الأرستقراطيّة، شابّات غاية في الجمال، ليس من منظور الأزياء، ولكنْ لتشبّثهن بإرادتهنّ. أنا حالمٌ، ومن صفات الحالم منعه للأفعال، على الأقلّ في حالتي.

- كنت تريد الحديث عن لانداور.

- كان يلقي محاضرةً في مطعم النادي في زيورخ الذي لا أتذكّر اسمه. أعلن عن رفضه لأيّة سُلطة، وعن رفضه للدولة، وللأحزاب السياسيّة. عرض نظريّته عن الحُرّيّة غير المشروطة للفرد التي ستتحقّق بالاستقلال عن المؤسّسات. كان على النقيض التامّ ممّا سعى إليه الديمقراطيّون الاجتماعيّون كلّه: قوّتنا في اتّحادنا، التنظيم، الالتزام بقواعد الحزب.

مثل الصديق القديم تمتّع لانداور بجاذبية الأنبياء. لخطبه قوّةٌ إيحائيّةٌ، ولكنْ خُطب لانداور كانت أكثر هدوءً، ولطفاً، وطرحاً للتساؤلات. أجلْ، تستنبط مع عباراتٍ كثيرةٍ علامة استفهامٍ موجّهة إلى المتحدّث والمخاطب على حدٍّ سواء. لمْ يكن ذلك الحال مع بلوتز. كان يصرّح بقوانين، قوانين علوم الطبيعة؛ أمّا خطبة لانداور، فكانت أشبه بإكليل أوراق الزينة، كانت أكثر شاعريّةً، وأكثر تصويراً، وأكثر روحانيّةً، لمْ تخضع لهذه العقلانيّة العلميّة التي حكمت خُطب الصديق، مثل: يترتّب على ذلك... حتماً سيؤدّى هذا إلى...، ينفي هذا...؛ أمّا خطبة لانداور، فكانت موجّهةً ضدّ المنهج العلميّ الضاغط، وضدّ ضرورة حصْر هذا المنهج في شيءٍ من دون سواه، وما يترتّب على ذلك من عواقب، وضدّ التفكير المحصور في الفائدة. هل تسمح لي بقراءة عبارةٍ من كتاباته، لا يزال صوته يخاطبنا في

كتاباته: «هناك رباطٌ وثيقٌ بين المسيحيّة بوصفها دين الشعوب، وبين قصّة هذا الإنسان المتميّز، ابن الله الذي يجسّد الإنسان والإله، ويمنحهما الروح أيضاً. امتلأت السماء بجموع الملائكة، والأرض بجموع المساعدين، والقدّيسين، والزاهدين، الذين توصّلوا في حياتهم، مثل أصحاب الصحوة الهنديّة، عبْر الترفّع عن الماديّات والاستغناء، عبْر العدم؛ إلى أعظم الأشياء التي نعجز عن قولها، وإلى الاتّحاد مع الله. عَبرت الحكمة من خلال نقائهم عبر الأزمنة، وهي مغلّفةٌ ومحفوظةٌ في ثوب الأساطير. البشر يصيرون آلهةً، لا يرتبطون بالزمان والمكان، ويسقطون في قاع البدايات حين يغلب عليهم الجانب الروحانيّ».

إنّها لغة الأنبياء. هذا الاستشهاد من عمله «الثورة». تحدّثت إليه بعد محاضرته عن التغيير السلميّ للمجتمع. اضطّررت إلى الانتظار طويلاً؛ لأنّ السيّدات الشابّات قد أحطْن به. كانت السيّدات، طالبات روسيّات، بعضهنّ من الفتيات الصغيرات؛ يُحاصِرنه. إحداهنّ، أولجا، ثوريّةٌ، وشعبيّةٌ، وهاربةٌ من شرطة القيصر الروسيّ، واجهته بسيلٍ من الأسئلة: كيف ستندلع الثورة حين نتخلّى نحن عن العنف أمام العنف المفرط للجيش والشرطة، ومنعهما للتعبير الحُرّ، وسجْنهما لمن يطرح الأسئلة الناقدة؟ كيف ننوّر عقول الفلّاحين والعمّال؟ كيف نقاوم القهر؟ هل هناك حقٌّ في ممارسة العنف حين يعذّب الرفاق ويُعتقلون؟ ألا يجب تحجيم أصحاب السُّلطة، مثلما حدث مع القيصر الروسيّ ألكسندر الثاني، الذي لم تصبه قنبلةٌ قذفها طالبٌ عليه. نزل القيصر عن زلّاقته، وتفحّص الضرر الذي وقع على الزلّاقة، ثمّ قال: «لك الشكر، كان هذا فضل الله». قال الجاني، الذي سلّم نفسه طواعيةً: لا تستعجل! ركب القيصر زلّاقته، ثمّ قُتل بقنبلةٍ ثانيةٍ عند التقاطع التالي.

استمع لانداور إليها، وكان يهزّ رأسه هزّةً خفيفةً، هزّة تشير إليها بالاستمرار في طرح الأسئلة من دون خجل. أجابها: «يجب أن ننحى منحى سلمياً، يجب إقناع البشر بأنّهم هُم من يصنعون العنف والسُّلطة. حين يمتنع اللّذين في المستوى الأدنى، فستنهار أيّة سُلطةٍ من وطأة حمْلها الثقيل، مثل تمثالٍ ضخم. بعد برهةٍ من الزمن، وجدته واقفاً أمامي، وتحدّثت إليه عن تجربتي مع جماعة إيكاريا.

- متى زرت جماعة إيكاريا؟ متى ذهبت إلى الولايات المتحدة؟

- أجلْ، صحيح. لقد استبقت الأحداث، رحلتي إلى إيكاريا.

ذهبت مع الصديق في آذار/ مارس عام 1884 إلى العالم الجديد. كان قبلها يراسل الأصدقاء ويزورهم، وكذلك أصدقاء الأصدقاء والمعارف؛ ليحكي لهم عن موهبته الخاصّة في فنون الإقناع بخطّة تأسيس مجتمعٍ شيوعيٍّ في العالم الجديد. وضع الخطط، ودرس الخرائط، وعمل على تحسين لغته الإنجليزيّة من خلال القراءة المكثّفة، وحفظ المفردات، كما راسل وكالات بيع الأراضي. كانت خطّته أن تُشترى الأرض من وكالة (سكّة حديد المحيط الهادي الشماليّة)، التي قدّمت للمستوطنين قروضاً طويلة الأجل. طلب إلى كلّ مستوطنٍ ألفاً وخمسمئة مارك لتغطية رأس المال. من امتلك مبلغاً أكبر، كان عليه مساعدة غيره، على سبيل التدرّب على إشراك الآخرين فيما نملك. تأسّست مجموعة باسيفيك. بلغت رسوم الاشتراك مئتي مارك. إنّه مبلغٌ كبيرٌ، مخصّصٌ لدفع تكلفة التخطيط والتحضيرات. بخلافي أنا وشتاينميتز، لمْ يملك أحدٌ هذا المبلغ. طُلِب إلى زوجات الإخوة هاوبتمان المساعدة مرّةً أُخرى؛ دفعْن المقدَّم مقابل تعهُّد. في حالة فشل المشروع، يجب على الأعضاء ردّ المبلغ بعد مرور اثني عشر عاماً، وفي حالة نجاح المشروع، على الجمعيّة التعاونيّة ردّ المبلغ.

أجلْ، جاء المال من مكاسب الإخوة هاويتمان الثلاثة من زيجاتهم. أنا أكرّر نفسي، الأمر أشبه بالأساطير: يُحكى أنّ ثلاثة إخوة: جورج، وكارل، وجرهارد، قد تزوّجوا ثلاث أخوات، بنات تاجرٍ ثريٍّ كان قد توفّي منذ وقتٍ قريب، وترك لبناته الخمس ثروةً كبيرةً، لهنّ فيها مُطلق الحُرّيّة. كان قد حدّد في حياته أنّ الزوج المناسب لبناته يجب ألّا يقلّ دخْله عن ستّة آلاف مارك، كان هذا مبلغاً كبيراً، ثمّ توفّي الأب فجأةً، وورثت البنات الثروة، ولهنّ فيها مُطلق الحُرّيّة. تقدّم الإخوة هاوبتمان الفقراء للزواج، وتمتّعوا بالثروة: اشتروا المنازل، ورسموا الخطط، وسافروا إلى روما، ومالاجا، وكابري. قالوا: إنّه زواجٌ عن حُبّ. ربّما كان الوضع كذلك، في البداية على الأقلّ. يُحكى أنّ ثلاثة شباب كانت لهم أهداف كبيرة: أراد الأوّل جورج بناء إمبراطوريّةٍ تجاريّةٍ عابرةٍ للمحيط، تعتمد على الشاي، والقهوة، والتوابل. كانت عائلة فوجر هي المثل الأعلى. أراد الثاني، كارل، أنْ يصبح كاتباً وفيلسوفاً، وأن يؤسّس عملاً يجمع بين الأدب والعلوم الطبيعيّة. تطلّع الثالث، جرهارد، إلى النحت، ثمّ تحوّل إلى الأدب والدراما. كان يحاول التقرّب إلى نموذج غوته، بحلْق شَعر جبينه، وارتداء ملابس قديمةٍ وطويلةٍ، وربطات عُنق، والظهور الوقور، فوصل الأمر بعد مرور عقودٍ إلى تشابهٍ فعليٍّ بينهما. كانوا حينها في ريعان الشباب، ولهم طموحات كبيرة، كما كانت تقول أمّي التي تعرّفت إلى ثلاثتهم في بريسلاو، وكانت تفهم البشر جيّداً. ربّما ينطبق هذا الحُكم على الكبير فقط، الذي أراد أنْ يكون تاجراً في المستعمرات. كانوا شباباً يحبّون الحياة بكلّ حال، لقد عاصرتهم بنفسي، الشابّات الثلاث، مع ثلاثة رجال، كلّهم أملٌ وإقدامٌ على الحياة. كانت فرصة العمر للشبّان، ولكنْ لمْ تكن كذلك للأخوات الثلاث.

أراد الإخوة الثلاثة المشاركة في مشروع إيكاريا. لمْ يفكّر كارل وجرهارد في المكسب، وإنْ كان موقف كارل غير واضح بالمرّة. ربّما شعرت أنّني على مسافةٍ منه. رجُلٌ أشبه بفاونس إله الغابات: ذقنٌ مدبّبةٌ صغيرةٌ، وبين أنفه وفمه تجعيدان ببثورٍ مضاعفةٍ، وعيناه مثل عينَي الجَدي، كلّما اقتربت منه، شممت رائحة الجَدي أيضاً. عرض جورج التاجر الأموال أيضاً، من المؤكّد أنّ هدفه الصريح هو عقْد الصفقات. كان مثل إخوانه يُظهر جنون عظمةٍ شديداً. انشغل جورج بفكرة إقامة إمبراطوريّةٍ للبنّ، شراء حبّات البنّ من البرازيل، أنواع مختارة من هناك، واستيرادها إلى ألمانيا، هامبورغ تحديداً، لتُحمّص وتُطحن هناك. (هاوبتمان(*) كافييه)، إنّها إشارةٌ إلى هَوس الألمان بالجيش. أصرّ على كتابة الاسْم بحرفَيّ الياء، الاسم نفسه استُعمل للمتاجر الكبيرة التي كانت تبيع القهوة الطازجة. كان جنون العظمة مناقضاً لاستمتاعه بالقهوة مع الصحبة داخل القاعات الصغيرة المريحة. أخفق جورج بالفعل.

– إذاً، كان من المخطّط أن تكون إيكاريا محطّةً تجاريّةً؟

– نعم، كان هذا هو الهدف أيضاً، مع الخشب والحبوب، ولكنّ الهدف الحاسم كان شكل التعايش. قال كابيه: لنْ يكون فردٌ أسعد من الآخر، ولنْ يرى الفرد شخصاً آخر أكثر سعادةً منه.

– هذا مطلبٌ كبير.

– أجلْ، بالفعل. أراد الصديق الحصول على الاعتراف الرسميّ بهذه المنطقة، وأوحى هذا المصطلح بطبيعة خطّته القياديّة. درس الأوضاع هناك، ثمّ أرسل التاجر شاميل ليدرس معطيات تجارة الحبوب والخشب. دفعت الزوجات ثمن تذكرته. كان المطلوب أنْ يجمع باقي أعضاء

(*) Hauptmann: رتبة عسكرية في ألمانيا يقابلها نقيب. (م).

مجموعة الباسيفيك آنذاك المستوطنين من الشباب: فلّاحين، ونجّارين، وعمّال بناءٍ، وطاحني الحبوب، وحدّادين. تراوح عددهم بين الثلاثمئة والخمسمئة، بينهم النساء والأطفال، وكان يفترض أنْ يرحلوا مع بداية عام 1885، على أنْ يأتي مزيدٌ من المستوطنين بعد بناء المنازل، والمدرسة، وقاعة التجمّع، والمكتبة، كانت هذه هي الخطّة.

حجزنا ممرَّيْن على باخرة خطّ هامبورغ أمريكا. تذكرة بلوتز دُفعت من إرث السيّدة هاوبتمان، بوصْفها تذكرةً لرحلة عمل مجموعة باسيفيك؛ أمّا أنا، فتمكّنت من دفع ثمن تذكرتي بنفسي من إرْث أبي.

حجزنا للرحلة سطح الباخرة المتوسّط. كان الصديق يتعامل مع مال الزوجات المقترض بمنتهى الحرص، على خلاف الإخوة الثلاث؛ لمْ يفضّل البَذخ. لمْ تمرّ إلّا بضْع سنواتٍ على بداية رحلات الباخرة من هامبورغ، لكنّ السطح المتوسّط كان في حالةٍ مُزرية. وضعت تصميماتٌ خشبيّةٌ في ثلاثة صفوف، لم تُصنع بعناية. فراشان فوق بعضهما، وعليهما مراتب من القشّ. عُقدت بين التصميمات الخشبيّة الأحبال، وعُلّقت عليها السراويل، والقمصان، والجوارب. مرحاض النساء والأطفال على اليمين، ومرحاض الرجال على اليسار، ولوحٌ خشبيٌّ طويلٌ بثقوبٍ دائريّة. كانوا يجلسون عليها جنباً إلى جنب. جُهّزت الجرائد القديمة لتُقطّع إلى قطعٍ مربّعةٍ، أُلزموا بغلقها جيّداً. اختلفت تكهّنات المسافرين حول مصير مخلّفاتهم.

هبّت عند مصبّ نهر الإلبة رياحٌ قويّةٌ، وصلت في المساء عند بحر الشمال إلى مستوى العاصفة. تجمّع على مساحةٍ ضيّقةٍ في السطح المتوسّط النساء والرجال، الكبار والصغار، الأطفال والشيوخ. حشرجة المصابين بدوار البحر صارت مسموعةً، كما انتشرت رائحةٌ جهنّميّةٌ

كريهة. البكاء، والصراخ، والولولة في كلّ مكان. أنا لديّ مناعةٌ من الدُّوار البحريّ؛ أمّا الصديق، فشحُب وجهه، كان أبيض اللّون، ولكنْ سُمح له بما كان ممنوعاً على المسافرين: الصعود إلى السطح للتنزّه. رافقته، تأبّطت ذراعه، لأقوده عبْر السُّلّم. كنّا نترنّح مثل السّكارى، تشبّثنا ببعضنا، وصلنا إلى السقفية، وتقيّأ، تبعاً للإرشادات؛ عكس اتّجاه الرياح. غسلت الأمطار بقايا قيئه التي سقطت على الحذاء. على مدار أيّام العاصفة الثلاثة، لمْ يكن متقبّلاً لأيّة أحاديث، كانت المرّة الوحيدة التي رأيته فيها في حالة ضعف، هو الذي كان يخفي أيّ ضعف. أحضرت له شاياً بالأعشاب، أعدّته فلّاحةٌ من أوكرانيا، كان مرّاً بعض الشيء، ولكنْ ذا تأثيرٍ مهدّئٍ رائعٍ على المعدة. شرب الشاي، وهزّ رأسه، وقال: كيف يمكن للمعدة المريضة أن تحوّل كلّ فكرةٍ عظيمةٍ إلى...، ثمّ عاد للقيء مرّةً أُخرى.

-مقطع غير مفهوم-

نعم، صحيح، نيويورك. يا له من مشهد! يا لها من تجربةٍ أن تدخل الميناء! هذه المدينة، وهؤلاء البشر الذين رأيناهم، وحُسن المعاملة. أودّ أنْ أبلغك بمدى إعجابي بأسلوب وقوف الضبّاط...

- حسناً...

- الفرق، أمرٌ رائعٌ أنّهم يضعون أيديهم في جيوبهم...

- حسناً، ولكنّ هذا لا يحدث داخل الثكنات...

-...أين يمكن وضع الأيادي حين تكون واقفاً بمنتهى البساطة؟ أسلوب وقوفكم عكسنا تماماً: أيادينا على الوسط، ونقف مستقيمين. يكفي الفارق بين رنين ردّنا «حاضر»، وردّكم الممدود «تمام». شرفنا هو الوفاء. لقد رأينا النهاية المحتومة. الجنديّ عندنا ملزمٌ بإدخال ذقنه داخل ياقة القميص. لديكم حركة مضْغٍ خاصّة بكم، لمْ أرها حين سافرت

للمرّة الأولى إلى بلادكم. هناك بالتأكيد الكثير من الأمور التي تغيّرت. لقد غمرني حُسن الضيافة، وهذه المباشرة في التعامل، وهذا التفاؤل بالمستقبل، وهذه الإيجابيّة الكبيرة، والهدوء. الوضع ليس كذلك في نيويورك، وجدت الكثير من الفقر، والفوضى، وعدم الاهتمام. رائحة بول الأحصنة وبرازها كانت تملأ الشوارع؛ أمّا في الأرياف، في الغرب، فكانت رحلات عظيمة ورائعة. رحلاتنا استُقبلت بالترحاب وحُسن التعاون. حين وصلنا إلى نيويورك، لمْ يكن تمثال الحُرّيّة قد شُيّد بعد، إنّما وُضع له حجر الأساس.

- أين زرت جماعة الإيكاريّين في أمريكا؟

- في أيوا، بالقرب من المدينة الصغيرة كورنينج، انتقلت الجماعة بعد خلافاتٍ وقعت في ناوفو إلى هناك. في توقيت وصولنا نفسه، تجدّد الخلاف، وانقسمت الجماعة إلى إيكاريا الجديدة وإيكاريا الشابّة. طالب الشباب بعددٍ من الإصلاحات في إدارة الزراعات، وحقّ المرأة في التصويت، والقبول غير المشروط بأعضاءٍ جُدد، من هنا جاء الانفصال؛ لمْ يستمرّ حزب الشباب طويلًا، ذهبنا نحن إلى جماعة الحزب القديم، عند المحافظين الذين أطلقوا على أنفسهم الحزب الإيكاريّ الجديد، شملت ثلاثين منزلاً، وقاعةً للاجتماعات، وبيتاً صغيراً بمكتبة، وكنّا نتناول فيه الوجبات الجماعيّة. لمْ يؤكّد الإيكاريّون، بحسب الانطباع الأوّل، الصورة التي رسمها إتيان كابيه عن سكّان المحلّيّات. نتيجةً لاختلاط أعراقٍ مختلفةٍ، كان يفترض أنْ ينفرد سكّان إيكاريا بالقوّة، وأن يتمتّعوا بحُسن المظهر والاحترام. كان سكّان إيكاريا، الذين التقيناهم، صغار الحجم، منهكين من العمل، كما أظهروا الشكّ والتحفّظ تجاهنا.

أُصبت بخيبة أمل، حاول الصديق إضفاء التفاؤل على انطباعاتنا،

وقال: إنّنا وصلنا في المساء، بعد يوم عملٍ شاقٍّ للسكّان، وأنّ تحفّظهم ينمّ عن جدّيّتهم الكبيرة، وفرصة الاعتماد عليهم، كما أنّ النموذج الجديد لنْ يظهر إلّا بعد مرور أربعين عاماً، ولكنْ لا أملَ في تغيّراتٍ كبيرةٍ؛ لأنّ الّلون الرماديّ قد غلب على المشهد، والمتوقّع هو عددٌ قليلٌ من الولادات الجديدة. جلس الرجال على الدكك أمام بيت التجمُّع، دخّنوا، وتجاذبوا أطراف الحديث. كانوا يراقبوننا متوجّسين، إنْ طرحنا سؤالاً، تأتي الإجابات بصعوبةٍ بالغة. إنْ تعلّق سؤالٌ بأمرٍ أبعد من المذكور في منشوراتهم، التزموا الصمت، واكفهرّت وجوههم، كأنّ غالبيّتهم قد نسي الكلام. صحيحٌ أنّ الفلّاحين في شمال ألمانيا لا يفضّلون الإسهاب في الحديث. أنت لا تتدرّب على النقاش حين تجرّ المحراث خلف الحصان عبْر الأرض. الكتب، والمسرح، وقاعات الحفلات بعيدة، ولكنْ كان لديهم مكتبةٌ وبيتٌ للتجمُّع، وبحسْب ما قرأت عند كابيه كان للرقص والموسيقا أهمّيّة خاصّة. ما عكّر صَفو انطباعي الأوّل أيضاً رائحة الرجال النفّاذة، حين تقترب منهم في أثناء الحديث. كان للصديق المتحمّس تفسير لذلك أيضاً: هذه الرائحة دليلٌ على العمل المكثّف للأعضاء وحُسن تدبيرهم، وهي دليلٌ أيضاً على المشاعر الإيجابيّة المتبادلة بينهم.

خُصّصت لنا حُجرةٌ في دار ضيافةٍ صغيرةٍ، غرفةٌ نظيفةٌ، وبلا أيّة زينة. تكوّنت الحيطان من ألواحٍ عريضةٍ بلونٍ بنّيٍّ أحمر. الأرض كانت بلا سجّاد، عبارةً عن ألواحٍ، وسُقيت بزيت رائحته زهرة الزيزفون. فراشان بسيطان، لحُسن الحظّ بلا أجزاءٍ خشبيّةٍ عند الرأس والقدم، فتمكّنا من فرد أجسادنا في أثناء النوم. في الرّكن فرنٌ حديديٌّ مستديرٌ، إلى جانبه منضدةٌ صغيرةٌ غير مستقرّة. ترك الضيوف السابقون أثرهم على قرص المنضدة: حروفاً وأسماء محفورة، واسْم ريبيكا على نحوٍ فنّيٍّ جميل.

مقعدان بسيطان من خشب البندق، عُلّقت على الحائط الوصايا الاثنتي عشرة لجماعة إيكاريا بخطٍّ قديمٍ يدويٍّ غير مزخرف، باللّغة: الفرنسيّة، والإنجليزيّة، والألمانيّة.

كما ترى، كلّ شيءٍ محفوظٌ في الذاكرة؛ لأنّنا شعرنا في هذا المكان بالراحة، بعد الرحلة الطويلة والمعقّدة عبر البحر واليابسة.

بدا كلّ شيءٍ في اليوم التالي، مع ضوء النهار وإشراقة الشمس، على نحوٍ ألطف. أكلنا في مقرّ الجماعة، علّقت على المدخل كلمة العدالة باللّغة الفرنسيّة، وعلى الحائط المقابل كلمة الإخوة بالفرنسيّة أيضاً. فوجئنا بجلوس الرجال والنساء منفصلين على المناضد الخشبيّة الطويلة. وُضعت على المنضدة الأطباق البسيطة المكسوّة بالمينا والأكواب. يذكّرك الخبز الفرنسيّ الطازج ورائحته الرائعة بالتقاليد الفرنسيّة للجماعة. تدخل به فتاتان ترتديان مئزرَيْن. على المناضد صحونٌ بها مربّى التوت المصنوعة داخل المستوطنة، وكذلك الجبن اللّذيذ الذي يذكّرك بالجودة الهولنديّة، فضلاً عن قطع الزبدة المملّحة الطازجة. حملت الفتاتان إبريق القهوة الكبير، كما ناول الضيوف الكريمة الطازجة لبعضهم في أباريق صغيرة من البورسلين. عوضاً عن تجاذب أطراف الحديث صدرت بعض القهقهات، أو الإشارة بالأصابع لمزيدٍ من الزبدة، أو القهوة، ولكنّ الأجواء كانت لطيفةً على مائدة الفطور. بالطّبع، كان للفتاتين فضلٌ في ذلك، خاصّةً الفتاة ذات الضفائر الشقراء التي كانت تسألني بلهجة جنوب ألمانيا: «هل تريد رشفةً أُخرى من القهوة بالحليب؟».

دقّ الجرس، ونهض الجالسون إلى المنضدة ببطءٍ، وذهبوا على مَهلٍ إلى أعمالهم. وقع هذا كلّه من دون أيّ استعجالٍ، ظلّ أحدهم جالساً، يمضغ الطعام، ويطلب مزيداً من القهوة.

دقّ الجرس مرّةً أُخرى، وقفت أنا والصديق خارج المبنى، أشرقت الشمس، وقال الصديق: «أمرٌ رائعٌ».

ذهب الأطفال، خمسة فقط، إلى المدرسة، والرجال إلى الحقل، والنساء إلى المغسلة، ومصنع الجبن، ونسيج السجّاد، وتوزّعوا ببطءٍ على الأنشطة.

طلب بلوتز أنْ يوزّع على العمل في الحقل. رأيته بعد وهلةٍ، وهو ينزع مثل المحارب بالمعزقة الأعشاب الضارّة من الأرض. كان يمدح في المساء هذا المجهود الجسديّ، وكذلك في اليوم الرابع حين ربطت يديه بسبب الفقاعات المفتوحة. كُلّفتُ أنا بتوصيل الحليب. هل سبق لك قيادة الحنطور؟

- لا.

- تطلّب الأمر بعض التدريب، ولو كان الحصان هادئاً. كنت في البداية مجرّد مساعدٍ؛ أرفع الأوعية، وأتابع قائمة التوصيل. بعد أنْ وُضع اللّجام أكثر من مرّةٍ في يدي، وصحّح لي عضو الجماعة، تمكّنتُ من توصيل الحليب إلى معمل الألبان وخْدي. في هذه الأثناء، انتقل الصديق إلى قطع الأخشاب. قال بعد مرور ثلاثة أيامٍ: «إنّه رأى دُبّاً في الغابة، حيواناً ضخم الجثّة، اختفى سريعاً وسط الشجيرات». قال بعضهم: «إنّ آخر دبٍّ رأوه هنا كان في سيركٍ متنقّلٍ، وكان الدبُّ يقود درّاجةً»، ولكنّ بعض الأعضاء القدامى قالوا: «إنّ هذا الأمر ليس مستحيلاً. تتكرّر هذه الحالات الفرديّة، وقد تمثّل خطورةً». تسلّم الصديق بندقيّةً، ورافقني منذ هذه اللّحظة، وهو يرتدي السُّترة البنّيّة المصنوعة من جِلد الجاموس، اختار لها أكماماً تتدلّى منها الأهداب، وامتطى الفرس، وهو يحمل على كتفه بندقيّة وينشستر 76. كان قد خدم بعد المرحلة الإعداديّة بعامٍ في جيش بروسيا لبضعة أشهُر. كان يتقن الفروسيّة والرماية.

عاد متأخّراً في المساء. لمْ تكن المسألة مجرّد حظٍّ، بل الفضل أيضاً لإصراره. صحيحٌ أنّه لمْ يجلب دُبّاً، ولكنْ اصطاد ديكاً روميّاً، حيواناً ضخماً. في اليوم التالي، دخل الديك الروميّ الفرن، وحصل كلّ شخصٍ على قطعةٍ من اللّحم فاتح اللّون، ولذيذ الطعم. كانت احتفاليّة صغيرة. وُزّعت الجعّة التي تنتجها الجماعة بسخاء، فحلّت عقدة اللّسان، وضحك الجميع. كان أحد الشباب يعزف على القيثارة، وآخر على الغيتار. غنّى الجميع أغنيات «عند البئر أمام البوّابة»، و«فوق جسر أفيجنون».

بعد يومين، حضر رجُلٌ فظٌّ على فَرسه، بذقنٍ، وبندقيّةٍ ضخمةٍ على ظهره. نزل عن الفرس، وظلّ يصرخ. لغته الإنجليزيّة غريبةٌ وصعبة الفهْم. لاحقاً، قيل لي: إنّه مزارعٌ يقطن على بُعد بضعة أميال، وهرب منه ديك روميّ». اعتقد أنّ الجماعة كانت تعرف أنّ الديك ملكٌ له. صرخ: «متى رأيتم ديوكاً روميّةً بريّةً لآخر مرّة؟ اللّعنة!». قال: «إنّهم لذلك ذبحوا الطير في الحال وأكلوه». فُرض على الصديق دفع ثمن الوجبة من جيبه؛ أيْ: من إرْث السيّدة هاوبتمان.

رؤية حركة الصديق هنا، نزوله عن الفرس بحذائه العالي، وسُترته المصنوعة من جِلد الجاموس مع قبّعته العريضة، يوحي هذا كلّه أنّه أنسب في هذا المشهد من كثيرٍ من الإيكاريّين القادمين من فرنسا، وسويسرا، وإنجلترا، وألمانيا. كان يتحرّك بسرعةٍ أكبر من الآخرين، الذين كانوا يقومون بأعمالهم على مهل. الشعار المناسب لعملهم هو: خذ الأمور ببساطة.

اختلفت المسألة بالنسبة إليّ عن الصديق الذي بدأ برؤية هذا النمط من التعايش بعينٍ ناقدة. وجدت شيئاً ممتعاً في مراقبة أسلوب تعاملاتهم المتمهّل، من دون حقدٍ على ممتلكات الآخر؛ إذْ كان كلّ شيءٍ ملكاً

للجميع. بحُكم الّلغة الإنجليزيّة، أعجبني تعاملهم بالضمير «أنت». التعاملات بين البشر تتّسم بالرزانة، وصيغة الأمر غائبة، وما لحظته سريعاً: غياب كلمات «حاضر»، و«سريعاً». لا مجال للنظرات الّلاهثة والغاضبة، ولا للخضوع، ومع ذلك، اتّضح لي، بعد مراقبةٍ متأنّيةٍ على مدار أسبوعين، أو ثلاثة، تباين الأعضاء في الوفاء بالتزاماتهم، تبايناً في دقّة تنفيذ الأعمال المطلوبة وسرعته. كنّا قد سجّلنا أنفسنا طواعيةً لعملٍ يبدو أنّه لمْ يكن محبوباً. عملت مجموعتان مكوّنتان من خمسة رجال على مسافة بلغت أربعمئة متر. كنت أنا والصديق في مجموعةٍ واحدة. دُبّبت الأعمدة الخشبيّة، وكنّا ندخلها إلى النار، ثمّ ندقّها في الأرض؛ كي لا يصيبها العفن في التربة سريعاً. كنّا ندقّ بخطّافٍ حديديٍّ شبكة الأسلاك على الأعمدة الخشبيّة. استعملت مع الصديق مدكّاً للأعمدة، ساعدنا على إنجاز العمل بتركيزٍ وسرعة. أجلْ، لقد استمتعنا بإنجاز المهمّة. أشعلنا حماس الزملاء الثلاثة بصيحاتنا: «هيلا هيلا»، و«اطرق بقوّة!». أنهينا عملنا في المساء، ونظرنا في حالةٍ من الرضا إلى السور الممتدّ على السهل. قال المنظّم المسؤول عن الشؤون الزراعيّة: «عملٌ رائعٌ». أحضر معه الجعّة في الحنطور. لمْ تنهِ المجموعة الأُخرى إلّا نصف السور، ولمْ يكن تحرّيها مستوى أعلى من الجودة هو السبب، بلْ على العكس، كانت هناك تعديلات مطلوبة، عِلماً بأنّ خطأً فادحاً كان غير قابلٍ للتصحيح. نسيت المجموعة وضْع الأطراف السفلى للأعمدة في النار؛ بسبب الاستهتار، أو الكسل، وعادةً ما يكون الأخير سبباً للأوّل، كما أنّ الأعمدة لمْ تُدقّ بالعمق الكافي في الأرض، فكانت شبكة الأسلاك المثبتة فيها تجذبها يميناً ويساراً. كان السور يتأرجح كمخمور على امتداد السهل.

-مقطع غير مفهوم-

دُعي إلى لقاءٍ مشتركٍ في بيت التجمُّع. كنت قد حكيت لك عن خيبة أملي لحظة رؤية سكّان المستوطنة. تأثّر كابيه في كتاباته بكامبانيلا. لمْ يسْع من خلال الاستنبات إلى تحسين عالم الحيوان والنبات فحسب، بل المادّة الحيويّة للبشر أيضاً.

تحمّس بلوتز لهذه الفكرة سريعاً. هذا التصوّر حول مجتمعٍ عادلٍ ومتساوٍ، يظهر متآلفاً وجميلاً. يجب تقويم الظلم الكامن في طبيعة الفرد، ويجب أنْ يصل التساوي المستهدف داخل المجتمع إلى المظهر والجسم، التساوي في الجمال. ذكرتُ -من قبل- أنّ الحاضرين في هذه الجلسة لمْ يتّسقوا مع هذا التصوّر قطّ؛ كانت مجموعةً متنوّعةً، بوجوهٍ صغيرةٍ، ومقوّسةٍ، وعريضةٍ، ورؤوسٍ بآذانٍ ضخمةٍ، بعضها يكسوها شَعرٌ مثل صوفٍ يذكّرك بالخرفان. حسناً، ربّما كان تهذيب هذا الشعر بالمقصّ ممكناً، ولكنْ ما الذي كان يمكن صنعه تُجاه هذه الأنوف وحجمها الضخم اللّافت؟ عُذراً لهذه النظرة الباردة تُجاه مظهر هؤلاء البشر بلباقتهم، وتواضعهم، وحُسن نيّتهم، ولكنْ ماذا عن شفاههم المتدلّية مثل شفاه البقر؟ أنا لا أعبّر إلّا عن رؤيةٍ متفائلةٍ، وكنت أتبنّى هذه الرؤية أيضاً.

كان الصديق على حقّ، لا يتوقّع أن يتغيّر مظهر هؤلاء البشر خلال جيلٍ، أو جيلَيْن. كان منظر المجتمعين هنا مخيّباً للآمال. لَحظت هذه السيّدة الشابّة ذات الشعر الأشقر الكثيف والمجدول، النّمش يغطّي وجهها وأنفها الصغير. نظرت إليَّ وسط صمتٍ كئيبٍ للحاضرين، بابتسامةٍ مباشرةٍ وبريئةٍ، فتأثّر قلبي الذي لمْ يكن خبيراً على الإطلاق. شعرتُ بدفعةٍ من الدفء تنطلق إلى داخلي، إلى رقبتي، وأطرافي. هذه النظرة الطيّبة كان فيها خطأ بسيط؛ عينها اليسرى منحرفة قليلاً عن محور الرؤية، اضطّراب بسيط، كان هذا يوحي بضعفها.

تناول هذا الاجتماع قضايا بسيطة، مثل توزيع المهامّ اليوميّة، ومتطلّبات الأسبوع القادم. كان المطلوب إقامة أسوارٍ أخرى؛ كي لا تهرب ماشية الألبان. دار الحديث أيضاً حول درجة نضْج الجُبن. كان المطلوب شراء جهاز طردٍ يدويٍّ أكبر حجماً لمصنع الجُبن الذي كان يشرف عليه رجُلٌ سويسريّ. جرت المفاوضات حول المبلغ المُتاح. كان حديثاً متأنّياً، ونوقشت أوجه الموضوع جميعها في هدوء، إلى أن اتّفقوا على مبلغٍ محدّدٍ بالدولار، وجرى التصويت عليه. كان لافتاً أنّ السيّدات العاملات في مصنع الجُبن لمْ يرفعْن أيديهنّ. سمعنا أنّه لا يحقّ لهنّ التصويت على الأمور الماليّة. تحدّثوا بعد ذلك عن مسؤوليّات المطبخ، والمغسلة، ومصنع النسيج. اللّغة المشتركة هي لغةٌ إنجليزيّةٌ بسيطة. كان الأعضاء يحملون جنسيّاتٍ مختلفة: من فرنسا، وألمانيا، والسويد، وإنجلترا، جماعة دوليّة. بدا أنّ المناقشات الدائرة في أوروبّا جميعها عن صفات الشعوب وصراعات القوميّات قد أُبطل مفعولها هنا. غلبت على هذه المناقشات متطلّبات الحياة اليوميّة، وضرورة العمل المشترك. مع الأسف، صودرت مقالاتي وتقاريري جميعها التي صدرت في طبعاتٍ محدودةٍ جدّاً. حين تقدّمت بعد إخلاء سبيلي بطلبٍ إلى المخابرات السرّيّة للدولة لاسترداد أوراقي، ومسوّداتي، وتدويناتي، نظر إليَّ الموظّف الجالس إلى المكتب، بأكمامه الواقية، مصعوقاً. سألني: «هل أنت مخمور؟». ثمّ صرخ: «اخرج من هنا!».

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، دعنا ننهي حديث اليوم.

متجر الجيش (بي إكس)

بعد مرور أسبوعٍ على توصيله مولي إلى المنزل، ذهب هانزن إلى منزلها مرّةً أُخرى على أمل لقائها مجدّداً. رنّ الجرس ثلاث مرّات، وفقاً للعلامات الثلاث التي وضعتها إلى جانب الجرس.

فتحت الباب، ولمْ تكن مندهشةً على الإطلاق، بلْ رحّبت به، كأنّها كانت تنتظره. كانت ترتدي زيّاً رياضيّاً أسودَ فضفاضاً، بدا كأنّه زيٌّ رجالي.

سألها عن رغبتها في مرافقته في رحلةٍ إلى البحيرة. عرض القيام برحلة مَركب. كانت كذبةً؛ لأنّ رحلة المركب لمْ تكن متاحةً؛ بسبب نقص قطعة أنبوبة التوزيع التي لمْ يجدوها بعْد. من الممكن أن يجلسا في المركب، ولكنْ في المساء سيأتي الناموس وذباب الخيل من الغابة.

ما أراده هانزن، ولمْ يقله بالطبع، هو تناول العشاء ومضاجعتها.

- رحلة بالمركب؟

بلا تفكيرٍ ولا تردّدٍ قالت: «نعم». عليها تغيير ملابسها. طلبت إليه الدخول إلى حُجرتها، ثمّ أخذت غيارها الداخليّ وفستانها من خزانةٍ رخيصةٍ وعوجاء. خرجت إلى الممرّ والحمّام، يبدو أنّها اضطّرّت أن

تنتظر؛ لأنّه سمع، من دون أن يفهم، حواراً مع امرأةٍ أُخرى على باب الحمام. سمع صوتها الحاسم، لا ترجّي، بل نبْرة آمرة.

تمكّن -على عكس الزيارة الأولى- من تفقّد الغرفة من دون إزعاجٍ، والصور الفوتوغرافيّة الثلاث أيضاً، التي كانت موجودةً على المنضدة: صورةٌ لمولي وصبيّ صغير، وصورةٌ أُخرى لأُسْرةٍ: عددٌ من الرجال والنساء، وأطفالٌ في أعمارٍ مختلفةٍ، في زيٍّ احتفاليٍّ، وبعض الرجال ببزّاتٍ موحَّدة. يبدو أنّها التُقِطت في حفل يوبيل زواجٍ ذهبيّ. في وسط الصورة رجُلٌ بشعرٍ رماديٍّ، ونظراتٍ مدروسةٍ، وإلى جانبه سيّدةٌ تجلس باستقامةٍ، في زيٍّ أسْود، وشعرٍ رماديٍّ كثيفٍ مرفوعٍ نحو الأعلى، ثمّ كانت هناك صورةٌ أُخرى بإطارٍ فضّيٍّ، وشريطٍ أسْود؛ ضابطٌ ألمانيٌّ شابّ، من السلاح الجوّيّ، بثلاثة أجنحةٍ على ياقته المقلوبة، نقيب، ووجهٌ بملامحَ جادّةٍ، لطيفٌ ومتأمّل. فكّر هانزن في أنّ هذا هو خصْمه، وفكّر أيضاً في هوراس الذي رآه عند كاثرين في إطار صورةٍ فضّيّ.

وضعت مساحيق التجميل، ولوّنت شفتيها وحاجبيها، ورفعت شعرها الأشعث نحو الأعلى. ارتدت مجدّداً الفستان بزهور الخشخاش. يبدو أنّها لمْ تمتلك غيره، ولكنّها لمْ ترتدِ الجوارب البيضاء الملفوفة، بلْ جوارب حريريّة طويلة، مع حذاءٍ بكعبٍ عالٍ مصنوعٍ من الفلّين.

ليس الملبس المناسب لرحلةٍ بالمركب، هذا ما خطر على باله، ولكنّه لمْ يقله. ربّما فهمت أنّ رحلة المركب هذه مجرّد حُجّة.

يبدو أنّها راقبته، وهو يتأمّل الصور، فأشارت إليها وقالت: «هذا ابني، وهذه أُسرتي، وهذا زوجي». شدّدت نطق المعلومة الأخيرة، ثمّ قالت بموضوعيّةٍ: «لقد مات في الحرب؛ أُسقطت طائرته في روسيا. كانت زيجةً قصيرةً، إنْ حسبنا الأيّام التي قضيناها معاً، حين كان يعود في إجازةٍ من

الجبهة، فلنْ تصل إلى ثلاثة أشهر، ولكنْ جاء الصبيّ، إنّه يعيش مع جدّه وجدّته في براونشفايج. سوف أحضره إلى هنا بعد افتتاح المتجر الخاصّ بي».

- أيّ متجر؟

- سوف أحكي لك عنه لاحقاً.

ذهبا إلى متجر الجيش (بي إكس)، حيث كان يتسكّع الكثير من الألمان أمامه؛ كانوا يتسوّلون السجائر، من دون أن يُسمح لهم بدخول المتجر، ولأنّ مولي مضطّرةٌ إلى الانتظار في الخارج، سألها عن إنزال غطاء السيّارة ليحميها من المتطفّلين.

- لا يعنيني الأمر.

أنزل الغطاء، يبدو أنّ المسألة كانت تعنيه هو.

لمْ يتمكّن بعْد من اصطحاب مولي إلى تجمّعاتٍ مع رؤسائه، أو زملائه. كان لبعض الزملاء صديقات ألمانيّات، وكان للرُّتب كلّها المنتمية إلى الفِرق العسكريّة آنساتهم كما يُقال، هؤلاء الشباب عليهم إقبال. سمح لهم بالتبضّع في متاجر (بي إكس). طُبّقت في الولايات المتّحدة سياسة ترشيد الاستهلاك، ولمْ تكن السلع كلّها متاحةً؛ أمّا الأوضاع في ألمانيا، فكانت بمنزلة الجنّة، هذا هو العالم الجديد: سجائر لاكي سترايك، وكاميل، وتشيستر فرايد، والويسكي والنبيذ: أولد فيتزغارد، وهابرز، وجاك دانيال، الجعّة: بابست، وشليتز، وبلاتز، اللحم المعلّب: سبام، الدقيق: بيلسبيري، وفارينا، وكيشتن كرافت، الشكولاتة: هارشي بارز، وبوميل، البسكويت: أوريو، وغارهام كراكر، وكراكر جاك، سمك التونة والسلمون: جون ويست، السردين: موسابيك، الحلويات: بيبي روث، وباتر فينغرز، وسنيكرز، ومارس، ومسحوق الغسيل: أومو، وإيفوري سنو.

يكفي هذا الاسم، إيفوري سنو.

اشترى هانزن: مشروب الجنّ، وسمك السلمون والتونة، والبسكويت، والزبدة، والقهوة، وعلبتين من سجائر كاميل.

أمام المدخل، كان الشباب يتسكّعون، والأطفال يتسوّلون. هل هناك دليلٌ أفضل على الانتصار المستحقّ لأمريكا من طعم السجائر، ورائحة القهوة؟ كان هذا كلّه متاحاً في السوق السوداء، حيث كانت الساعات، ومعاطف الفراء، والكاميرات، تباع مقابل السجائر.

دخلت المنزل من دون تردّدٍ، كأنّها تمتلكه. عَبرت غرفة المعيشة الواسعة، كانت مضيئةً، وتطلّ على الحديقة والبحيرة. مرّت بنظرها عبْر البحيرة، ثمّ قالت: «لقد اخترت مكاناً لطيفاً».

كان جورج قد سافر في رحلة عملٍ إلى نورنبرج، ولمْ يطلب هانزن من السيّدة زاكس أنْ تطهو له، بلْ أرسلها إلى منزلها. جلب مشروب الجنّ والثلج. المنزل مجهّزٌ بأفضل حال، وفيه ثلّاجةٌ كبيرة. كان الملّاك يعرفون كيف يعيشون.

جلست على كرسيٍّ مصنوعٍ من الخوص، وضعت ساقاً فوق ساق، من دون أن تهندم فستانها. وضع فولاً سودانيّاً محمّصاً في صحنٍ، يبدو أنّها كانت تتذوّقه للمرّة الأولى. لمْ تقل شيئاً، ولكنّها أخذت منه سريعاً، ومن دون سيطرةٍ على نفسها، عدّة مرّات.

الجنّ من نوع ساندوير، قال: «في صحّتك»، وهي أيضاً، ثمّ شغّل في حُجرة المعيشة الكبيرة أسطوانة جوني هودج (الأمور لمْ تعد كما كانت). حين ذكر لها اسم الأغنية، أجابت: «لكنّها كانت».

النوافذ والأبواب مفتوحةٌ، جلسا في الشرفة وسْط الدفء الذي تجمّع عند الجانب الغربيّ للمنزل، هبّت بين الحين والآخر رياحٌ خفيفةٌ، تنذر اللّيلة القادمة بصقيع. دخل، وغيّر الأسطوانة بواحدةٍ أُخرى جديدةٍ قادمةٍ في الحال من الولايات المتّحدة، أغنية ليدبيل (بيت الشمس المشرقة). حرّكت الثلج في كأسها، وجلست على طبيعتها، كأنّها تملك المنزل بالحديقة والبحيرة. تناولا الكأس الثاني ثم الثالث، ثمّ تأمّلا غروب الشمس فوق البحيرة، الأمر الذي جعل الحديث بلا أيّة أهمّيّة. أصابتها -فجأةً- رعشةٌ، ثمّ قالت: «الطقس بارد، دعنا ندخل».

سألها إنْ كانت تحبّ البقاء.

- «نعم». بدت كأنّها تقول: «بالطبع».

صعدا السُّلّم إلى غرفته، خلعت فستانها، ووقفت أمامه بالجوارب ورباطها، وسألته: «هل أظلّ بها؟». فاجأه هذا السؤال الموضوعيّ، حتّى إنّه قال: «لا»، في حين كان يقصد: «نعم».

جلسا في الصباح متقابلين، كأنّهما في مطعم. ارتدت نظّارة شمسٍ غامقةً ومستديرةً، تحجب النظر إلى عينيها، الأحمر الفاقع المدهون على شفتيها، شعرها الأشقر الغجريّ المنظّم: هذا كلّه جمالٌ متحفّظٌ، لا يعبّر وجهها عن أيّ انفعالٍ، أو أيّة فكرةٍ، أو عاطفة. ابتسمت مرّةً واحدةً ابتسامةً سريعة. لمْ يكن متأكّداً إن كانت ابتسامةً ساخرة. لمْ يرغب في الاستفسار.

أحضرت السيّدة زاكس الفَطور على صينيّة.

يبدو أنّ مولي كانت معتادةً التعامل مع الخَدم؛ فهي لطيفةٌ، ولكنّها تطلب بحَسْم: القهوة مع الكريمة، لا، بدون سُكّر، والمربّى، والعسل، وشرائح الخبز. كان طعام الجيش ممتازاً. لمْ تعلّق على جودة القهوة، ولا السُّكّر البنّيّ والحليب المعلّب. أخذت قهوتها في رشفاتٍ صغيرة.

كانت هي التي تدير الحوار، سألته عن والده، وهو يُجيب عمّا يزعجه، كأنّه تلميذ. عرض عليها إعادتها إلى ميونخ، ولكنّها قالت: «إنّها تريد ركوب القطار».

– لماذا؟

– لأنّ هذا مزاجي.

لم تذكر أسباباً أُخرى. أوصلها إلى محطّة القطار، أراد رؤيتها مرّةً أُخرى.

– نعم، أنت تعرف محلّ سكني.

بدا التعامل رسميّاً، وسألها عن توقيت وجودها في المنزل.

قالت: «إنّها موجودةٌ، ما دامت لا تقضي مهامّ العمل».

– إلى الّلقاء.

لا عناق. ذهبت إلى المحطّة، ولمّ تلوّح بيدها، هكذا اختفت.

ذهب في اليوم التالي إلى مقرّ القيادة في المدينة. تجوّل داخل منطقة شفابنج، التي كان أستاذه في سانت لويز يمدحها. درس كوبيتش فصلين دراسيّين في ميونخ. مرّ هانزن على شارع أدلبرت، ورافقه في هذه الّلحظة صبيٌّ صغيرٌ، كان يعرج قليلاً، وجهه عابثٌ، ونظرة عيونه جافّة. لمْ يظهر هذا الانبهار المعتاد لدى الأطفال الألمان بالزيّ الموحَّد والحذاء. كان الصبيُّ يرتدي قميصاً بمربّعاتٍ زرقاء وخضراء، وبنطالاً قصيراً يصل إلى الركبتَيْن؛ يبدو أنّه كان مقصوصاً، مع حزامٍ جلديٍّ من زيّ مجموعة شباب هتلر الموحَّد. سأل الصبيُّ الأعرج هانزن بالّلغة الإنجليزيّة عن اهتمامه بالأوسمة، فقال: إنّه يمتلك صليباً حديديّاً من الدرجة الأولى والثانية،

ووسامَيْن للشجاعة، ووسامَيْن للبطولة في الحرب عليهما سيوف، ووسام الروّاد. أخرج وسام بطولةٍ فضّياً من جيب بنطاله دليلاً.

- هل هذه فضّة؟

- نعم.

كان هانزن يعرف أنّ هذه الأوسمة بقشرةٍ فضّيّةٍ فحسب، ولكنّ تجارة السوق السوداء في حاجةٍ إلى الخداع الرخيص.

لا، لمْ يرغب في شراء المعروض. سأل هانزن الصبيّ عن عمره، في السادسة عشرة. استمرّ الصبيّ بإصرارٍ على محادثته باللّغة الإنجليزيّة التي تعلّمها في المدرسة: «**من أين أنت؟**».^

- **نيويورك**.^

- **هل تحبّ هذه المدينة؟**^

- **أحب الجوّ العامّ فيها**.^

سأل هانزن الصبيّ باللّغة الألمانيّة، وطالبه أنْ يخبره باللّغة نفسها عن بلد النشأة، منطقةٍ في شرق بروسيا، لمْ يسمع هانزن عنها من قبْل. ووالداه؟ هزّ كتفيه. سأله عن أيّة إصابةٍ في جسمه. أجلْ، شظيّة. كان في مجموعة عاصفة الشعب. وأنت في السادسة عشرة؟ نعم. كان يحارب مع مجموعته في ضاحية منطقة كونيجزبرج، قصفت دبّابتان روسيّتان مجموعته بقذائف البازوكا. شدّد النطق على العبارة الأخيرة، كأنّه يلزم هانزن بالإعجاب به. أصابته الشظيّة في معركةٍ لاحقةٍ في ساقه اليمنى. قال: «هنا». رفع البنطال قليلاً، وأظهر الجُرح الذي كان في فخْذه، جرحٌ طويلٌ، وعريضٌ، وجديدٌ، ولونه أزرق لامع. أغلق على عُجالة. تذكّر هانزن الصبيّ الذي كان مستلقياً في زيّ شباب هتلر، ووجهه نحو الأسفل في العشب.

- ألمْ تكن كونيجزبرج محاصرة؟

- بلى، ولكنْ ظلّ المدخل عبْر ميناء بيلاو مفتوحاً.

نُقل مع جرحى آخرين على مركبٍ لاستطلاع الألغام إلى شتيتين، ثمّ استقلّ مركباً نهريّاً آخر، فتحوّل إلى مستشفى ميدانيّ، إلى برلين. عاش نهاية الحرب فوق هذا المركب النهريّ. حضر الروس. حماه عجْزه عن السَّيْر على قدميه من إرساله إلى روسيا. عندما التأم الجُرح، ذهب إلى ميونخ سيْراً على الأقدام. كان يركب مع الآخرين أحياناً، مرّةً مع فلّاحٍ بحنطورٍ، وأُخرى في سيّارة نقلٍ روسيّة. كانت رائحة سيّارات النقل الروسيّة كريهةً، ولكنّ الروس طيّبون، ويمنحونه الخبز. كان هدفه الوصول إلى بوتسن. رأى في المدرسة الثانويّة في كونيجزبرج كتاباً مصوّراً مطبوعاً قبل الحرب: المشاهد الطبيعيّة في الأقاليم الألمانيّة، والسدود والبيوت المغطّاة بالقشّ على بحر الشمال، وبحر البلطيق، والبيوت خشبيّة الإطار في هيسن وساكسونيا السفلى، ثمّ صورة لتيرول الجنوبيّة. بوتسن، فيها نخيلٌ قد نما في الخلاء، وفي الخلفيّة جبالٌ تكسوها الثلوج. أسفل الصورة: اللّغة الألمانيّة تحت النخيل أيضاً. كان هدفه الوصول إلى الجبال والنخيل، ولكنّه أُعجِب بالحياة هنا، ووجدها كما تخيّلها. يحكي هذه القصّة بمنتهى الموضوعيّة، كأنّه انتقل من حيٍّ إلى آخر. توقّف عن الحديث قليلاً، ثمّ سأل هانزن إنْ كان يهتمّ بدبّوسٍ فضّيٍّ لجامعة ألبيرتوس في كونيجزبرج. يمكنه عرض هذا الدبّوس عليه في شقّته.

تردّد هانزن: «حسناً». قال الصبيّ: «إنّ شقّته قريبة». عبرا معاً شارعَيْن، وتوقّفا أمام منزلٍ مهدّمٍ، حُطامه وصل إلى الدَّور الأوّل. كان هناك سُلّمٌ يؤدّي إلى القبْو، نزل الصبيُّ درجات السُّلّم. تردّد هانزن لوهلة، وفكّر في قصص المستذئبين، ولكنّه مشى خلف الصبيّ. وقفت سيّدةٌ شابّةٌ حافية

القدمين، وبطفلٍ رضيعٍ على ذراعها، وإلى جانبها طفلان. لمْ يدخل إلى هذا الظلام الضوء إلّا من شبّاك سردابٍ، وبدأ هانزن إدراك التفاصيل. فوق الأرض الحجريّة مرتبةٌ كبيرةٌ، ومرتبتان صغيرتان، وفي وسط الحُجرة منضدةٌ، فوقها حوضٌ من الزنك، وفيه غسيلٌ منقوع. لا كهرباء، ولا ماء.

- والطهو؟

- «على النار». أشارت السيّدة إلى الأرض، إلى مربّعٍ من الطوب الأحمر المتكدّس، يخرج الدخان من شبّاك القبْو المكسور.

- وفي الشتاء؟

وضع الصبيّ ذراعه على السيّدة، وقال: «سنضطرّ إلى البحث عن مكانٍ جديدٍ. أجلب الماء من هذا المكان في الخلف، من بحيرةٍ خُصّص ماؤها لإطفاء الحرائق. كنّا نغليها للاستعمال».

لمْ يكن بينهما صِلة قرابة، هذا الصبيّ بالأوسمة في جيب بنطاله، وهذه السيّدة الشابّة بالأطفال الثلاثة.

زوجها مفقودٌ منذ سبعة أشهُرٍ، في مكانٍ ما بالشرق. العائلة من بريكسن، من تيرول الجنوبيّة، تُرِك لهم حقّ الاختيار، وكان يُفترض أنْ يستوطنوا في جزيرة القرم. اضطرّوا في أثناء الذهاب إلى العودة؛ لأنّ الروس احتلّوا الجزيرة مرّةً أُخرى.

قالت السيّدة: «لقد وجدنا أنفسنا هنا، ونظرت إلى الصبيّ الذي لمْ يعد صبيّاً».

أشارت إلى الجُرح في رأس الطفل، الذي كان يقف إلى جانبها حافياً، متشبّثاً بفستان أمّه. سأل الصبيّ الأعرج هانزن إنْ كان بإمكانه إحضار دواءٍ لهذه الجلبة. ذهب إلى رُكنٍ في غرفة القبْو، حيث تكوّمت الأغطية الصوفيّة، وقطع الملابس، وحقيبةٌ جلديّة.

أعطى هانزن دبّوساً فضّياً مستديراً، عليه فارسٌ يحمل سيفاً على كتفه، الشعار المكتوب: (ختم أكاديميّة ريجومونتانة)، هذا ما أراد دفعه مقابل الدواء.

– وماذا عن بوتسن؟

قال الصبيّ الذي لمْ يعُد صبيّاً: «نَدع الموجودين هنا، أنا أرعى هؤلاء». في عناقه للسيّدة، وضمّها إليه شيءٌ يوحي بأكثر من مجرّد الاستعداد للمساعدة. نظر هانزن إلى المرتبة الكبيرة المتّسخة، التي كانت يوماً ما جزءاً من فراش الزوجيّة.

قالت السيّدة: «زبدة؟ ستكون الزبدة شيئاً رائعاً للأطفال».

بالطبع، رأوا أنّه لمْ يكن معه زبدة، ولكنّهم أملوا في عودته مرّةً أُخرى. تردّد هانزن. كان ينوي عدم منح المال. قال لجورج: «الألمان قادرون على كلّ شيء: السرقة، والعناد، ولكنّهم ليسوا متسوّلين». سحب ورقةً بخمسة دولارات من محفظة نقوده.

أخذت السيّدة النقود، وانحنت شاكرةً، قالت: «بارك الله لك».

– وماذا يريد الصبيّ الذي لمْ يعُد صبيّاً. سجائر؟

– لا، كتاباً، روايةً أمريكيّة. لقد تمكّن من جلْب قاموسٍ ألماني/ إنجليزي، سرقه في الأغلب، ويريد القراءة. كان مدرّسه للّغة الإنجليزيّة في مدينة كونيجزبرج البعيدة قد أعاره رواية «في بلدةٍ أُخرى»، ويريد الآن قراءتها باللّغة الإنجليزيّة، وتعلّم اللّغة الإنجليزيّة.

أراد الصبيّ إهداءه الدبّوس الفضّيّ، ولكنّ هانزن رفض، وقال: «ربّما سأعثر على الرواية». لمْ يلحظ وسط الظلام المزهريّة بالزهور التي تنبت وسْط الحُطام إلّا لحظة خروجه الآن. كانت فوق صندوقٍ خشبيٍّ إلى جانب المَرتبة الكبيرة.

اليوم الخامس



- كان لي أمس لقاءٌ مثيرٌ مع شابٍّ ألمانيٍّ يريد أن يقرأ كتاب «وداعاً للسلاح»، هل لديك الكتاب في المتجر؟

- لا نملك من كتب هيمنغواي سوى النسخة الإنجليزيّة لرواية «موت في المساء»، ولكنْ لدينا روايات لفولكنر، ودوس باسوس، ولستاينبيك «كوب من ذهب» على سبيل المثال، وإنْ لم تكن طبعاتٍ أولى.

- لا، شكراً. كنت تريد مواصلة الحديث عن زيارتكم لإيكاريا.

- أجلْ. ذكرت سابقاً أنّ السيّدات في مجتمع الإيكاريّين لا يحقّ لهنّ التصويت. كان مسموحاً لهنّ إبداء الرأي إنْ سُئلنَ، ولكنْ لمْ يسمح لهنّ برفع أيديهنّ وقت التصويت.

حينما افتتح رئيس الجلسة، رينيه العجوز، الاجتماع الأوّل، بدأ بالحديث عن توزيع مهامّ العمل، سأل بلوتز عن حقّه، بوصْفه ضيفاً، في تقديم طلب. كانت الإجابة بـ: «نعم».

طالب الصديق بعدها بحقّ السيّدات في التصويت، هكذا فهم كابيه على الأقلّ.

ساد صمتٌ مندهش. اتّضح لكلّ فردٍ أنّ موازين القوى ستتغيّر في

هذه الحالة. ردّ رينيه قائلاً: «إنّ كابيه لم يحسم هذا الأمر تماماً، من حقّ السيّدات التصويت على الأعضاء الجُدد؛ أمّا الأمور اليوميّة، فلا، ولكنّه يريد طرْح القضيّة للنقاش بعد شهرين في الاجتماع السنويّ». عارض الصديق في الحال. الأمر المطروح حاليّاً متعلّقٌ بتوسعة نطاق المغسلة، وهو شأنٌ خاصٌّ بالنساء، ولديهنّ المعرفة والخبرة المطلوبة. في حقيقة الأمر هنّ يتفضّلنَ بإشراك الرجال في التصويت. ظهر بعضٌ من التذمُّر، وهناك من كان يخبط بحذائه الأرض. قال شخصٌ ما: «حسناً، حسناً».

قال الرئيس، رينيه مارشان العجوز، الذي درس علم الأسباب القانونيّة في السوربون: «إنّ عمل السيّدات في مجالٍ ما ليس مسوّغاً لإشراكهنّ في التصويت على هذا العمل. في هذه الحالة، سنضطرّ إلى الأخذ بتصويت الأطفال على ألعابهم».

ضحك المجتمعون، وبعض السيّدات صفّقن له، وبعضهم تذمّر مُجدّداً.

قال بلوتز: «ولمَ لا؟ لمَ لا يصوّت الأطفال على ما يرغبون لعبه؟». أثار حالةً من الاعتراض في القاعة، وأصابت بعض النساء الّلاتي انتبهن فجأةً إليه، وظللن ينظرن إليه، ثمّ إلى رينيه العجوز. رؤوسٌ تتحرّك من هنا لهناك.

تساءل الصديق: «لماذا لا نقوم بما ظننّاه مستحيلاً في الماضي؟». وأضاف تساؤلاً: «لماذا لا نفكّر في إشراك السيّدات هنا وفي الحال في التصويت على مواصفات الماكينات، وفترات العمل في مصنع الجُبن، ألسْنَ الأكثر درايةً بكمّ الجُبن المُنتج وجودته؟». لمْ يجد هذا السؤال المطوّل والمصاغ بحنكةٍ إجابةً سريعةً، وتطلّب الأمر بعض الوقت لتهبّ رياح الاعتراض على صفوف الحاضرين.

رينيه مارشان، رجُلٌ كان قد عارض النظام المستبدّ لإتيان كابيه، هزّ رأسه المنحنية بتمهُّل. غطّى الشعر الأبيض جبينه العالي، وله أنفٌ حادٌّ، وعينان بلونٍ رماديٍّ مُطفأ، يكاد يغطّيهما حاجبان بشَعرٍ رماديٍّ أشعث، وأسنانه المستوية لافتةٌ للنظر، ولكنّ لونها بين الأصفر وبين البنّيّ. يومئ برأسه دوماً في أثناء الإنصات، ويدبّب فمه قبْل الإجابة، ثمّ تخرج من فمه كلمة: «فويلا» بألفٍ ممدودة. سوف نتحدّث في الاجتماع الرئاسيّ القادم في هذا الشأن. أجّل الموضوع.

يجب أن تعرف أنّ رينيه هذا حضر في عام 1848 شابّاً ودارساً للحقوق مع أوّل مجموعةٍ للإيكاريّين من فرنسا إلى نيو أورليون. كنّا، أنا والصديق، قد قرأنا استعداداً لرحلتنا الاستكشافيّة عن هذه الانتفاضة. بعد صدور كتاب «رحلة إلى إيكاريا»، تحرّكت الجماهير، واندفع المتحمّسون سياسيّاً إلى أمريكا، وأرادوا بناء الدولة المثاليّة هناك. باعوا منازلهم، وأراضيهم، وأسهمهم، وأخذوا إرثهم، واستقلّوا السفن في عام 1848، متّجهين إلى العالم الجديد، إلى نيو أورليون. عبروا نهر المسيسيبّي بباخرةٍ لها عَجلات، وحصلوا من شركةٍ لبيع الأراضي على خمسين ألف مترٍ مربّعٍ من الأرض، على نهر ريد ريفر في تكساس، حيث استوطنوا، وسكنوا المخيّمات. محامون، وفلاسفةٌ، ونقّاد مسرحٍ، وصانعو ملابس رجال: جميعهم غير متمرّسين، حفروا الأرض، وقطعوا الأشجار، ونشروا الألواح، وبنوا الأكواخ الخشبيّة. سقط من الخشب الرطب مادّة الصمغ، وانهارت المنازل مع حرارة الصيف. كانوا يحاربون الثعابين، ويعانون من الناموس والدود، ويموتون بالحمّى. بعضهم أصابه الجنون، ومنهم الطبيب الوحيد. اكتشفوا اكتشافاً صادماً؛ تسلّل إلى صفوفهم شرطيٌّ جاسوسٌ. ربطوا خيولًا مخصّصةً للفروسيّة إلى المحراث. رفضت الخيول جذبها، وبدأوا

في ملاطفتها؛ إذْ يجب معاملة أيّ مخلوقٍ باحترام، وهذه رؤيةٌ أجدها - بالمناسبة- رائعةً، وتأسر القلب. حين أصرّت الخيول على عدم سحبها، ضربوا الحيوانات، إلى أنْ اكتشفوا أنّها كانت ضعيفةً لهذه الأرض الثقيلة. كانوا يرتكبون الأخطاء، ولكنّهم كانوا يتعلّمون، وكانت لديهم إرادةٌ تحرّك الجبال، إنْ وجدت هذه الجبال من الأساس.

حكى رينيه العجوز أنّه في يومٍ من الأيّام، حضر نحو مئتين، أو ربّما ثلاثمئةٍ من الهنود على خيولهم، ليسوا من عيّنة المتوحّشين الأفاضل الذين قرأوا عنهم في كتب الأطفال، بلْ هنوداً غاضبين، متّسخين، تفوح منهم رائحةٌ عفنةٌ من العرق والحيوانات النافقة، ومسلّحين بالرماح، يلوّحون بفؤوسهم. أحدهم بتاجٍ ضخمٍ من الريش، زعيمهم فيما يبدو، مرّر إصبع الإشارة على جبينه، وصلت الرسالة في الحال: أرادوا سلخ سكّان المدينة الفاضلة. طلب زعيم الهنود إلى صائد جاموسٍ أيرلنديٍّ كان يرافقه أنْ يترجم: «الأرض ملكهم، ملك لقبيلته». عرض ممثّل كابيه، محامٍ معتمدٌ من السوربون، العقْد المصادق عليه من محامٍ في نيو أورليون بختمٍ وتوقيع. ذكر المبلغ الذي دُفع إلى شركة بيع الأراضي في نيو أورليون نقداً من أنصار كابيه في فرنسا الذين جمعوا الفرنكات الذهبيّة. ترجم صائد الجاموس الأيرلنديّ، وهزّ زعيم الهنود تاجه المصنوع من الريش. اتّضح أنّ شركة بيع الأراضي قد احتالت على الإيكاريّين، وأنّ الأرض بالفعل ملكٌ للهنود. اضطرّ الإيكاريّون إلى الرحيل. كانت الأرض شاسعةً، شاسعةً للغاية، ولكنّها كانت دوماً ملك شخصٍ ما، وفي أحيانٍ نادرةٍ، كانت ملكاً للسكّان الأصليّين من الهنود. أسّسوا جماعةً جديدةً في ولاية إيلينوي، في ناوفو، وطلبوا دعماً من فرنسا، خاصّةً حضور النساء؛ لأنّه صار مجتمعاً يحوي عدداً كبيراً من الشباب والمتحمّسين، ولكنّ فرنسا

وجّهت طاقتها كلّها في التجديد بعد ثورة شباط/ فبراير 48 إلى ما هو قريب، إلى الوطن فرنسا، فتوقّفت الأموال القادمة من الوطن، ولمْ يأتِ أعضاءٌ جُدد، والأهمّ أنّه لمْ تأتِ النساء. نقاشات، عانى العمل في المجال الزراعيّ من النقاشات. يستيقظ المناقشون في حالةٍ من الدهشة، وآخرون لمْ يستطيعوا النوم من الأساس، شكوى عامّة من قلّة النوم، وتتكرّر كلمة القلق في الرسائل إلى الوطن. تشكّلت كتلتان: واحدةٌ تدعو إلى التخلّي عن تجربة إنشاء مجتمعٍ إنسانيٍّ في الغابة، والعودة إلى فرنسا، في حين أصرّت الأُخرى على الاستمرار. المشكلات هي التي ستخلق قيمةً جديدةً في العلاقات. لا يجب التخلّي في هذه الّلحظة. اشتروا بالفرنكات الذهبيّة المتبقّية أرضاً جديدةً، وحضر أخيراً كابيه إلى العالم الجديد، جاء على أمل تحقيق ما أخفق أفلاطون في زيراكوس في تحقيقه؛ دولة مثالية، على نموذجٍ مصغّر. صاحَبَ قدوم كابيه معركة جديدة، أكثر عنفاً وكراهيةً من المعركة السابقة. لقد اتّهموه بسلوكٍ غير ديمقراطيٍّ وساديّ. لماذا يسمح له دون الآخرين بارتداء ساعة الجيب الفضّيّة؟ إمّا السماح بذلك للجميع، وإمّا المنع للجميع. كانت هذه هي المساواة؛ يولد الإنسان بلا ساعة جيبٍ فضّيّة. لمْ تكن مجموعتان في المواجهة، بلْ ثلاث مجموعات. اشتباهات، وتشنيعٌ قبيحٌ، وشائعات. لا مجال للحفر، والحرث، وحلب الأبقار. دارت النقاشات. حضر الغرباء الذين ظنّوا أنّ ممارسة المتعة الحُرّة مسموحٌ بها. انتشرت شائعةٌ تقول: «إنّ كلّ شيءٍ ملكٌ للجميع داخل الجماعة، بما في ذلك النساء»، وبُنيت هذه القناعة على بعضٍ من المنطق، نظراً إلى عدد النساء المحدود، ولكنْ لمْ يكتب كابيه قطّ عن المُتعة الحُرّة، على العكس، كان يعتنق المذهب الكاثوليكيّ، ويقدّس الزواج. طالب الإيكاريّين بالالتزام الصارم بالأحاديّة في الزواج، والإخلاص في العلاقة الزوجيّة، وإنْ كان الطلاق مسموحاً به. كان للإخلاص منزلةٌ محوريّةٌ

في المجتمع الإيكاريّ، ثمّ جاء هؤلاء الدخلاء بمقترحٍ يحرّم المرأة، حتّى من باب العدالة، من اختيار حبيبها، وإلزامها بمنح حبّها للجميع؛ لأنّ الاختيار الجنسيّ الحُرّ فيه ظلمٌ كبير. لماذا هو وليس أنا؟ تشبّثت السيّدات الفرنسيّات الأقلّ شجاعةً، اللّاتي جئْنَ إلى أمريكا بأطفالهنّ. كان لهؤلاء الأطفال حقّ المشاركة في النقاش على الأقلّ، وإنْ لمْ يُسمح لهم بالتصويت. خسر أنصار العلاقات المفتوحة التصويت، وغادروا الجماعة معترضين. كان هذا السلوك هو النمط المعتاد. بعد نقاشاتٍ مريرةٍ وطويلةٍ، غادر الخاسرون، لينقسموا بعد مدّةٍ وجيزةٍ مرّةً أُخرى على أنفسهم: صراعات على توزيع الملكيّات، المحامون يمارسون مهامّهم، وكان العديد من الإيكاريّين يعملون في المحاماة. قضايا في المحاكم، وطُبعت البيانات والبيانات المضادّة، ورُفعت قضايا الإهانة في باريس البعيدة، وتحوّلت الصداقات إلى عداوات، وكان لكلّ تجاوزٍ، ولكلّ اتّهامٍ، تسويغٌ منطقيٌّ في إطار المصالح المسبّبة لكلّ مجموعةٍ، أو مجموعةٍ فرعيّة. كان كابيه يوقف النقاشات التي لا تريد أنْ تنتهي. اتُّهم مجدّداً بسَعيه إلى إقامة دكتاتوريّة. الصراخ المتبادل هو الغالب. لاحقاً، لمْ يستطع أحدٌ تحديد السبب الحاسم وراء هذه الخصومات.

هل تسمح لي أنْ أقرأ لك ما كتبه زميلي في مجموعة الباسيفيك، هاينريش لوكس؟ انتظر، ها هو ما كتب: «ناقضت الأقلّيّة الدستور، والمطلوب من الغالبيّة أنْ تنصاع لهذا الوضع! كان مطلباً عبثيّاً، ولا يمكن تحقيقه، ولكنّ المصالحة لمْ تعد ممكنةً أيضاً. المنشورات جاءت من الجبهتين، كلّ طرفٍ يحاول التوسُّل إلى البشريّة بأسْرها، تلك التي لم تهتمّ على الإطلاق بهذه الزوبعة. جاءت القطيعة التامّة حين لحقت هزيمةٌ مريرةٌ بكابيه وأنصاره يوم الرابع من آب/ أغسطس في الانتخابات التكميليّة للّجنة التنفيذيّة؛ انتُخب ثلاثة أعضاءٍ جُدد من المعارضة. لمْ يعترف كابيه

والأقلّيّة بهم، ورفض أعضاء الإدارة القدامى التخلّي عن مناصبهم. احتلّت الأقلّيّة المطبعة، ومقرّ الإدارة، فضْلاً عن سُلّم كابيه ومنزله. حاولت الأغلبيّة اقتحام غُرف مقرّ الإدارة، واحتلّت المطبخ بالفعل، ثمّ حاولت إجبار الأقلّيّة، التي أوقفت عملها، على التراجع من خلال تخفيض عدد الوجبات. كان للهجوم على مدرسة الفتيات ملمحٌ هزليٌّ آخر؛ أجبروا المُدرّسة، التي كانت تنام وسط الصغار، على النهوض بسحب الغطاء والفُرش، وإخراجها ببعض العنف خارج المبنى».

انتظر، هذا الموضع مهمٌّ أيضاً:

«ظهر قاضي السلام، وتدخّل لصالح الحفاظ على مكان نوم المُدرّسة، ولكنْ بلا نتيجة. تنازلت الأقلّيّة أخيراً في 22 آب/ أغسطس عن بعض الورش، وانسحبت إلى داخل منزلٍ خاصّ. نظّم الطرفان دوريّات للمراقبة المتبادلة، وتدخّلت الجهات المختصّة مجدّداً لمنع إراقة الدماء...».

سافر كابيه إلى سانت لويس؛ ليرفع قضيّةً على المنشقّين. توفّي، ويقال: «إنّه مات من الحسرة».

- أقول لك شيئاً؟ أشعر بالدُّوار؛ ما تحكيه كلّه يبدو مثل مسرحيّة.

- إنّها مأساة. أريد الإشارة فقط إلى المعاناة التي عاشها رينيه، ونجاحه بفطنته وقناعاته في خلْق حالةٍ من المعايشة البسيطة والهادئة داخل مجتمعه الصغير على مدار عدّة سنواتٍ، إلى أنْ جاءت اللّحظة التي بدأ الصديق فيها يبدي رأيه. هزّ رينيه رأسه حائراً، وأخذ ينظر إلى قرص المنضدة، كأنّ الحل يكمن فيها.

- ألم تكن توقّعاتك المتعلّقة بهذا المجتمع مبالغة. ألمْ تضع الصراعات في حسبانك؟

- بلى، سمعنا بالطبع في ألمانيا عن الصراعات. دخلنا نحن أيضاً في

بريسلاو في صراعاتٍ طويلةٍ وصعبةٍ، حين تناولنا قضيّة الطريق الصحيح إلى عالمٍ أفضل، بلْ كنّا مهووسين بتخطّي الحدود حين نناقش فكرة الجماعة؛ كي نصل إلى أفضل نتيجةٍ ممكنةٍ، ونتعلّم من التجربة. كان للكلمة والكلمة المضادّة أهمّيّة. لا مجال للعنف الجسديّ؛ إذْ لنْ نصل إلى السلام العالميّ إلّا من خلال تبادل الكلمات، ولكنّنا لم نعلم شيئاً عن المشاعر المجروحة، والإهانات، والاتّهامات المهينة التي صاحبت هذا كلّه.

ولكنْ كانت هناك أيضاً تجربة مختلفة تماماً، ظهر من خلالها ما تصوّرناه نحن، الصديق وأنا، وحالمون آخرون، عن المجتمع المسالم. كنّا قد أنهينا الأعمال، وتجمّع الكلّ عند النهر الصغير في بداية مساءٍ دافئ. قيل على سبيل الترفيه. يقول كابيه: «إنّ الحواسّ متأصّلةٌ في الإنسان تأصُّلاً طبيعيّاً؛ لذا، فإنّ تهذيبها وإثراءها مهمّةٌ عامّة». كان الأطفال الخمسة يلعبون في الماء، ويعزف رجُلٌ فرنسيٌّ عجوزٌ الأغاني الشعبيّة على الغيتار. النساء يُغنّين، ومعهنّ الفتاة ذات العينين غير المتساويتين. جلست مع أمّها وأختها فوق غطاء، وقامت بأعمال التطريز. حين وقفتُ إلى جانبهنّ متردّداً، دعتني النساء لأجلس معهنّ على الغطاء. كنّ قد هاجرن من منطقة بوميرانيا الخلفيّة منذ ثلاث سنوات. مارس الأب مهنة النجارة داخل الجماعة.

كان للفتاة لينا أختٌ في الثانية عشرة من عمرها، عملت والأمّ والفتاتَيْن في ورشة الحياكة، يحِكْنَ الأغطية من أجزاء قماشٍ مختلفة. كان الدخْل مخصّصاً لصالح الجماعة. أُعجبتُ بهذه الأغطية منذ اللّحظة الأولى، وأهدتني هي واحداً من صنع يديها، وتمكّنت من الحفاظ عليه طوال رحلات الذهاب والإياب. ربّما لفتت نظرك، هناك على الفِراش. تغيّر

لونها، وصارت رقيقةً بعض الشيء، ولكنّها تحفةٌ فنّيّةٌ، تبعث الدفء في الذاكرة.

كان الاتّفاق أن تتزوّج لينا أحد شباب الجماعة، كان وقتها في رحلة عملٍ، واسمه فريدريش، ومن منطقة بوميرانيا أيضاً. خطّط أن يكون الزفاف في أيلول/ سبتمبر. سعى الوالدان، ولا سيّما الأب المتديّن، إلى منح مشاعرنا المتبادلة والمتدفّقة طابع الأخوّة. كانت مراقبة الأعضاء داخل الجماعة أمراً طبيعيّاً، بلْ مطلوباً؛ لصالح المساعدة الفوريّة، أو لمنع وقوع الصراعات من الأساس. التقينا إذاً في السرّ، كانت لنا شجرة في الغابة القريبة، وكنت أعلّق عليها ورقةً فيها ميعاد اللّقاء. إنْ اختفت الورقة، أعرف أنّها ستأتي. التقينا في المحميّات، التقينا في الغابة، والتقينا فوق جزيرةٍ نهريّةٍ صغيرةٍ، كنّا نصل إليها سيْراً على الأقدام داخل المياه؛ لسرعة جريان المياه في هذه المنطقة. كنّا نستلقي فوق العشب، ولمْ نتمادَ في هذا التقارب، ولكنْ كان هذا كافياً للتفكير فيما يجب فعله لنبقى معاً. أجلْ، سألتها إنْ كانت تحبّ الرحيل معي. الأمور الأُخرى كلّها سنجد لها مَخْرجاً.

أعْذِرني على سرْد هذه القصص الخاصّة، عُدَّها ثقةً بك.

-مقطع غير مفهوم-

كنت قاصراً، أتممتُ في الحال العشرين من عمري، ولكنْ كان لي أب متفهّم، واعتقدت أنّه سيواصل دعمي ماليّاً، حين أعود بهذه الفتاة إلى بريسلاو؛ أمّا هي، فلم تتقبّل فكرة ترك الجماعة؛ كانت تمثّل لها الحماية والأمان بعد مغادرتهم وطنهم في بوميرانيا. أرادت أن تبقى بالقرب من الأب، والأم، والأخوات.

يجب عليَّ البقاء؟ أمْ أردت البقاء حقّاً؟

ظننت أنّ الآخرين، الذي كان عددهم خمسة، لمْ يكتشفوا لقاءاتنا، التي كانت دوماً مرتبطةً بنشاطٍ ما يجمعنا. كنّا نرجع دائماً إلى المستوطنة على نحوٍ منفصل. في أحد الأيّام قابلني المحامي، كنت لا أستلطفه على الإطلاق، ألمانيّ الجنسيّة أيضاً. أشار، بابتسامةٍ متواطئةٍ، وغمزة عينٍ، إلى بنطالي المبلّل من السيْر في المياه، وقال: «كان الجوّ حارّاً، أليس كذلك؟».

لمْ تفت قصّة الحبّ السرّيّة، التي أؤكّد على براءتها، على الصديق أيضاً. كان الحديث عن الأمور الشخصيّة معتاداً في هذا العُمر، لمْ نفعل ذلك قطّ، ولا عن أحلامنا التي تعلّقت بالنساء أيضاً. انعكس ذلك في هذا التفكير الاجتماعيّ المجرّد، كما أسمّيه. هذا هو التصوّر المثاليّ عن مجتمعٍ سويٍّ ومُسالِم؛ لهذا السبب، تفاجأت في إحدى الأمسيات، حين قال هذا الرجُل المِقدام، تحت الضوء الخافت لمصباح الغاز، وأنا عائدٌ إلى غرفتنا المشتركة: «أغلق الموضوع. أنت لا تزال صغيراً، في العشرين من عمرك، لا تفسد حياتك ورسالتك. لا أحد يرتبط في العشرين مدى الحياة، إلّا إذا كنت فلّاحاً».

– ربّما أريد أنْ أكون فلّاحاً.

– هذا هُراء! أنت صاحب رسالة؛ سوف تغيّر العالم بوصْفك ثوريّاً.

يا لها من كلمةٍ كبيرةٍ! أجلْ، كنت مُرسلاً من قِبَله، وأدركتُ في الوقت ذاته أنّني أفتقد لا مبالاة الثوريّ وانعدام ضميره. ظللتُ طوال اللّيل مستيقظاً في الفِراش، وأفكّر في هذه الكلمة الكبيرة، وفكّرت في توقّعاته التي لمْ أتوقّعها لنفسي ولحياتي بهذا الشكل، ولا بهذا الحجم في المستقبل. أردتُ أن أكون طبيباً جيّداً، ربّما أتوجّه إلى البحث العلميّ، ولكنّني إنْ تأمّلتُ أحلامي، كنت سأرضى بعيادةٍ في مدينةٍ صغيرةٍ، وأن أُحيّا بهدوء؛ لأنّني أقوم بعمل الخير.

كان الظلام شديداً. هذه الكلمة: هذا هراء! كنت لا أسمع أنفاسه تقريباً. كان نومه غامضاً نسبيّاً، وهادئاً، كأنّه ميت.

أودّ في الواقع وصف الموقف بنبرةٍ دراميّة: انتهى بالفعل هذا الحُبُّ الأوّل سريعاً، وعانيت أيضاً من جرّاء ذلك.

– كيف كان ردّ فعل الجماعة على ما يمكن تسميته بحبكما؟

– بقلقٍ، وبعداءٍ مُستترٍ، ثمّ جاء يوم عودة الخطيب. كان فريدريش شابّاً خجولاً، يتمتّع بتأثيرٍ جذّاب، وضخم الجثّة، كان يرتدي بزّةً رماديّةً جيّدة الصنع، غزلتها النساء في الجماعة. وجّه إليّ تحيّةً جافّةً وتقليديّة. عاد معه الواقع. في أحد الأيّام، رأيت لينا من بعيد، كانت خارجةً في الحال من الباب، تحيّة سريعة، ثمّ اختفت مرّةً أُخرى داخل المنزل. يجب التنويه إلى أنّ البيوت هناك متباعدةٌ، لا تقارن بالأوضاع هنا. خلال لقاءاتنا، كانت دائماً بصحبة والديها، أو أخواتها، أو أصدقائها، وأحياناً بصحبته هو. تتجنّب أيّ أحاديث. تنظر إليّ بلطفٍ، بضعفٍ، بهاتين العينين غير المتساويتين. ظلّت الأوراق التي كنت أعلّقها في أماكننا السرّيّة في مكانها، مسحت الأمطار والندى الحِبر، وذاب الورق، مثلما ذاب حبّنا.

سامحني على قصص العجائز. لمْ أحكِ هذا كلّه إلّا في أحاديثَ ذاتيّةٍ، أحاديثَ سرّيّةٍ صامتةٍ، امتدّت إلى سنوات. أرجو أن تكون صامتة. لمْ يُشِر أكستهيلم على الأقلّ إلى أنّني كنت أحدّث نفسي بصوتٍ عالٍ، ولكنّ أدبه يمنعه من التصريح بمثل هذا، إلّا إذا كان ثمّة ضررٌ على جدّيّة متجر الكتب. لا أظنّ ذلك؛ أيّ مُحبٍّ للكتب كان سيتقبّل دمدمة أمين مكتبةٍ عجوز.

تناول الاجتماع العموميّ حقّ المرأة في التصويت. ليس مطلوباً أنْ أقصّ عليك المناقشة بأكملها، التي تعقّدت في سياق الموافقة على اللّائحة التنفيذيّة، أو رفضها. ابتعدت المناقشة سريعاً عن حقّ التصويت، واتّخذت

مساراً آخر، حين اتّهمنا المحامي، أنا والصديق، أنّنا جئنا بأمرٍ من شركة بيع الأراضي بنيّة تدمير الجماعة الإيكاريّة؛ ليُعاد شراء الأراضي مرّةً أُخرى. كان اتّهاماً شرّيراً. لمْ تكن سُلطة هذا المحامي نابعةً من حِيله القانونيّة والبلاغيّة فحسْب، بلْ لكونه ألمانيّاً يتحدّث اللّغة الإنجليزيّة بطلاقةٍ، ويقرأ بها، ويكتبها أيضاً. كان الآخرون يحضرون دوراتٍ في القراءة والكتابة. كان بمنزلة المغتصب الصغير الذي تجده في كلّ مجموعةٍ سياسيّةٍ، ولو كانت صغيرة. لا يأمن أيّ اتّجاهٍ سياسيٍّ هذا النّمط، سواء كان محافظاً، أم ليبراليّاً، أو ثوريّاً. إنّه يظهر داخل الأحزاب، ويمثّل بآرائه المطروحة بقوّةٍ في النقاشات اتّجاهاتٍ بعينها، قد تتغيّر، ولكنّها محدّدةٌ للمؤشّرات بحسْم. لديه حسٌّ لا يخطئ لموازين القوّة، وللأجواء داخل الأحزاب، والمجموعات، والاتّحادات. قد نطلق عليه المحبّ للسُّلطة. وقف المحامي في هذه اللّحظة إلى جانبي في الاجتماع، أشار إليَّ، وقال: «هذا الشخص قد آثار البلبلة داخل جماعتنا. لقد استغلّ براءة أختنا، وغياب المواطن فريد، الذي قام برحلةٍ من أجلنا جميعاً، ليشتري موادّ أسطح المنازل، ومسامير للحظيرتَيْن الجديدتَيْن. كانت الفتاة تواعده، وحاول ثَنْيَها عن طريقها».

رفع فريد رأسه على مهلٍ، ومسح بظهر يده الدموع من عينه. كانت قدرة البشر في هذه الجماعة على إظهار مشاعرهم شيئاً جميلاً، وكذلك الرجال. أحبّ أنْ تذكر أنّهم كانوا أصحاب طبعٍ ليّنٍ، وليسوا مثلنا؛ إذْ تكسبنا المدرسة والحياة العسكريّة خشونةً، بمنع الأطفال، وخاصّةً الصِّبْية؛ من البكاء. إنّه إجراءٌ متّسقٌ مع أسلوب التربية الحاسم، حين لا نسعى إلى حلّ المشكلات بالنقاش، بلْ بالحديد والدّم.

-مقطع غير مفهوم-

قال المحامي مشيراً إلى فريد: «ها هو يجلس هنا بمعاناته، وهنا يجلس الشرّير، وهناك يجلس من نظنّه صاحب الأمر الصادر».

أشار إصبعهُ إلى الصديق، ثمّ واصل المحامي حديثه مشيراً إليَّ، وإلى الصديق. قال: «لقد جاءا لزرع الفتنة». ثمّ قرأ، بصوته الرخيم من «خطابات تهذيب الأخلاق» لكابيه، موضعاً بحثت عنه لأقرأه عليك أيضاً: «أجلْ، الجماعة، جماعتنا، ستكون جنّةً للنساء، في حين أنّ هناك قلّة في الوقت الحاضر لن تكون الجماعة بالنسبة لهنّ الجحيم. نعم، أقصد الجحيم، ولكنْ في مجتمعٍ يتركهنّ من دون تربيةٍ، ويتخلّى عنهنّ...». ينظر إليَّ بتعبير وجهٍ غاضبٍ: «ويدفع بهنّ إلى البؤس، ويمنعهنّ من الزواج وسْط شعبٍ من الرجال الكبار غير المتزوّجين..». تعجبت؛ أليس هؤلاء بلا حياة! «الذين يمارسون معهنّ الإغواء والخديعة..». أشار مرّةً أُخرى إليّ: «ثمّ تنال هؤلاء النساء الاحتقار والإنكار، حين تنساق هذه التعِسة إلى الفوضى، والانحراف، والاستغناء، والفسق، فلا داعي للإشفاق عليها من دفن كيانها داخل الرغبات المتوحّشة، والإهانات، والعذاب».

عاود الإشارة إليّ، وصاح: «أمّا في مجتمعنا الإيكاريّ، فلا مكان للفوضى، ولا للصراعات بين البيوت، ولا للخيانة». بدأ بالصراخ: «لا مكان للخيانة الزوجيّة، ولا للقضايا المزعجة، ولا للتسمّم. لنْ تتعرّض الفتيات للإغواء، والخيانة، والهجْر. لا مكان للانحراف والهتك... للصراعات والغيرة... للأنانية والخديعة. نقاء، وبراءة، وعذريّة، وصدق في كلّ مكانٍ... إنّها الجنّة».

تأوّه الصديق: «يا إلهي! توقف عن هذا الحديث!». تحرّك إصبع المحامي عنّي، وتوجّه بحركة يدٍ بطيئةٍ إلى لينا، التي جلست بوجهٍ أحمر، وبنظرةٍ نحو الأسفل، إلى يديها التي استقرّت في حجْرها. صمت. توجّهت

الأنظار كلّها إليَّ، ثمّ إلى لينا، ومرّةً أُخرى إليَّ. سمعنا في لحظة الصمت هذه الترجمة المخصّصة لرينيه، صوت هامس يزيد وينقص، ثمّ قاطعه هذا التعبير الذي سقط مثل الرعد: «الجنّة».

حاول الصديق منْع هذا الاتّهام الساذج والمحرج للفتاة وعائلتها بقوله: «إنّ المساواة تشمل أيضاً مساواة الرجُل والمرأة، وتشمل الحُرّيّة -محور فِكر كابيه- حرّيّة المشاعر أيضاً».

نهضت لينا في هذه اللّحظة، وذهبت إلى فريد، الذي كان قد تمالك نفسه مرّةً أُخرى، وقالت: «سامحني». وقفت ممسكةً بيده، وبكت في هذه اللّحظة، فبدأ هو الآخر في البكاء. أجلْ، سالت دموعٌ كثيرةٌ، وليس من قبيل المصادفة أنّني كتبت بعدها بسنواتٍ مقالةً عن الدموع، ولكنّها فُقدت أيضاً. طعنني المشهد المؤثّر للاثنين الباكيين في قلبي. يمكنني وصف الموقف بهذه الدراميّة. تحولت الابتسامة المحتقرة على الوجه الوقح للمحامي إلى ضحكة انتصار. صاح: «هذا أمرٌ جيّدٌ».

غمرني شعورٌ دفينٌ بالخجل؛ بسبب إجبارها على تعرية نفسها عَلناً. صاحَب هذا الشعورَ عجزٌ عن الحديث. في وقتٍ لاحقٍ، حينما واصلت، أنا والصديق، رحلتنا، تمكّنت من تقديم تفسير: لا تسري على العاطفة قواعد صنعها العقل. يمنعنا المنطق عن الاختيار بين رغباتنا. المنطق آلة العقل لإرهابنا، هذا الإرهاب الموجّه ضدّ مشاعرنا التي تمثّل الحقيقة التي نعيشها. مشاعرنا تحمل رسائل لوجود حرّيّتنا. نعرف من خلالها أنّنا قادرون على الاختيار.

كان أحد الرجال المتقدّمين في العُمر، الجالسين إلى منضدة مجلس الإدارة، قد استغرق في النوم في أثناء المحاضرة باللّغة الألمانيّة. نظر الاثنان الآخران في حَيرةٍ إلى رينيه، الذي كانت المناقشة تترجم له في همْسٍ، ولمْ

يكن بالتالي قادراً على متابعة الحوار أوّلاً بأوّل. قد يثير التعاطف بجلوسه في هذا المكان، وهزّ رأسه، وإخراجه، من دون سببٍ مفهوم، لطقم أسنانه الصفراء من فمه، ووضعه على المنضدة، كأنّه سيتدخّل في المناقشة الدائرة عوضاً عنه.

فجأةً، توجّهت سيّدةٌ عجوزٌ إلى منضدة مجلس الإدارة كالمجنونة، وصرخت: «يجب أن يصوّت النساء أيضاً على البقاء، أو الرحيل!». رفعت السيّدات أيديهنّ، وعُدّت السيّدات الغالبيّة لصالح بقائنا. قيل: «إنّ هذا باطل»، وقال رينيه المرهق: «إنّ العمليّة بأسْرها غير قانونيّة».

صرخ المحامي: «باطل! هذا كلّه باطل!».

وضع رينيه طقم الأسنان في فمه، وقرّر أنّه لا مكان للشجار داخل الجماعة. لا يصحّ الشجار؛ لأنّ كلّ شيءٍ قابلٌ للنقاش، وإنْ لمْ يُسمح للنساء بالتصويت. صرنا شهوداً على ثورةٍ صغيرة.

جمعنا أغراضنا، وسمعنا الصراخ من داخل بيت الاجتماعات: «الإخوة. الأوساخ. المنافقون. ارحلوا، فلْترحلوا من هنا!». هذا كلّه بلغاتٍ مختلفة.

أخذنا الحنطور في اليوم نفسه، وتوجّهنا إلى أقرب منطقةٍ مجاورة. قضينا الّليل في دار ضيافةٍ في حالةٍ مُزريةٍ، ويعجّ بالحشرات.

عُذراً! يجب أنْ أشرب شيئاً.

– خذ وقتك. لقد أحضرت لك من متجر الجيش عصير برتقال مركّزاً. يمكنك تخفيفه بالماء. طعمه جيّد، وهو غنيٌّ بفيتامين سي. هل تريد إنهاء حديث اليوم؟

– شكراً، نعم. ربّما هذه الإضافة فقط: سافرنا، أنا والصديق، في اليوم التالي داخل عربة قطارٍ خاصّةٍ إلى شيكاغو. جلس الصديق في صمتٍ

غاضبٍ، وأنا، إنْ وصفت نفسي، في صمتٍ حزينٍ ومُحبط. لم يكن حزناً بسبب فقدان الحُبّ فحسْب، بلْ حزناً دفيناً على حال هذه الجماعة الصغيرة، وعلى هذه المحاولة الجميلة لتحقيق حالةٍ مختلفةٍ من المعايشة أكثر عدالةً وانسجاماً. كان ثمّة إحساسٌ بالخجل أيضاً من أنّني دمّرتُ بوجودي، من أنّنا دمّرنا بوجودنا، هذه الجماعة بالفعل. في الحقيقة، سمعنا في العام التالي أنّ بعض أعضاء الجماعة قد غادروها، وباعوا جزءاً من الأرض. حاولت إقناع نفسي بأنّ نصيبي من صنع هذا الخَلل ليس بحجم محاولة الصديق القاسية لفرض مساواة المرأة في التصويت بشكلٍ مفاجيءٍ وعنيف.

انفصلنا؛ ظلّ الصديق في شيكاغو، حيث أراد دراسة نماذج الاستيطان الشيوعيّة المختلفة في المكتبات؛ أمّا أنا، فأخذت القطار إلى هومستيد لزيارة مستوطنات أمانا.

رجُلٌ بقبّعةٍ يزيّنها الريش

كان هانزن يقرأ كتاب «آثار»، وينتظر مكالمتها. بعد مرور ثلاثة أيامٍ، وفي يوم جُمعة، لمْ يحتمل البقاء في المنزل على البحيرة، فذهب إلى ميونخ، إلى منطقة مونشنر فرايهايت. صعد السُّلّم إلى الدَّور الثاني، ورنّ الجرس ثلاث مرّات. لمْ يُجِب أحدٌ، على الرّغم من سماعه أصواتاً في الشقّة. يبدو أنّ النساء كنّ يتشاجرْن. لمْ يفهم شيئاً. رنّ الجرس مرّةً أُخرى، فتحت سيّدةٌ بطفلٍ على ذراعها. حين رأت هانزن، صرخت إلى داخل الممرّ: «حضر الأمريكيّ». صرخت سيّدةٌ أُخرى من الداخل: «السيّدة شتيتن ليست موجودة»، وصاحت سيّدةٌ أخرى: «بلّغيه بترك القهوة»؛ كان قد أحضر بالفعل كيلو قهوة لمولي. جاءت إلى الباب سيّدةٌ هزيلةٌ، متوسطة العمر، بوجهٍ أحمر، ومعطفٍ فضفاض، وصليبٍ ذهبيٍّ صغيرٍ على صدرها المجعّد.

– السيّدة ليست موجودةً، يمكنك ترك القهوة هنا.

سلّم السيّدة القهوة، كأنّه أمرٌ صادر.

– متى ستعود السيّدة شتيتن؟

– كيف لي أن أعرف؟ لا أحد يعرف هذا الأمر. ثمّ قالت هذه السيّدة من ميونخ: «باي باي».

نزل السُّلّم، وفكّر في المجهود الذي يبذلْنه لتحدّث الإنجليزيّة، وتساءل عن مصدر معرفتهنّ بأنّه كان يحمل معه قهوة. يبدو أنّهنّ شمَمْن الرائحة، واستغرب الوقاحة التي طالبْنَ بها القهوة، وانصياعه الغبيّ. الأمر الجيّد أنّ الهديّة كانت كأنّها مخصّصةٌ للمقيمات كلّهنّ، وغير ملزمة لمولي.

اختارت الاسم لنفسها، إلّا أنّه بدا غير مناسبٍ مع اسم العائلة شتيتين.

ذهب هانزن بالسيّارة إلى شارع لودفيج، وركن السيّارة الكابريوليه بالقرب من الجامعة. جرت أعمال البناء في المبنى الرئيس الذي ضربته إحدى القذائف. لمْ يشبه الرجال على السقّالة عمّال البناء، كانوا أشبه بالطلّاب، ويبدو أنّ بعضهم قد خرج في الحال من السجن الأمريكيّ. حملوا الحُطام بعيداً، ونظّفوا الطوب القديم والسليم من الطلاء، ثمّ حملت يدٌ بعد الأُخرى الطوب لمن وقفوا أعلى السقّالة، وكانوا يبنون الحائط. غطّوا السطح التالف بغطاءٍ مشمّع. ظلّ هانزن يراقب المشهد مدّةً، إلى أنْ مدّ أحد الواقفين على السقّالة يده بأداة البناء طالباً إليه المساعدة. كان يضحك مثل الشباب الذين كانوا ينظرون من أعلى إلى الأسفل على الشابّ الأمريكيّ صاحب الزيّ الموحّد. «**هل بإمكانك مساعدتنا؟**».^

تردّد، وفكّر في الانصياع للرغبة التلقائيّة في الاصطفاف وقذف الطوب نحو الأعلى، ولكنّه فكّر بعد ذلك في لمحة النفاق التي قد تشوب الموقف، حين يعاون الألمان، وهو ضابطٌ بالزيّ الرسميّ. قد يسخرون منه، ويقولون: «إنّه يرمي القذائف، ثمّ يقف ليبني بالطوب». من ناحيةٍ أُخرى: ولمَ لا؟ بشكلٍ رمزيٍّ على الأقلّ. التقط قالب طوب، وقذفه نحو الأعلى إلى شخصٍ واقفٍ على السقّالة. أخذ القالب: «**شكراً**».^

ضحكوا، ولوّحوا بأيديهم، ولمْ يطلب أحدهم منه سيجارة.

انعطف إلى داخل شارع شيلينج. بقيت منازل كثيرةٌ هنا على حالها. بعض الشظايا أحدثت أضراراً بسيطة. احترق أحد أسطح المنازل. عبَر الشارع باحثاً حتّى وجد داخل منزلٍ مكوّنٍ من ثلاثة أدوارٍ متجراً بنافذة عرضٍ كبيرةٍ، تقسمها ثلاثة أعمدةٍ من الحديد المصبوب، فضْلاً عن تقسيمٍ داخليٍّ بعصا حديدٍ رفيعة. فوق النافذة حاملٌ من حديدٍ مصبوبٍ أيضاً، كُتب عليه بحروفٍ قديمة: «متجر الكتب القديمة جرافيك». كان المدخلَ إلى اليسار. المشهد مألوفٌ له، مثل المتاجر في قرية جرينيتش. تأمّل هانزن الكتب المعروضة في النافذة، الكتب المصوّرة: الفنان دورار، النهضة في إيطاليا الشماليّة، بالاديو، فينيسيا، برويجل، ألتدورفر، وفي النافذة اليمنى الأعمال المجمّعة الأخيرة للكاتب غوته. إصدارٌ جميلٌ، وكعب الكتب من الجلد بخطوطٍ ذهبيّةٍ، إلى جانب المجموعة كتب لشيلر، وهيردر، وهيسه، وتوماس مان، وهاينريش مان، ودوبلين، وآندريه جيد، وبودلير، وكذلك ترجمات للأدب الأمريكيّ، فضلاً عن ثلاثة كتبٍ باللّغة الإنجليزيّة: «أبشلوم أبشلوم!» لويليام فوكنر، و«وداعاً للسلاح» لهمينغوي، ثمّ الإصدار الأوّل من «الأرض اليباب» بإشارةٍ إلى التوقيع الشخصيّ للكاتب.

كانت نيّة هانزن عدم زيارة فاغنر في متجر الكتب، على الأقلّ في هذا التوقيت، دفعه الفضول إلى الدخول إلى المتجر، وصاحبته نغمة الجرس الثلاثيّة. ملأت الحيطان رفوفٌ خشبيّةٌ داكنة الّلون، امتدّت حتّى السقف. كان هناك سُلّمٌ متحرّكٌ، معلّقٌ في الجزء الأعلى على قضبانٍ فولاذيّة، وخزانتان، أو ثلاث بزجاجٍ أماميّ، كان هانزن يعرف أنّها تعرَض الإصدارات الأولى القيّمة، بالتوقيعات الشخصيّة. في وسط المتجر منضدةٌ خشبيّةٌ طويلةٌ على غير العادة، وضعت عليها الكتب بأسلوبٍ فنّيٍّ راقٍ، بعضها مفتوحٌ على صفحاتٍ مثبّتةٍ بأحجارٍ صغيرةٍ سوداء ورخاميّة

بيضاء، وفيها التوقيعات والإهداءات. جلس رجُلٌ في الخلفيّة إلى مكتبٍ، وكان يكتب من دون رفع نظره، إلى أنْ نهض بعد عدّة دقائق ليسأل عمّا هو مطلوب. تعرّف هانزن إلى السُّترة بلون البازلّاء، والبنطال الرماديّ الداكن. كان متأكّداً من أنّه صاحب متجر الكتب القديمة أكستهيلم، كما وصفه له فاغنر.

اكتشف هانزن على اليمين، في الخلفيّة، وبعيداً عن ضوء النهار، هذه الفتحة العالية في الأرضية.

كرّر الرجُل سؤاله: «كيف يمكنني مساعدتك؟». طلب هانزن رؤية نسخة «الأرض اليباب" المعروضة في نافذة العرض. أحضر صاحب متجر الكتب القديمة النسخة من نافذة العرض. كانت في حالةٍ جيّدة.

تصفّح هانزن الكتاب، رأى توقيع إليوت، وفوقه بخطّ اليد العبارة الّلاتينيّة: *Hinc primum fortuna fidem mutata novavit*.

قال صاحب المتجر: «إنّها لفيرجل. هذا الاستشهاد بخطٍّ يدويٍّ أمرٌ نادرٌ لإليوت، ومعناه...». قاطعه هانزن إرضاءً لنفسه، ولتصحيح صورة الأمريكيّ الجاهل، وقال: «ابتعد الحظّ في هذه الّلحظة، ولمْ يبق مخلصاً».

قال صاحب المتجر: «نعم، هذا صحيح». كانت هذه أيضاً نبرة استعلاء، بالأحرى وقاحة. بصرف النظر عن ثلاث علاماتٍ بالقلم الرصاص، فإنّ الكتاب في حالةٍ ممتازةٍ؛ لا بقع، ولا تهتّك في الورق، نسخة بديعة.

لمْ يناقش ثمنه، اشترى كتاب «الأرض اليباب» بخمسة دولارات. كان صاحب المتجر يلفّ الكتاب في ورقٍ ناعمٍ، ثمّ في ورق تغليفٍ أكثر سُمكاً، ومستعمل من قبل. اكتشف هانزن في هذه الّلحظة كتاب إرنست تولر «مرحلة الشباب في ألمانيا» فوق المنضدة الخشبيّة، كان إصداراً أوّل، نُشر في عام 1933 في أمستردام.

كان أحد الطلّاب قد ألقى محاضرةً عن هذه السيرة الحياتيّة في محاضرةٍ عُقدت بسانت لويس. اشترى هانزن هذا الكتاب أيضاً، ودفع بمارك الرايخ معدوم القيمة. يبدو أنّ هذا قد أحبط صاحب المتجر الذي كان يأمل في الحصول على دولارين، لذلك لمْ يلفّ كتاب تولر إلّا بورق التغليف فقط. أشار هانزن إلى غطاء القبو المفتوح: «هل هذا مخزن الفحم؟».

- لا، إنّه مخزن الكتب.

اقترب هانزن من ثقب المنزل المربّع. كان شعاع ضوءٍ خافتٍ ينير هذا العالم الخفيّ. لمْ يرَ فاغنر.

غادر المتجر، ورنين الجرس الثلاثيّ يصاحبه.

ذهب هانزن إلى ميدان أوديونز بلاتس. كتب أحد الأشخاص باللّون الأبيض على سور قاعة القيادة العسكريّة: «هنا بدأت المعاناة». نُزعت اللّوحة البرونزيّة التي كانت تحتفل بالانقلابيّين القتلى الستّة عشر بوصْفهم شهداء، وسقطت في فتحة الصرف الصحّيّ. كان الهواء معبأً برائحة السور المبتلّ. مرّت من أمامه سيدتان بفستانيهما الصيفيّين، تمسّكت كلٌّ منهما بذراع الأُخرى، موجّهتين له ابتسامة. أومأ إليهما برأسه.

كان جورج قد قال له: «إنّ نظّارات الشمس هذه تثير الفتيات للغاية، نظارات الطيّارين؛ يعتقدْنَ أنّ إطارها مصنوعٌ من الذهب». قال: «إنّ السيّدات مثيراتٌ للغاية، ولديهنّ الرغبة في التعارف. يرضخ المهزوم رضوخاً كاملاً، وعن رغبةٍ داخليّة. هذا يسهّل الأمور على الضمير؛ تقضي الهزيمة التامّة على الأخلاقيّات». سأل هانزن السيّدتين عن عملهما. مربّيات في رياض الأطفال، هديل اليمام. أظهرتا إعجابهما بلغته الألمانيّة، إنّه يتحدّث اللّغة الألمانيّة مثل الألمان، أم إنّه يهودي؟ تريد السيّدتان

التعرّف إلى شخصٍ منهم: متى حضر إلى أوروبّا؟ هل شارك في المعارك؟ ابتسمت الأُخرى، وأخرجت أحمر الشفاه، وعلبة البودرة من حقيبتها، ثمّ لوّنت شفتيها. قال هانزن، وهو يضع نظّارته الشمسيّة: «لا، ليس اليوم، لديّ موعد».

أظهرت الاثنتان نوعاً من التمكّن والممارسة؛ كأنّهما عاهرتان. كان جورج يقول: إنّ المدهش عدم ظهور الأمراض التناسليّة، إلّا قليلاً، حتّى الآن».

تحدّث رجُلٌ يرتدي قبّعةً بريشٍ كثيفٍ إلى هانزن باللّغة الإنجليزيّة. لمْ يفهمه هانزن، فتحوّل إلى اللّغة الألمانيّة، وتحدّث بلهجةٍ بافاريّةٍ عن كنيسة تياتينر كيرشة التي سقطت عليها قنبلةٌ أيضاً. لحُسن الحظّ أنّها لمْ تُصب القبّة التي يبلغ ارتفاعها واحداً وسبعين متراً. استمرّ الريش فوق قبّعته في الحديث؛ إذْ كان يهتزّ مع كلّ حركة رأسٍ، ويظهر لعباً لألوان البنّيّ والفضّيّ. حكى عن عائلة فيتالزباخ، وقبر الأمراء، الذي يرقد فيه الملوك والأمراء، بل القياصرة أيضاً. لو أنّ المملكة لا تزال قائمةً، ما تولّى السيّد هتلر الحُكم. حين وصل الحزب النازيّ البنّيّ إلى ثمانين بالمئة في كلّ مكانٍ في الرايخ، وكانت هناك دوائر انتخابيّة حصل فيها الوسط على ثلاثين بالمئة من الأصوات. قال: «لكنّ هذا الحزب الكاثوليكيّ الطيّب قد وافق بعدها على قانون التوكيل الذي أدّى في نهاية المطاف إلى وصول هتلر إلى قمّة الحُكم». كانت خطيئةً، وكفّر عنها الكثير من أحزاب الوسط إلى معسكر الاعتقال في منطقة أوستهوفن. كان آل فيتالزباخ أيضاً من معارضي النازيّة. اضطرّ وليّ العهد، روبرشت، إلى الهجرة إلى إيطاليا، فقبضت عليه وحدات الإس إس في عام 1944. تمكّن من الاختباء، لكنّ زوجه وأولاده اعتُقلوا في معسكر داخاو في عام 1944. إنّ أهل بروسيا هُم السبب في الحرب.

أراد هانزن إيقاف حصّة تاريخ المملكة هذه، وسأله عن الريش الموجود أعلى قبّعته، فاستطرد حامل القبّعة في الحديث: إنّه رمزٌ لرحلة صيدٍ موفّقة. وليّ العهد، لويتبولد، الذي تولّى المهامّ التمثيليّة عوضاً عن ابن أخيه المريض عقليّاً، أوتو الأول، كان له الريش نفسه في قبّعته. كان الأمير مثل نمرود، صائداً كبيراً، أطلق النار على الكثير من الخنازير، والظباء، والديوك، والجديان. قال: إنّه بوصْفه حاملاً لهذا النوع من الريش، كان له شرف مرافقة الأمير مساعداً في رحلات الصيد». أومأ برأسه ليحرّك هذا الريش الكثيف بقوّة. يجب أن يصطاد نحو عشرين جَدْياً؛ كي يحصل على هذا الحجم من الريش.

قال هانزن: «أي: مثل فروة الرأس التي يرتديها هنود سيو».

أربكت هذه المقارنة الرجُل: «إنْ أردت رؤية الأمر هكذا، حسناً». المهمّ أنّ الغزلان كانت تأتي من المنحدرات الشماليّة للجبال، حيث كانت تهبّ رياحٌ شديدة البرودة. يؤخذ الشَّعر من العَمود الفقريّ للجديان. لون الأطراف لبضعة مليمترات رماديٌّ أبيض، كان يُطلق عليه الجليد. هزّ رأسه، وتحرّك الريش بقوّة. كانت فترة وليّ العهد جيّدةً؛ أمّا الملك لودفيج الثاني، فقد بالغ بعض الشيء في شغفه بالبناء وبقصوره، لكنّ وليّ العهد اهتمّ بالزراعة، بزراعة الجنجل، وبالمراعي والأبقار، وخاصّةً الغابات. كان قريباً من الشعب ومحبوباً، يرتدي البنطال الجلديّ القصير، وكساء الساق. كان كلّ طفلٍ يحصل في عيد ميلاده على الخبز بالنقانق، ومن وصل إلى الصفّ الثالث يحصل على الجعَة. كم كان يودّ أن يطّلع هانزن على نعْش وليّ العهد داخل مقبرة الأمراء! ولكنْ يعوق الحُطام الوصول إليها. قال: «إنّه حاصلٌ على دبلوم في الإرشاد السياحيّ»، وطلب إلى هانزن التبغ؛ لأنّه نسيه في المنزل. أخرج من جيب المعطف الجانبيّ

غليوناً. أهداه هانزن السجائر الأربع، أو الخمس المتبقيّة في علبته؛ لأنّه أتقن عرض طلبه على نحوٍ دراميّ. وَعده أيضاً بمشاركته جولةً سياحيّةً، إنْ سمح وقته بذلك.

اليوم السادس



-مقطع غير مفهوم-

- أنا بخير. لقد ذهبت يوم الجمعة إلى متجر الكتب القديمة. حكى لي أكستهيلم عن ضابطٍ أمريكيٍّ يتحدّث الألمانيّة بطلاقةٍ، واشترى «الأرض اليباب» لإليوت. ألف مبارك. وكتاب تولر. عرفت في الحال أنّه أنت؛ هذا يسعدني.

- كان أستاذي يعرف تولر شخصياً؛ لقد التقى به في نيويورك، قبل انتحاره بوقتٍ وجيز. كان كوبيتش يقدّر النصوص الدراميّة لتولر، وعمله النثريّ أيضاً. كان عثوري على الكتاب حدثاً كبيراً بالنسبة إليّ. كيف وصل كتاب «مرحلة الشباب في ألمانيا» إلى متجركم؟

- بطريقةٍ غريبةٍ للغاية، كأنّه جاء مثل رسالة في زجاجة، من تيّار ماءٍ عميقٍ وغامض. كان أكستهيلم يعرف تولر أيضاً، ويقدّر كتبه، ويشتريها وقت بقائي داخل القبو. لقد أحرقوا كتبه ومنعوها. صدر هذا الكتاب في المنفى، عند دار كوريدو، في أمستردام، عام 1933، ثمّ جاءت هذه النسخة من هولندا إلى هنا. يجب أنْ يكون شخصٌ ما قد أحضرها. كان هناك إهداءٌ داخل الكتاب، لكنّ البائع نزعه من الكتاب، من دون الحديث في

الأمر، كان هناك اتّفاقٌ بيني وبين أكستهيلم ألّا نسأل عن بائعي هذه الكتب الممنوعة. شيءٌ غريبٌ! للكتب أقدارها (*Habent sua fata libelli*). ما أجمل أن يكون هذا الكتاب بين يديك الآن!

-مقطع غير مفهوم-

لا، أقصد بلى، اِلتقيت الصديق مرّةً أُخرى في نيويورك، حجز هناك في فندقٍ بسيط، كانت الصراصير الضخمة تجري في ممرّاته. حينما دخلت غرفتي هناك، ظننتها فئراناً، ولكنّ الفئران كانت خلف الحيطان: صرير، وخربشة، وخشخشة.

- ألم يكتب بلوتز رسالةً إلى أعضاء مجموعة الباسيفيك؟

- كتب الصديق التقرير، وهو في الفندق. كان خطاباً طويلاً عن العالم الجديد، ولكنّه أرسله من العالم القديم، في أنتفيربن. كانت رسالةً مسجّلةً موجّهةً إلى غرهارت هاوبتمان، الذي أحرقها في وقتٍ لاحقٍ من شدّة الخوف؛ لأنّ الشرطة حقّقت معه بسبب إثارة البلبلة السياسيّة. كان الخطاب بمنزلة تصفية حساب، وبحث من أجل العثور على الذّات. قرأت الخطاب في أثناء رحلة العودة المشتركة، كنّا مرّةً أُخرى على سطح السفينة الأوسط، ولكنْ بسبب قلّة عدد الراكبين، كانت الرحلة أكثر راحة.

كان خطاباً يسمّي المشكلات تحديداً، الحقد الذي يركّز على التفاهات، تأكيد الجانبين على الظلم تحت القوى الضاغطة للمطالبة بالمساواة بين الأقوياء وبين الضعفاء، وبين الكسالى وبين النشطاء، وبين الموهوبين وبين غير الموهوبين. النيّة الطيّبة محدودة القدرة على إنهاء هذا الظلم، وكذلك الدعوة الأخلاقيّة، ولكنْ في حالات خرْق هذه القاعدة، بممارسة الضغوط، أو الإهمال والإفساد، لا يحتمل الموقف المطالبة بالمساواة، فنجد المطالبة بها، على سبيل التنفيس في سياق مشكلاتٍ

تافهةٍ، وتتجلّى في نقاشاتٍ صعبةٍ تعوق الإجراءات المغيرة. كان تشخيص الصديق: هذا التصوّر الجميل عن المساواة، الذي يعدّ أجمل تصوّرٍ أبدعته البشريّة، يقف عائقاً في طريق نفسه، وعائقاً أمام التطوّر والرّقيّ. لا يمكن إيجاد المساواة في سياقٍ يحكمه هذا القدْر من الظلم. من الظلم أنْ يخلق هنا شخص، بهبة العقل، والإرادة، والقوّة، وهناك شخصٌ آخر يتعذّر عليه التفكير، وإنْ بذل الجهد المطلوب. الطبيعة ليست عادلة. هذا الظلم يتطلّب تكيّفاً أفضل مع الوضع القائم. يكمن الغباء في اعتقاد الجميع بأنّهم يملكون العقل القادر على استيعاب كلّ شيء. يجدون -في لحظات العجز عن حلّ معادلةٍ رياضيّةٍ- العُذرَ في عدم رغبتهم في هذه اللحظة في الانخراط في الرياضيّات. هذا يتحدّث الّلغات بطلاقةٍ وبسرعةٍ، وذاك يتلعثم حتّى بعد مرور شهورٍ من تعلّم الّلغة الأجنبيّة، وهذا يملك الإرادة القويّة، وذاك ضعيف الإرادة، وفي حاجةٍ مستمرّةٍ إلى التنبيه ليقوم بالتزاماته. نجد الاختلافات في المظهر الخارجيّ أيضاً: فمن بين مجموعةٍ من المهاجرين على ظهر سفينة، تعرف الضعفاء، والكسالى، وغير القادرين على العمل. لا يمكن تحقيق المساواة إلّا من خلال تطوّرٍ عامٍّ إلى الأعلى. يجب فصل نواة فِكر كابيه، ووضعها في مركز اهتمامنا: خلْق جنسٍ بشريٍّ قويٍّ، وصحّيٍّ، وجميلٍ، كما يجب أن يرى نفسه قويّاً وجميلاً. يجب أن تقوم ثورةٌ بيولوجيّةٌ، ويجب أن تكمل الثورة الاجتماعيّة!!!

أتذكّر حتّى اليوم علامات التعجّب الثلاث التي وضعها في نهاية هذه العبارة بخطّه صعب القراءة. كان من سمات هذا الرجُل، صاحب الإرادة القويّة، أنّه تعلّم خطّاً جديداً للكتابة بالحروف الّلاتينيّة، قابلاً للقراءة، بعدما اكتشف أنّ خطّه غير مقروء. رفض الخطّ الألمانيّ القديم؛ لأنّه كان يُقرأ في المنطقة الناطقة بالّلغة الألمانيّة فحسب. حين تعرّفت إليه، كان يكتب

خطاباته وملحوظاته بقلم رصاص غرافيت من سيبيريا الشرقيّة، ومن ماركة فابر. كان يستعمل مِبراةً، ويجمع نشارة الخشب الصغيرة المبرومة في وعاءٍ صغير، ويرميها بعد الانتهاء من العمل من نافذة مكتبه في بريسلاو في الحديقة الأماميّة.

أردت التطرّق إلى التالي: كلّما زاد المطلب داخل مستوطنةٍ بالمساواة والتآلف، ظهرت على السطح المشاعر المكبوتة والقادمة من تطوّر السلالة، والمصلحة الشخصيّة، والرغبة في التشاجر، والغَيرة، والنزعات الوقتيّة. إنّها تدفعنا إلى تصرّفاتٍ متهوّرةٍ، وتورّطنا في صراعاتٍ مع الآخر، بسبب الكسل، والمراوغة. باختصار: الأنانية العنيفة التي تسعى إلى التحكّم في كلّ شيء. هناك المدينة الفاضلة، وهنا الواقع التافه والقبيح.

وقف على سطح السفينة، كان جوّاً عاصفاً، والرياح تحمل رذاذ المطر إلى سطح التنزّه مرّةً أُخرى. كان أشبه بالراهب في معطف المطر الطويل، بلونه الأخضر الداكن، وغطاء الرأس. لمْ يمرض في أثناء رحلة العودة بدوار البحر، كما حدث في رحلة الذهاب، وظلّ واقفاً حتّى فترة الظهر فوق سطح السفينة. ناديته وقت الطعام، وردّ أنّه يجب عليه التفكير. ظلّ هناك حتّى المساء، يذهب ويأتي أحياناً، ويعود إلى السطح مرّةً أُخرى، وينظر إلى البحر الهائج.

- يجب تغييره تغييراً جذريّاً.

- من؟

- يجب مساعدة البشر جميعاً، وليس الاقتصار على فردٍ بعينه. يجب أن نكون أطبّاء، وألّا نساعد الفرد فحسْب.

- الطبيب يساعد الفرد.

- هذا أيضاً، ولكنْ يجب مساعدة البشرية بأكملها.

كان قادراً على قول شيءٍ من هذا القبيل. يعرض أفكاره بجدّيّةٍ طاعنةٍ، ووجهٍ عابسٍ: التفاهة غير مُحتملة، وتفاهة البشر، وقبحهم. تكفي تفاهة هذا الشجار المندلع بسبب ارتداء ساعة، ونقاش تحوّل إلى خطبة كراهيةٍ، وهذا الانحطاط، وهذه الغيرة، والاستمرار في التفاهة. كانوا يبذلون ما في وسعهم لتخفيض ساعات العمل، والهروب من تنظيف المراحيض، والامتناع عن الاعتراف بمساواة المرأة. هذا الإصرار على تفوّق الشارب أمرٌ تافهٌ غير مُحتمل، وهذه المقارنة بين العضلات، أليس هذا هو الأساس؟ وإن تحدّثنا عن العضلات، لتقارن هؤلاء الأقزام مع هؤلاء البحّارة على متن هذه السفينة، يا لها من أجسادٍ، ويا لها من قوّةٍ، وهدوءٍ، وتوازنٍ داخليٍّ، حين يسيرون فوق الألواح الخشبيّة؛ ليتجنّبوا التأرجح مع الأمواج!

كان يتحدّث في مواجهة العواصف والأمطار، وبما أنّه كان موجّهاً نفسه نحو البحر الهائج، وأمواجه العالية المكسوّة بالرغوة البيضاء، لمْ أسمع إلّا أنصاف عبارات، ثمّ: «ماذا يمثّل القرد بالنسبة إلى الإنسان؟ أضحوكةً، أم خجلاً مؤلماً؟ هذا تحديداً ما يمثّله الإنسان للإنسان الكامل، أضحوكة». كان يستشهد بهذه العبارة من كتاب (هكذا تكلّم زرادشت).

كانت لحظةً بطوليّةً، هكذا شعرت بها، على الرّغم من وجود شعورٍ بسيطٍ بعدم الراحة. تحوّل رأيه في الجماعة إلى النقيض. لمْ يرَ بالدرجة الأولى، أو لمْ يرغب في رؤية الظروف الصعبة التي واكبت بداية المشروع، وكذلك عرقلة إحدى الجمعيّات التي لمْ تفكّر إلّا في المكسب، والمنافسة، وأذاها، ولمْ يرَ أيضاً أنّ العاملين من أجل المجتمع الجديد كانوا يحملون المجتمع القديم داخلهم.

تحدّثت إليه في أثناء هذه الرحلة كثيراً، ولكنْ يجب الإشارة إلى أنّني

كنت في العشرين من عمري، وتابعاً له، وفيما يتعلّق أيضاً بحَسمه وقوّته في عَرض حُججه، يصعب عليّ دوماً التعبير عن فكرةٍ ما؛ لأنّ العكس كان يخطر على بالي. صاحَبت عَرض حُججي حالة شكٍّ مستمرّة، شكّ في الذات. هل يمكنني قول هذا؟ هل هناك بديل، بلْ ربّما بدائل أُخرى؟ أليس عكس ما أدّعي ممكناً؟ كان هو محصّناً بدراسته لتاريخ الجماعات بمكتبة شيكاغو؛ حيث كان يقرأ التقارير، في حين كنت أنا منشغلاً بصنفرة الألواح الخشبيّة، وأعمال الحرث في جماعة الأمانا. انشغلت بعدها بالترحال؛ بالرحلات الاستكشافيّة عبْر أمريكا بأكملها. كنت في واشنطن، وسان فرانسيسكو، كما عَبرت بالقطار الساحل الغربيّ. كنت في سانت لويس، وشيكاغو، وعلى البحيرات الكبرى في فيلادلفيا، وبوسطن. يا له من بلدٍ يتمتّع بتنوّعٍ في الطبيعة، والمناخ، والأنهار! ذهبتُ إلى جماعة الأمانا الشيوعيّة، وكانت خبراتي هناك مختلفةً تماماً عن خبراتي مع جماعة الإيكاريّين. كان ثمّة ارتباط روحيٌّ بين البشر، لا أقصد بذلك إيمانهم بالمسيحيّة، على عكس الإيكاريّين، بلْ كان ارتباطاً يتخطّى هذه اللّحظة، وهذا المكان، ارتباطاً أخويّاً بين الرجال وبين النساء. حاول بلوتز نقض انطباعاتي بالعديد من الأمثلة. لمْ يهتمّ بهذه الجماعات الدينيّة الشيوعيّة. قال بأسلوبٍ يعتريه بعض الغموض: «على الربّ الاهتمام بشؤونه أوّلاً».

لمْ يمرّ بهذه الخبرات، وهناك سؤالٌ عامٌّ: هل يمكن نقض ما عايشناه ورأيناه؟ يمكنك الحديث عن جماعة أمانا بوصفها...

- فلْتحكِ لي عن بلوتز، وجماعة الإيكاريّين أوّلاً، ولاحقاً عن جماعة أمانا؛ لأنّ... (مقطع غير مفهوم).

- صحيح، الصديق السابق.

وصلنا إلى بريسلاو. قام الصديق، بوصْفه الرئيس المبعوث -لقب

رنّان- بكتابة تقريرٍ لمجموعة الباسيفيك، وبما أنّ الذكريات تحكمها المشاعر، فقد كانت انطباعاته كئيبةً، واتّسم تقريره بالسوداوية. رأى تناقضاً أساسياً، يكمن في أنّ إنجاز جماعة الإيكاريّين لا يتوافق مع المجتمع المحيط، الذي تحكمه المنافسة والرغبة في المكسب. يجب لذلك بيع الأراضي باستمرار لسدّ هذا العجز. عملهم غير مُجزٍ، يأخذون الأمور ببساطة. تحدّث عن الشجارات الصغيرة، وهذا الفكر الريفيّ ضيّق الأفق، ومشاعر الكراهية، وهذا التناقض بين المطالبة بالمساواة، والإصرار في الوقت ذاته على حماية المصالح الخاصّة. لا، لم نجد الإنسان الجديد هناك، ولنْ ينمو في ضوء المعطيات هناك.

توافق ما قاله مع ما راقبناه هناك، ولكنّها على الرّغم من ذلك لمْ تكن، في رأيي، رؤيةً متفهّمة. شابها إحباطٌ عميقٌ؛ ما أدّى إلى مقارناتٍ تحقيريّةٍ، مثل: جماعة الإيكاريّين ليست سوى مجموعةٍ ضيّقة الأفق، تجلس داخل تعريشةٍ في الحديقة.

ضاعت محاولاتي لشرح الوضع المعقّد للجماعة وسط النقاش الذي دار سريعاً بين الرّفاق حول الأُسس. كان هدفه، هنا والآن بحسب هاينريش لوكس؛ خلْقَ مجتمعٍ مختلفٍ وعادلٍ، تتحقّق فيه سعادة البشر جميعاً. لاقت حُجّة الاشتراكيّ فرديناند سيمون استحساناً كبيراً: لا يمكن تغيير الوضع داخل مجتمع الرأسماليّة المحكوم بالاستغلال والطمع في المكاسب من خلال بعض الجُزر الصغيرة للسعداء. تمثّلت قيمة هذه الرحلة في إثبات هذه الفكرة: لقد أخفقت محاولة كابيه، وكان محكوماً عليها بالإخفاق. إنّ نظريّة كابيه قد جاوزها الزمن، ألمْ يثبت تقرير الرئيس ذلك؟ قال سيمون: «إنّه قد درس في تلك الأثناء كتاب (رأس المال) للرفيق ماركس دراسةً دقيقةً». يجب تغيير مجتمعنا المحيط بواقعه الذي يحكمه صراع الطبقات،

سيكون ذلك من خلال العمّال، ومن خلال الحزب المنظّم، ومن خلال الثورة. التناقضات الطبقيّة بين البرجوازيّة وبين الرأسماليّة من ناحية، وطبقة العمّال من ناحيةٍ أخرى، لا يمكن الجمْع بينهما. كانت نماذج كابيه وفورييه يوماً ما نماذجَ تقدّميّةً، ولكنّها لمْ تعد كذلك في ظلّ تغيُّر أوضاع الإنتاجيّة. الجماعة الإيكاريّة -مثل سائر المجتمعات الفاضلة- قائمةٌ على فكرة الجماعات اللّطيفة الصغيرة للبرجوازيّة الصغرى. صاح هاينريش لوكس: نحن في حاجةٍ إلى ثورةٍ تشكّل المجتمع بأكمله، والمطلوب لذلك تنظيم حزبٍ ثوريٍّ للعمّال. الجماعات الشيوعيّة تشارك بنفسها في استغلال المجتمع؛ لأنّها حالةٌ من الاستفادة المتبادلة. لقد أصاب الرئيس في وصفه: إنّهم يجلسون داخل تعريشةٍ في الحديقة». يجب أن أعترف بأنّني ربطتُ ما قيل كلّه بحالتي، وأنّ حُمرة الخجل كست وجهي، حين تذكّرت لينا، ولقاءاتنا فوق الجزيرة الصغيرة في البحيرة، والاتّهام الذي وجّهه إليها هذا المحامي.

وافق الصديق، ولكنّه لمْ يجد الحلّ الكامل، على خلاف فرديناند سيمون، في الثورة الاجتماعيّة فحسب، بلْ في التقاء نظامٍ اقتصاديٍّ شيوعيٍّ، مع تغيير الطبيعة البيولوجيّة للإنسان في الوقت ذاته. يجب قيادة الإنسان لما هو أرقى، وتنمية قدراته الفكريّة والجسديّة. اعترض فرديناند سيمون، وقال: إنّ هذه التغيّرات لنْ يقدر عليها إلّا مجتمعٌ بدون طبقات. والسبيل إلى هناك؟ بالمناسبة، تزوّج سيمون بابنة أوغوست بيبل في وقتٍ لاحق. كانت زيجةً سعيدةً، إلى أنْ وقع موت سيمون القاسي، كان عالِماً، يقوم بدراساتٍ عن العقديّة، وعضّه فأرٌ، ثمّ مات بعد معاناةٍ شديدةٍ من الألم. اكتأبت فريدا بعدها اكتئاباً شديداً، كان ذلك في زيورخ في عام...، انتظر يجب أنْ أراجع الرقم...

- لا أهميّة لذلك، فلْتراجع ذلك لاحقاً. ماذا قال سيمون؟

- استشهد سيمون بماركس وإنجلز: «فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعيّة، فليس للبروليتاريا ما تخسره سوى أغلالها، لتكسب عالماً بأسْره». قال شتاينميتز بحَسم: «لا، كلمة أغلال جاءت من مجال الميكانيكا التقليديّة، ونحن الآن في عصر الكهرباء والأشعّة. الثورة التقنيّة قادت أيضاً إلى تقدُّمٍ تقنيّ. وضع شتاينميتز تصوّراً عن المجتمع، يؤدّي فيه تطوّر الماكينات والإمكانات التقنيّة العظيمة إلى مزيدٍ من أوقات الفراغ، يستطيع الفرد خلالها تثقيف نفسه، والانشغال باهتماماته، على سبيل المثال: يؤدّي عمله في الصباح، ثمّ يخرج وقت الظهيرة إلى الطبيعة، ويقرأ كتاباً. يجب أنْ تصاحب التغيّرات العلميّة والتقنيّة تغيّرات اجتماعيّة». وافق الصديق على ما قاله الاثنان، ولكنّه رأى أنّنا لمْ نتمكّن بعْد من التغلّب على ظلم الطبيعة؛ لذلك، يُعدّ دعم المساواة البيولوجيّة بين أعضاء المجتمع من الأهمّيّة بمكان؛ لا غنى عن الأمرين. أصرّ على حتميّة الاستمرار في المحاولة على المدى البعيد لخلْق ظروفٍ وراثيّةٍ مناسبةٍ ليطوّر البشر معطياتهم الطبيعيّة. الأمراض -تلعثم للحظةٍ، ومن الواضح أنّه فكّر في شتاينميتز المعوّق الجالس أمامه، فصاغ كلماته بحذرٍ أكبر- الأمراض التي يمكن اكتشافها قبْل الولادة، وبالتالي تجنّبها. شدّ كارل هاوبتمان ذقنه المدبّبة، وقال: «أجلْ، جرهارد هاوبتمان لمْ ينصت باهتمام، ولكنّه فسّر هذا المطلب برؤيةٍ خاصّةٍ مذهلةٍ: أجلْ، بالضبط. رائع! تربية بشرٍ يتّصفون بالجمال، والصحّة، والشكل اليوناني القديم، بمقياسٍ يونانيّ».

قال شتاينميتز بجفاء: «البشر ليسوا أرانب».

لمْ نواصل هذا الحوار في جلساتٍ تالية؛ لأنّني حين خرجت مع الصديق إلى شوارع بريسلاو ليلاً، تتبّعنا رجُلان بمعطفين طويلَين. كان

مستمرّاً في حديثه المتحمّس عن التربية والتقويم. توقّفنا عن السّيْر، فتوقّف الرجُلان أيضاً عن السّيْر. واصلنا السّيْر، فكانا خلْفنا مثل ملاكَيْن أسْودَيْن؛ إنْ توقّفنا توقّفا أيضاً، وتبادلا إشعال السيجارة، وإنْ واصلنا السّيْر، فَعلا الشيء ذاته. كان الاثنان مثل ظلّنا تحت الضوء الخافت لمصابيح الغاز. كانت المرّة الأولى التي يطاردني فيها أحدٌ ويراقبني. صرنا بحُكم قانون الاشتراكيّين تحت المراقبة، بوصْفنا قوى انقلابيّة.

-مقطع غير مفهوم-

بعد اغتيال القيصر فيلهيلم في عام 1878، أصْدر بسْمارك قانوناً يمنع عمل النقابات، والاجتماعات، والمنشورات الاشتراكيّة، والاشتراكيّة الاجتماعيّة.

ودّعنا بعضنا، لمْ نكن نعرف أنّنا لنْ نلتقي مرّةً أُخرى إلّا في زيورخ. ذهبتُ إلى المنزل، وجدتُ أمّي، التي كانت دائماً متماسكةً، وشاحبةً، ومضطّربة. شَعرها -الذي كانت وصيفتها ترفعه لها دائماً بعنايةٍ- انسدل على كتفيها. قالت: إنّ مأمور شرطةٍ قد حضر في المساء، وترك طلباً خطياً بضرورة حضوري في اليوم التالي إلى قسم الشرطة في الساعة العاشرة صباحاً». احتراماً للسيّد الوالد، ألزم المستشار التجاريّ بعدم القبض على الابن بالأصفاد. لمْ أكن قد بلغت السنّ القانونيّ بعد.

جلس الأب في حُجرة المكتب، وفي يده سيجار، وعلى منضدة التدخين الصغيرة المستديرة ذات القرص الخشبيّ الذي يعرض لوحة الشطرنج الكتاب الذي طلبه، ضخمٌ ووزنه ثقيل، ولا تزال فيه رائحة الصمغ من تجليده.

قال الأب: «انظر إليه بإمعان». لمْ يذكر أمْر المأمور.

تصفّحته، ولكنْ من دون تركيز. تأمّلت الرسومات الملوّنة باليَد. كان

كتاباً يعرض أنواع البطاطس المختلفة، وأشكال الزهور، والأغصان، والجذور.

قال: «ما أجمل هذا اللّون البنفسجيّ للدّرنة بعد قطعها! هذه الحلقات ذات اللّون الأحمر الرقيق التي يظهر نموّها، كم رسمها موفق!».

كان والدي مثل والده صيدليّاً، قام باختراعٍ شخصيٍّ؛ إنتاج كبسولات من الخضار المجفّف والفاكهة المجفّفة. كان يدير مصنعاً صغيراً ومربحاً، ويورّد خلاصة الخضار المجفّف إلى جيش بروسيا، على الرّغم من كونه ضدّ الجيش بوصْفه جمهوريّاً. من القصص التي رافقتني على مدار طفولتي، بسبب سؤالي المستمرّ عنها، أنّه ركض عام 1848، وهو تلميذٌ في المرحلة الثانويّة، إلى الثكنة في شارع فريدريش شتراسة، حيث رفع العلم بألوانه: الأسْود، والأحمر، والذهبي، وكان مثبّتاً في كارةٍ محمّلةٍ بالأحجار. في وقتٍ لاحقٍ، وفي يوم 24 آذار/ مارس، ركض سرّاً؛ لأنّ أباه المخلص للملك قد منعه، إلى القصر، حيث كانت جثامين الثوريّين القتلى مُسجّاةً. ظهر الملك فريدريش فيلهيلم في الشرفة، وعَلت أصوات جموع الناس الغاضبة: «اخلع قبّعتك!».

حدث ما لمْ يُتوقّع؛ بأمرٍ من شعبه خلع ملك بروسيا القبّعة، واضطرّ إلى الانحناء أمام الثوريّين القتلى؛ ما كان له بالغ الأثر في حياة أبي بأكملها.

-مقطع غير مفهوم-

صحيح. وضع أبي السيجار في المنفضة بحِرصٍ، وسحب كأساً، وصبّ الكونياك لي، كما زاد كأسه أيضاً: «دعنا نشرب نخب هذا البلد، ونخب الحُرّيّة، والعدالة، والأخوّة!».

أخذ سيجاره، وتأمّل عود الرماد الطويل، ثمّ سألني بعد مرور لحظةٍ ثقيلة: «هل ستبقى أم سترحل؟».

قلت: «سوف تأتي الشرطة، وتحقّق معكم».

قال بعد تأوّهٍ وتشويحٍ بيده: «ماذا عسانا نفعل حين يترك الصغار العشّ!».

لقد كنت محظوظاً في حياتي بأبٍ مثله. بهذه المناسبة، شكراً على القهوة؛ لقد كانت رائعةً وممتعة.

-مقطع غير مفهوم-

لا، أنا لا أدخّن، لقد توقّفت عن التدخين في أثناء السجن. كان أمراً بالغ الصعوبة، ولمْ أعُد إلى التدخين ثانيةً، فقط من أجل عدم التعرّض للإغراءات، واقتراف خيانةٍ بسيطةٍ من أجل عَرض سيجارة.

-مقطع غير مفهوم-

أبداً. ركبتُ في صباح اليوم التالي القطار المبكّر، وكان معي حقيبة، وما يكفي من النقود، إضافةً إلى عشرين عملةً ذهبيّةً على سبيل الاحتياط، كانت مسكوكةً برأس الملك العجوز المعروف باسم أمير المدافع، السيّد أولسن. حين هرب الأمير عام 1848، اختبأ خلف هذا الاسم في أحد المطاعم، ولكنّه عاد بعد ذلك، وأغرق الفرق الثوريّة في مدينة بادن في الدّم. قال الأب: «سيرافقك الآن، ابصق عليه».

كان قد أخرج العملات قبل حضوري من الخزانة.

- سوف تسير في طريقك الخاص.

- أجلْ، وصلت بلا مشكلات إلى زيورخ.

حين عاد الصديق إلى منزله في هذه اللّيلة، رأى إلى جانب المنزل في الظلّ حنطوراً أسود. كان المطاردون ينتظرونه هناك، تحت الأمطار المتساقطة. انعطف في شارعٍ جانبيٍّ، وذهب إلى الرفيق الإيكاريّ سيمون، يتبعه بالطبع الرجُلان بالمعطَفين الطويلَيْن. كنّا قد ودّعناه قبلها بساعة.

كان سيمون يقطن في حُجرةٍ كبيرةٍ في الدّور الأوّل من منزلٍ متهالكٍ آيلٍ للسقوط. أعطاه سيمون ماله كلّه، واقترض له مبلغاً صغيراً من جارٍ له يعمل خيّالاً. كان قد أساء بسبب قصّة حُبٍّ استعمال كلمة الشرف العسكريّة، فاضطرّ إلى ترك الخدمة العسكريّة، كما حصل الصديق لهذه الرحلة على زجاجة نبيذٍ مصنوعٍ من فاكهة القراصيا. نزل الصديق السُّلّم، في حين كان الرفيق سيمون خلف الستائر المغلقة في الغرفة المضاءة، يذهب ويجيء، محرّكاً يديه، ويمثّل نقاشاً عنيفاً على شكل لعبة الظلّ. غادر الصديق المنزل من بابٍ خلفيّ. ذهب إلى محطّة القطار، واستقلّ القطار الّليليّ المتّجه إلى لايتسيج، غيَّر مثلما فعلتُ أنا القطار في لايتسيج، ثمّ وصل قبلي بيومٍ إلى زيورخ، وكان لي شرف مساعدته ماليّاً في أيّامه الأولى هناك.

عادةً، كان الصديق الجادّ يضحك من هذا الموقف بشدّة: كيف وقف الرجُلان صاحبا المعطفَيْن الطويلَيْن أمام المنزل وسط الأمطار، وشاهدا لعبة الظلّ للنقاش الدائر.

-مقطع غير مفهوم-

تحوّل هو في زيورخ من الاقتصاد القوميّ إلى الطبّ، في حين قمتُ أنا بالعكس؛ بالتحوّل من دراسة الطبّ إلى الاقتصاد القوميّ. إذن، بعد تجربة زيارة الإيكاريّين تقاطعت خطواتنا المهنيّة.

كم كان حجم الاختلاف بين نتائج تجربةٍ مشتركةٍ! تمنّيت الوصول إلى المعرفة المتعلّقة بالقوى التي تدفع المجتمع إلى التماسك، أو التفكّك. ما قوى التماسك التي تدعم كيان المجتمع؟ كيف نغيّر الحال إلى الأفضل؟ كيف يمكن اكتساب رؤيةٍ تحجّم أنانية الفرد وتصحّحها؟ كيف يمكن لنا نشر هذه الرؤى؟ سمعت محاضراتٍ عن السياقات الاقتصاديّة، وعن التاريخ، وعن الثورات في فرنسا من 1789 وحتى 1830، وعن الدستور الأمريكيّ أيضاً.

على الرّغم من حضور الصديق في كلّيّةٍ أُخرى، فإنّني كنت قريباً منه بالقدْر الذي يسمح بالاستمرار في متابعة اهتماماته وأبحاثه.

بدأت أنا في هذه المرحلة بحثي عن المجتمعات الشيوعيّة في أمريكا الجنوبيّة، كما نشرتُ بحثي الأوّل الصغير عن الجماعات الدينيّة؛ كان إصداراً خاصّاً، تحمّل أبي تكلفته. أريد التأكيد على هذا الأمر مجدّداً: لولاه، ولولا فكره المنفتح والديمقراطيّ، لولا أبي، الذي كان معارضاً شديداً لبسمارك وسياسته المحافظة في بروسيا، ما كانت رحلتي الدراسيّة إلى أمريكا، ولا كانت فترة دراستي من دون ضغط الحصول على شهادةٍ في الإمكان. بالمناسبة، كان أبي يعرف خدمة التوصيل التي أقوم بها لصالح حزب العمّال الاشتراكيّ الذي كان ممنوعاً في الرايخ، وكان يموّلها، وهو على عِلمٍ بها. لمْ أكن عضواً في الحزب بعْد، وشخصاً غير مشكوك فيه، وتمكّنت من دفع تكلفة رحلات القطار بين زيورخ وبين أيسن من أموال الوالد. كان الصديق حينها قريباً من حزب العمّال الاشتراكيّ، ولمْ تكن هناك تفرقةٌ بين الاشتراكيّة وبين الشيوعيّة. جاء هذا الفصل الحاسم والعنيف في وقتٍ لاحق؛ اتُّهِمَ الرفيق هاينريش لوكس في بريسلاو بالتحريض على الاشتراكيّة، وحُكم عليه بالسجن لمدّة عامٍ من دون كفالة، في حين كنّا نحن نعيش في زيورخ في حُرّيّة، شأن الكثير من الاشتراكيّين. كان الصديق يزور بيبل، الذي تعرّفت إليه أنا أيضاً. كانت هناك حلقة نقاشٍ، وسُمح لي بالمشاركة، بمعنى: الإنصات إليهم. جلست، وسمعتهم يناقشون المشكلات السياسيّة الكبرى: قضايا الثورة، وقضايا العنف، وقضايا هدْم القانونيّة. كان للصديق مواقف اشتراكيّة حادّة. وقتها، كان هذا التباين واضحاً، يجب إضافة شيءٍ أساسيٍّ إلى التوزيع العادل للملكيّة، قانون داروين الانتقائيّ، الذي عدّه على تناقضٍ تامٍّ مع تكريس المساواة في

السياق الاشتراكي. تحدّث عن تقليل القوّة لدى من وقع عليه التأثير السيّئ لعمليّة الانتقاء السلبيّة. لا يكون البقاء للأقوى في هذه الحالة، بلْ للكثير من الضعفاء. الفكرة الاشتراكيّة، مساعدة الضعفاء، تعزّز هذا التطوّر. هذا الصراع من أجل البقاء، الذي تحوّلت بفضله حلقة الربط المفقودة إلى إنسانٍ يتوقّف، وتكون النتيجة باختصار حالة من التدهور التدريجيّ.

لمْ أشارك في حلقات النقاش سوى مرّةٍ واحدةٍ، حين تحدّث الصديق عن تجربتنا في جماعة إيكاريا، وكانت المرّة الأولى التي أعارضه فيه علناً، ليس بعُنفٍ، وليس بأسلوبه. إنْ سمع حُجّةً يراها مشكلة، ويقول بوجهٍ مكفهّر: «أعدُّ هذا خطأً، خطأً أساسيّاً». حينما يقُال رأيٌ لا يعجبه، تجد تعبير وجهه كارهاً ومُخيفاً. لمْ أتعلّم الإصرار على الاستمرار في خطّ تفكيري إلّا في أثناء رحلة العودة عبْر المحيط الأطلسيّ، كنت قبلها أتلعثم، وأضطّرب، وأنهي حديثي بعبارةٍ فارغةٍ؛ كي أسمعه بعد ذلك يتحدّث وحْده.

كان الصديق قد أنهى محاضرته الناقدة التي دعمها باستشهادٍ لماركس.

طلبت الإذن بالكلام، وشعرت بالدّم يتدفّق إلى وجهي، عندما وجّه الجميع أنظارهم إليَّ. بدأت متلعثماً ومتردّداً: إنّ نقد ماركس انصبّ على الاقتصاد وحْده. الطبع البشريّ الذي لا يتغيّر لا يُؤخذ هنا بعين الاعتبار: الرغبة في الامتلاك، والرغبة في الاحتفاظ، والرغبة في الاستمتاع. يمكن وصفها في أعنف صورها وصفاً سلبيّاً: الطمع، والبخل، والكسل. إنّها صفاتٌ رجعيّةٌ، مثل: الحُبّ، والغيرة، لا نملك التحكّم فيها بالإرادة والاقتناع إلّا بصعوبةٍ شديدة. في الحالات القصوى، تتحكّم هي فينا، وتستطيع أن تسلبنا حُرّيّتنا، ولكنْ هذه العواطف كلّها مهمّة، ونحتاج إلى تغييرها: وقتاً، وخبرةً، وإرادة. يجب أن نعيش هذا كلّه، ونجرّبه...

قال واحد: «آه. أنْ نجرّبه مثلما نجرّب البزّة عند الخياط. أين نحن هنا؟».

ثمّ هبّت عاصفةٌ من المصطلحات الاشتراكيّة: طبقة العمّال، المصالح الطبقيّة المحايدة، يجب قيادة المعركة على مستوى الجماعة، أو تركها إجمالاً، أماني المواطنين، وكان هناك مصطلح موقف البرجوازيّة الصغرى، كان هذا المصطلح يطلق في العشرينيّات على المثقّفين، كان مصطلحاً يحارب النقد في الصفوف الداخليّة. بسبب آراء سياسيّة مخالفة، اتّهم تيدي تيلمان -سائق عربة حنطورٍ، وعامل ميناء- أوغوست تالماير -عالم اللّغة الذي كتب رسالة الدكتوراه عن الضمائر الشخصيّة والملكيّة في مايكرونيزيا- بالانتماء إلى طبقة البرجوازيّة الصغرى المثقّفة.

كان النقد في دائرة بيبل قاسياً، ولكنّه لمْ يكن موجّهاً ضدّ أصلي البرجوازيّ على الإطلاق. يجب أن أنصف الصديق، لقد دعمني. لمْ يشارك قطّ في عواصف الاتّهام، إلّا إذا تعلّق الأمر بالتشكيك في نظريّاته العلميّة. أعْذرني، أنا مُرهقٌ، هل يمكن إنهاء حديثنا الآن؟

- كانت قصصاً شائقةً، أرجو أن ترتاح، أرجو إبلاغي بأيّ شيء قد تحتاج إليه.

- شكراً، شكراً.

ليندرهوف

جلس هانزن في التعريشة، وقرأ لألفريد بلوتز: الوضع الحاليّ للجنس الشماليّ، ووضعه العِرقيّ البيولوجيّ في المستقبل القريب، محاضرة ألقيت في منطقة نورديشر رينج ببرلين، في 29 آذار/ مارس 1935. ظهرت السيّدة زاكس، وأخبرته أنّه مطلوبٌ للحديث على الهاتف. ظنّ أنّ إدارته في ميونخ تريد سؤاله عن تطوّرات العمل، ولكنّها كانت مولي. تفاجأ بصوتها، فسألها كيف عثرت على رقم هاتفه.

- لم تصادروا دليل الهاتف بعْد. شكراً على القهوة، لقد تقاسمتها مع النساء في الشقّة. إنّهنّ يشكرنك أيضاً.

- عفواً، لا داعي للشكر.

قالت: إنّ الطقس جميلٌ، وإنّ مرتفعاً جويّاً يغطّي الشرق، والطقس سيبقى جيّداً. وسألته إنْ كان يرغب في القيام برحلةٍ إلى ليندرهوف، إلى القصر. إنّها رحلةٌ يحبّها الأمريكان.

كيف لها أن تعرف؟

كانت مرشدةً سياحيّةً لعقيدٍ كان مثقّفاً للغاية، وتريد أن تكون مرشدةً سياحيّةً له أيضاً، ولكنْ من دون مقابلٍ بالطبع. سألته إنْ كان منشغلاً.

- «لا». قالها سريعاً وبصوتٍ عالٍ: «أشكرك». سألها عن الوقت المناسب ليأخذها في الصباح.

كان سعيداً بأنّه سيراها مرّةً أخرى، وتملّكه في الوقت ذاته غضبٌ من ذِكرها عبارة «مثقّفاً للغاية» وسط الحديث.

تأخّر قليلاً؛ لأنّ دوريّةً للشرطة العسكريّة أوقفته، راجعوا بطاقته، وخشي أنْ يسألوه عن المستندات الخاصّة بالسيّارة، ولكنّهم لمْ يهتمّوا بالأمر. قيل عنه: «إنّه ألمانيٌّ متخفٌّ في زيّ ضابطٍ أمريكيٍّ، ويتجوّل داخل الطبيعة».

وقفت في الشارع أمام باب المنزل. ظهرت عبْر النافذة في الدَّور الثاني وجوه رفيقاتها في السكَن. ارتدت مرّةً أُخرى الفستان بزهور الخشخاش، والحذاء بالكعب العالي، مع الجوارب البيضاء الملفوفة إلى أعلى، وعلّقت على كتفها حقيبةً من الجلد.

ضحك حين فكّر في أنّها قد تسأله عن خلع الجوارب، أو ارتدائها. نظرت إليه مرتبكةً، ولكنّها لمْ تسأله عن سبب ضحكه، وهو بدوره لمْ يذكره لها.

أخذا في البداية الطريق السريع، ثمّ تحوّلا إلى الطريق الزراعيّ. كان منبهراً بالورود، وبنبات ابنة الراعي الذي كان ينمو بكثافةٍ على نوافذ بيوت الفلّاحين.

وجدا لافتةً ضخمة الحجم على القصر: مُغلق. من دون مراعاةٍ لاعتراض الحارس، تسلّلا إلى داخل ساحة القصر، بزّة هانزن الموحّدة حالت دون أيّ احتجاج. كان مفتاح القصر مع الموظّف المراقب، ولكنّه لمْ يكن موجوداً. أرشدته إلى الكشك البعيد قليلاً، المبنيّ على

الطراز الموريسكيّ. بابه مكسور، غالباً بفعل زائرٍ أمريكيٍّ غاضب، وهذه الأعمدة الذهبيّة الرقيقة، والبئر المزيّنة بالأهلّة الذهبيّة الصغيرة، والأقواس المزركشة، والنوافذ الزجاجيّة، في ضوء هذه اللّحظة بدرجات الأزرق والأخضر، والظلّة وتحتها عرش الطاووس. صاح هانزن بحماسٍ طفولي: «هذا مثل ألف ليلة وليلة، رائع!».

قالت: «أجلْ، ولكنّ الأمر الرائع أنّ الملك قد بناه وسط مشهد الخضرة المثاليّ هنا في بافاريا العليا. وضع الخَدمُ هنا -في الكشك على الطراز الموريسكيّ- صوراً حيّةً لأشخاصٍ متنكّرين في زيٍّ شرقيّ. إنّه عالمٌ خياليٌّ موجودٌ بقوّةٍ في الواقع».

قال: «إنّه يستطيع مصادرة الكشك، وإهداءها إيّاه، ولو لأمسيةٍ واحدة. بإشارة يدٍ صارمةٍ، أخرجَ الحارس الذي تبعهما من المكان. الشامبانيا هنا، وهنا مكاننا».

قالت ضاحكةً: «إنّ هذا المكان خشنٌ قليلاً، ولذلك تفضّل فندقاً تقليديّاً».

كان يلمسها باستمرارٍ في أثناء زيارة التفقّد، أمسكت هي مرّةً وحيدةً بذراعه اليسرى، وجذبته إليها. نظرت إليه في أثناء ذلك نظرةً منفتحةً ولطيفة. أجلْ، كانت لحظة سعادةٍ داخل هذا الكشك الموريسكيّ.

ذهبا بعد ذلك إلى فندقٍ صغيرٍ، (أنوار جبال الألْب).

قال: «لنشرب شيئاً». وافقت، وهُما الاثنان يعلمان أنّ الرغبة في الشُّرب ليست هي السبب الحقيقيّ.

كان حظر مبيت الضبّاط في الفنادق الألمانيّة سارياً، وكذلك مُنع أصحاب الفنادق من استضافة الضبّاط الأمريكان. لمْ يعبأ هانزن بهذه المحظورات كلّها، أزاحت الرغبةُ التفكيرَ في الممنوعات جانباً. ربّما جُرّد

من رتبته، ولكنّه لمْ يهتمّ في هذه اللّحظة. كما حالت الدولارات دون أيّ تردّدٍ مُحتملٍ عند صاحبة الفندق. تحدّثت مولي باللّغة الإنجليزيّة بأسلوبٍ يجعل أيّ متحدّثٍ أصليٍّ للّغة الإنجليزيّة يشعر بمستواها الضعيف. ولكنّها لمْ تُشعِر صاحبة الفندق البافاريّة بهذا كلّه. ظنّت أنّ أمامها زوجين أمريكيّين، أو عاشقين لا يطيقان انتظاراً.

طلب هانزن ماءً وكأسين من النبيذ الأبيض. تذوّقته مولي بعنايةٍ، وقالت: «إنّه ليس سيّئاً». صعدا إلى أعلى، إلى حُجرةٍ بخزانةٍ برسومٍ ريفيّة. تأمّلتها مولي بنظرةٍ خبيرة؛ إنّها قطعةٌ جيّدةٌ، برسوم مذهلةٍ، واختيارٍ موفّقٍ وواثقٍ للألوان، و بساطة الموضوع جميلةٌ أيضاً: صيّادٌ جائرٌ، وشابٌّ بشاربٍ أسْود يقف إلى جانب غزالةٍ اصطادها، يفاجئه حارس الغابة، ويطلق عليه النار من الخلف. تخرج في هذه اللّحظة من فوهة البندقيّة سحابةٌ صغيرةٌ من دخان البارود. على باب الخزانة الثاني مشهدٌ طبيعيٌّ بمنحدراتٍ صخريّة، وسيّدةٌ بالزيّ الشعبيّ. قالت مولي: «هناك الكثير من الخشب أمام الكوخ». ربّما هذا هو سبب رسم هذه البانوراما. يبدو أنّها زوجُ الصيّاد الجائر، أو حبيبته؛ لأنّها تقف رافعةً يديها بدراميّةٍ فوق رأسها، عند هاوية ستسقط فيها، بفمٍ مفتوحٍ، وصرخةٍ امتزجت فيها اللّذّة بالألم، مثل الصرخة التي خرجت من فم مولي، وهي مستلقيةٌ تحته، رفعت ذراعيها فوق رأسها، كأنّها تسقط أيضاً.

نزل هانزن مع مولي السُّلّم بعد مرور ساعتين إلى قاعة احتساء النبيذ، راقبتهما نظرات صاحبة الفندق المضطّربة. لا، بعد الذي سَمعته، وربّما لمْ تسمعه من قبل، كانت نظرةً صارمةً ورافضةً، ولكنّ الدولارات مغرية، سألت لذلك عن رغبة السادة في شُرب شيء.

- لا، شكراً.

رجعا إلى ميونخ، كانا يسبقان بين الحين والآخر عربات نقل الجيش. كان السائقون يلوّحون لهما، وينظرون من أعلى إلى مولي. ظلّ أحدهم يضغط على آلة التنبيه مصدراً نغمةً بموسيقيّة.

أراد هانزن العودة إلى المنزل المطلّ على البحيرة، وتناول العشاء معها، وأنْ تبقى هذه الّليلة، أن يقوم معها برحلةٍ طويلةٍ من دون مراقبة صاحبة الفندق.

أرادت هي العودة إلى المنزل؛ لديها مهامٌّ يجب أن تقوم بها، المتجر.

أصرّ على أنْ تحكي له الآن عن نوع المتجر، وإلّا سينزلها من السيّارة على الطريق السريع.

- إذاً، سأوقف أيّة سيّارةٍ من سيّارات النقل.

ولكنّها حكت بعد ذلك عن ورشة حياكة الملابس التي افتتحتها، وماكينات حياكةٍ ممتازة، وليست مسروقة، وثماني سيّدات يعملن في الحياكة، منذ بضعة شهور كنّ يَحكْن الزيّ الموحَّد للجيش النازيّ. عقدت صفقة مع المالك (استعملت الكلمة الإنجليزيّة ديل، مع التشديد المطوّل على نطق الياء)، بإمكانها جلْب قماش الحرير المستعمل في صناعة المظلّات، وحياكة الملابس من هذا القماش الذي يمكن تلوينه. القماش جيّدٌ، وخفيفٌ، وقويّ التحمّل.

- ألمْ يكن هذا مُلكاً للجيش النازيّ، وأصبح الآن، بعد مصادرته، تحت تصرّف الإدارة الأمريكيّة؟

قالت: «فلْيكن، صودِر الكثير: منازل، وسيّاراتٌ، ومراكب». نظرت إليه بنظّارة الشمس العاكسة، وعينيها الزرقاوين المضطّربتين. قالت: «إنّه شكلٌ من أشكال إعادة التوزيع. لمْ تعد الأمور ثابتةً مثل سابق عهدها، أو

كما ستكون قريباً. إنّها مرحلةٌ انتقاليّةٌ؛ نظامٌ قديمٌ ينهار وينتهي، وشيءٌ جديدٌ يتكوّن. إنّها مرحلةٌ مناسبةٌ للتخطيط. الأفق مفتوحٌ أمامنا. سيكون جيّداً إنْ حصلت لي على تصريح؛ أريد الذهاب إلى المنطقة الفرنسيّة، إلى فريدريشزهافن. المظلّات موجودةٌ هناك، وأنا في حاجةٍ إلى تصريحٍ لأحضرها إلى ميونخ».

- أنتِ تبالغين في تقدير نفوذي. أنا لست في الإدارة العسكريّة.

- فلْتحاول.

ساد الصمت منذ تلك الّلحظة. دخلا المدينة من ناحية الشرق، بدأت تظهر من دون أيّة ضواحٍ تقريباً. كانت تنظر في مللٍ إلى خارج السيّارة، بينما فكّر هو في كيفيّة الحصول على تصريح.

تصريح غير قانوني لنقل البضاعة؟ ليس من الصحيح القيام بهذا بالطبع، ولكنْ لا يوجد شيءٌ صحيحٌ في الحُبّ.

خرجت أمام منزلها من السيّارة، فتح حيّز الأمتعة، وأخرج كيلو من القهوة، وعلبة سجائر كاملة: «من أجل ملابسك المصنوعة من قماش المظلّات».

لمْ تطلب الهديّة، ولكنّها شكرته بطبيعيّة، كأنّه مراسلٌ تجاريٌّ يوصل لها بضاعةً مطلوبةً ومدفوعة. نظر إليها، وهي تمشي متّجهة نحو باب المنزل، سيقانها والجوارب البيضاء الملفوفة إلى أعلى. قرّر مع غضبه المتزايد من عجرفتها أنْ يطلب إليها في المرّة القادمة خلعها في الفراش.

-الأحد، 1 تموز/ يوليو-

نبات ابنة الراعي على النوافذ، وورود الفلّاحين في الحديقة. ما الشيء

المبهج في هذه الورود، وهذه الألوان الزاهية؟ ربّما هذا الشعور بالإثارة، وأنّ الأرض تتجمّل للسماء.

طُلب هانزن لتقديم تقريرٍ في المقرّ الرئيس بميونخ، في ثكنة ماك جرو في شارع تيجرنزيرلاند. على البوّابة لافتةٌ مكتوبٌ عليها: الحكومة العسكريّة الأمريكيّة. قادته سيّدةٌ برتبة رقيب عبْر الممرّات والسلالم، وقالت: «إنّ العقيد يجلس إلى مكتبٍ لهتلر».

جلس العقيد ميدلتون بالفعل خلف مكتبٍ ضخمٍ من خشب البلّوط الخالص، كأنّه تائه. سأله هانزن عن مكتب هتلر الحقيقيّ؛ إذْ كان ليو ألكسندر يجلس إلى واحدٍ أيضاً. ضحك ميدلتون، وقال: «إنْ صدّقنا الشائعات، فإنّ هناك المئات من مكاتب هتلر في ميونخ». هكذا يجمح الخيال، والسبب فيلم؛ إنّه المشهد الذي يجلس فيه بنزينو نابولوني إلى مكتب أدينويد هينكل في فيلم «الدكتاتور العظيم». أنت تعرف أنّ هتلر وموسوليني لمْ يقرآ الملفّات. اقتصر النازيّون والفاشيّون في حقيقة الأمر على العنف والشفاهيّة، يتكلّمون ويقنعون، ثمّ يتكلّمون ويقنعون، يتكلّمون، ثمّ يتكلّمون، وهُم سُكارى، وحين لا يكفي ذلك يضربون، ولكنّ الفروق بين النظام الفاشيّ وبين النازيّ مثيرةٌ للاهتمام: كان الأوّل أقلّ عنصريّة عن الثاني بتصوّراته الأسطوريّة عن الدّم والأرض، التي ترجع إلى العصور الوسطى، وكان الاثنان منفتحين على الهندسة، خاصّةً السيّارات والطائرات، ولكنْ لماذا التزم الشعب الألمانيّ طوال هذا الوقت؟ لماذا تحمّلوا القنابل؟ تخلّى الإيطاليّون في وقتٍ مبكّرٍ، وكان لديهم فدائيّون، وكانوا أكثر مرونةً، ويحبّون الاستمتاع بالحياة، ليس لديهم هذا الشوق إلى الموت والفناء. شعب النيبلونجن الذي يشرب في القاعة المشتعلة دَمه،

ولكنّهم يتشبّثون ببعضهم بوفاءٍ، حتّى آخر رجُلٍ. سماء إيطاليا أكثر إشراقاً، تشمّ في الخريف رائحة الحصاد في الهواء، ورائحة الأرض، وسيريس إله الخصوبة ليس ببعيد. درس ميدلتون في توبينجن، وعاش ستّة أشهر في فلورانس، حيث درس في الأرشيفات أسعار الفراء والحرير في عصر كوزيمو ميديتشي. لماذا قبل الألمان طواعيةً بأن يُطلق عليهم النار هذه المدّة كلّها؟ ولماذا أطلقوا النار على الآخرين؟ كان يقول عليهم جيرمان باللّغة الإنجليزيّة، على الرّغم من إتقانه الألمانيّة.

سأل ميدلتون هانزن عن سَير التحقيق مع معاون أستاذ عِلم تحسين النسْل. قال: «إنّه في حاجةٍ مُلحّةٍ إلى هانزن هنا في الإدارة». أخبره أنّ تنظيم المدينة يتّسم بالفوضى: لاجئون، ومصابون من قصف القنابل، ونازحون. يريد تعيين هانزن في مكتب تسجيل المواطنين، ومشكلات السكن، وتوزيع المواد الغذائية. مع حلول الشتاء سيكون هناك عجْزٌ في الخشب والفحْم. كيف يمكننا إدارة هذه المدينة بثلاثين، أو أربعين شخصاً، بدون الموظّفين الذين كانوا يقومون هنا بعملهم؟ معظمهم من النازيّين، منهم الصغار ومتوسّطو العمر، والكبار، في رؤيتهم لأنفسهم، وفي حجم تأثيرهم أيضاً.

تجوّل هانزن بعدها في المدينة، وجلس على دكّةٍ في الحديقة الإنجليزيّة. فكّر في أنّه مُلزمٌ بالإسراع في التحقيق مع الرجُل العجوز، ولكنّه عاد ليفكّر في المنزل والبحيرة، وفي مولي. أجلْ، هي تحديداً، ثمّ الرجُل العجوز في شقّته على السطح. لمْ يكن تصرّفاً منضبطاً أنْ يطيل التحقيق، الانضباط بمفهوم أبيه؛ إذْ يربط بين القيام بالواجب وبين الطاعة، هذه الطاعة التي تخلّى عنها هذا العجوز الغاضب منذ زمنٍ طويل. شخصٌ

ما على قمّة هذا الهيكل التنظيميّ الغامض قد كلّفه بهذا التحقيق، في حقيقة الأمر هديّة، فلِمَ لا ينهي التحقيق في هدوءٍ وبلا عَجَلة؟

خرج مع حلول المساء مرّةً أُخرى بالسيّارة إلى البحيرة. تجمّعت في الشمال سُحبٌ كثيفةٌ داكنة، يضيئُها البرق في بعض الأحيان. تساقطت لاحقاً قطرات الماء الثقيلة فوق لوح السيّارة الزجاجيّ. تُصدر المسّاحة صريراً. سار هانزن في اتّجاه الرعد البعيد.

جلس جورج على مقعدٍ ممدّداً ساقيه. دَعا هانزن بإشارةٍ بطيئةٍ وممتدّةٍ إلى الجلوس إلى جانبه. التقط زجاجة الويسكي، الفارغة تقريباً، عن الأرض قائلاً: «**انظر، نحن في حاجةٍ إلى تموينٍ جديد**».^

قال بلسانٍ ثقيل: «**لقد طردتها**»، جاءت وخلعت ملابسها تلقائيّاً، ثمّ استلقت، وفتحت ساقيها، وهو لمْ يكن قد خلع قميصه بعد: «أجلْ، لقد طردتها».^

- لماذا، ماذا قالت؟

- **في حقيقة الأمر لمْ تقل شيئاً. أجلْ، بالفعل لمْ تقل شيئاً. ببساطة، لقد طردت السيّدة الألمانيّة؛ لأنّها ترغب في سجائرنا.**^

جلس هانزن إلى جانبه. كان الباب المؤدّي إلى الحديقة، وساحة المرعى المنحدر، والبحيرة مفتوحاً. البرق والرعد قريبان على نحوٍ مفاجئ. ضغط على الصدر من شدّة التفريغ. تسلّلت الأمطار إلى داخل الغرفة. حينما أراد هانزن إغلاق الباب قال جورج: «**اتركه، المطر يغسل كلّ شيء**».^

حكى أنّه حضر في الصباح تحقيقاً مع البروفسور شيلينج، قامة طبيّة. كان شيلينج يجري تجارب على المسجونين في داخاو، سلسلة من

التجارب على النساء والرجال، يُحقنون بالملاريا والكوليرا. كان موتاً بطيئاً وأليماً؛ قرحاً وصديداً. من نجا من الموت لا يزال راقداً في مستشفى الجيش الأمريكيّ، في حالة ترهّلٍ، وجروحٍ لا تلتئم. كان جزءاً من التجربة أنْ تغذّى مجموعة تغذيّةً جيّدةً، في حين تعاني مجموعةٌ أُخرى من الجوع؛ يُمنع عنها الغذاء حتّى الموت. كان كلّ شيء محسوباً: عدد الشُّعرات، والحُقن، وقياس درجة الحرارة، والجداول. الأشخاص محلّ التجارب من البولنديّين، والروس، واليهود، لهم أرقام. تحوّلوا إلى بطاقاتٍ ومخطّطاتٍ بيانيّةٍ حتّى الموت.

حكى جورج عن الصور التي رآها؛ لأنّ هذه التجارب كلّها كانت مصوّرة. قال ضابط التحقيق، طبيب برتبة نقيب، لجورج: «إنّ هذا كلّه مريعٌ، ولكنّ النتائج غاية في الأهمّيّة، والتجارب مثيرةٌ للاهتمام، ولنْ نحصل على هذه البيانات سريعاً مرّةً أُخرى». قال لجورج: «إنّ عليه أنْ يحقّق مع الأستاذ الألمانيّ، ويضغط عليه في الأسئلة قبْل أن يُعدم»، وهو أمرٌ يأسَف له النقيب. لقد تخطّى الحدود قليلاً. صحيح، ولكنّه خَدم العلم؛ كان السجن خمس سنوات كافياً.

هذا أمرٌ يفوق الاحتمال. لقد قال ملاك التاريخ: «لمْ يكن كلّ شيء، حتّى أكثر الأشياء إفزاعاً؛ وارداً فحسْب، بلْ متحقّقاً أيضاً». قال جورج: «هذا عمل الآلهة باللّون الأبيض. تقريرٌ من مستشفى في منطقة كاوفبويرن، ليست بعيدةً من هنا: قتلوا هناك ألفاً ومئتي شخص، بالحقن وبمادّة اللّومينال. لقد قاموا بتحلية المادّة بعصير التوت للأطفال. حينما وصلنا، بعد مرور ثلاثة أشهرٍ على الاستسلام، كانوا مستمرّين في هذا العمل، يقتلون من لا يستحقّ الحياة. قتلة عن قناعة. هؤلاء الألمان يشعرونني بالغثيان، ولا تقلْ لي إنّ هناك استثناءات».

«انظر إلى شهادات الوفاة، هذا الشابّ الصغير جريمته أنّ والده كان بائعاً متجوّلاً من الغجر. لقد كان هذا الطفل في الرابعة عشرة من عُمره. لمْ أنسَ اسْمه قطّ: إرنست لوسا».

إليك شيئاً سيساعدك على النوم.^

شهادة وفاة، وتاريخ المرض، شهادة ممرّض:

أُقرُّ في حالة لوسا بما يلي: تكرّر التعليق على حالة لوسا أنّه لا حاجة إليه، وأنّه غير قابلٍ للتحسُّن. جاءت هذه التعليقات على لسان د. فالتهاوزر، وكذلك فريك، بهدف إخباري بضرورة التخلُّص من لوسا بمادّة اللّومينال. كنت رافضاً للفكرة؛ لأنّ لوسا كان أكثر المرضى قرباً إلى قلبي. صحيحٌ أنّه كان يسرق كلّما جاءته الفرصة، ولكنّه، على الجانب الآخر، كان خدوماً ولطيفاً، وكنت أحبّه لذلك. تكرّر سؤال د.فالتهاوزر عن إمكانيّة إعطاء لوسا اللّومينال، وكذلك فريك؛ إذْ لا مكان له هنا.

كُلّفتُ مع بداية آب/ أغسطس 1944 -لا أتذكّر التوقيت تحديداً- بالخدمة اللّيليّة. بلّغني سكرتير التمريض هولسمان أنْ أُعطي لوسا في أثناء الخدمة اللّيليّة لوميناﻻً. كان فالتهاوزر قد تحدّث إليّ قبلها في الأمر، وكيفيّة التعامل «لأهدّئ» الصبيّ. كان هذا هو سبب تكليفي بالخدمة اللّيليّة. قلت للوسا قبلها بليلة: «يجب أنْ تذهب اليوم إلى قِسم الأطفال، سوف تأخذ حُقنة تيفوئيد». حصل لوسا بعدها على فِراش طفل. حقنته الممرّضة باولين كنايسلر حقنةً في أثناء نومه، في حضوري أنا وفريك، في الأغلب بمادّتَيْ: المورفين، والسكوبولامين. أعدّتها الممرّضة بنفسها. استيقظ لوسا في أثناء إعطائه الحُقنة. لمْ يقاوم تقريباً، ولمْ يتعيّن الإمساك به؛ إذْ قيل له إنّها حقنة تيفوئيد. كان لوسا يخاف من تيفوئيد. لمْ أعطِ لوسا

في هذه اللّيلة اللّومينال الذي كان من المفترض أنْ يأخذه؛ لأنّني أعلم أنّه كان سيرفض. لمْ يكن العنف معه مُجْدياً؛ لأنّه قويٌّ، وسريع الحركة.

حاولت قبل ذلك، بتكليفٍ من الدكتور فالتهاوزر، وبِعلم فريك، إعطاء لوسا اللّومينال. أخفقتْ هذه المحاولة. جاءت من هنا فكرة إعطائه الحُقنة.

صرّح كلٌّ من الدكتور فالتهاوزر وفريك بضرورة التخلّص من لوسا. كان ردّي أنّ اللّومينال لنْ يُجدي. بناءً على اقتراحي، نوقش إعطاء لوسا «حُقنة تيفوئيد». أصحّح: فريك هو الذي اقترح إعطاء لوسا الحُقنة. ناداني فريك في هذه اللّيلة لأمسك بلوسا إنْ قاوَم. حين ذهبت إلى غرفة الأطفال، كانت كنايسلر وفريك هناك بالفعل. أكرّر أنّ كنايسلر قد أعطت لوسا في حضوري أنا وفريك الحُقنة. انصرفنا جميعنا بعد ذلك. مات لوسا في اليوم التالي.

اليوم السابع

غطّت اليوم وقت الظهيرة طبقةٌ ناعمةٌ من الرمال باللّونَين: الأصفر، والبنّيّ زجاجَ السيّارة.

قلّما، من حينٍ إلى آخر، تحمل الرياح الجنوبيّة رمال الصحراء إلى ميونخ. سينقلب الجوّ. انظر هنا إلى مقياس الضغط الجوّيّ.

-مقطع غير مفهوم-

- لا، شكراً، الأفضل في هذه الحالات هو الأسبرين. لا يزال شراؤه مُتاحاً. شكراً.

- قرأت يوم الجمعة عن صبيٍّ اسْمه إرنست لوسا، ابن بائعٍ متجوّل. لقد قُتل في مستشفى في كاوفبويرن. لم يكن لديه أيّة مؤشّراتٍ للبلاهة. كان كافياً أنّه مختلف. لقد حقّق زميلي جورج مع الأطبّاء في قِسم الطبّ النفسيّ بكاوفبويرن. استمرّوا في عملهم حتّى الصيف. كانت مستنقعات للقتل. كيف ترى موقف بلوتز من هذه الحالات؟

- أرجو أنْ يكون ما سمعته من البروفسور لينس صحيحاً، أنّ بلوتز قد ساند الزملاء اليهود في أثناء الاضطهاد النازيّ لهم، ولكنْ لا أظنّ أنّه كان سيدافع عن ابن البائع الجائل لوسا، وبالتأكيد لمْ يكن ليدافع عمّن

وصفهم كارل بيندينج وألفريد هوخة بأنّهم غير صالحين للحياة. أطلقوا عليهم الكائنات المُثقِلة.

واجهتُ هذه الرؤية لأوّل مرّةٍ في سويسرا؛ تجمّعنا واحداً تلو الآخر هناك، جاء الإخوة هاوبتمان، وكذلك سيمون ولوكس، ودارت النقاشات مع مجموعةٍ أُخرى حول عالمٍ آخر، عالمٍ أفضل، وأكثر عدالةً وجمالاً، مع فرنك فيديكيند، وريتشارد أفيناريوس، والمختصّ النفسيّ أوغوست فوريل، الذي كان له دورٌ حاسمٌ بوصْفه معلّماً للصديق. تجمّع حول هذا الرجُل صاحب الكاريزما، الطبيب، والمختصّ النفسيّ، وعالِم النمل، الطلابُ أصحاب الرؤية الثوريّة.

كان فوريل، الذي يطالب بالامتناع الصارم عن الكحوليّات، وكذلك بحقوق المرأة، هو رئيس قسم الطبّ النفسيّ بمستشفى الجامعة. لمْ أحضر حلقات النقاش جميعها، ولكنْ كنت غير مرّةٍ ضيفاً، فتابعت اهتمام المشاركين بعِلم الوراثة. كيف يمكن التحكُّم في الأجيال القادمة داخل الأُسرة، والشعب بأكمله أيضاً؟ حين يتضاءل الصراع من أجل البقاء داخل المجتمعات المدنيّة، هل يمكن تعزيز الجيّد من النسْل، ومنع الرديء؟

أعرف تحديداً متى سمعت مصطلح القتل الرحيم، ليس بالمعنى المعجميّ. كلمتي: (eu) و(thánatos)؛ أي: الموت الجميل، أو الناعم، عرفتهما بفضل تعلُّمي الّلغة اليونانيّة في المدرسة الثانوية. أقصد هنا الإمكانيّة الفعليّة، وأؤكّد على الفعليّة؛ لأنّ الاستعداد للقتل مطلوبٌ في هذا السياق. أخذني الصديق معه إلى المستشفى، مبنى يذكّرك طرازه المعماريّ بعصْر النهضة. يقع بالقُرب من ربوةٍ مزروعةٍ بالعنب، وتكسو قمّتها أشجارُ الزان والشُّجيرات الصغيرة، ويُطلق عليها «غابة الحصن الصغيرة». هذا المصطلح المعبّر والسهل أطلقته العامّة على مستشفى

الأمراض العقليّة. قابلت الدكتور أوغوست فوريل أوّل مرّة هناك. كان الإعجاب بهذا الرجُل واضحاً على بلوتز الواثق بنفسه عادةً، الذي بدا الآن متحفّظاً. قدّمني إلى فوريل. كان البروفسور في منتصف الثلاثينيّات، جسده مستقيمٌ، وله لحيةٌ صغيرةٌ بانحناءاتٍ، وشَعر الذقن والوجنتين مجعّدٌ قليلاً. كانت عيونه البنيّة لافتةً للأنظار؛ له نظرةٌ متأمّلةٌ وهادئة. لمْ يكن متعجرفاً كعادة أساتذة الرايخ الألمانيّ. مدّ فوريل يَده إليَّ بابتسامة مجاملة، وقال: «ربّما احتسيت اليوم، مثل معظم الطلاب، وقت الظهيرة، كأسَ النبيذ. أرجو بعد جولتك هنا أن تبتعد في المستقبل عن هذا الفعل. سيقوم مساعدي، الدكتور برينر، بإرشاد حضرتك وبلوتز، الذي أقدّره، عبْر المكان». أشار إلى رجُلٍ متوسّط الطول، وتكسو وجهه لحيةٌ سوداءُ كثيفة: «عزيزي برينر، فلْتكن شخصيّة «فيرجل»، واعْرِض على هذا الشابّ الحالات البائسة. انظروا إلى ما يصنعه الكحول بالبشر. انظروا بدقّة». قال ما قاله بصوتٍ رخيمٍ، يُظهر رقّة لغته الفرنسيّة الأمّ.

ارتدى الدكتور برينر معطفاً مصنوعاً من قماشٍ أسودَ لامع. غريبةٌ هذه التفاصيل التافهة التي تعلّق بأذهاننا! كانت أكمام المعطف مشدودةً بشريطٍ مطّاطيٍّ عند مفاصل اليَد، وكان المعطف الأسْود غريباً، تماماً مثل التحيّة اللّطيفة التي خرجت من وسط اللّحية السوداء الكثيفة.

قال للصديق: «زميلي، أنت تعرف الأقسام جيّداً. نريد أنْ نعرض على الضيف الشابّ الحالات البسيطة أوّلاً، ترجع أسبابها إلى الإفراط في تناول الكحول، وهي حالاتٌ يُفترض ألّا تكون موجودةً، ولكنْ يكمن تفسيرها في تعاسة هؤلاء الأشخاص الذين سيطر عليهم الإدمان».

قادنا إلى قاعةٍ، كانت حيطانها مدهونةً بلونٍ زيتيٍّ، وأصفرَ، وأبيضَ، قابلٍ للغسل بالماء. كان هناك ثلاثون سريراً. جلس ممرّضٌ، ضخم

الجثّة، وعريض المنكبَيْن، على مقعدٍ موضوعٍ فوق منصّة، كان يرى من هناك الأسِرّة. سمعت قبْل دخول القاعة هذه الأصوات، عدداً متنوّعاً من الأصوات الغريبة: صرخات عاليةً، وتأوّهات متكرّرةً، وأنيناً منتظماً، وأحاديثَ جانبيّةً رتيبة، وشخيراً عميقاً، وسمعتُ أيضاً صوتَ قَرْقرة.

قال طبيبٌ شابٌّ مرّ من جانبي: «أهلاً بك في آفات البشريّة».

قال بلوتز: «لا، نحن هنا أمام إخفاقٍ للإرادة الحُرّة. لسنا مُجبرين على الشُّرب». كان يُحمّل العقل والإرادة مسؤوليّة كلّ شيءٍ، ويرى في مبدأ السبب والتأثير أساس كلّ شيء؛ لذلك، لمْ يكن قادراً على تصوّر أنّ هناك لذّةً في نسيان النفْس، أو التدمير التدريجيّ للنفْس. شعورٌ داخليٌّ بعدم القدرة على الإدراك في المستقبل. لمْ يرَ الصديق في الإدمان نوعاً من الاستمتاع بقتل الذات، بل عدَّه عدم تحمُّلٍ للمسؤوليّة تُجاه النفْس، وتُجاه الآخرين، بلْ المجتمع بأكمله أيضاً.

جلس في القاعة التالية رجالٌ متقدّمون في العُمر فوق المقاعد، يرتدون قمصاناً قطنيّةً طويلة. ارتدى بعضهم المرايل، وكان اثنان من الحرّاس يقدّمان لهم طعاماً مهروساً: عجوزٌ بذقنٍ رماديٍّ كان يشرب من كوبٍ مخصّصٍ للأطفال. محاولاتٌ للشُّرب، لُهاثٌ، ثمّ يسيل الشاي من فَم بلا أسنان. أجواءٌ تذكّرك بالحضانة، مع الفارق في الصمت السائد هنا، الذي كان يتخلّله أحياناً أصوات المضْغ والتجشّؤ. رجُلٌ وحيدٌ نظر إلينا لوهلةٍ، ظلّت صورته عالقةً، أدار رأسه على مهلٍ إلينا، وظهر في نظرات عينه للحظةٍ اندهاشٌ وتساؤلٌ، ثمّ تاهت نظراته مرّةً أُخرى. انتشرت رائحة البول والبراز. قال الدكتور برينر: «إنّ المرضى في حاجةٍ إلى عَونٍ في استعمال المرحاض. هؤلاء يمثّلون الفئة اللّطيفة المتقدّمة في العمر التي أصابها الخَرَف».

قال الدكتور برينر: «فلْنذهب الآن إلى الدائرة الأخيرة، والأكثر عُمقاً».

قادنا إلى قاعةٍ تشبه القاعة السابقة، ولكنّ الّلون الزيتيّ للحيطان كان قد تقشّر في مواضعَ كثيرة. مجموعةٌ من المرضى يتراوح عددهم بين العشرة والاثني عشر، راقدون فوق الأسِرّة، أربعةٌ منهم مربوطون إلى دككٍ مبطّنةٍ، وثلاثةٌ آخرون مربوطون في كراس. أوضح برينر بهدوءٍ، وبلهجةٍ ألمانيّةٍ معتادةٍ في جنوب غرب ألمانيا: أنّ هؤلاء من المختلّين المصابين بمرضٍ نفسيٍّ حركيّ. قادنا إلى فِراشٍ يجلس عليه رجُل. لمْ يكن للرأس الصغير عيون. قال صاحب الذقن الأسْود: «مرض صغر الرأس». كان الرجُل مربوطاً في الفراش، يتأرجح يميناً وشمالاً، ويضرب رأسه بانتظام، بعد تأرجحه مرّتين جانب الفراش المبطّن.

يجب أن نجدّد هذا الجزء المبطّن كلّ أسبوعين؛ لأنّ النسيج يتهتّك حتّى طبقة الخشب الداخليّة. حاولنا استعمال واقٍ للرأس، ولكنّه بدأ في الصراخ من دون توقّف. وجدنا في هذا حلّاً مبدئيّاً. من يرقد هنا نقدّم إليه الطعام، والغسل، والمساعدة لقضاء الحاجة. أيّ نوعٍ من التفاهم مع هذه الكائنات مستحيل.

- الشفاء؟

- مستحيل.

قال الصديق في هذه الّلحظة: «مع أخذ مصلحة المريض في الاعتبار، لا يمكن رفْض فكرة الموت الرحيم؛ سنرحم المريض، وكذلك المجتمع. نحن في حاجةٍ إلى ثمانية ممرّضين لهؤلاء المرضى العشرين، ولكنّ المسيحيّة قد أقامت متراساً أمام فكرة الموت الرحيم؛ لأنّها تنظر إلى الحياة البشريّة بوصْفها حياةً في حدّ ذاتها، ولا تسأل إنْ كانت هذه الحياة ترى نفسها كذلك أم لا».

عارضَ صاحبُ الذقن الأسْود: «يُخلق هؤلاء، بوصْفهم حالاتٍ شاذّةً عن الطبيعيّ، كينونة ومعنى لحياتنا نحن. هُم المهزومون، ويعلّموننا التواضع. حياتنا البشريّة هديّةٌ، سواء جاءت عبْر الخلْق أم التطوّر، ويجب علينا الحفاظ على هذه الهديّة. هُم ملائكة الألم، الذين يعلّموننا معنى السعادة، كما يغلّفون سعادة الحياة الناجحة بحُزنٍ، حزنٍ دفين. لا يمكن أنْ تكون هناك سعادةٌ حقيقيّةٌ في ظلّ معاناة الآخرين. إنّهم يعبّرون بتعاستهم عن الكرامة المهدّدة، وتَفرُّد الحياة. يحملون داخلهم، من دون وعيٍ منهم، هذه الرغبة المهدّدة في الصحّة والسعادة. المحمّلون، والضعفاء، وأصحاب الألم».

فكّرت كثيراً في هذه الزيارة، وأدركت لاحقاً الاختلاف الجوهريّ بين هذين الطبيبَيْن: صاحب الذقن الأسْود، الدكتور برينر، والصديق، الطبيب الناشئ؛ لأنّه أظهر حينها أنّه يفتقد شيئاً مهمّاً، التواضع تُجاه الحياة، وتُجاه وجود كلّ فردٍ، وتُجاه الانفراد. إدراك أنّ دنيتنا هذه مخلوقةٌ يجلب معه هذا التواضع. ليس فكر الانتقاء، وما يترتّب عليه من منطق أنّ الأقوى هو صاحب الحقّ. ليس بالضرورة أنْ يأتي هذا التواضع على أساس الإيمان. أنا أيضاً أقف في الظلام وغير قادرٍ على الإيمان، ولكنْ بسبب التفرُّد وفناء الكائنات يجب أنْ يُلزمنا هذا التواضع بالدفاع عن الحياة. إنّه الرباط الذي يربطنا. الصديق الموهوب، والصديق الباحث عن العَظَمة، كان ينقصه هذا التواضع، والصبر على الشفاء، وصاحَب نوعٌ من القلق رؤيته العامّة. لمْ يكن الفرد بؤرة اهتمامه، بل الشيء الأكبر والأشمل: البشريّة. لاحقاً، ظهرت في أحاديثه كلمة أُخرى؛ العِرق، قسّم البشريّة إلى أعراق: السُّود أصحابُ القيمة الأقلّ، والقيمة الأعلى للجنس الآريّ، والعِرْق الشماليّ. نتجت عن كلمة عِرْق كلمة شعب، وعن كلمة شعب

ما لا ينتمي إلى الشعب، لا شَعب، ثمّ كلمة الضارّ بالشعب، ثمّ مكافحة مسبّبي الضرر للشعب. إنّه احتقارٌ لغير الكامل، وازدراء محدودي النجاح، وتقديرٌ متزايدٌ للفائقين. لمْ يكن غريباً أنْ يتجاهل الصديق، الذي كان حينها صديقاً، علاج الفرْد، لصالح القضيّة الكبرى؛ أي: التربية وتحسين النوع. صار بذلك مالكاً لآلاف الأرانب التي كانت تُذبح، ويُكشَف على تركيبات الدماغ والخلايا الجرثوميّة، ثمّ توضَع في محاليل كحوليّة. صار المريض نفسه تركيبةً طبّيّة. أدّت كلمة تحسين النسل إلى إنسانٍ خارقٍ يرتدي بزّةً موحّدةً باللّون البنّيّ. عُقد الاتفاق: بتنظيمٍ من الدولة، وبتأمينٍ قانونيٍّ قُتلت الحيوات التي وُصِفت بأنّها لا تستحقّ الحياة. الأطبّاء المتمرّسون في هذا الشأن رحلوا لاحقاً إلى الشرق، إلى مصانع الموت.

بقي الأطبّاء في هادامار، وفي مستشفياتٍ أُخرى، وهرب بعضهم الآخر، وواصلوا عملهم. أصيب البروفسور لينس في عام 1944 في معهده للأنثروبولوجيا بحالة اكتئاب. ليس هذا غريباً؛ إذْ وصل الجيش الأحمر إلى حدود بروسيا الشرقيّة. هرب لينس إلى الشمال، إلى مونستر. هناك آخرون، كانوا قد شاركوا في عمليّات القتل مباشرةً، مثل: البروفسور هيرت، أدخلوا أنفسهم في مستشفياتٍ للطبّ النفسيّ، ورقدوا وسط المرضى، قبلها بأسبوعين كانوا على وشك إرسال هؤلاء المرضى إلى غُرف الغاز.

الذين أرادوا إنشاء الإنسان الكامل يهربون الآن. الطبيب، الذي كان أمس يرتدي البزّة السوداء لعقيدٍ في مجموعة العاصفة (الإس إس)، بإكليل الغار الفضّيّ على ياقته، يرتدي اليوم الزيّ المدنيّ ويهرب. كلّ شخصٍ في الرايخ كان يعرف أنّ المستشفيات تعلوها أعمدة الدخان، وهي أماكن كان يُقتل فيها البشر.

أجلْ، فكّرتُ كثيراً في الحديث الذي دار في المستشفى في زيورخ، وفي هذا الطبيب ذو الذقن الأسْود، الذي قال: «إنّ هؤلاء المشوّهين يظهرون في تعاستهم سعادتنا. هؤلاء التعساء أبرياء. هُم جزءٌ من معجزة الحياة. لقد قتلوا باسم الحياة الطبيعيّة، قوّة الصحّة والنشاط، ولكنْ أيّ نشاط هذا؟ ما هدفه؟ نشاط يسعى إلى القتل! يميل هؤلاء الجُناة الآن، إلى عدم تحمُّل المسؤوليّة. يجب أن تتخيّل هؤلاء الآلهة بالمعاطف البيضاء، وهُم يقرّرون بعلامةٍ صغيرةٍ من يعيش ومن يموت. كان كلّ مُحَكِّمٍ يحصل على ثلاثين فينيجاً مقابل وضْع علامة. توضع العلامات سريعاً في كثيرٍ من الأحيان. الآن، يتخفّون هُم في شكل مرضى على أسرّة المستشفيات، يختبئون بجُبن».

- هل شارك بلوتز؟

- لا، لمْ يشارك. ليس مباشرةً على الأقلّ. لمْ يمسك بالحقنة، ولمْ يضع علامات. يُقال إنّه اعترض على مطاردة العلماء اليهود. ربّما اعترض، ربّما ساعد، مثلما ساعدني على الخروج من المعتقل من خلال اتّصالاته. لا أعرف. كان قادراً على الإمساك بسمّاعة الهاتف، والاتّصال بوزارة الخارجيّة؛ لأنّ له تلميذاً يجلس هناك، أو تلميذ تلميذه.

-مقطع غير مفهوم-

اسمحْ لي بإنهاء حديث اليوم.

هامبورغ، شارع إيبندورفر فيج 97

حصل هانزن على موافقةٍ للسفر إلى هامبورغ. عندما توجّه بطلبه إلى العقيد ميدلتون، أجابه: «فهمت، إنّها رحلةٌ عاطفيّةٌ، حسناً. ربّما نجد سبباً رسمياً نربط به الرحلة، أنْ تتفقّد آليّات الزملاء الإنجليز في تأسيس شبكةٍ إذاعيّةٍ في المدينة. قدّموا بعد يومين من الاستسلام محطّة «راديو هامبورغ»، بمعلوماتٍ موضوعيّةٍ صحيحةٍ؛ أمّا فريقنا نحن، فمعقّدٌ ومتردّد، بصَرف النظر عن الرائد هابة، هذا المتلاعب القادم من فييناّ الذي حدّد المجال من خلال اهتماماته الأدبيّة والعاطفيّة أيضاً».

استقلّ هانزن قطار مصلحة الجيش الأمريكيّ إلى بريمرهافن. كان القطار مخصّصاً للمنتمين إلى الجيش الأمريكيّ فقط. رحلات مريحة، لا تقارن برحلات القطارات الألمانيّة، التي كانت تعجّ بالبشر الواقفين في منصّة الركوب، وبعض الجالسين فوق أسطح العربات.

جلس في مطعم القطار، وتناول مشروب «بلو مون». النادلون الألمان بسُتراتٍ بيضاء ناصعةٍ يقدّمون البَيْض والنقانق. كثيرٌ منهم كان في مهامّ عمل، ولكنّ بعض الضبّاط كانوا متّجهين إلى الوطن، وكذلك بعض السيّدات العاملات في الفريق الطبّيّ العسكريّ، أو في الإدارة العسكريّة.

تصدر الموسيقا عن مشغّل الأسطوانات، بعضهم يرقص، وبعد المرور بهانوفر وغروب الشمس كان الجميع، ومعهم هانزن، يغنّي «لا تحتجزني». كانت تشبه رحلة عطلةٍ، ويبدو أنّها كانت كذلك بالنسبة إلى الأغلبيّة.

قضى هانزن الّليلة في دار ضيافةٍ للضبّاط الأمريكان، وحصل في اليوم التالي بأمرٍ من القيادة على سيّارة جيب بسائق. كان فريد رجُلاً قليل الحديث من مقاطعة فينيكس، ولذلك تمكّن هانزن من تأمُّل الطبيعة والقرى، بحثاً عن ذكريات من دون إزعاج.

كان المُشاة على الطرقات الزراعيّة يشبهون هؤلاء الذين رآهم قبل ثلاثة أشهر، حينما سافر من ميونخ إلى فرانكفورت. صفٌّ لا ينتهي من المشاة في الاتّجاهين، حقائبهم على ظهورهم، وبعضهم يجرّ عربةً خشبيّةً صغيرةً. تذكّر هانزن حينها اسْم العربة بالّلغة الألمانيّة في طفولته. بعضهم الآخر كان يجرّ الدرّاجات المحمّلة. كانوا في الأغلب لاجئين من الشرق، ومنهم بعض أسْرى الحرب، فرنسيّين وبلجيكيّين، بقوا في ألمانيا لأسبابٍ شتّى مدّةً أطول، في الأغلب بسبب الحُبّ. لا يزال هؤلاء الذين نُقلوا قَسْراً للعمل في السُّخرة من أوروبّا إلى الرايخ يبحثون عن طريق العودة إلى الوطن، في الغرب والشرق، أو الجنوب.

عَبَروا جسْر نهر الإلبة، وغمرت السعادة هانزن لحظة رؤية الميناء، وأبراج الكنائس، خاصّةً القبّة الخضراء لكنيسة ميخائيل، سعادة كادت تجعله يصيح فرحاً، كما كان يحرّر قلبه، وهو طفلٌ بهذه الصيحات في لحظات المفاجآت السعيدة، ثمّ صاح بالفعل، ونظر السائق القادم من فينيكس إليه نظرة قلق.

اضطرّ هانزن إلى السؤال عن شارع نونين شتيج، حيث يقع الفندق المخصّص لضبّاط قوّات التحالف. لم يتعرّف مركز المدينة الذي عرفه في الطفولة؛ تحوّلت إلى أطلال.

ذهب في المساء نفسه إلى أيمزبوتل، وطلب إلى السائق إنزاله عند جسر إيزابيك، ثمّ الانتظار هناك. سار في شارع أوستر، الذي كان سابقاً طريقه إلى المدرسة. اتّجه إلى منزل والديه، الذي كان يعرف أنّ القنابل قد دمّرته. لمْ تكن رؤية الضبّاط بالزيّ الموحّد الأمريكيّ معتادةً في مدينةٍ محتلّةٍ من الإنجليز؛ لذلك كان المارّة يمعنون النظر إليه بفضول. وصل إلى محلّ سمك السيّد جرون، الذي كان يراقبه، وهو طفلٌ، حينما كان يرفع بشبكةٍ سمك الشبّوط المضطّرب من الحوض، ثمّ يقتله بضربة نبّوت، أو ربّما كان يخدّره، ليفتح بعد ذلك السمك بسكّينٍ مسنونةٍ بنعومةٍ، ويُخرج أحشاءه من البطن الأبيض. وقف جرون بمئزره المطّاطيّ أمام الحوض. لمْ يكن فوق ساحة البيع سمك شبّوط، ولا سمك موسى، ولا فلاوندر، ولا سمك الهلبوت، ولا السمك المخلّل الملفوف، إنّما بعض أسماك الرنجة المملّحة فقط. نظر جرون إلى هانزن بفضولٍ عبْر نافذة العَرض، ولكنْ من دون أن يتعرّف إلى ميشائيل القاطن في شارع أوستر، ثمّ وجّه جرون نظره إلى حوض الماء الخاوي.

واصل هانزن السَّير، ومرَّ من أمام متجر ليمان للأجهزة الكهربائيّة، الذي كانت نافذة عَرضه المكسورة مغلقةً بالألواح الخشبيّة والمسامير. كان هناك نزاعٌ بين عائلتيْ: هانزن، وليمان. مُنع ميشائيل من زيارة عائلة ليمان، واستمرّ النزاع بعدم توجيه التحيّة، ونسي سببه، ربّما لمْ يعرفه قطّ. رأى متجر المصنوعات الجلديّة «إسرائيل»، وفيه حقيبتان من الكرتون. كتبت العمّة في خطابٍ إلى نيويورك أنّ لافتةً في نافذة العَرض كان مكتوباً عليها في عام 1933: «على الرّغم من الاسْم، فالمالك من العرق الآريّ النقيّ». على الناحية المقابلة متجر فراءٍ لمالكه أندرسون، أدولف أندرسون، الذي حضر في عام 1930 إلى منزلهم، مرتدياً الزيّ الموحَّد

لمجموعة العاصفة، والحذاء العسكريّ اللّامع، ثمّ تشاجر مع والده بسبب قضايا سياسيّة، الوالد الذي انتخب حزباً قوميّاً ألمانيّاً، وأدولف أندرسون الذي كان ينتخب منذ العشرينيّات الحزب النازيّ. في نافذة العرض عروسٌ بقَصّة شَعرٍ قصيرةٍ وعيونٍ زرقاء، ووُضع على صدرها فراء. على اللّوح الزجاجيّ الخاصّ بنافذة العَرض لافتةٌ مكتوبةٌ بخطّ اليَد: «تعديل وتصليح أنواع الفراء جميعها، سريعاً وبأسعارٍ رخيصة». وقف أندرسون خلف الجزء الممتدّ من المتجر، ونظر إلى الشارع، نظر إلى هانزن، ولكنّه لمْ يره، بلْ رأى الضابط الأمريكيّ. تذكّر هانزن سلوك أندرسون حينما كانوا يجهّزون للسفر إلى أمريكا، وشتائمه على الأمريكان، بوصْفهم بلا ثقافةٍ، وغالبيّتهم هناك من السُّود. عَبَر ميشائيل هانزن، ووقف مكان المنزل الذي وُلد وترعرع فيه، منذ تاريخ ميلاده حتّى رحيله، وهو في الثانية عشرة من عمره، مع والدته وأخته الكبرى، بصندوقين وثلاث حقائب. كان يتشوّق إلى ركوب السفينة، والوصول إلى أمريكا. وقف ونظر إلى كومةٍ من الحُطام، كَستها شُجيرات البلاّن، وحشائش السعال، فضلاً عن ثلاث أشجارٍ من الزيتون، أو أربع، احتلّت الأرض البور سريعاً. كانت أشجاراً ضعيفةً وليّنةً، ولكنّها أنبتت بعض الأغصان الصغيرة. لا شيء يُذكّر بالمنزل ذي الأدوار الأربعة، وسُلّم المدخل بدرجاته الثلاث. كانت شقّتهم في الدور الأرضيّ على اليمين، بنوافذ عاليةٍ، وفي الخلف حديقةٌ فيها شجرة كُمّثرى كبيرةٌ، كان جذعها المحترق مرئيّاً.

سمع هانزن عن تدمير المنزل من العمّة التي كتبت إلى والديه، ولكنّه تعجّب من تحوّل هذا المنزل ذي الأدوار الأربعة إلى هذا الكوم الصغير من الحُطام، ولكنّه عاد ليقول لنفسه ربّما أُزيلت معظم أكوام الحُطام.

دُهِشَ من عدم شعوره بالإحباط، أو الحُزن. تأمّل المشهد بانتباهٍ

واهتمام؛ ليتذكّر ما هو معروف. كان فضولاً أشبه بالفضول الذي شعر به، وهو طفلٌ لحظة رحيله من هنا.

في أثناء العودة اعترض طريقه السيّد أندرسون الذي صاح: «لقد عرفتك، ليس في الحال، ولكنّك كنت مألوفاً بالنسبة إليّ، ولكنْ حينما رأيتك واقفاً أمام المنزل السابق تأكّدت، هذا ميشائيل هانزن. كنت بهذا الحجم حينما رحلتَ من هنا. كان والدك مُحقّاً حينما رحل إلى هناك. صدّقني، لمْ نكن نتوقّع هذا البلاء كلّه الذي وقع هنا. كيف حال والديك وأختك؟». قال هانزن: «هُم بخير»، وأخبره أنّه ليس لديه متّسعٌ من الوقت، ويجب عليه الانصراف. ابتعد، وظلّ السيّد أندرسون يصيح من خلفه: «لمْ نكن نعرف، صدّقني. تحيّاتي إلى والديك».

ذهب هانزن إلى قناة إيزيبيك. كان السائق جالساً ويدخّن. حكى له هانزن بحماسٍ عن ذكرياته، وأنّه كان يتزحلق على الجليد فوق هذه القناة في الشتاء، **ثمّ انزلقنا إلى أسفل عبْر النهر**^، واضطرّ إلى شرح فكرة التزحلق على الجليد لفريد القادم من فينيكس، احتفظ بعد ذلك بباقي ذكرياته لنفسه.

طلب هانزن توصيله إلى إيبندورفر فيج 97، حيث كان يقطن صبيٌّ، زميله في الفصل المدرسيّ، وصديقه. ظلّ جالساً داخل سيّارة الجيب، وراقب الأطفال في الشارع. كانت الفتيات يلعبْن لعبة القدم العرجاء، والصِّبْية يقذفون السكّين على خطٍّ مرسومٍ على الأرض، ثمّ يقيسون بِعَصا أيّها أقرب إلى الخطّ. خطر على بال هانزن: «هذا على الأقلّ لمْ يتغيّر».

توقّفوا عن اللّعب، واقتربوا من سيّارة الجيب، وسألوه عن اسْمه. وقفوا باحترامٍ على مسافةٍ منه، وذكروا أسماءهم وأعمارهم من دون سؤالٍ منه. ألحّ صبيٌّ بتصفيقه، فذكر اسمه، ولكنْ نَطَقَه بغير وضوحٍ، فأعاد صبيٌّ

آخر اسْمه: كارلشن. تقدّم كارلشن، وتحسّس عَجَلات سيّارة الجيب وزجاجها، ثمّ زيّ هانزن الموحَّد. ضحك الأطفال وجذبوه، ولكنّ هانزن قال لهم أنْ يتركوه. سأل كارلشن: «هل تستطيع السيّارة أن تقفز؟».

ضحك هانزن: «لا». أهدى السائق كارلشن شريطاً ملفوفاً في ورقةٍ فضّيّةٍ، وحينما هَمّ الصبيّ بوضعه في فمه، استعاده هانزن مرّةً أُخرى، ونزع عنه الورقة، وأعطاه إلى الصبيّ مرّةً أُخرى. مضغ كارلشن الشريط، وأخذ يصفّق بيديه.

ثمّ خرج من السيّارة، فتَبعته مجموعةٌ من الأطفال، ذهب إلى المنزل، وبحث على لوحة الأجراس عن اسْم لوديمان، فلمْ يجد هذا الاسْم.

في صباح اليوم التالي، في إدارة الجيش البريطانيّ في منطقة جينزة ماركت، حيث كان الضبّاط يدخلون ويخرجون بِعَصا التدريب تحت أذرُعهم، قدّم هانزن نفسه إلى ضابطٍ اسْمه هيو غرين، ليُبلغه سلام ميدلتون. هيو غرين رجُلٌ برأسٍ مستديرٍ أقرع تقريباً، ونظّارةٍ ثقيلة. كان صحفيّاً في وظيفته المدنيّة، وحكى لهانزن عن عمل المحطّة التي أُنشئت بعد يومين من استسلام هامبورغ، محطّة إذاعة هامبورغ. تحدّث غرين عن تصوّراته لمحطّات الإذاعة المستقبليّة، استقلالها التامّ عن السُّلطات التنفيذيّة الألمانيّة في المستقبل، وكذلك عن الأحزاب التي بدأت تتأسّس من جديد. للمولود الجديد اسْمٌ أيضاً: إذاعة ألمانيا الشماليّة الغربيّة.

تحدّث أيضاً عن شروعهم في إقالة النازيّين من الإدارات المدرسيّة، وإعادة تعيين المُدرّسين الذين أُقيلوا بسبب موقفهم المُعارض. من المخطّط أنْ تبدأ الدراسة في الخريف. كان انطباع هانزن أنّ العمل جارٍ في كلّ مكان، وأنّ هناك تحرّكات لبدايةٍ جديدة. أكّد غرين على أهمّيّة إعادة التقاليد الديمقراطيّة لجمهوريّة فايمار، كما عرفها بنفسه، وأُعجب بها.

كان هانزن ينوي زيارة العمّة غريتة، ولكنّه لمْ يجدها؛ إذْ أبلغته جارةٌ أنّها سافرت إلى الريف، بالقرب من منطقة أولديس لوهة.

عاد هانزن في صباح اليوم التالي بسيّارة الجيب إلى بريمرهافن. كانت هناك أمطارٌ غزيرة، ودفعت الرياح الجانبيّة الأمطار إلى أسفل غطاء السيّارة. جلس صامتاً إلى جانب السائق. وصل -على الرّغم من معطفه الواقي من الأمطار- مبتلّاً إلى سَكن الضبّاط.

هامبورغ، 13 تموز/ يوليو

إيني ميني مو، فلتخرج من اللّعبة(*).

نسمة صيف. ذهبنا إلى أولديس لوهة. جلس الأب تحت شجر التفّاح، وقرأ الجريدة. جلست الأمّ والعمّة إلى منضدة الحديقة، وشربتا القهوة، وعلى المنضدة كعكة القراصيا التي أعدّتها صاحبة الفندق. الكريمة على المنضدة أيضاً، ثمّ صرخة ألمٍ واضحةٌ للأخت التي كانت تتناول الحلويّات، ثمّ تعرّضت لِلَدغةٍ في شفتها.

إيني ميني مو، فلْتخرج من اللّعبة.

سلّم هانزن في هامبورغ تقريراً مكتوباً عن إذاعة هامبورغ، ومخطّط إنشاء إذاعةٍ في منطقة الاحتلال البريطانيّة. طلبه ميدلتون بعد ثلاثة أيّام. أزاح الأوراق جانباً، ثمّ سأله عن هيو غرين، شقيق غراهام غرين. لمْ يعرفه هانزن. «ألا تعرف القوّة والمجد؟». «لا يا سيّدي». قال ميدلتون: «هذا عارٌ^ يجب أنْ تقرأ هذا الكتاب»، ثمّ سأله عن سَير التحقيقات مع عالِم

(*) أغنية ألمانية للأطفال. (م).

تحسين النسْل هذا الذي عاش في أمريكا أيضاً. فرقة مكافحة التجسّس التابعة للجيش الأمريكيّ تضغط لمعرفة معلوماتٍ عن فرضيّة تكوينه مجموعات شيوعيّة هناك، واحتماليّة وجود جواسيس في الولايات المتّحدة تعمل في السرّ.

- لقد مرّ على هذا الأمر خمسون عاماً.

الزملاء في فيلق مكافحة التجسّس التابع للجيش الأمريكيّ يميلون بحُكم الوظيفة إلى الهَوس، ويسألون: هل هناك أيّة اتّصالاتٍ من هنا؟ قال: «إنّه يعدُّ ذلك هُراءً، ولكنْ يجب عليه طرح السؤال». أبْلغه هانزن أنّه لمْ يجد أيّة مؤشّرات لذلك. أيّة اتّصالات جديدة أمْرٌ مُستبعَد.

- حواراتكم ممتدّةٌ مثل قصص ألف ليلة وليلة. قُل بصراحة: هل هذا الصديق العجوز لعالِم تحسين النسْل هو امرأةٌ شابّة؟

قال هانزن: «لا، الرجُل يبلغ من العُمر واحداً وثمانين عاماً».

- حسناً، لديك متّسعٌ من الوقت. ربّما يساعد هذا الجزء الصغير في فهْم هذا العبث كلّه.

سأل هانزن العقيد ميدلتون بعد ذلك عن إمكانيّة الحصول على تصريحٍ للسفر إلى منطقة الاحتلال الفرنسيّة لسيّدةٍ من معارفه، تساعده في التحقيقات.

- هل هي ألمانيّة؟

- نعم، سيّدي.

- هل عملها تابعٌ لجهةٍ معيّنة؟ لا أفكّر حتماً في الروس، ولكنْ في الفرنسيّين. لا نريد الدخول في صراعات.

ردّ هانزن بشجاعة: «لا يا سيّدي، بكلّ تأكيد».

اليوم الثامن

- هل سافرت؟

- نعم، كنت في هامبورغ.

- كيف وجدت حال المدينة؟

- مدينةً من الأطلال، مدمّرةً أكثر من ميونخ. في الميناء حُطام السفن، ولكنْ هناك حركة. يجري تفجير الأطلال، وتعمل الحفّارات. يُحمل الحُطام في قطاراتٍ صغيرة، وتسير إلى القنوات؛ ليُحمل بعد ذلك فوق مراكبَ صغيرة.

- زُرت هامبورغ ثلاث مرّات، الميناء ونهر الألستر. مدينة رائعة! ما خلّفته الحربُ مُفزع.

- بعض الأحياء دُمِّرت تماماً، مثل: منطقة روتينبورج وهام.

- قصفت القوّات الجويّة الملكيّة أحياء العمّال. ظنّوا أنّ البشر قد سئموا الحرب، ولكنّهم صاروا أكثر تعنّتاً. لقد شعرتُ بالأسى من أجل هؤلاء، لقد تضرّر الكثير من الأبرياء بكلّ تأكيدٍ، ولكنّ الغالبيّة أرادت ذلك. لك أن تتخيّل كيف تابعت هذه الأخبار المروّعة، وأنا ممزّقٌ داخلياً. لمْ يكن التحرير ممكناً إلّا من خلال التدمير. لقد كان أمراً مُفزعاً، كابوساً في الواقع. هل كان لدى أبيك أسبابٌ سياسيّةٌ حين رحل إلى أمريكا؟

- لا، جاءه عَرضٌ جيدٌ للعمل في التحنيط من متحف تاريخ الطبيعة، مع بداية عام 1930. ظلّ هناك، ثمّ سافرنا إليه بعد مرور سنتين. لقد كان دوماً فخوراً بأصله؛ كنّا نتحدّث باللّغة الألمانيّة في المنزل، وكان والدي مرتاحاً. في المنزل حديقةٌ فيها ثلاثٌ من أشجار السنديان، لكنّه كان دائم الاعتراض، ويُجري مقارنات: ينقص أمريكا التاريخ، والعصور الوسطى، والكنائس القوطيّة، والباروك، وكذلك شخصيّة فريتس العجوز، والطعام الألمانيّ، والموسيقا الألمانيّة. لنْ تصدّق أنّ الإعجاب بروزفلت يتّسق مع الإعجاب بقائدي الغوّاصات الألمانيّة. كانت النقاشات السياسيّة تدور بيننا دائماً، حينما أعود في إجازة إلى المنزل، وكانت تشوبها التوتّرات. حكيت له عن أستاذي كوبيتش الذي شُرِّدَ، فقال الأب: «هذه استثناءات؛ أمّا الوضع الإجماليُّ فجيّد، لقد انتهت البطالة، وهناك نظامٌ وأمانٌ في الشوارع». وهكذا ارتفع الصوت في أثناء الحديث؛ لتوقُّع كلّ واحدٍ منّا ما سيقوله الآخر. كنت أذهب في المدّة الأخيرة لوقتٍ قصيرٍ، من أجل رؤية أمّي وأخواتي فحسْب. فكّرتُ في أثناء مروري الأخير وسط الشوارع في حُسن حظّي وحظّنا جميعاً؛ لأنّه غادر قبل هذه الأحداث إلى أمريكا. أريدك أنْ تحكي عن نفسك.

- كنتُ أُلقي في عهْد القيصر محاضرات عن سياسة الاستعمار في هامبورغ، في اتّحاداتٍ لتعليم العمّال، وعن الأجور، والأسعار، والمكاسب، وعن تاريخ صراع الطبقات، وموضوعاتٍ من هذا القَبيل، ولكنْ كانت هناك أيضاً محاضرات عن الفراشات. زميلٌ مهمٌّ من منطقة هامبورغ، نسيتُ اسْمه، كان عالِماً متحمّساً للفراشات؛ كان يأخذ شبكته ووعاءً صغيراً في نهاية الأسبوع، ويخترق المنطقة المحيطة بالمدينة. يتحدّث عن الألوان والأشكال، وعن العيون ذات الألوان المتدرّجة،

والقشور على الأجنحة. يجلس الناس، بينهم عمّالٌ في حوض بناء السفن، يستمعون إليه باهتمام. كنت أعرفه من زيورخ. لقد دفع قانون الاشتراكيّين بالاشتراكيّين الألمان إلى المنفى. التقى في زيورخ أيضاً الثوّار الروسيّين. التقيتُ في وقتٍ لاحقٍ بالرائعة فيرا فينجر، التي شاركت في التخطيط لاغتيال القيصر الروسيّ ألكسندر الثاني. قُبض عليها، وحُكم عليها بالإعدام، ثمّ أخذت حُكماً مخفّفاً بالسجن مدى الحياة. كانت مسجونةً في قلعة شلوسل بورج، جزيرة الأموات، وأُفرج عنها بعد مرور عشرين عاماً. لقد رأيتها، كانت في الخمسين من عمرها، شابَ شَعرها من أهوال الحبْس، ولكنّها مع ذلك بقيت امرأةً جميلةً، لمْ تغيّر من قناعاتها السياسيّة. ألقت وسط مجموعةٍ صغيرةٍ محاضرةً عن دعْم السجناء السياسيّين في روسيا. درست قبْلنا بسنواتِ الطبّ في زيورخ أيضاً. هل يمكنك أخْذ هذا الكتاب الذي تصف فيه فترة الحبْس؟ ستجد صورةً لها في شبابها.

-أجلْ، كانت سيّدةً معتزّةً بنفسها.

- كانت المجموعة التي تلتقي في زيورخ متنوّعةً، فيها هؤلاء المنوّمون بالقوّة المغناطيسيّة، وأتباع الثيوصوفيّة، والممارسون للتنجيم، وأتباع عِلم الأخلاط الأربعة...

-مقطع غير مفهوم-

يرجع عِلم الأخلاط إلى اسْم جالين. شارك النباتيّون أيضاً، كانوا جميعاً أصحاب دعوةٍ، قلوبهم صافية، ويريدون إنقاذ البشريّة، أو تحسين أوضاعها على الأقلّ، مثل: الضابط البروسي جوتسايت. أقسم الرجُل على أنّ الغذاء النباتيّ هو شرطٌ للحياة الفكريّة. أطلق الصديق، هذا الباحث الذي أخضع نفسه بتطرّفٍ للعلم الواقعيّ المحكوم بالحسابات، على جوتسايت لقب رسول الكرنب، في حين أنّ الصديق نفسه صار رسولاً. كنّا نجلس يوماً في

حانةٍ اسمها «الرياح البيضاء»، ونحتسي النبيذ، فقال: «إنّه لمْ يرتشف قطرة خمرٍ واحدةً منذ ثلاثة أشهر، وسيلتزم حتّى نهاية عُمره بقَسَمه ألّا يتناول الكحول». الكحول هي المسبّب للأمراض العقليّة، بلْ أكثر من ذلك، إنّها تفسد الجينات، وتدمّر صحّة الشعب. كانت محاضرةً ناريّةً، وطالبنا في النهاية بعمل الشيء ذاته. الكحول لا تضرّ بالفرد فحسْب، ولكنّها تمنع أيضاً تطوّر الجنس البشريّ ورُقيّه. قال: «إنّه سيقدّم الدليل العلميّ على ذلك».

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، جوتسايت، كان اسماً على مسمّى، رسولاً للإنسانيّة. يدعو إلى عدم استعمال عقوبة الضرب، ويدعو إلى المساواة بين الرجُل وبين المرأة. يلقي المحاضرات عن الحُبّ والسلام الأبديّ. عدَّه الصديق شخصاً ساذجاً للغاية، وظاهرةً مزعجة. لمْ يتحدّث جوتسايت عن الإنسان الخارق، وتحسين النسْل والرُّقيّ، وعن الصرامة، والعظمة، والصراع، والانتقاء، بلْ تحدّث عن حُبّ الآخر، واللّين الذي يجب أن نتعامل به مع الضعفاء والأكثر ضعفاً. كان يجب أنْ ترى الاثنين جنباً إلى جنب: بلوتز، الشاب الصارم بالبزّة الداكنة، ووجهه المكفهرّ منذ ذلك الحين، وجوتسايت، بزيّه المصنوع من الكتّان اليدويّ، الذي كان يشبه الثوب النسائيّ؛ نظرته طيّبة، وشَعره المجعّد الذي كان يتداخل مع ذقنه الطويل. كان قبل ذلك ضابطاً، وحارب في فرنسا في عام 1870، ثمّ تحوّل عن قناعةٍ إلى داعيةٍ إلى السلام. سمعته في زيورخ، وهو يحكي في قاعةٍ بسيطةٍ عن تجربته في الحرب، ومذبحة «مارس لاتور»، حيث وقع هجومٌ على الفرسان. يبدو أنّه كان الأخير في تاريخ الحرب الحديثة. قال: «الطبيعة تصرخ، تُطلق النيران على السيقان الأماميّة للخيل، فتسقط على سيقانها الخلفيّة، وتنطلق صرخات

الألم نحو السماء: الجنديّ الشابّ الذي يحمل أحشاءه الخارجة من بطنه بصرخة أنينٍ طالبة الرحمة في الأرض، والفارس الشابّ الذي أُطلقت النار على عينيه، والذي يتحسّس طريقه صارخاً، صارخاً، وسط الضباب المخضّب بالدّم، والعَرق، والبراز. فزع، ثمّ فزع. آه تتلوها آه.

كان حديثاً مختلفاً عن الحديث الدائر عن الصراع الحتميّ حول البقاء، الذي سيحسمه الأقوى والأنجح لصالحه. قدّم قانون الطبيعة هذا -ببطوليّته المستغلّة دعويّاً- الحُجّة للقتل الجماعيّ الذي وقع في فيردون وفلاندرن. الحروب والصراعات، بوصفها أموراً طبيعيّةً، حالات من الجنون التي خضعت للتجميل على الصعيد القوميّ والدينيّ. يجب أنْ تعرف أنّ الصديق كان ينظر إلى الحرب نظرةً سلبيّةً من منظور تحسين النسْل؛ لأنّ الأفضل والأشجع يُقتل، في حين يبقى الأضعف، والمعاق معافى. عدَّ الحرب داعمةً لأصحاب الأقدام المسطّحة، قال: «إنّ الحرب تنتقي انتقاءً سلبيّاً». نظر إلى كلّ شيءٍ من منظور التركيب الجينيّ والصحّة. لقد اتّفق الاثنان في التمسّك بالمساواة بين الرجُل وبين المرأة، واختلفا في أسلوب الظهور. كان بلوتز يذكّرك برُسل العهد القديم؛ محبّاً للخلافات، ومستبدّاً بعض الشيء؛ أمّا جوتسايت، فمن العهد الجديد، لطيفٌ، وعيناه طيّبتان، ويداه تتحرّكان في أثناء الحديث حركاتٍ انسيابيّة، ليس مثل القبضة اليمنى التي كان الصديق يدقّ بها رسائله بمسمارٍ في الخُطب التي يُلقيها. كان جوتسايت، المؤسّس لجماعة فيثاغورث، يدعو إلى عدم الضرب في المدرسة، وطالب بالاعتراف بالمثليّة الجنسيّة؛ فالحياة متنوّعة، ويجب أن نعيشها على هذا النحو في السياق الجنسيّ أيضاً. ما زلت أسمع هذا الصوت في أذني، صوتاً لا يقاوم، له إيقاع، صوتاً يفسّر، ولا يسعى إلى إقناع الآخر، يتحدّث عن المعاناة والحرب، ولا يُصدر الأوامر السياديّة: يجب

عليك فعل هذا! يجب عليك فعل هذا! بل صوتاً يقول: «أليست تسمية الشارع والميادين بأسماء تعبّر عن القتل، وتنزع البركة، مثل: جرافيلوت، سيدان، وفورت، أمراً مفزعاً؟». ربّما نعم في الأغلب، كانت هذه اللّقاءات سبباً في تغيير رؤيتي، ليس في الحال، ولكنْ تدريجيّاً، مثل صوتٍ بعيدٍ جعلني أكون من محبّي السلام. صار حبّي للسلام سبباً للنزاع مع الرفاق؛ لأنّ صراع الطبقات قد يتطلّب الدخول في الحرب، كما رأينا في روسيا. بالمناسبة، أخذ جرهارد هاوبتمان شخصيّة جوتسايت نموذجاً لقصّته «الرسول». إنّه نصٌّ جميلٌ أنصحك بقراءته، كتبه بعد مرور ثلاث سنوات على قصّته «عامل السكّة الحديد تيل». انحلّت مجموعتنا الثوريّة في هذه المرحلة: ذهب الإخوة هاويتمان إلى برلين، وحينما اجتزت الامتحان سافرت أيضاً إلى برلين، واستأجرت شقّةً في شارلوتنبورج، وشتاينميتز، الذي هرب أيضاً إلى زيورخ، هاجر في عام 1889 إلى الولايات المتّحدة، وتدرّج في عمله الوظيفيّ بوصْفه مهندساً وعالِماً، كتب العديد من الكتب والمقالات، وسجّل براءات اختراع، وصار عضواً في الأكاديميّة الأمريكيّة للفنون والعلوم؛ ظلّ اشتراكيّاً نشطاً. كنّا نتبادل المراسلات بين الحين والآخر. توفّي قبل بلوغه الخمسين من عمره. أنا سعيدٌ بمعرفة شخصٍ بهذه الأهمّيّة والتواضع.

– وماذا عن بلوتز؟

– غادر الصديق زيورخ إلى باريس، مع زوجِه باولينة، بوصفهما طبيبيْن مرخّصين، وعملا هناك في مستشفى.

– أليس اسم الزوجة رودين؟

– نعم، باولينة رودين، كما قلت، أخت أستاذ عِلم النفس إرنست رودين، الذي عمل على قانون «منع النسل المريض جينيّاً». لا أعرف

رأي باولينة في أخيها الذي خدم النازيّين، ولا أعرف رأيها فيه هو، ألفريد، زوجها السابق، بعد أنْ وقعت عمليات التعقيم الإجباريّة والقتل في الرايخ. لقد انتحرت، وهي في السادسة والسبعين من عمرها، في عام 1942 في سويسرا.

كانت امرأةً مدهشةً، وذكيّةً، ومثقّفةً سياسيّاً، فضلاً عن عملها السياسيّ. أنت تضحك، أجلْ، أعرف أنّني أميل إلى النساء، النساء النشيطات، مع نصيبٍ كبيرٍ من الجمال. إنّها رؤيةٌ غير اجتماعيّةٍ؛ لأنّ الجمال هبة الطبيعة الظالمة، ولكنْ يستحيل عدم التأثّر بهذه الهبة وقوّتها الدافعة للرغبات. كانت باولينة قويّةً؛ لأنّها لا تتأثّر بمن حولها، عملت لاحقاً طبيبةً للفقراء، ومارست آخر حُرّيّةٍ عظيمةٍ أُتيحت لها؛ لقد انتحرت. كانا يعملان معاً في المستشفى نفسه في باريس، حيث سادت أوضاعٌ صحّيّةٌ كارثيّةٌ، وغير مُحتملة: الجرذان تجري في الممرّات، وتجرّ خلفها الضمادات المتّسخة. على الرّغم من تحدّثه باللّغة الفرنسيّة بطلاقةٍ، لمْ يحبّ بلوتز الشعوب الرومانيّة، خاصّةً الفرنسيّين، الذين نظر إليهم وقتها بوصفهم شعباً منقرضاً بسبب معدّلات الولادة المنخفضة. عاش الطبيبان وعمِلا في هذه المدينة، وجداها سافلةً وسطحيّة. خطاباته حافلةٌ بالتأمّلات، التي اعتقد بسبب كثرتها أنّه أثبت الانحدار والتدهور: إدمان المتعة من دون حياء، والأخلاق المنحلّة في الحياة اليوميّة، والدردشة، والمغازلة، والطعام المُحسّن، وعصر الأطعمة وتحويلها إلى قوامٍ مضروب، والأزياء، والصدور العارية بالدانتيل، والربطات المثيرة، والتطريزات الكثيرة، ثمّ المشدّات المربوطة بقوّةٍ حول الخصْر، التي رفضها الصديق رفضاً تامّاً؛ لأنّها ضارّةٌ بالصحّة، خاصّةً لتأثيرها السلبيّ على الصحّة الإنجابيّة. كان هو وباولينة متّفقين تماماً، من المؤكّد أنّهما لفتا الأنظار إليهما في هذه المدينة. كان

لي صديقٌ وصفهما لي بعد لقائه بهما في إحدى الزيارات: هو الألمانيّ الضخم الذي يرتدي اللّون الأسود دائماً، بشَعره الأشقر الكثيف وذقنه، وهذه السيّدة الجميلة بالشعر الأشقر الفاتح، وملابسها البسيطة، وحركاتها الطبيعيّة، طبيبان لا يخضعان لأحد. كان الصديق مُعجباً بلوحة توماس كوتور «الرومانيّون من عصر الانحدار». وصف لي اللّوحة بوضوحٍ، وتمكّنت من رؤيتها بنفسي بمناسبة لقاء الأحزاب الاشتراكيّة في باريس. بالمناسبة، كان لي انطباعٌ مختلفٌ تماماً عن المدينة؛ كنت منبهراً بحديقة لوكسمبورغ، وبالبشر داخلها، وبالملابس، والمطاعم، والنبيذ، والبوردو والبورجوندر، والطعام، وشرائح اللّحم المشويّة، ليس إلى حدّ القساوة الشديدة، والحلويّات. صدّقني، لقد استمتعت بهذا كلّه، كلّما سمح الوقت داخل مجموعات العمل بذلك. نهاية أيار/ مايو لعام 1907، هواءٌ مثل الحرير، وسماءٌ ببعض السُّحب الصغيرة، يعلو عبْرها بُرج إيفل، بزخارفه وانحناءاته الرائعة. أدركت فجأةً أنّه لا يمتدح الهندسة فحسْب، بلْ يمتدح عصْر التنوير أيضاً، التنوير الذي خرج من هذه المدينة، فولتير وديدروه، التنوير هو خروج المرء من حالة القصور التي اقترفها في حقّ نفسه، كما وصفه كانط. عَلا بُرج إيفل في السماء، تعبيراً عن نداءٍ للإمكانات البشريّة بالمعنى الحرفيّ للكلمة. فكّرت في شتاينميتز والثورة، وأحلامنا عن إيكاريا، المعنى يكمن وحْده في التصميم والرؤية. كانت أُمنية المهندس إيفل أنْ يرى المدينة بأكملها من أعلى، بينما هو مُستلقٍ في البانيو. هذه هي المتعة الفنيّة المتحرّرة من التفكير النفعيّ الشامل للاقتصاد.

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، كم أودّ أنْ أعطيك نسخةً من المجلّة الصغيرة التي نُشر فيها مقالي عن بُرج إيفل. لقد صودرت المجلّة، كما صودرت كتاباتي كلّها.

لمْ أنجح بعْد في العثور على نسخة ثانية. لقد انتظرت في القبو، ولكنْ من يعلم، ربّما تظهر الآن، بعد إزالة هذا الطين البنّيّ، نسخةٌ أُخرى، ولكنّني أردتُ أنْ أحكي لك عن الصورة التي عدّها الصديق مهمّةً لنظريّته: تعرض اللّوحة دعوةً إلى وجبةٍ، ربّما من رواية بيترونيوس لدعوة تريمالشيو، عُذراً لهذه المادّة العلميّة المقرّرة في المدارس الثانويّة عن عصر الإنسانيّات التي لا ننساها بسهولة. أعود إلى الموضوع: دعوة إلى وجبةٍ في قاعةٍ رومانيّةٍ، وفي الخلفيّة قاعةٌ مفتوحةٌ، بين الأعمدة خمسة تماثيل من الرخام، بالوضع الجسديّ الكلاسيكيّ، ثلاثة منهم بلا ملابس، أمامهم سيّدات ورجالٌ مُستلقون، أو جالسون، يشربون من كؤوسهم، ولكنّه احتفالٌ باهتٌ، يغلب الحُزن على المشهد. لا مكان لحالات النشوة التي تميّز الإله ديونيسوس، ومعايشة التوحّش الذاتيّ، والقوّة، والنزعة إلى الرغبة، ورائحة المنْي والتناسل، لا شيء من هذا كلّه. في وسط المشهد سيّدةٌ شابّةٌ جميلةٌ مستلقيةٌ بلباسٍ أبيض، ومعالم ثديها واضحةٌ تحته، ولكنّها مستلقيةٌ بإنهاك، لا حياة، ولا رغبة في نظرتها، بلْ تعب، وعدم مبالاة، وبؤس سببه نَيل كلّ شيء، فيما سبق أيضاً، وتحقّق الأحلام كلّها وزيادة، والرجُل في الحالة نفسها، شابٌّ بذقن، هي مُستلقيةٌ في حِجْره، وهو يوجّه كأسه إلى الخادم ليملأها من جديد. كتلةٌ من الأجساد والصدور العارية، وسيّدةٌ تسحب لباسها عن جسدها، ورأس الرجُل متدلٍّ باسترخاء. من أجل رفع مستوى الانحلال السائد، يضع الرسّام شابّاً رومانيّاً فوق منصّةٍ، ويجعله يمدّ أبطال الجمهوريّة المصنوعين من الرخام، ربّما سكيبيو أفريكانوس، بكأسٍ من الخمر على سبيل الدُّعابة. وقف على هامش اللّوحة من اليمين اثنان من الأغراب بذقنٍ، ربّما من الهَمج، أو المعارضين من العهد الجمهوريّ، يرقبان المشهد بنظرةٍ مستنكرة.

حينما كتب لي عن هذه اللّوحة، كان قريباً منّي، وظننت أنّنا قد نكون هذين المراقبين، مع أنّ ذقني كان وقتها قصيراً. وقفنا هناك، وبحثنا عمّا هو جديد: مجتمع المساواة والعدالة، والمعاملة الطيّبة والتعاون، والعمل الذي يرضي الحواس جميعها. كان الصديق مستمرّاً في البحث.

-مقطع غير مفهوم-

بالطبع، سألت نفسي مراراً: متى وقع التحوّل في محاولاته تحسين المجتمع من المساواة والعدالة الاجتماعيّة، إلى التربية لنموذج العرق الشماليّ؟ يبدو أنّ هذا التحوّل يرجع إلى مرحلة الطفولة. مثلما قلت سابقاً، إنّه قرأ «الصراع على روما» لفيليكس دان، قصّة سقوط القوطيّين في إيطاليا. لمْ أستفد في صِباي من هذه الروايات الثقيلة للأساتذة بتعظيمها النسبيّ للقوطيّين. أهداني أبي مبكّراً روايتَيْ: «الجورب الجلدي»، و«الموهيكان الأخير»، ويبدو أنّ هاتين الروايتين قد حفظتاني من هذا الهُراء عن العرق الجرمانيّ. نستنتج من ذلك، وهذا ما أقوله بوصْفي بائعاً للكتب القديمة: أنّ قراءة الروايات في الشباب تحدّد مصير حياتنا. ليس الأدب الرفيع بلا نتائج تماماً، وإنْ كان لا يمنع وقوع الكوارث؛ لأنّ القتلة أصحاب الثياب السّود كانوا يقرأون كلايست وهولدرلين أيضاً. كم نتمنّى أنْ يمنع هذا ذاك!

-مقطع غير مفهوم-

لا، كانت المرّة الثانية. ذهب مع باولينة في عام 1890 إلى أمريكا. استقرّ معها في منطقةٍ نائيةٍ صغيرةٍ، أقصد مدينة صغيرة، في مريدين بكونيكتيكات. مارسا الطبّ هناك على مدار أربع سنوات. لمْ يكن التواصل مع المرضى الذين يعانون من الجروح الغائرة والالتهابات، والدمامل، وبصق الدّم، والبواسير، والسيلان، ليرضي هذا الطبيب المتعجّل والباحث عن تحسُّنٍ

جذْريّ. كان يعكف في العام الأوّل في أوقات فراغه على كتابه «نشاط عرقنا وحماية الضعفاء»، كان العنوان يوضح أصول تفكيره وأهدافه اللّاحقة.

زاره جرهارد هاويتمان في عام 1894، وحكى لي لاحقاً عن أنّ بلوتز قد أخذه في رحلةٍ جامحةٍ بالحنطور إلى المنطقة المحيطة بمريدين، عابراً الغصون والأحجار، وكان هاويتمان مرعوباً من السقوط والدفع به خارج الحنطور. إلى جانب المنزل البسيط المخصّص لسَكن باولينة وألفريد، والعيادة، كانت هناك حديقةٌ صغيرةٌ فيها العديد من الحظائر المخصّصة للأرانب، والمدهونة بألوانٍ مختلفةٍ: الأصفر، والأزرق، والأحمر، وكان توزيع الألوان يمثّل أهمّيّةً لترتيب التجارب. زوجان من السُّود كانا يُطعمان الحيوانات، وينظّفان الحظائر.

كان الدكتور يعكف على سلسلةٍ من التجارب، وظنّ أنّه اقترب من إمكانيّة تحديد الجنس. كان، وهو طالب؛ مهتمّاً بأسباب ارتفاع عدد المواليد الذكور عن الإناث في أوقات الحرب؛ أيْ: في الأوقات التي يموت فيها الرجال.

– ما سلسلة التجارب هذه؟

– كان منهجاً قاسياً، يسقي ذكور الأرانب الكحولَ على مدار أسابيع، مثل الرجال في أوقات الحرب، ثمّ يحرمها من النوم، ويوقظها في فزعٍ، ليقودها بعد ذلك إلى الإناث. هذا ما حكاه هاويتمان، ظننت وقتها أنّه ربّما يكون قد استعان بصياغةٍ أدبيّةٍ؛ لأنّه هو، مؤلّف الدراما، كان وقتها في ظرفٍ عصيب؛ كان قد تعرّف إلى عازفة الكمان الشابّة مارجريت مارشالك، التي رفض قطع علاقته بها؛ لذلك هربت زوجُه الثريّة بإرثها، تلك التي أتاحت له التفرّغ للأدب، بأبنائها الثلاث إلى الصديق وزوجِه باولينة في أمريكا.

هاوبتمان، الممزّق دوماً، سافر خلفها. يبدو أنّ مشاهدَ دراميّةً قد وقعت هناك: عتابٌ، وتأكيداتٌ، وقَسَمٌ، وتطايُر الفناجين، وبكاء الأطفال، وجُثُوٌّ على الركبتَيْن، وقَسمٌ بالإخلاص، وسماحٌ، ومصالحة. ساهم أسلوب باولينة الراقي اللّطيف في تهدئة الأمور، ولكنْ دعني أقول لك: «إنّ الحال لمْ تدُم؛ عاد كاتب الدراما إلى عازفة الكمان، ورُزقت الحبيبة الشابّة بطفلٍ، ابنٍ، باسْمٍ موعود: بينفينوتو». حسناً، طلب هاوبتمان الطلاق، ولكنْ يجب أنْ نقول إنصافاً له: «إنّه ردّ مبلغ المهْر، الذي كان قرضاً له للكتابة الأدبيّة، واستفاد هاوبتمان منه في وقتٍ سابق».

اقترب مظهره في هذه المرحلة كثيراً من مظهر غوته، ولكنْ هناك اختلافاتٌ كبيرةٌ بينه وبين البورتريهات المرسومة لغوته. الفارق أيضاً في عيون غوته التي وصفت بأنّها بُنّيّة؛ أمّا عيون هاوبتمان، فكانت زرقاء، ومع ذلك، كان التشابه في العمر المتقدّم مُذهلاً.

هكذا رأيته. كان هذا في عام 1938، بعد مرور عامين على زيارة بلوتز لي في متجر الكتب القديمة. انفتح الباب، ودخل شخصٌ بملابس داكنةٍ إلى المتجر. كنت جالساً إلى المنضدة المصنوعة من خشب شجر عين الجَمل، وأكتب البطاقات للكتب الجديدة. دخل ومعه شعاع نور، رأيت خلفه نور يومٍ برياحٍ دافئةٍ مع نهاية الخريف. أكستهيلم، الذي نهض في هذه اللّحظة عن مكتبِهِ، قال لاحقاً: «إنّه اعتقد أنّ المستشار السرّيّ يدخل متجر الكتب القديمة». رجُلٌ عائدٌ إلى الحياة. كان هاوبتمان يرتدي بزّةً سوداء من طرازٍ قديم، حول رقبته قماشٌ حريريٌّ مثبّتٌ بدبّوسٍ مصدّف، رفع قبّعته، ووجّه تحيّةً لأكستهليم بانحناءٍ بسيط. جاء إليّ وقال: «لقد شاب شَعرك، ولكنّني كنت سأتعرّف إليك في الشارع». جلس على المقعد الذي نهضت عنه قبلها. شَعره الأشعث الشائب يحيط بجمجمته، وجبينه

العالي، والحواجب، والأنف، ولكنْ قبل كلّ شيء أسلوبه الجادّ: هذا كلّه يذكّرك بالأديب غوته القادم من فايمار. كان حديثه دائماً حديثاً باحثاً عن الكلمات، حتّى في وقتٍ سابقٍ حينما كنّا نلتقي وحْدنا، له هيبة، ويحرّك يده كثيراً، ويختم حديثه دوماً بثقةٍ بعبارة «أليس كذلك؟». لمْ يسأل قطّ، ولمْ يطمئنّ على حالي قطّ، ربّما لخوفه من أنْ أطلب مالاً. كانت نظرة العيون الزرقاء موجّهةً، تتجاهلني دوماً، وتتوجّه إلى ما هو بعيد، كأنّه يرى شيئاً ذا أهمّيّةٍ قوميّةٍ، أو ثقافيّة. انسحب أكستهيلم بأناقةٍ إلى الخلف في المتجر. جلس هاوبتمان وحكى عنه، عن ألفريد، الذي كان قد زاره في هيرشينغ. قال: «صار غريباً». رفع يده وبقيت للحظةٍ في الهواء، انتظرت لأرى ماذا ستفعل اليد، إلّا أنّها سقطت بحركةٍ حزينة. عاد ليقول: «صار العجوز غريباً بأرانبه، ولكنْ ما هو مؤكّد...». عاد ليرفع يده اليمنى، وظلّت تكوّن نصف دائرةٍ في الهواء، كأنّه يمنح المباركة، معلّقةً بهدوءٍ وأهمّيّةٍ في الهواء: «ولكنْ يدفعنا الشيطان إلى أهدافٍ مجهولةٍ». ثمّ سقطت يده: «مثل العظيم الآخر الذي صار هناك الآن عبْر البحار ويتكلّم ضدّنا. كم الأمر سهل، حين لا تجد ما يربطك بهذا الجذْع، ومن الخشب ذاته! ليس سهلاً أنْ تكون رحّالةً في زمنٍ عصيب. يجب عليك البقاء، حتّى في زمن الصعاب». بعد مدّة صمتٍ طويلةٍ، بيده العالقة في الهواء، قال: «إنْ أردت، انضمّ إلينا؛ المنزل كبيرٌ، ويتّسع لنا حتّى في فترات البرد».

كانت لفتةً كريمةً، لمستني، وتلمسني الآن، وأنا أحكيها، ثمّ قال: «عموماً، وفي كلّ الأحوال، أليس كذلك؟». رفع يده، وقام بحركةٍ تضمّ المكان حوله... الجماعة القديمة ما زالت حيّة.

شكرتُه، وقلت له: «إنّني هنا في حالٍ جيّدة». ولكنْ كانت سعادتي كبيرةً. أجلْ، لقد كان هو الناجح؛ تُعرض مسرحيّاته، وتُطبع نصوصه النثريّة،

صار نصّه «عامل السكّة الحديد تيل» إلزامياً في درس القراءة المدرسيّ. أرباح المؤلّف تنهمر عليه، وكلّف من يبني له منزلاً، لا بلْ قصراً في أجنيتن دورف. يا لغرابة هذين الصديقين: بلوتز، وهاوبتمان! عاش الاثنان نهاية عمرهما داخل قصور. هل هي مصادفة؟ لا أظنّ ذلك. تحدّثت إليه قليلاً عن بريسلاو وزيورخ، ثمّ نهض بنشاطٍ، وانصرف مُحاطاً بهذا الضّوء مع الرياح الدافئة. استدار مرّةً أُخرى، ولوّح بيده.

لك أن تتخيّل الاحترام الذي عاملني به أكستهيلم بعد هذه الزيارة. أراد أن يعرف أين تعرّفت إلى هذا الأديب المشهور عالميّاً. قلت فقط: «بريسلاو، والدراسة، وزيورخ، وبعض المرّات في برلين». لمْ أقل شيئاً آخر. يمكنني أنْ أقول: «إنّني انتظرتك». صحيح، يجب أنْ أذكر أيضاً: رفع أكستهيلم -بعد مرور شهرين- أجْري. قال أكستهيلم: «هاوبتمان مؤلّفٌ دراميٌّ عظيمٌ ورائعٌ، يجب أنْ نطلب إليه توقيع الكتب».

- أنا لا أعرف سوى القليل عن أعمال هاوبتمان. لمْ يجده أستاذي كوبيتش ذا وزنٍ، بالقياس إلى هوفمانزتال (مقطع غير مفهوم) نص «المعقد» (مقطع غير مفهوم)، أو شنيتسلر الذي كان أهمّ وأعمق (مقطع غير مفهوم).

- ربّما، ولكنْ نصّ «النساجون»؟ يا له من نجاح! يا لها من قوّة! الضجّة التي أثارها هذا العمل المسرحيّ، والنقاشات، ومَنْع من العرض. أدركت السُّلطات العليا في العمل قدراته الثوريّة. واجهت ثورة الجياع البرجوازيّة الشبعانة، والاعتراض على ظلم المجتمع الذي يقبل بجوع العامل والبائع المتجوّل، في حين يعْلف أصحاب الأملاك أنفسهم، هذا ما انتقده الصديق سياسيّاً في بريسلاو، وكذلك أعضاء منظّمة الباسيفيك. لقد نقل هاوبتمان الفكرة إلى الفنّ والدراما، كانت فكرةً جديدةً تماماً، هل تفهمني؟ الّلهجة

المستعملة في منطقة شيليزيا، بعد هذه الّلغة الكلاسيكيّة المصطنعة التي جاءت بعد الكاتب شيلر. وجدنا فجأةً لغة الحياة اليوميّة كما يتحدّث بها البسطاء، والفقراء، والمفقودون، والجوعى. هذه المحاولة لإلقاء الضوء على الصدْع الذي يقسم المجتمع بتفاصيله كلّها، والذي يصل إلى أبسط الحركات، وتعبيرات الوجْه التي قد لا يلتفت إليها أحد. أدركت إدارة الشرطة المركزيّة في برلين هذا الأمر؛ فمنعت بعد العرض الأوّل في عام 1892 أيّة عروضٍ أخرى، ومرّ عامان كاملان قبل أنْ تُعرض مسرحيّة «النساجون» مرّةً أُخرى. دخل الكثير من فترتنا الثوريّة في بريسلاو في مضمون المسرحيّة، وكذلك النهاية التي تذكّر بثورة عام 1848. إنّها نهايةٌ أراها تدعو إلى الثورة، إضافةً إلى قلقي، بلْ حُزني أيضاً ممّا يلي: هذا الأديب هاوبتمان الذي منح بموهبته وإحساسه بالظلم والتجنّي لغةً لمن لا لغة لهم، تلقّى هذه النعمة، ثمّ سمح لنفسه، بعد أن جلبت له الشهرة والمال استقلالاً، أنْ يغلبه دلال الأقوياء، فتحرّك في دوائر أصحاب السُّلطة، وكان يجمع الألقاب والجوائز بنَهَمٍ، وقرأتُ في عام 1942 داخل سردابي، أنّه قبل الاحتفال به في مسرحٍ في فيينا، وسط مُديرَيْ الإقليم: فرانك، وشيراخ، هناك صورة يظهر فيها الثلاثة في الّلوج. حسناً، لا نتكلّم عن الموتى إلّا بالخير.

(de mortuis nil nisi bene)، وإنْ كانوا على قيْد الحياة.

-مقطع غير مفهوم -

- لِمَ لا نقول: «الموتى دوماً سيّئون (de mortuis semper male)»؟

ألا تمثّل الشهرة إغواءً؟ والرغبة في الحفاظ عليها، والخوف من فقدان التقدير، ويكمن في التقدير نوعٌ من الثناء، من الحُبّ إذنْ.

مؤكّد، ولكنْ ليس من قِبل أصحاب السُّلطة، من عديمي الإنسانيّة.

الشهرة تعمي الأبصار. أرسل إليّ تذكرةً للعرض الأوّل لمسرحيّته الأولى «قبل شروق الشمس». يظهر في هذه المسرحيّة الخبير الاقتصادي ألفريد لوت، وهو يحارب شرب الكحول. من الواضح تماماً أنّ هذا هو ألفريد بلوتز، أيضاً في رفضه لأيّة حلولٍ وسط. نصٌّ يعرض نتائج سوء استعمال الكحول: مارتا، شخصيّةٌ مدمنةٌ على الكحول، تنتظر مولودها، ومرحلة آلام ما قبْل الولادة ممتدّةٌ في المسرحيّة. عائلةٌ من مُدمني الكحول. شخصيّة لوت مقتنعةٌ بأنّ هذا الإدمان يمكن أنْ يورّث، ويتحدّث النصُّ كثيراً عن نظريّة بلوتز في هذا الشأن. يترك ألفريد لوت -المؤمن بهذه النظريّة- السيّدة التي أحبّها في الحال لهذا السبب. هذا هو الصديق، حاسمٌ ومتطرّف. في الخلفيّة مارتا وهي تعاني آلام الولادة. يسافر لوت تاركاً صديقته هيلينا. تنتحر مع نهاية المسرحيّة بسبب عذابات الحُبّ، وخوفها من أنْ يكون إدمان الكحول في دمها. تلد مارتا الطفل، ولكنّه يموت. نصٌّ مسرحيٌّ يحمل رسالة. كنت أجد إلحاحاً في هذا النصّ، ولكنْ كان له تأثير. في أثناء عرضه، وقعت إزعاجاتٌ كثيرةٌ، وصيحات. في مشهد ولادة مارتا الطفل، يفتح طبيب أمراض النساء الجالس أمامنا حقيبته الطبّيّة، ويقذف جفت الولادة إلى خشبة المسرح. كان يجلس إلى جانبي ملازمٌ أوّل، قال: «هذا ما حدث للخير، والحقّ، والجمال». يأتي الآن السبّاكون إلى المسرح. قسوة ألفريد لوت، ورفضه الحلول الوسط من صفات ألفريد بلوتز أيضاً.

- نصُّ بلوخ «آثار» الذي يمثّل بالفعل آثاراً تقودنا عبْر السُّبل الوعْرة، والحياة اليوميّة، والأدب، قرأت فيه: حينما نفترق يختلف حضور اللّحظة السابقة في أذهاننا، خاصّةً إنْ لم نعشها حتّى النهاية؛ تصير شبحاً.

- هذه عبارةٌ جميلةٌ. أجلْ، تباعدت المسافات بيننا، بيني وبين بلوتز.

لمْ نلحظ هذا التباعد الذي بدأ بعد زيارتنا لجماعة إيكاريا. أستطيع أنْ أصف بوضوحٍ هذا التباعد بأنّه لمْ يُعدّ صداقةً، بلْ مجرّد ذكرى صداقةٍ، حينما دخل في برلين في مجموعات النقاش حول نظريّة الشعوب.

-مقطع غير مفهوم-

عاد بلوتز في عام 1894 من أمريكا إلى ألمانيا، واستقرّ في برلين. بقيت باولينة مدّةً أطول في أمريكا؛ لتغلق العيادة، وتنهي أمْر المنزل، ثمّ تبعته إلى برلين، لتعمل طبيبةً للفقراء في حيّ شوينين فيرتل. حكت لي عن تجربتها، وعن العنف المُرعب للبشر في القاع المُظلم للمجتمع، وعن الحَيرة العميقة، والأطفال الصغار الذين يموتون بالإسهال الصيفيّ؛ لأنّ الحليب قد فَسد، والطقس الحارّ غير المُحتمل في الأزقّة الضيّقة، وعن الدّرن الرئويّ بسبب عفار المصانع، وعن العدوى في الشقق الصغيرة للغاية، ثمّ عن الإصاباتِ من الضرب؛ نساء يضربهنّ أزواجهنّ في حالات السُّكْر، ويدفعونهنّ عن السلالم: كسور مفتوحة في الأذرُع، وتجويفات بطنٍ متقيّحة بعد الإجهاضات، وأمراض تناسليّة. اضطّرت مراراً إلى كتابة شهادات الوفاة لرجالٍ شنقوا أنفسهم، ونساءٍ شنقنَ أنفسهنّ على الصليب الخشبيّ للنوافذ، أو على السلالم. في هذه الأثناء قَبِل الدكتور بلوتز، مُصلح العالم، والمخطّط للحركات السرّيّة، ومؤسّسها، بعَرْضٍ للعمل رئيساً للتحرير في مجلّة «العالم يوم الاثنين»؛ لأنّه آمن بتأثيره الأفضل والأوسع هناك. كتب عن الاختيار في التربية والانتقاء، وأراد نشْر عِلم الصحّة الجينيّ في المجتمع. كانت له في برلين اتّصالات باتّحادٍ سرّيٍّ، حلقة نقاشٍ يبدو أنّه شارك في تأسيسها. لو كان له اسْم، فأنا نسيته، في الأغلب اسْم له علاقة بالشمال. أخذني معه إلى إحدى هذه الجلسات، تحدّث رجُلٌ، وحَذّر من خلْط الدّم واليهود، الذين يتسلّلون

مثل الطفيليّات إلى داخل أصحاب البشرة الفاتحة، والعيون السماويّة، كما قال. هؤلاء اليهود الذين ينقصهم العُمق، ولا يبحثون عن الحقيقة العميقة. يجب النظر إلى اليهوديّ الشرقيّ، صاحب البشرة الداكنة، بعيونه السوداء الخبيثة. الذقون السوداء، والأنوف، والساميّون، والبَدْو، والتجار: يسعون إلى التجارة؛ رأس المال الجامع مقابل رأس المال الألمانيّ الخلّاق.

سألني بعد المحاضرة: «ما رأيك؟».

– هذا هُراء.

صمت، هو أمرٌ نادر الحدوث، وظلّ منشغل الفِكر، وهو يسير إلى جانبي.

لمْ نصل مرّةً أُخرى إلى مرحلة الحديث المتّسم بالثقة، ويرتبط انتظار الإجابات بالقلق، لمعرفتها مُسبقاً، ولمْ يعُد هناك تفكير، والأسئلة تطرح بصراحةٍ حقيقيّة. لمْ يكن هناك شكٌّ، ولا لديّ أيضاً، وشعرت مع ذلك بالخسارة، بخسارة النفس؛ إذْ تحجّر داخل كلّ واحدٍ منّا ما اقتنع بصوابه، وصار سنده. كما قلت من قبل: «انفصل عن باولينة، وذهب مع اليونانيّة إلى ميونخ، حيث اشترى لنفسه قصراً على البحيرة الجميلة في بافاريا العليا. أنت تعرف هذا القصر».

– أجلْ، أمرٌ مذهلٌ! هذه الغابة، وهذه البحيرة. البحيرة رائعة، ورؤية جبال الألب على الجانب الآخر، ولكنّ الغابة مظلمةٌ، ولها طابعٌ عسكريّ. شجر التنوب. جميلة أشجار البلّوط القديمة التي تحيط بالقصر والمنحدر المؤدّي إلى الشاطئ.

– شجر التنوب، هذه غابةٌ صناعيّة؛ لا غموض في ذلك. خشبٌ ينمو سريعاً. إنّها زراعةٌ تحكمها اقتصاديّاتٌ بَحتة: تصنيع الورق، وخشب

البناء. زُرته هناك في أثناء إقامتي في برلين، عام 1919، وكنت ضيفاً في قصْره. نقلت في عام 1931 إلى ميونخ، وكنت أكتب، وألقي محاضرات. لا شيء مهمّ، وليس في مكانٍ حاسمٍ مثلما كانت الحال مع بيبل. مقالاتٌ صغيرةٌ، ونصوصٌ تقييميّةٌ، وشاركت في مراجعة أوراق نقابة اتّحاد العمّال الأحرار الألمان وتصحيحها، ليس شيئاً عظيماً، ولكنّني كنت متّسقاً مع نفسي، ومع عملي، إلى أنْ أُلقي القبضُ عليَّ بقوّةٍ مندفعة.

تابعت بعدها أعماله من بعيد. كان لديّ وقتٌ كثيرٌ في القبْو. وضعتُ -على سبيل الاحتياط، إنْ وقع تفتيشٌ مفاجئٌ من الحزب- كتابات الصديق إلى جوار كتاب «أسطورة القرن العشرين» لروزينبرج. أجلْ، ظللت أتابع الصديق القديم بقراءة أعماله، تماماً مثلما كنت أرافقه في شبابي بوصْفي مساعده.

صوتٌ يقول: لننْهِ حديثنا اليوم.



مركب ذو مُحرّك

ذهب مرّةً أخرى إلى شارع لودفيج، وإلى مباني الجامعة. أُعيد بناء الواجهة المدمَّرة حتّى الدَّور الأوّل. نجح الطلّاب في توفير ماكينة خلْط الإسمنت. تطلّب كلّ شيءٍ التنظيم؛ لأنّ الطلب والشراء لم يكونا مُتاحَيْن بعْد.

كان يوم سبت، ومع ذلك كان الطلّاب يعملون، ويقفون فوق السقّالات. انتهوا من صبّ السقف، وبعض المناطق غُطّيت مؤقّتاً بالمشمّع؛ حتّى لا تتسرّب الأمطار إلى داخل قاعات المحاضرات. من المفترض أنْ تبدأ المحاضرات في الفصل الدراسيّ الشتويّ مرّةً أُخرى. أُنتقيَ الطوب السليم من الحُطام، وجُمِع في عددٍ من الأكوام. توقّف هانزن في هذا الصباح أيضاً، وراقب شابّاً بفانلّةٍ رماديّةٍ فاتحةٍ، رافعاً أكمامه، ويزيل الملاط القديم عن الطوب. كانت حركات يَديه متمرّسةً؛ يُمسك الطوب باليَد اليسرى، ويزيح بمطرقةٍ مسطّحةٍ المناطق البيضاء عن الطوب البنّيّ المائل إلى الحُمرة. الطوب المتخلّص من الملاط يوضَع بعنايةٍ في كومةٍ، يشوبُ لونَه البنّيّ المائل إلى الحُمرة بعض البقع الفاتحة القليلة، التي تشير إلى استعماله قبل ذلك.

سأل هانزن الشابّ عن دراسته: الفيزياء. استُدعي قبْل عامٍ لدخول

القوّات المسلّحة النازيّة، واعتُقل بالقُرب من غونتسبورغ، مكان ليس بعيداً عن ميونخ، ثمّ أُفرج عنه سريعاً. سأله عن الخطوة التالية، فقال الطالب: «لا أعرف. سنرى ماذا سيحدث، الأهمّ الآن إعادة ترتيب المكان هنا».

عرض هانزن عليه سيجارةً، ولكنّه رفض شاكراً، ولكنْ زميله مدخّنٌ، فأخذ -بحِرصٍ- سيجارةً، وناولَ زميله الذي يقوم بتنظيف الطوب أيضاً.

واصل هانزن سَيره، تردّد في زيارة فاغنر داخل متجر الكتب القديمة. قال لنفسه: «إنّها ليست فكرةً جيّدةً»؛ لأنّ الثقة التي نشأت بينهما لا يجب تقاسمها مع أكستهيلم. مشى في شارع لودفيج، ومرّ من أمام المكتبة الوطنيّة وتماثيلها الحجريّة للفلاسفة اليونانيّين. بدا أنّهم كانوا يفكّرون، وهُم جلوسٌ، فيما يحدث أمامهم: الحُطام، ومكعّبات الحجر المفتّتة، والأعمدة الممزّقة، والألواح المحروقة، والشارع المشقوق.

واصل سَيره، وجلس في ميدان أوديونز بلاتس في مقهى أُعيد افتتاحه.

-21 تموز/ يوليو-

ما يبهر في الألمان العمل بهمّة، والتفاعل، ومقاومة الأقدار. ربّما جاء هذا نتيجةً لهذا التاريخ، هذا التاريخ الكارثي، هذه الحروب كلّها، التي عاشتها وتسبّبت فيها. لا أرى خمولاً، ولا يأساً، بلْ عزيمةً، وهمّةً، وإصراراً شديداً.

نجح عريفٌ في العثور على الأنبوب الموزّع، وإدخاله في المحرّك. أطلق هانزن وجورج على المركب اسْم بورا-بورا. المحيط الهادئ الجميل. عَبَرا البحيرة بكامل السرعة، ضاغطين على رافعة الغاز، ارتفعت

مقدّمة المركب إلى الأعلى، وتراكمت خلفهما الأمواج. **إنّه يستهلك الكثير من الوقود.**^ تتبّعا البطّ الذي كان يطير سريعاً إلى الأعلى، وسارا في دوائر صغيرةٍ بالمركب المائل، ثمّ توجّها إلى الجنوب، إلى جزيرة شفيدن إينزل، ومن هناك إلى منطقة ديسن، حيث برج كنيسة الدير. غيّرا المسار عند الشاطئ المكسوّ بالغاب، وكانا على مسافةٍ آمنةٍ من منطقة الناموس، أنزلا سُلّم السباحة، وقفزا في الماء وسَبِحا، ثمّ عاد الاثنان إلى سطح المركب، وتمدّدا على السطح الخلفيّ العريض لأخذ حمّام شمس.

أصوات المياه تحت قاعدة المركب، وهبّت نسمة هواءٍ بالقوّة التي تجلب بعض التلطيف للطقس.

قال جورج: «**كان يمكن أنْ تكون هذه هي الجنّة لولا هذه التقارير**».^ تقارير يجب عليه قراءتها عن تجارب التبريد، ويمكن أنْ تكون هذه هي الجنّة، لولا أطبّاء المعسكرات المطلوب التحقيق معهم. كيف يمكن لهؤلاء البشر المقيمين هنا في هذه الطبيعة، التي خلقها الربُّ في حالةٍ مزاجيّةٍ جيّدةٍ، أنْ يكونوا بهذه الوحشيّة إلى درجة القتل والتجويع، وممارسة التجارب الدقيقة على البشر، وتعذيبهم حتّى الموت؟ كيف حدث ذلك مع وجود هؤلاء الأبطال كلّهم اللّذين يفتخرون بهم: غوته، وكانط، وشيلر، وليسنج، مع الجامعات والمدارس، وحصص اللّغة اللاتينيّة واليونانيّة، ومع هذه العبارات: الإنسان راقٍ، متعاونٌ، وخيِّر. كيف وقعت هذه الجرائم كلّها؟ قرأ تعليمات هيملر لإجراء التجارب على السّجناء، على من كانوا في القاع ولا يلتفت إليهم أحد. وعدوهم بتخفيف مدّة السجن، مقابل تعذيبهم حتّى الموت. أطبّاء يتابعون ضغط الدّم، ويقومون بالتجارب على البشر، كأنّهم جرذانٌ، أو أرانب، ثمّ يراقبون ضغط الدّم؛ متى يرتفع، ومتى ينخفض. لقد

تحدّث إلى هؤلاء الأطبّاء، وماذا قالوا. الهدف كان اكتساب المعرفة، وكان المطلوب هو التحلّي بالبرود. في نهاية الأمر، تعرّض الألمان لأشياء تفوق الوصف على الجبهة. قالوا: ماذا عن قصْف المناطق السكنيّة بالقنابل على مساحاتٍ واسعة؟ ماذا عن النساء والأطفال الذين احترقوا أحياء؟ لم يفكّر الأمريكان والبريطانيّون في ذلك. لا شعور بالذنب، ولا مشاعر، هذه هي أعذارهم. يحاولون تجميل صورة وحشيّتهم.

اعترض هانزن: صحيحٌ أنّها الأغلبيّة، ولكنْ ليسوا جميعاً كذلك. لذلك، فإنّ منْع التآخي إجراءٌ خادع. هناك درجاتٌ من العِلم، والمشاركة في العِلم، والمشاركة في العمل. درجات مختلفة: هناك من رأوا وصمتوا، وهناك من ساعدوا، وهناك من زاد ثراؤهم، وهُم مبتسمون، وهناك الجُناة الذين عذّبوا وقهروا، وهناك من كان عليه النظر إلى الوضع وتجاهله، وهناك أيضاً من قاوم. اتّهمه جورج بعد ذلك بأنّ لديه بقايا من تفهُّمٍ للوضع، وإنْ كان في الماضي الطفل القادم من ألمانيا. إنّه يرفض إدراك الكارثة؛ لأنّه منحازٌ، نيّته طيّبةٌ، ولكنّه منحازٌ، مثل الكثيرين الذين كانوا منحازين.

- توقّف!

على عكس رحلة الذهاب المبهجة، جلسا في أثناء العودة في حالة من الصمت. ربطا المركب داخل الميناء الصغير المحفور، وصعدا الطريق إلى المنزل الفخم في حالةٍ من الصمت.

قال جورج: «أنا آسف».

قال هانزن: «حسناً»، ثمّ ودّع كلٌّ منهما الآخر بالتربيت على كتفه.

ظلّ مُستلقياً في حالة يقظةٍ مدّةً طويلةً، يفكّر في الصبيّ إرنست لوسا، الذي قُتل؛ لأنّه لافتٌ للأنظار، وفكّر في الغرفة المكسوّة بالبلاط التي وصفها الدكتور ألكسندر: هي أشبه بقاعة استحمامٍ، ولكنّها قاعةٌ للقتل،

سقفٌ بفوّهاتٍ توحي بأنّها مرشّات الحمّام، كانت تُدخل الغاز، وفكّر في الأطفال الذين كانوا يعطونهم اللّومينال بطعم التوت اللّذيذ، وفكّر في الرجُل العجوز الذي كان يتحدّث إليه على مدار ثمانية أيّامٍ حتّى الآن، محاولة لفهْم ما ليس مفهوماً. كان جورج على حقّ في هذه النقطة. فكّر في أنّه ليس في مكان جورج، هل هذه مصادفةٌ سعيدةٌ أم ليست مصادفةً على الإطلاق؟ لقد طلب إليه التحقيق، ليس مع الجُناة، بلْ مع الضحايا. كان جورج محقّاً في أنّ الغالبيّة الساحقة مُذنبة؛ لا يمثّل المنصفون سوى حفنةٍ من البشر، بلُغة الإنجيل، منهم هذا العجوز الذي انسحب إلى داخل سرداب الكتب.

اليوم التاسع

- لقد أحضرت القهوة، والسُّكَّر أيضاً؛ يمكننا إعداد فنجان قهوة، وهذه علب سمك التونة.

- شكراً، هذا يكفي لعددٍ كبيرٍ، كبيرٍ جدّاً من فناجين القهوة.

- أفهم رغبة بلوتز في منع انتشار الأمراض الوراثيّة، ولكنْ ما هذا التقديس للجنس الجرمانيّ؟

- أعتقد أنّه أثبت من خلال قياسات الجمجمة أنّ العرق الجرمانيّ يملك أكبر حجم جمجمةٍ بين الأعراق الآريّة الغربيّة. لقد ملأ الحيّز الداخليّ للجمجمة بحبّات الخَرْدل، وحسب وفقاً للكميّة حجْم الدماغ ووزنه. كان هذا شيئاً قابلاً للقياس، الباقي يخصّ العلوم الإنسانيّة. آراءٌ تعرض الإنسان للقياس، عمليّة قياسٍ رياضيّة هندسيّة، ولكنّها غير دقيقةٍ بحُكم المبالغة فيها.

سألت بوصْفي شخصاً مهتمّاً غير متخصّص: ما الذي يمكن استنتاجه سوى التطاول؟ أليس هناك عددٌ كبيرٌ من الرؤوس ذات الحجم الكبير والخاوية؟ أريد القول: «إنّ الجودة تلعب دوراً عن الكمّ». يوستوس ليبيج، الكيميائيّ العظيم، الذي أسْهم باختراعه السماد المعدنيّ في الحفاظ على

حياة البشر أكثر من علماء الفِراسة في تحسين النسْل، كان له دماغٌ صغيرٌ، ولكنْ توصّل الصديق إلى قناعةٍ متّسقةٍ مع رأي داروين: أنّ العرق الآريّ الغربيّ هو أفضل الأعراق الحضاريّة في زمننا المعاصر، إنّهم يتحكّمون عن حقّ في العالم. أدّى الطقس الشماليّ القاسي وغير المناسب إلى تعزيز القوى الجسديّة والفكريّة في سياق الصراع من أجل البقاء. سوف أقرأ عليك هذا الموضع.

- اترك الأمر...

هنا، لقد وجدتها اليوم في الصباح: «يكفي على أيّ حالٍ أنْ نجد في العرق الأبيض، ضخم الجثّة، وبمظهره الجانبيّ المرتفع إلى أعلى، وجمجمته الأكبر حجماً، نمطاً قيّماً وعالي المنزلة، يجب أنْ نحارب بكلّ قوّةٍ التأثيرات المضادّة للانتقاء التي ستؤدّي إلى ذوبانه». لاحظ اختياره لكلمة ذوبان، وعلاقتها بالعصر الجليديّ.

يجب أن نتخيّلهم على هذا النحو: بقاماتهم الممدودة، مُرتدين فراء الدّببة، وشَعرهم الملبّد مضمومٌ في ضفيرةٍ ومرفوعٌ إلى أعلى، وتكسو النّدوبُ أقدامهم من السَّيْر في الغابة، وكذلك النّدوب في أيديهم من سَلْخ الحيوانات المقتولة، وأعضاءٌ ذكريّةٌ ضخمةٌ، تتدلّى تحت سُترة فراء الدّببة بحُرّيّةٍ، وتتعرّض للتهوية جيّداً، وسيّداتٌ بصدورٍ في حجْم القرع، يحببن الحمْل، وأحواضهنّ عريضةٌ، وأطفالٌ بشَعرٍ أشقر، من العرق الجرمانيّ بلغة علماء تحسين النسْل، هذا ما كان يدور في الرؤوس. أتظنّ أنّني أبالغ؟ فلْتذهب إلى متحف البيناكوتيك، لترى اللّوحة المرسومة بالزيت للفنّان بيلوتي، وهي العمل المقابل للوحة الانحدار في باريس، توسنيلدا، وهي في موكب نصر جرمانيكوس. أُنظر إلى السيّدات الرومانيّات المنحلّات الجالسات على سور روما، والمتعطّشات للحيوانات المنويّة الشقراء، في

حين يمرّ زيجفريد المكبّل بالأغلال. أُنظر إلى الشاعر العجوز المنتمي إلى شعب تويتونيا، بشَعره الرماديّ، وزينته المصنوعة من أوراق شجر البلّوط، الذي يُحمل مكبّلاً بالأغلال، أيضاً في موكب النصر. ربط قيثارته الضخمة المصنوعة من قرون الحَمَل حول جسده، هذا العجوز المحترم يشدّه من ذقنه جنديٌّ بذقنٍ سوداء اللّون، ويبتسم ساخراً، كما تجد، على هامش هذه اللّوحة، رجُلاً رومانيّاً عجوزاً معلِّقاً، يشرح معنى هذا المشهد لشابٍّ يحمل مخطوطةً في يده، يبدو أنّه تلميذ. ينطوي المشهد، على الرّغم من عَرضه موكب النصر، على سقوط روما المُنعمة. أُنظر إلى الدُّبّ الذي يصاحب الجيرمانيّين بوصْفه حيواناً منزليّاً. هذا هو التوحّش والقوّة في المستقبل، وإنْ سحبوه من حلقة في أنفه. هذه هي الصور التي صاحبت صعود ألمانيا في المرحلة الصناعيّة وتأسيس الرايخ. بالمناسبة، عُلّقت في متجر الكتب القديمة عدّة صورٍ تعبّر عن القوّة الخارقة للجرمانيّين. علّق أكستهيلم لوحةً بطباعةٍ حجريّةٍ رمزاً للأمل في عودة القوّة والشدّة إلى ألمانيا المذلولة مرّةً أُخرى. هل لي أنْ أقول: «إنّ هذه ليست رغبتي؟».

وإنْ كنت، كما تدّعي؛ مهاجراً إلى العالم الجديد، فإنّك أقسمتَ على دستورهم، وهو لا يتعلّق بالحُرّيّة فحسب، مثلما يعرفها الدستور الفرنسيّ في موضعٍ مركزيٍّ، ولها أهمّيّةٌ خاصّةٌ بالطبع، بلْ بما هو أكثر من ذلك: المطالبة بالسعادة. إنّه مطلبٌ يتعلّق بالفرْد، بسعادته، هنا والآن وفي هذه الحياة، وليست سعادة الشعب، أو سعادة جنسٍ بشريّ. هل لي أنْ أقول لك: «إنّ قوّةً كبيرةً تكمن في هذا الموقف الهادئ، الذي لا يكون بالضرورة متراخياً: بشرٌ لا يجب عليهم الوقوف دائماً بانتباهٍ شديدٍ، داخليّاً وخارجيّاً. اليدان في جيوب البنطال، عوضاً عمّا أمرنا به نحن، بوضعهما على الوسط. الأقدام فوق المنضدة، عوضاً عن التعبير عن الطاعة».

لقد دُمِّر متحف البيناكوتيك، أجلْ، ولكنْ أُخرجت الّلوحات مع بداية الحرب. أظنّ أنّها متاحةٌ لك. أُنظر ماذا كان يدور في العقول، ستضحك، وأنا كنت أضحك، ومع ذلك، كان هناك من العقول الذكيّة والموضوعيّة، مثل: الصديق القديم، الذي سُعِد بهذه الّلوحات. تزايدت هذه التصوّرات في فكرهم الذي تحكمه السببيّة والحسبانيّة، وأتاحت المساحة الداخليّة الأكبر داخل الجمجمة حيّزاً أكبر للغباء. قلت له في برلين: «إنّ الدماغ يمكن استعماله مثل اليد؛ قد تخنق بها، أو قد تسحب غريقاً من الماء».

كنّا نتقابل بين الحين والآخر في مقهى في منطقة كورفورستندام. كنّا نجلس لنتكلّم ونتكلّم، ولكنْ كانت مناقشاتنا بلا جدوى. نشر بعد سنواتٍ من العمل مُجمل أفكاره: «نشاط عِرقنا وحماية الضعفاء»، محور النصّ العلاقة بين الطهارة العِرقيّة وبين الإنسانيّة المضادّة للانتقاء. قال: «إنّ رعاية الضعفاء، أو من أطلق عليهم غير الكاملين، تؤدّي إلى سقوط الأعراق البشريّة الثقافيّة»، وقال: «إنّ الرعاية مطلبٌ طبيعيٌّ للضعفاء، والمتقدّمين في العمر بالتأكيد، ولكنْ لا يجب انتشار الضعف؛ لأنّ هذا يعني بداية سقوط هذا العِرق. الانتقاء ربّانيٌّ، والعمل المناهض للانتقاء هو الشعور بالأسف، والإعانة الاجتماعيّة المقدّمة من الشيطان». خطابٌ دينيٌّ من قِبَل شخصٍ مُلْحِد. هل لي أنْ أقول لك: «إنّ لفظ (عِرق)، الذي اضطرّ إلى نُطقه، يسبّب لي الغثيان لحظة نُطقه؟». كانت لحظتها كلمةً جديدةً في فمه، وتذكّرني دائماً بسُلالات الأرانب، والكلاب، والدجاج. الآن، وبعد أنْ صارت الكلمة واقعاً، بعد جوازات السفر بحسب العِرق، وقانون العِرق، ومديريّة الشؤون العِرقية، والعار بسبب العِرق، صار الأمر مثيراً للغثيان. شملت الكلمة بالطبع وقتها، بحسب استعماله، ما هو غير

إنسانيٌّ كلّه. يجب سقوط الضعف، هذا هو قانون الطبيعة. كان يقول: «كيف يمكن الجمْع بين حماية الضعيف مع تصوُّر التطهير العِرقيّ عن إبعاد أصحاب الجينات الضعيفة، وهُم كُثر وسط الضعفاء؟ كان لديه حينها هذا المقترح الإنسانيّ، كما أطلق عليه: من خلال الانتقاء الأفضل للسُّلالات العرقية. نظر إلينا رجُلٌ وامرأة على المائدة المجاورة، هو ببزة الضابط، والسيدة الشابة الرقيقة بجلد ثعبان أسود ملفوف على كتفيها، بشرة رقبتها تلمع بلون أبيض تحت شعرها الكثيف المرفوع لأعلى. ترتدي قبعة بريش نعام، لونه بين الأبيض والرمادي، وسطها محكوم بمقوام. كانا يشربان الشامبانيا. صورة أراها بدقة أمامي؛ لأنني شعرت للحظة بالخوف من أن الضابط بالشارب الأشقر الفاتح ربما سمع مصطلح «الانتقاء الأفضل للسلالات العرقية»، وظن أنه هو المقصود. ولكن عاد الاثنان لتبادل النظرات، من دون الاهتمام بمن حولهم. قال: «هذه اليهوديّة المصابة بالأنيميا، المربوطة بالمقوام، التي لا تصلح للرضاعة، ولكنْ لديها المال». تغيّرت منذ هذه اللّحظة نظرته إلى اليهود؛ كان قبلها يراهم الفرع الموهوب من العرق الآريّ، وبدأ الآن في رؤية المميّزات التي كان يقدّرها رؤيةً مناقضةً تماماً، مثل الموهبة اللّغويّة، والقدرة على التكيُّف، وحسّهم للموسيقا والرياضيّات. الموهبة اللّغويّة مجرّد وسيلةٍ للمحاكاة، وقدرتهم على التكيُّف التي كان يعدُّها قدرةً مهمّةً لمعركة الحياة، صارت تكتيكاً ذكيّاً لا يبالي إلّا بالمصلحة العمليّة، والموهبة في الرياضيّات كانت مطلوبةً للحسابات، المال، ثمّ المال.

ربّما شحب وجهي، وهَممتُ بالاعتراض الشديد، ولكنّه قاطعني: «لا يمكن التعميم بالطّبع، وبالتأكيد هناك استثناءات وأمثلة مؤثّرة تثبت العكس؛ بشرٌ يمتلكون حِسّاً عالياً للظلم الاجتماعيّ». يفكّر على سبيل

المثال في: لاسال، وماركس، أو صديقنا سيمون من مجموعة الباسيفيك، ولكنْ قال: «إنّ علينا في العموم رؤية المشهد على هذا النحو». ثمّ ذكر أمثلةً من عمله في رئاسة التحرير.

قاطعته قائلاً: «إنّ كلّ مثالٍ يذكره أستطيع نقضه بشخصٍ غير يهوديٍّ طامعٍ في المكسب، يخطّط بدقّةٍ، وموهوبٍ لغويّاً. ما القيمة المضافة إذنْ؟ صفر، صفر مضروبٌ في صفرٍ نتيجته صفر، لا شيء إذنْ».

كانت السُّخرية غريبةً عليه، ولا يملك موهبة الفكاهة، الفكاهة في حاجةٍ إلى مسافةٍ عن الأشياء، ومسافةٍ بينك وبين نفسك، كان ينقصه إدراك أنّه مُخطئ.

دارت النقاشات بيننا في المقهى على هذا النحو.

هو: «صديقك بيبل شخصٌ طيّبٌ، كما عرفته بنفسي في حواراتٍ طويلةٍ، ولكنّ طبعه، بوصْفه حرفيّاً مستقلّا، ليس مناسباً لتحقيق تغييرٍ حقيقيّ. يصلح أصدقاؤك الديمقراطيّون الاجتماعيّون في العوارض. لا يريدون الثورة، الشيء الجديد حقّاً. فكّر في الثورة الفرنسيّة، الوحيدة الحقيقيّة، التي أرادت إسعاد البشر كلّهم، وكان من المفترض أنْ ينشأ إنسانٌ جديدٌ، لا عدد أكبر من القانونيّين».

أنا: «التغيّرات الحقيقيّة لا تحدث إلّا خطوةً بخطوة، ويجب على الجموع رؤية ضرورتها، إنّها مسألة تربيةٍ وتعليم».

هو: «أعرف ذلك، لقد شاهدنا الوضع في إيكاريا. فلْتحاربوا من أجل حقّ المرأة في التصويت، والعمل لمدّة ثماني ساعاتٍ في اليوم، ولكنّ تحقيق تطوّرٍ يفوق الفرْد الحاليّ، لنْ يحدث إلّا عبْر انتقاءٍ واعٍ للنوع. حينما يكون هناك خطر الرغبة الجنسيّة بلا رقابة، أو الإدراك الناقص للمرضى العقليّين، يجب الوقاية بالتعقيم، ولنْ نصل إلى تطوّر الإنسان إلّا من خلال

المعرفة الطبيّة، وكذلك الهندسة، والعلوم الطبيعيّة الأُخرى. يمكن تدارك النواقص، ومعها النواقص الأخلاقيّة، والسيطرة على النشوء، والتنظيم الواعي للمجتمع، هذا هو الطريق الذي سيقودنا لما هو أبعد».

أنا: «يجب أوّلاً إطعام الجميع، ومنحهم مأوى، وإيجاد فِراشٍ للمريض على الأقلّ، وحساء يتناوله».

هو: «ما أقوله الآن قد يبدو قاسياً، ولكنّ دعْم المرضى يجب أنْ يكون في أضيق الحدود، ومع هؤلاء الذين ليس لهم تأثيرٌ على النسْل. هذا النوع من المبالغة في المشاعر، مثل الرعاية المستمرّة للمرضى، والمكفوفين، ومرضى الخرس الصُّمّ، هذا كلّه يمنع ويؤجّل تأثير الاختيار الطبيعيّ للسُّلالة».

كانت هذه هي إجابته، بالمعنى الإجماليّ، قلت: «النهاية هي انعدام الإنسانيّة».

هو: «لا، هذا مستوى أعلى من الإنسانيّة. الحمد لله، اسْمح لي بالاستشهاد بالرجُل العجوز الجالس في منصبٍ أعلى. لقد أدرك حزبكم الديمقراطيّ الاجتماعي أهمّيّة تحسين النسْل. إنّكم تدعونني إلى مناقشاتكم. يقرأ رفاقك في المناصب الأعلى (نشاط عرقنا وحماية الضعفاء)».

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، صحيحٌ أنّ حزبنا الديمقراطيّ الاجتماعيّ فكّر في كيفيّة منْع تناقل الأمراض الوراثيّة، والأهمّيّة السياسيّة لتوعية المُقبلين على الزواج بالأمراض الوراثيّة.

هو: «تنمية القدرات الموجودة بالانتقاء الهادف للشريك، وبالتغذية الجيّدة. تربية السُّلالات الذكيّة للأزواج تزيد من حجْم الدماغ».

أنا: «وماذا عن الجمجمة؟».

هو: «درز الجمجمة قد يتمدّد. من الوارد أنْ ينغلق هذا الدرز في عُمرٍ متقدّم، فتزيد بذلك المساحات البينيّة، وتسمح بحجمٍ أكبر للمُخ. كيف يمكن تنفيذ التزاوج الذي اختير لصالح تربية سُلالةٍ أرقى، في مستوطنة ميتجارت؟».

هو: «هذا هُراء».

- ما هذه المستوطنة؟

- مستوطنات ميتجارت، إنّه مشروعٌ لفيليبالد هينتشل، الذي كان الصديق القديم يعرفه. كان هينشل يدافع عن التزاوج الحُرّ، ومعترضاً على الزواج الأحادي. كان يؤمن بأنّ البشر مثل الأرانب، وأنّهم، بحُكم قانون الطبيعة؛ مثل ذَكر الأرنب القويّ الذي له الحقّ المُسبق في عددٍ كبيرٍ من النساء. اعتقد هينتشل أنّه في العهد المثاليّ السابق، وقت أنْ كان الصراع على البقاء صراعاً جسديّاً، كان الرجُل الجرمانيّ يقتل تسعةً من الرجال الآخرين ليتقدّم إلى أراملهم. نستطيع أنْ نجد لدى هينتشل أيضاً هذا الالتقاء المذهل بين عدم العقلانيّة وبين العلوم الطبيعيّة الحاسبة. كان هينتشل عالِماً كيميائيّاً مهمّاً، جنى ثروةً كبيرةً من براءات الاختراع والاختراعات، واشترى الأراضي؛ إذْ أراد بناء مستوطنات ميتجارد مجمعةً من أجل تربية سُلالةٍ أرقى من العِرق الآريّ. بحث عن ألف سيّدةٍ متحرّرةٍ، بقامةٍ طويلةٍ، شقراء، وبعيونٍ زرقاء، بلا إصاباتٍ في العمود الفقري. عاشت أولئك السيّدات مع مجموعةٍ منتقاةٍ من مئة رجُلٍ على مدار أسابيع عديدة. طلب إليهم ممارسة علاقاتٍ جنسيّةٍ متعدّدة؛ ليُتيحوا إنتاج جرمانيّين يحقّقون المتطلبات جميعها. في وسط هذا كلّه، أستاذنا البروفسور هينتشل، طلب إلى النساء والرجال بعدها الانفصال؛ لينشغلوا بعدها بمهامّهم في الريف

والاقتصاد المنزليّ. أخفق المشروع؛ لأنّ أربع سيّداتٍ فقط تقدّمن إليه، في حين توافد الآلاف من الرجال إلى هذه الجماعة، وأرادوا المشاركة.

عدَّ الصديق هذا المشروع تحديداً هُراءً، وهذا الهُراء تحقّق لاحقاً في منطقة ليبنزبورن. كان هيملر مؤيّداً لهينتشل، ونال احترام هتلر أيضاً، الذي كان يهنّئه كتابيّاً بعيد ميلاده. هينتشل هو الذي قدّم تحيّة «يحيا هتلر» إلى المجموعة، اقتبسها من الرومانيّين، ولكنّه أضاف فكرة مدّ اليد إلى الشمس، إلى القائد.

- ولكنْ كيف دخل صديقك إلى هذه المجموعة الشاذّة؟ هذه المجموعات السرّيّة الغريبة؟ أقرأ حاليّاً النصوص اللّيليّة لإيتا هوفمان، برسوماتٍ لكوبين.

- إنّه كتابٌ جميلٌ، كان لدينا مرّةً، أو مرّتين، قُمنا ببيعه سريعاً.

- إنّه هديّةٌ من أستاذي. قصّة «المنزل المملّ» أدخلتني في متاهة. قرأتها منذ يومين ليلاً، كان فيها شيءٌ مُخيف. بدا لي جنون الكونتيسة طبيعيّاً في عالمٍ يسوده تبديل الأشياء. لمْ يعد هناك أيّ نوعٍ من الاتّساق. والآن قصصك هذه عن تربية السُّلالات والاتّحادات السرّيّة. أليس لكلّ هذا طابَع الجنون؟

- رؤيتك هذه مثيرةٌ للاهتمام؛ لأنّ هذه المجموعات كلّها كانت سرّيّةً، ومجموعات من الصفوة أرادت تربية مجموعاتٍ جديدةٍ منتقاةٍ وقادرةٍ على المقاومة. تأسّس في عام 1905 اتّحاد برلين للتطهير العِرقيّ. ذهب بلوتز في عام 1907 إلى ميونخ، وأسّس هناك اتّحاد ميونخ للطهارة العِرقيّة، أظنّ في عام 1910 الاتّحاد الشماليّ السرّيّ، ثمّ نادي القوس في ميونخ، وحلقة نوردا، واتّحاد الشمال، ولاحقاً في عام 1918 اتّحاد فيدار.

- إنّه أمرٌ مثيرٌ للحَيرة، أليس العلماء بشراً تفكيرهم موضوعيّ؟

- هذا ما نظنّه، ولكنْ من الممكن أنْ نجد الجمْع بين الاثنين. أنا لا أعرف سوى القليل عن الأحياء والطبّ. أظنّ أنّ الخطأ يكمن في بلوتز نفسه، في منهجه الذي يساوي بين العرق وبين المجتمع. لقد نقل العمليّات البيولوجيّة إلى البُنية الاجتماعيّة والشخصيّة، واعتقد أنّ بناء الخليّة يحدّد من خلال تاريخ تطوّرها مصير الأفراد، وبذلك تفاصيل سلوكه الاجتماعيّ كلّه، وعلى ذلك الأوضاع الاقتصاديّة، وتكوّن الدولة والثقافة. كان يسأل: هل هي مُصادفةٌ أنْ تنجب ألمانيا هؤلاء الملحّنين والموسيقيّين العظام كلّهم؟ يجب البحث عن أسباب خصوصيّات جنسٍ بعينه. يُطلق على هذا العِلم عِلم بيولوجيا المجتمع، وتنقسم إلى فسيولوجيا وباثولوجيا المجتمع، فضْلاً عن التطهير العِرقيّ المجتمعيّ. يتحدّث في نصِّ «نشاط جنسنا» عن دولة الخليّة التي يمثّلها الفرْد، ويتحدّث أيضاً عن نماذج دولة الخليّة الأُخرى الموجودة في الحياة، ويمكن المقارنة بها، مثل: القبائل، والشعوب، والأعراق. إنّه نقلٌ للبيولوجيا إلى مجالات الحياة جميعها: السياسة، والأخلاقيّات، والحقوق، والتاريخ. تحكمهم جميعاً قوانين علوم الطبيعة. أعلن: قانون المسبّبات العام هو في الوقت نفسه قانونٌ يحكم علوم الطبيعة والاجتماع. إنّه يشمل الوجود الحيويّ، وغير الحيويّ، والاجتماعيّ أيضاً. العِرق هو الركيزة الحيويّة للتكوينات الاجتماعيّة كلّها. العِرق والحضارة متطابقان.

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، وماذا عن الاختيار الحُرّ؟ هل يحكمه التكوّن الخلويّ؟ قال: «نعم، الاختيار الحُرّ. ما تفعله يمكن استنتاجه من تركيبة الخلايا والأعصاب. إنّها محدّدةٌ مسبقاً، ولكنّ القرار اللّحظيّ يُخضع القابليّة لرغبة القرار، وتكمن في هذه الرغبة القدرة. إنْ كانت الإرادة قويّةً، يأتي الاختيار الحُرّ، وإنْ كانت الإرادة ضعيفةً -وتلعب هنا تأثيراتٌ دوراً يمنع الرغبة

القويّة، مثل: الكحول، ومرض السلّ، والاستعمال المفرط للدخان-تكون رغبة الحياة ضعيفةً، وبذلك أيضاً الاختيار الحُرّ». سألتُ: «الروح؟».

قال: «الذرّات»، ثمّ عاد إلى العصر الجليديّ: «يبدو أنّ الانتقاء الأعنف في نطاق طقسٍ صعبٍ وقاسٍ يؤدّي إلى تصعيد القوى الجسديّة والفكريّة للجنس البشريّ الذي يعيش هناك».

- وماذا عن الصينيّين؟ الصينيّين الذين اخترعوا قبل أربعة آلاف عامٍ الكتابة، والبوصلة، والبارود، وطبّاً متقدماً، في حين كنّا نحن نمشي بجلود الدِّببة وسط الغابات؟

قال: «سؤالٌ جيّدٌ. هذه الحضارات: الصينيّة، واليونانيّة، والرومانيّة، أمثلةٌ لنظريّته؛ لأنّهم سقطوا بسبب التدهور».

ألا يؤثّر في الحضارات ما هو أبعد من النشاط الحيويّ، من حجْم الأطراف والجمجمة، والشكل الجانبيّ العالي، ليس الصحّيّ فحسْب، بل الشاذّ، والمريض، والمصاب؛ لأنّ هذا يُنمي الشعور بضرورة الوصول إلى الأفضل، ألمْ تكن بداية يوتوبيا في النقص وعدم التوافق، وليس في الجماجم الكبيرة والأطراف الطويلة؟

هذا ادّعاءٌ شرّيرٌ لا يتوافق مع رؤيتي للبشر ومظهرهم الخارجيّ، ولكنْ ألمْ يكن للعبقريّ داروين تشابه مع القرود؟ هذا الجبين الهارب، والأورام السميكة حول العيون؟

- هل كانت هذه مرحلة مشاركته في حلقة نوردا؟

- نعم، كانت هذه هي مرحلة الحديث المملّ عن الشأن الآريّ، الشعب، السِّمات الألمانيّة، باللّغة القوطيّة: ثيوس. هذا هو المعنى الأعمق، ويجب الإنصات إليه. اللّغة نفسها تتحدّث إلينا.

هل يمكن إنهاء حديثنا اليوم؟

النجمة البرونزيّة

طُلب هانزن في ميونخ لتقديم تقرير.

عرض ميدلتون عليه الجلوس، وسأله عن سَير أبحاثه. ردّ هانزن بحَذرٍ بأنّها تتقدّم، ومرحلة منعطف القرن تمثّل حاليّاً أهمّيّةً. خشي من صدور أمرٍ من ميدلتون بطلبه في فريق الإدارة، ولكنّ الضابط قال: «إنّ سبب طلبه هو منحه النجمة البرونزيّة من قِبَل رئيس الفرقة؛ بسبب معركة ديترزدورف».

حاول هانزن توضيح أنّه لا يستحقّ النجمة البرونزيّة، وأنّه دخل بمَحْض المصادفة مع سائقه إلى هذه الجبهة، وأُطلقت عليه النار من بندقيّةٍ آليّةٍ من جهة إحدى القرى، حيث واجه بعض الضبّاط الألمان مجموعةً من عاصفة الشعب تحت قيادة حامل لواء. كان يرقد في الخندق، وضرب بعض الطلقات من مسدّسه. **إنّها المرّة الوحيدة التي سمعت فيها صفير الطلقات يا سيّدي.**^ لا، إنّه لا يستحقّ هذا التكريم. الأولى به هو القائد الذي تقدّم سريعاً إلى الأمام وأخْرجه.

لوّح ميدلتون بيده، ربّما حصل عليه هو الآخر. لا داعي للإبلاغ ببياناتٍ، أو بالرفض؛ هذا يشعل الجهاز البيروقراطيّ بأكمله. لا، لا داعي للتصحيح. مبارك. نهض هانزن من مكانه. لمْ يكن يشعر بالفخر، ولمْ يكن فخوراً بالفعل، ولكنّه وضع قبّعته بحسب التعليمات، كان يعرف التعليق،

اتّخذ وضعه، وبعد أنْ ثبّت القائد الوسام في سُترته، وضع يده عند قبّعته، وقدّم تحيّته. فتح القائد علبة سجائره، وقدّم سيجارةً إلى هانزن، وأخذ واحدةً لنفسه، ثمّ أشار إلى المقعد أمام المكتب الضخم. جلسا في صمتٍ يدخّنان.

كان ميدلتون، مدخّن الغليون، يغيّر أحياناً، ويدخّن السجائر. أُعجِب هانزن بالحسّ الجماليّ في إشعال الكبريت، وحركة اليد الخفيفة التي يطفئ بها الّلهب.

تطرّق ميدلتون بالفعل إلى تحقيق هانزن مع عالِم تحسين النسْل، وأراد أنْ يعرف موعد الانتهاء بدقّة.

قال: «إنّ الرجُل عجوز، في الواحدة والثمانين من عمره. كان في معتقلٍ بعض الأشهر في داخاو».

- هل كان شيوعيّاً؟

- فوضويّاً، ليس مسلّحاً، وداعياً للسلام. شديد الاطّلاع، ويعمل موظّفاً في متجرٍ للكتب القديمة.

- كم من الوقت ستحتاج؟

- من أسبوعين إلى ثلاثة.

- هل أنت مهتمٌّ بهذه القصّة.

قال هانزن: «نعم، أهتمّ بها جدّاً، ستحصل على تقرير».

قال ميدلتون: «حسناً».

تشجّع هانزن بعد حصوله على النجمة البرونزيّة، وطلب السماح باقتراح.

- تفضّل.

هل من الممكن إنشاء قاعةٍ لقراءة الأدب الأمريكيّ؟ بدأ هانزن حديثه بحماسٍ غير مألوف. في متجر الكتب القديمة، على سبيل المثال، هناك كتبٌ أمريكيّةٌ لفولكنر، وايلدر، وهيمنغواي، باللّغتين: الألمانيّة، والإنجليزيّة. ربّما يستطيع الجيش الأمريكيّ شراء هذه الكتب، وعَرْضها في قاعةٍ للقراءة. يجب تدفئة القاعة في الشتاء، ويمكن الجمْع بأسلوبٍ جميلٍ بين الأقدام الدافئة وبين العقل واضح التفكير، عقلٍ تحرّر من هذا الهراء النازيّ الغامض. يمكن تقديم الدوريّات، والمجلّات المصوّرة عن الولايات المتّحدة. الناس متعطّشةٌ للمعلومات، والكثيرون يريدون تعلُّم الإنجليزيّة. يمكن عَرْض الأفلام، وإقامة المعارض، وعَرْض المسرحيّات، وتنظيم المحاضرات والمناقشات.

قال القائد ميدلتون: «حسناً، سأفكّر في الأمر، وأطرحه للمناقشة».

كان على هانزن التقاط أنفاسه أوّلاً.

جلسا، ونظرا من النوافذ الكبيرة إلى السماء الرماديّة، دفعت الرياح بالأمطار نحو الزجاج. قال القائد بعد وهلةٍ: «الباقي من الزمن شهران. الجبال هنا لافتةٌ للنظر، وكذلك البحيرات، ولكنْ لا مانع من رؤية بحر بوسطن مرّةً أُخرى».

اتّفق هانزن مع مولي على اللّقاء وقت الظهيرة. سارت تحت مظلّةٍ إلى السيّارة، ركبت، ووضعت المظلّة في الخلف، ارتدت فستاناً أبيض، ووردةً من قماشٍ أحمرَ على الياقة، وحذاءً جلديّاً بُنيّاً بكعبٍ عالٍ، وجواربَ حريريّة. جاهد للسيطرة على نفسه، حتّى لا يسألها عن مصدر هذا الفستان والحذاء الجلديّ الجديد. ارتدت على الرّغم من الطقس الممطر نظّارة الشمس، وقالت بابتسامةٍ ساخرة: «أنت تعمي عينيَّ».

قال: «فلْنذهب إلى منزلي، المخزن يمكن تأجيله».

- لا، لقد نظّمت هذه الزيارة للمخزن، ولديّ موعدٌ في المساء.

لمْ يتمكّن من السيطرة على نفسه في هذه اللّحظة، وسأل من دون حقّ: «ما نوع اللّقاء؟».

- لقاء عمل.

- يمكن تأجيل لقاء العمل.

- لا، لا يمكن تأجيله.

- لقد حصلت لكِ على تصريح، يمكنك الذهاب إلى منطقة الاحتلال الفرنسيّة.

- شكراً.

كلّ ما قالته هو: «شكراً» باقتضاب، بينما كانت تراجع الاسم والبيانات على المستند.

- ألن نقوم برحلةٍ قصيرةٍ إلى البحيرة؟

- لا، ليس اليوم.

لمْ يفلح في تغيير رأيها، ولذلك اتّجها إلى المخزن، حيث وضعت لوحات متحف البيناكوتيك القديم على سبيل الاحتياط، وكان إجراءً مسوّغاً بعد القصف الذي تعرّض له متحف البيناكوتيك. طلب هانزن إلى أمين المتحف ببزّته الواسعة رؤية لوحة بيلوتي. ذهب الأمين في صحبة اثنين من العمّال للبحث عن اللّوحة. عادوا بعد مدّةٍ بلوحةٍ كبيرةٍ للغاية، ملفوفةٍ مثل هديّةٍ في ورقٍ مخصّصٍ لذلك. اعترض الأمين: «لماذا يجب فكّ الورق الملفوف؟». ردّ هانزن: «هذا أمرٌ لا يعنيك، هيّا، فكّ الورق! من دون نقاش».

كانت الإضاءة سيّئةً، أُخرجت اللّوحة من الورق الملفوف. الضوء خافتٌ، ولكنّ الصورة واضحةٌ، سيّدةٌ في محور المشهد: توزنيلدا. يا لها من امرأةٍ مثاليّة! سيّدةٌ قويّةٌ تمسك بيدها طفلاً أشقر.

قالت مولي: «هذا عبثٌ تاريخيٌّ، كانت مذبحة غابة تويتنبورج كارثةً تاريخيّة. لولا هيرمان الكيروسكي كان يمكن أن نجد الغرف الدافئة في منطقة هامبورغ وبرلين أيضاً، وكان من الممكن أنْ يرتدي أسلافنا القطن، أو الحرير الخفيف عوضاً عن الكتّان المتصلّب».

بما أنّ السؤال يشغله، وكانت الفرصة مواتيةً، سألها: «من أين حصلتِ على هذا الفستان؟».

وضعت نظّارة الشمس، وأجابت ببرود: «مبادلة».

قال أمين المتحف: «ما المطلوب منّي الآن؟».

- غَلِّفْ هذا العبث مرّةً أُخرى.

التزمت في طريق العودة الصمت، ونظرت في حالةٍ من الملل عبْر النافذة. قال لنفسه: «إنّها تعاند؛ ما تراه هو الدمار والأطلال. نادراً ما تجد منزلاً قد نجا من الدمار، يقف وسط حُطام الطوب، والألواح، والأسياخ الحديديّة، إنّه بمنزلة المصادفة التي تصير وسط الكارثة قانوناً خاصّاً».

أنزلها عند ميدان أوديونز بلاتس. رفعت يدها لوهلةٍ، وأومأت برأسها إليه، ثمّ ذهبت. ظلّ يتتبّعها بنظراته، ويتابع فستانها الخفيف، وهو يداعب ركبتيها.

أشعره هذا التصوّر بالإهانة: أنْ يعود إلى المنزل على البحيرة، ويتأمّل الغروب مع كأس المارتيني، ويتناول وحيداً الدجاجة التي حصلت عليها السيّدة زاكس مقابل علبة سجائر كاميل. الأصعب هو البقاء وحيداً في

الفِراش. كان لديه تصوّرٌ دقيقٌ عن هذه الّليلة، كان من المفترض أنْ تكون متوحّشةً، ملأى بالصراخ، وبأجسادٍ متلاحمةٍ، ورائحة العَرق، مع نفحة عِطر.

ليعوّض شعوره بخيبة الأمل، آمن بحقّه في الحصول على بديل، ولمْ يشعر بدناءة هذا التصرّف إلّا للحظةٍ واحدة. اتّصل بسارة، وسألها عن وقتها، ورغبتها في الحضور في المساء. كانت راغبةً بشدّة في الحضور.

حضرت سارة بالزيّ الموحَّد، وظلّت تشتم؛ لأنّ جواربها النايلون قد تمزّقت بسبب مسمارٍ حديديٍّ صغيرٍ لحظة ركوبها سيّارة الجيب. إنّه الجورب الثاني. وضعت طلاء الأظافر على مكان المِزق، ورفعت سُترة الزيّ الموحَّد الطويلة، التي كان ينقصها ثلاث سنتيمترات عن الطول المطلوب، إلى ما فوق الركبة. طريقٌ صغيرةٌ موعودةٌ تقود إلى أعلى، إلى المحجوب.

الإلزام بارتداء الزيّ الموحَّد أمرٌ مزعج. جلسا أمام المنزل، وفتحت سارة أزرار السُّترة. «**لقد زاد وزني ستة أرطال**».^

رفع هانزن صوت موسيقا العازف أرتي شو، قطعته المفضّلة له هي (الكاريوكا)، ثمّ جهّز مشروب «أمريكانو». جلسا ينظران عبْر البحيرة إلى جبال الألب، وحكى هانزن لها عن العجوز الذي يحقّق معه، ليسمع منه قصّة حياته، فضْلاً عن قصّة حياة الشخص الذي كان يمارس أبحاثه في هذا القصر.

- **هل المركب ذو المحرّك لك؟**^

حكى هانزن لها عن التعقيدات التي واجهته للحصول على قطعة غيار. لقد ركبوا المركب بالفعل. قال: «شيءٌ رائع! ولكنْ لنْ نسعد بها في هذا الجوّ الممطر. لدينا الوقت على كل حال».

مرّ جورج بهما، رأى سارة، وقال: «**يجب أنْ أذهب، سيمرّ بي شخصٌ ليأخذني معه. لنْ أزعجكما**».^

قالت سارة: «**أنت لا تزعجني، على العكس، تثيرني**»^.

التفتت حولها، ثمّ قالت: «إنّ حياة جورج وميشائيل هنا أمرٌ لا يصدّقه عقل، حياة غاية في التّرف: منظر جبال الألب، ومركب بمحرّكٍ وطاهية، في حين تعيش هي حياةً صعبةً داخل منزل الضبّاط. زيارة الرجال ممنوعة».

قال جورج: «ولكنّنا نعاني باستمرار من متاعب العمل».

لا يمكننا قول ذلك، حينما ننظر إلى ميشائيل ورجُله العجوز، الوحيد الرافض للنازيّة.

قال جورج: «**هذا حقيقيّ، إنْ نظرنا إليه وحْده فهو رجُلٌ سعيد**».^

أرادت أن تعرف بعد رحيل جورج إنْ كان هانزن يمارس الإخاء أيضاً.

أجاب: «**من يدّعي هذا؟**».^

قالت: «**سمعت ما يقال، هل السيّدات الألمانيّات مختلفات إذنْ؟**».^

لهثَ، ونهض ليشغّل أسطوانة أغنية (حسناً، كلّ شيءٍ جيّد).

انفعلت سارة؛ ما يحقّ للرجال من دون تساؤلٍ تُحرم منه النساء. لسْن على الدرجة نفسها. هذا ظلم. هي معجبةٌ برجُلٍ ألمانيٍّ، مدرّسٍ للأدب الإنجليزيّ، وشخص جيّد، ولكنّه ليس كاملاً؛ لأنّه فقد قدمه في روسيا، ولكنّ هذا الأمر لا يزعجها. يا لها من فضيحة! سيّدةٌ أمريكيّةٌ برتبة ملازم أوّل مع ألمانيٍّ وضابطٍ سابق. أمرٌ غير واردٍ على الإطلاق. إذنْ، هي مضطّرّةٌ للاكتفاء به هو، وميشائيل، والرفاق الآخرين. ضحكت، وقالت: «إنّ هذا بمنزلة زنا المحارم». أراد هانزن الردّ، ولكنّها قالت: «إنّه مسموحٌ

له بفعل ما يشاء». نهضت، وجلست على حِجْره، المقعد المصنوع من الخوص ظلّ يُطقطق ويُخشخش.

قال: «احترسي، سينكسر المقعد».

- **لا، لن يحدث ذلك.**^

يجب عليه أنْ يحكي لها التفاصيل كلّها، وإلّا ستصاب بالغيرة. قد تحكي له كلّ شيءٍ، إنْ أراد ذلك.

قال ضاحكاً: «**لا، أفضّل ألّا تقوم بذلك**».^

- **جبان.**^

قالت السيّدة زاكس: «إنّ الطعام جاهز». لقد أعدّت السُّفرة، وحوّلت الدجاجة إلى دجاجةٍ بالتفّاح. كان لديها تفّاحٌ من الحصاد الأخير ملفوفٌ بورقٍ ناعم. ودّعتهما السيّدة زاكس، راجيةً لهما مساءً سعيداً.

-2 آب/ أغسطس-

ما الشيء غير الأخلاقيّ في المقارنة؟ في التلذّذ بالمقارنة؟ الّلذّة التي تنتظر لذّةً مختلفةً لتليها. الفروق البسيطة والاستمتاع بها. خطورة الضياع في العربدة. من هنا جاءت ضرورة الالتزام بالزيجة الواحدة؛ لنمنع المقارنة. قد نظنّ أنّ الفروق في هذا الأمر الهيّن ليست بكبيرة، ولكنّها كذلك.

نتعرّف من خلال الفروق على أنفسنا، وعلى أجسادنا، ومعها الرغبات الدفينة للذات. الشوق شيءٌ جميلٌ، ولكنْ...

اليوم العاشر



- الصداع الذي يصيبك. لقد أحضرت لك معي دواء. لقد أعطاني إيّاه صديقٌ من الصيدليّة، إنّه يعمل طبيباً.

- شكراً، ولكنّني أفضل حالاً اليوم. سوف أحتفظ به إلى أنْ تهبّ العواصف الدافئة مرّةً أُخرى.

- لقد كنت في المخزن، وشاهدت لوحة «توزنيلدا»، إنّه عملٌ دعائيٌّ جبّار. ربّما كان مخصّصاً لإعادة الطبع مرّةً أُخرى، أو لاستعماله صورةً للكتب المدرسيّة. يا له من عالمٍ مضادّ! هل كان حقّاً جذّاباً؟

- نعم، كما قلت لك: «إنّ هناك عملاً مضادّاً في باريس، وله تأثيرٌ خاصّ».

- أتمنّى الذهاب إلى باريس قبْل أنْ أضطرّ إلى الرحيل من هنا.

- حضر أمس رائدٌ لطيفٌ إلى المتجر، ومعه رقيب. كان الرائد يتحدّث بالألمانيّة بطلاقةٍ، ولكنْ بلهجةٍ نمساويّةٍ، ليست قويّةً، ولكنّها مسموعة. أظنّ أنّه يهوديٌّ مهاجر. لمْ أفضّل طرْح الأسئلة.

- في الأغلب كان ليو ألكسندر، لقد كان يدرس مؤخّراً في فرانكفورت.

- ربّما، كان يبحث عن كتبٍ للأديب شنيتسلر. وقف الرقيب إلى

جانبه، يتصفّح كتبنا المصوّرة، كان يشعر بالملل ويمضغ شيئاً ما. تناقضٌ كبيرٌ بين هذا الرقيب الذي يمضغ في مللٍ وبين الرائد المستغرق في القراءة. أنا لا أنتمي إلى هؤلاء المتبلّدين، الذين ينظرون إلى الجعّة، وربّما التّبغ فحسب، بوصْفهما متعةً، على الإطلاق، ولكن لبان؟ حين كنت عندكم هناك، لمْ أر شيئاً مماثلاً على الإطلاق. لمْ يلفت انتباهي على الأقلّ. أتذكّر في أثناء رحلتي الثانية في نيويورك، رأيت هذا المضغ للمرّة الأولى، كنت في المترو حينما فتح عاملٌ يجلس إلى جانبي -في الأغلب كان قفّالاً- ورقةً فضّيّةً، ووضع شريطاً أبيض صغيراً في فمه. بدأ في مضْغه بانتظام. ظننته تبغاً مخصّصاً للمضْغ، ولكنْ كانت له رائحة النعناع. جرّبته أيضاً، ولمْ يعجبني؛ نشاطٌ جسديٌّ أشبه بتقليب الرمال. أقول هذا بمنتهى الصراحة؛ لأنّني أراك لا تمارس هذه العادة. لماذا هو جيّد، بصرفِ النظر عن حركة المضْغ؟

- له تأثيرٌ مهدّئٌ، ربّما أدّى إلى حالة الاسترخاء التي تحترمها أنت فينا، فضْلاً عن أنّ حركة العضلات في أثناء المضْغ تحسّن تدفّق الدّم إلى الرأس، وكذلك وصول الأكسجين إلى المُخ. إنّه تحسينٌ للتفكير، من دون التقويم والتربية.

حسناً، لمْ يكن لديّ هذا الانطباع عن المراقب. لمْ أقرأ إلّا القليل لنيتشه، ولمْ أحبّه. له رؤيةٌ كارهةٌ تُجاه البشر. رؤيةٌ قاصرةٌ من شخصٍ يتحدّث عن الرؤية الثاقبة. لمْ يكن أكستهيلم معجباً بالكاتب جورجه فحسْب، بلْ بنيتشه أيضاً. أتذكّر جيّداً أنّه ناداني ذات مرّةٍ من القبْو؛ ليُطلعني على مقالةٍ صحفيّةٍ، بعنوان: «هتلر يزور أخت نيتشه». عُرضت صورةٌ لهما الاثنين: هي بغطاء رأسٍ أبيض مُكشكش، وهو بالزيّ المدنيّ. هل تعرف أنّ فورستر، نسيب نيتشه، قد أسّس جماعةً في الباراغواي؟ نويفا جرمانيا،

قيل إنّها ألمانيا بلا يهود، كان من المفترض أنْ يتربّى هناك الإنسان الخارق تحت النخيل وشجر الموز. أجلْ كان تفكيراً أشبه بالتفكير في مزرعة الدجاج، وأنت تعرف أنّ هيملر قد قام بتربية الدجاج لفترة، ثمّ قاد بعد ذلك اتّحاد «ينبوع الحياة». كان نيتشه سيجد هذه الفكرة تافهةً بكلّ تأكيد، تماماً مثل احتقاره للحركة المعادية للساميّة. ولكنّنا نجد فكرة تحسين الحياة والفِكر لديه أيضاً. ليست مصادفةً أنّ علماء تحسين النسْل جميعهم قد قرؤوا «هكذا تكلّم زرادشت». كان الصديق يستشهد به. لا أعرف رأيه في اتّحاد «ينبوع الحياة»، ولكنّه في الأغلب كان سيجد الفكرة تستحقّ الدعم.

-مقطع غير مفهوم-

انظر هنا، لقد دوّنت بعض الملحوظات؛ لأستعدّ لحديثنا اليوم. أستشهد هنا بعبارةٍ من محاضرة بلوتز، خلال المؤتمر الدوليّ لعلوم الشعوب في برلين عام 1935: «تعقيمٌ ملزمٌ وحاسمٌ لأصحاب الأمراض الوراثيّة والعاهات المستديمة كلّهم، من دون التأثّر باعتراض دوائر الكنائس السياسيّة، فضْلاً عن التعقيم التطوّعيّ لأصحاب القيم الوراثيّة الدنيا. يجب أنْ يواكب هذا التوجُّه سياسةٌ ضريبيّةٌ، واقتصاديّةٌ، وزراعيّةٌ، واستيطانيّةٌ، تتّسم بالإيجابيّة في سياق تحسين النسْل، وتسعى إلى زيادة أعداد المواليد».

أمامك هنا خلاصة برنامج النازيّة، وصولاً إلى فكرة الشعب بلا مكان. يجب استعمار هذا المكان. جاءت من هنا فكرة الهجوم على روسيا، والقضاء على الإنسان الضعيف؛ حتّى يحصل أبطالنا العظماء على أفنيةٍ للاستيطان؛ ليصيروا فلّاحين. قلت له حينما زارني في متجر الكتب القديمة: «يا لها من صورة مجتمعٍ قد جاوزها الزمن! اذهب إلى مصنعٍ للدرفلة، ينتج المواسير من القطع الواحد، من الصّلب، وقُم بزيارةٍ إلى

مصنعٍ للسكك الحديديّة، أو إلى مصنعٍ لشركة سيمنز، حيث تُستعمل الدوائر الكهربائيّة التي اخترعها شتاينميتز، أحد زملاء منظّمة الباسيفيك، في تصنيع المحرّكات. إنْ تقدّمت القوى الإنتاجيّة، باللّغة الماركسيّة، ستكون القوى العاملة بلا فائدة، لنْ نحتاج إلى النموّ السكّانيّ، وربّما سيكون تراجعه أفضل، ولكنْ ما سيطر على التفكير وقتها فكرة عظمة الشعب وعدده، خاصّةً مع وضع العدوّ اللّدود فرنسا في الاعتبار، ومع ذلك تحوّلت أفكاره، التي رأيتها متعسّفةً، فيما بعد إلى حقيقة. ما كان يُطلق عليه في لغته «تعشيباً»، كان يعني تجويع غير المفيدين والمرضى، وكلّ من يستحق الرحمة، أو قتلهم بالغاز، أو بحقنةٍ سامّة. كان هذا يحدث سرّاً، ولكنْ ليس بعزلةٍ عن الشعب. أستطيع أنْ أدلي بشهادتي في ذلك. كان لأكستهيلم أخت، عازفة بيانو موهوبة، وتعاني من مرض الفِصام، كانت في مستشفى في منطقة هار، واستلم في أحد الأيّام -أظنّ أنّه كان مع نهاية صيف 1940- خطاباً من جومادينجن، يخْطره فيه بوفاة أخته بسبب التهاب المصران الأعْور، ولكنْ كان المصران الأعْور قد استؤصل في شبابها. قَبِل بهذه الأكذوبة. لأمنحك فكرةً عن الخوف الذي شعر به: لمْ يعترض أكستهيلم، ولمْ يكتب أنّ هذه أكذوبةٌ شائنةٌ، وأنّهم قتلوها، التزم الصمت، وقام بما كان يفعله نادراً؛ نزل إلى القبْو ليجلس في الظلام على مقعدي. كنت أسمعه، وهو يبكي».

-مقطع غير مفهوم-

لا أعرف، ولكنّني لا ألوم أحداً يصمت بسبب الخوف. من المؤكّد أنّهم كانوا سيسحبون من أكستهيلم رخصة متجر الكتب القديمة، إنْ امتنع عن تصديق هذه الأكذوبة. أنا ألوم الذين شاركوا، ولمْ يكفّوا، على الرّغم

من عدم تهديدهم بأيّ ضررٍ، مثل: مسؤول العقار، الذي كان يراقب الطلبة، وهُم يلقون المنشورات المناهضة للحرب والنازيّين في الجامعة من مكانٍ مرتفع. لمْ يفصلنا هنا في المتجر إلّا ثلاثمئة مترٍ عن موقع الحدث. كان يمكن لهذا الرجُل أنْ يغضّ بصره، ولكنْ لمْ يحدث ذلك، أمسك بهم، وسلّمهم للغيستابو. أُعدِموا، وحصل مسؤول العقار ياكوب شميت على ثلاثة آلاف من مارك الرايخ، ذلك بحسب ما أتذكّر، فضْلاً عن ترقيته من عاملٍ إلى موظّف. إنّ هذا الاستعداد للطاعة والافتراء طمعٌ في الاعتراف والصعود، واللّذّة في المشاركة في السُّلطة. أنت تعرف أنّ الملاك قد سقط؛ لأنّه قال لصاحب الأمر الربّانيّ: «أنا لنْ أخْدم».

– هل يمكن أن تحكي عن المعمل في منطقة القصر؟

– صحيح، القصر والغابة. كنت هناك للمرّة الأولى في شباط/ فبراير لعام 1919، بعد الحرب بوقتٍ وجيز. يجب أنْ أحكي بعض التفاصيل لأشرح سبب زيارتي الطويلة هناك. كنت أسكن غرفةً للإيجار وسط برلين، وكنت مريضاً. كنت قد أُصِبتُ في أثناء المظاهرات والنقاشات العديدة بالتهابٍ في الرئة. خرجتُ قبلها من حزب الديمقراطيّين الاجتماعيّين في عام 1915، واقتربتُ من اتّحاد النقابات الألمانيّة الذي كان يعبّر عن رفضه للحرب، ورفضه لما يُطلق عليه اتّفاقية السلام التي عُقدت في القلعة. تغيّر الاسم لاحقاً في عام 1919، ليصير اتّحاد العمّال الحُرّ لألمانيا. أجلْ، هذا مثيرٌ للارتباك، وهذا موضوعٌ أحبّ توضيحه لك، حينما...

–مقطع غير مفهوم–

لا، كنت أعمل لصالح النقابة. كنت مسؤولاً عن الإعلان عن الاجتماعات واختصار التقارير. كان عملاً صحفيّاً لا يمثّل أيّة أهمّيّة، وآخذ عليه أجْراً بسيطاً. كنت أسكن وقتها غرفةً صغيرةً من دون تدفئة،

ومستأجرةً من الباطن. كان مصنع الوالد لتجفيف الفاكهة قد سقط قبلها بعشرين عاماً. تأثّرت سمعته بتوجّهه الجمهوريّ؛ عدّوه شخصاً غير وطنيٍّ، وتعرّض للمضايقات. يبدو أنّ دعمه الماديّ السخيّ لهروبي إلى سويسرا كان له تأثير أيضاً؛ إذْ ألغى جيش بروسيا التعاقد على توريد الفاكهة المجفّفة بين عشيّةٍ وضحاها، ولكنْ خصّص لي أبي الراعي حساباً ثابتاً في مصرفٍ خاصٍّ، ظنّه آمناً. تمكّنت من العيش المتواضع عدّة سنوات من الفوائد، بصرف النظر عن عملي الصحفيّ والسياسيّ الذي كنت أمارسه، كما أنّني تمكّنت من السفر في عام 1912 إلى أمريكا؛ لأزور جماعة الأمانا هناك.

أفلس هذا المصرف الخاصّ بعد توقّف إطلاق النار في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1918، كما قلت، بسبب مضارباتٍ غير قانونيّة. إفلاسٌ يشوبه احتيال. لقد أطلق صاحب المصرف الخاصّ على نفسه النار، وهو حدثٌ لمْ يُعِد إليّ مستحقّاتي. كان من الممكن أنْ أسمّي نفسي صاحب أملاكٍ خاصّةٍ بنزعةٍ اشتراكيّةٍ، ويجني بعض الأموال الإضافيّة من المحاضرات وكتابة المقالات. أجلْ، كنت ابناً لمدّةٍ طويلة.

كنت أرقد في ظهيرة أحد الأيّام بملابسي ومعطفي في الفِراش، وقد أصابني ارتفاعٌ في درجة الحرارة. أبلغتني أرملُ الموظّف البخيلة والمزعجة: «هناك زيارةٌ نسائيّةٌ. هذا غير مسموح؛ ليس هنا، وليس في منزلي».

كانت اليونانيّة وقتها -ملحوظة منّي تفتقر إلى الذوق- قد زاد وزنها قليلاً. وقفتْ في غرفتي بمعطفها الطويل المكسوّ بالفراء، وقبّعةٍ ضخمةٍ مثبّتٍ فيها ريش جناح عصفورةٍ، أشبه بالشراع الأسْود. كانت قد سمعت من أحد رفاق إيكاريا القدامى، لوكس، عن حالتي البائسة. كانت في

زيارةٍ إلى أختها في برلين، فأتت بزيارةٍ خاطفةٍ لي، ولكنْ من الواضح أنّها حضرت خاصّةً من أجلي.

قالت: «يجب أنْ تخرج من هنا فوراً».

صاحت صاحبة المنزل: «الإيجار، وفترة فسْخ العقد القانونيّة!».

وجّهت اليونانيّة عصا مظلّتها صوب السيّدة المنزعجة: «اخرسي! ستحصلين على مستحقّاتك. هيّا سنجهز الحقيبة! التقطت -بجسدها الضخم، وبمقبض المظلّة- حقيبتي من فوق خزانتي المكسورة».

سوف تأتي للإقامة عندنا، المنزل كبيرٌ بالقدْر الكافي.

تردّدت.

أعطتني خطاباً. الخطّ الواضح للصديق. طلب إليّ الحضور في زيارةٍ مطوّلة. قال: إنّه يفتقد النقاشات منذ بداية إقامته في الغابة. «تعال للاسترخاء، لدينا مكانٌ يكفينا جميعاً».

وافقت، ولكنْ من أجلها فحسب.

سافرنا في اليوم التالي. كانت قطارات الرايخ ما تزال تقوم برحلاتها، وإنْ لمْ تلتزم بالمواعيد، ذلك على الرّغم من الثورة، والبحّارة الذين كانوا يحملون بنادقهم وفوّهاتها نحو الأسفل نوعاً من الاعتراض، وعلى الرّغم من الزحام والمضايقات فوق الأرصفة، وعلى الرّغم من إطلاق النيران والمظاهرات. تكرّرت عمليّات الرقابة على التذاكر، وقام بها العمّال الثوريّون. كنّا نجلس في الدرجة الأولى، ومعنا سيّدةٌ شابّةٌ وزوجها، نقيبٌ بزيٍّ موحّد. اخترق عساكر ثوريّون ومدنيّون أيضاً العربة في لايبتسيج. البطاقات! رفض النقيب قائلاً: «إنّه غير ملزمٍ بتقديم بطاقته». نهض وقال: «أنا ضابط». قال القائد: «اخرس واجلس!». هذا الرجُل، الذي كان قبل ثلاثة أشهر يسيطر على الوضع، عاد مثل التلميذ المُطيع للجلوس.

انتظرنا سائق الحنطور إرنست في محطّة قطار هيرشينغ، رفع الحقائب إلى داخل الحنطور، ثمّ ساعدني أنا واليونانيّة على الركوب. كنت أرتعش من الحرارة، ولمْ يحمني الغطاء الكبير المصنوع من فراء الثعالب الحمراء، الذي فرده السائق فوقنا. كانت المرّة الوحيدة التي كنت فيها مع اليونانيّة تحت غطاءٍ واحدٍ. أجلْ، كنّا نجلس متجاورين، وتفصلنا معاطفنا الشتويّة الثقيلة، ولكنْ، ويمكنني أنْ أقول ذلك بوصْفي رجُلاً عجوزاً؛ كانت أجسادنا قريبةً على نحوٍ محسوس. غريب كيف تدوم مشاعرنا! من المؤكّد أنّ الحمّى أسْهمت في شعوري بالسعادة؛ لأنّني اقتربت من هذه السيّدة مرّةً أُخرى بعد هذه السنوات كلّها. مشينا في شارعٍ ممتدٍّ على البحيرة، هادئٍ وبعيد. الغيوم الرماديّة تحلّق في المرتفعات، ووسطها شجر التنوب الثقيل والمبتلّ. هذه الغابة بصفوف أشجار التنوب الكئيبة.

توحي الأجواء بإدمان المكسب هنا. في الصيف تكون الطبيعة خلّابةً، ترتفع سهولٌ بسيطةٌ بالجبال المغطّاة بالثلوج، هذا المنظر بالجبال الأولى الممهّدة لجبال الألب، ثمّ جبال الألب المغطّاة بالثلوج.

أنا أنبهر في كلّ صباح، إنّها منطقةٌ جميلةٌ وخلّابة.

أجلْ، ولكنْ في الشتاء، من تشرين الثاني/ نوفمبر إلى كانون الثاني/ يناير، تسود أجواءٌ كئيبةٌ فوق البحيرة، إلى أنْ يشقّ شعاع ضوءٍ من الشمس الغيوم، وتظهر المياه مرّةً أُخرى. يا له من حظ! كما قلت: «في الصيف الأجواء رائعة». لا يجب فقط الدخول وسط غابة أشجار التنوب المظلمة والرتيبة. أنا نفسي لا أفعل ذلك. هل ما زلت تقرأ النصوص اللّيليّة؟

-مقطع غير مفهوم-

ربّما نعم، ولكنّني كنت أفضّل قراءة كلايست وغوته. كان إ.ت.ا

هوفمان غامضاً لي بعض الشيء. يجب الاحتياط؛ حتّى لا تتورّط في قصّةٍ من هذا النوع.

-مقطع غير مفهوم-

لمْ أتمكّن من رؤية القصر وقت وصولي، ولكنّني أتذكّر الجدران السميكة، والغرف ذات الأسقف القريبة مثل العصور الوسطى، وطقطقة ألواح الخشب وخشخشتها، والسلالم، ورائحة الخشب القديمة. لا أعرف ما هذه الرائحة تحديداً، يبدو أنّ حرارتي هي السبب في ذلك. ربّما رائحة شجرة المُرّ، مع الشمع وبراز السحالي. نزلت في غرفةٍ على السطح في القصر، كنت أرى من النافذة منظر البحيرة الممتدّ حتّى جبال الألب. التزمت الراحة ستّة أيّام، كما أمرت اليونانيّة. كانت خادمة ترتدي مئزراً أبيض تحضر حساء الدجاج، وعصير الخمان الأسْود، واللّبن الدسِم مع فاكهة الصيف المجهّزة. تقدّم لي بعد الظهر القهوة وعصير السفرجل. كان الصديق يصعد كلّ صباحٍ إلى الغرفة العليا، يدقّ الباب، ويدخل ببزّته الداكنة التي تعبّر عن سُلطته. يجلس على حافّة الفِراش، ويكشف عليّ، ويقيس نبضي، وينظر إلى مقياس الحرارة. لا يظهر أيّ تأثّرٍ على وجهه، في اليوم الرابع قال لي: «ستتحسّن».

أرادت هي أنْ أبقى من يومين إلى ثلاثة في الفِراش؛ أمّا هو، فقال بأسلوبه المباشر: «لا، اخرج غداً إلى الهواء الطلق. يموت الكثيرون بسبب بقائهم فترةً طويلةً في الفِراش».

أتذكّر جيّداً أنّني في اليوم التالي، والشمس مشرقةٌ وسط صقيعٍ وغيوم، خرجتُ من البوّابة مرتدياً معطف الفراء، والقبّعة المصنوعة من الفراء أيضاً. قادني الصديق عبْر مملكته. كان للمبنى بأدواره الثلاثة دَورٌ على السطح بانحناءات. لكلّ دَورٍ ثلاث نوافذ كبيرة. يعطي المبنى انطباعاً تكعيبيّاً.

في الشرق كنيسةٌ صغيرةٌ ببرجٍ رشيقٍ بقمّةٍ على شكل بصلة، منحت هذه الكنيسة المبنى طابَع القصر. قادني إلى الكنيسة، وقال تعليقاته الشرّيرة، متحدّثاً عن العقيدة في الخرافات، وأنّه قد طهّر هذا المكان مع ماركس. في هذه الكنيسة التي تقدّس الملاك ميكائيل وضع كتب الاشتراكيّين والشيوعيّين التي أخرجها من حُجْرة مكتبه.

وقف قدّيسٌ من عصر الباروك فوق قاعدةٍ حجريّةٍ، وأمسك من هول الصدمة من الكتب الموضوعة أمامه قلبه بيده اليُسرى. لمْ يكن هناك تدفئةٌ في القاعة؛ لذلك جعلت الرطوبة الكتب تنتفخ. تموّجت صفحات كتاب «رأس المال» في حُزنٍ أمام الأمّ مريم. وقعت قشور اللّون الفاتح عن وجهها، وأظهرت خشباً لونه أسْود. إنّها تذكّرك بتمثال العذراء الموجود في منطقة شتين شتوخاو.

قال: «لقد رأيت أنّها انزعجت من الكتب لدرجة السواد».

كان يحكي قصّة القصر مثل مرشدٍ سياحيٍّ، القصر كان المقرّ الصيفيّ لرؤساء دير فورستين فيلد. حوّلوا الربّ هنا إلى رجُلٍ طيّبٍ، يتمتّع بالنبيذ والجعّة، والسمك الذي كان موجوداً بكثرةٍ في البحيرة. قال: «بالمناسبة، ألما، الطاهية الطيّبة، ستقدّم اليوم سمك الكراكي، الذي اصطاده الصيّاد شتومباوم صباح اليوم طازجاً». اقتادني عبْر ساحة القصر، الذي كان أشبه بمملكةٍ صغيرة. أطلعني على مخزن الحطب الكبير بجوار القصر، وحظيرة الخيل، ومنزل الخدم، ومقرّ إدارة العزبة، وأحواض الزرع، التي تكلّفت مجهوداً، يُشير إلى ورودٍ وشجيراتٍ زاهيةٍ آتيةٍ مع الربيع.

أخوه، أوم إيريش، الذي قيل عنه: «إنّه غريب»، كان يتجوّل في المنطقة. كان يشبهه؛ الشَّعر الرماديّ الكثيف، والذقن الرماديّ، ولكنّه كان أقلّ حجماً، وأضعف في البنْية الجسمانيّة، ونظراته مضطّربة، مثل حديثه،

الذي تتخلّله كلمة «طبعاً» باستمرار. يتحدّث عن الطقس، ثمّ الطعام، ثمّ حيوان اليغور المتسلّل، ثمّ خطّة استيطان شعوب النحل في البرازيل. هل السماء بلا نهاية؟ أجاب: «بالطبع». ادّعى بلوتز أنّ أخاه قد أراد تأسيس مَنْحلٍ كبيرٍ في البرازيل، ولكنّه عمل تحت ظروفٍ مرهقةٍ وتضحيات، كما أصابته ضربة شمسٍ هناك؛ هذا يفسّر سلوكه المضطّرب. أنا أتوقّع أنّهم أبعدوه وأرسلوه إلى البرازيل بسبب غرابته؛ إذْ حكت لي اليونانيّة عن محاولات الأب، بالضرب والحمّام البارد، منْعه عن تكرار التفوّه بالألفاظ القذرة. وصلوا إلى درجة غسْل فمه بقطعةٍ من الصابون. كان أوم فريدريش يكسب ثقة من حوله، يحبّه الأطفال لعدم اهتمامه بالكبار، الذين كانوا يسارعون، ويطلبون التصحيح، ويأمرون. كانت حركاته الهائجة على عكس السيادة الجبّارة والمتحجّرة لربّ الأُسرة. المدرّس المنزليّ القادم من شليزيا، الذي كان يدرّس الأطفال، كان يقول: «إنّ الرجُل أبله قليلاً». كان الخوف من خطورة الجنون يتربّص بهذه العائلة. ربّما لا تكون نظريّات الصحّة والتقوية سوى ثمار الخوف من الاشتباه في كون ألفريد نفسه في دائرة الخطر.

إنّ أفضل أنواع العسل تمنحه زهور النبات المتسلّق، ولكنْ هل للنبات المتسلّق زهور؟ قال الأخ: «بالطبع». لمْ يكن قد تزوّج، أو رُزق بالأطفال، ولكنّه تحدّث عن أنثى اليغور التي التقى بها ذات مرّةٍ، ثمّ ضحك، قال: «يا سلام»، وغمز بعينيه. منعه الصديق من مواصلة الحديث، ثمّ سار أوم إيريش وحْده، يُدمدم بالكلمات.

سكنت القصر عدّة أسابيع. كنّا نسمع صوت خطواتٍ غريباً حين نجلس في الصالون، خطوات ذهابٍ وإيابٍ لا تهدأ. هذا الصوت الذي كان يتحرّك بعرض الغرفة فوق السقف، كان يوحي بشيءٍ غريب، ولمّا نظرتُ مرّةً أُخرى نحو الأعلى، قالت اليونانيّة: «هذه أمّي».

السيّدة أنازتازيا في الثمانين من عمرها، أو كما اتّضح لاحقاً، قد قارب عمرها على المئة عام. كانت تقطن في الدَّور الأعلى، ولا تنزل أبداً. رأيتها مرّةً وحيدةً، كنت أصعد في هذا المساء إلى غرفتي، ثمّ واجهني هذا الشبح، وجه عجوزٍ بشعرٍ مستعارٍ ضخمٍ وشديد السواد، ومعطفٍ أبيض، وحذاءٍ متينٍ، كأنّها تنوي الذهاب إلى الغابة. انحنيت، أخذ الشبح يحدّق إليّ، ثمّ أدارت ظهرها، واختفت بلا كلمةٍ واحدةٍ في غرفتها.

هذه هي، بحياتها التي كانت مغامرةً كبيرة. كان الطعام يصل إليها في مواعيد منضبطة، تقذف أحياناً بفضلات عظام الدجاج من النافذة.

كنّا نجلس في غرفة الطعام المدهونة بلونٍ فاتح. الفضّة بحروف اسم اليونانيّة الأولى، ومناشف المائدة بالبروكار الدمشقيّ، والكؤوس من الكريستال البوهيميّ مخصّصة للعصير والماء، ولا كؤوس للنبيذ! وضع الطعام على المائدة، كان طعاماً وفيراً؛ لأنّ الأرياف فيها كلّ ما لمْ يعُد متوفّراً في المدن، خاصّةً برلين. طعامٌ ألمانيٌّ بسيطٌ، ولكنّه جيّدٌ: اللّحم البقريّ، ودجاجٌ محمّر، ولحم غزال، ولحمٌ في الفرن ومعه الكرنب الأحمر. أجلْ، كان طعاماً مسيّلاً للّعاب. طبق الحلو كان من الفاكهة الصيفيّة المعلّبة. كنّا نجلس بعد الطعام في الصالون، ونتجاذب أطراف الحديث.

حكى الصديق عن عمله في أرشيف علم الأحياء للأجناس والمجتمع، والمشكلات التي تواجهه في جمعيّة تحسين النسْل التي أنشأها في عام 1905. كانت اليونانيّة تتدخّل لمنْع الحوارات التي كادت تؤدّى إلى مواجهاتٍ حادّةٍ بينه وبيني. ذات مرّةٍ، اشتعل الحوار حينما سألته، وهو لمْ يعد يدعم الاشتراكيّة، ولكنّه متمسّكٌ بحبّه للسلام؛ عن أسباب مساندته لحزب الوطن الألمانيّ الذي تأسّس في عام 1917. كان حزباً محافظاً للغاية، أراد إسقاط القيصر فيلهيلم الثاني الضعيف

عن عرشه، وتعيين وليّ العهد حاكماً محلّه. ارتفع صوتي، وزاد من حماسي المشتعل حين صحت: «وليّ العهد، هذا المدمن على العاهرات من فردون، هذا الأمير المنحلّ الذي يتمتّع بوقته في حين يتمزّق مئات الآلاف، ويصابون بالعاهات المستديمة، ثمّ يأتي هذا الحزب ليعترض على سلام المفاوضات، وسلام اليهود، كما أطلقوا عليه، وطالب في عام 1917 بسلام الانتصار. هذا عبث!».

صاح بشدّة: «اليمين، والبلاشفة، لقد قضوا من خلال الثورة على الجيش المحارب. لقد نالوا وقف إطلاق النار المُهين، اليمين، أصحاب الّلون الأحمر!».

قالت اليونانيّة بصرامةٍ: «كفى، الحرب هناك. في هذا المنزل يعمّ السلام. بدا كأنّها تقول: في منزلي».

تابع أوم إيريش النقاش المحتدّ بعصبيّةٍ متزايدة. تناول الحوار المقالات في الأرشيف مرّةً أُخرى. مشكلات الوراثة الهندسيّة التي يمكن البحث فيها جيّداً لدى التوائم المتطابقين. وصل إليه بحثٌ في الحال في هذا الموضوع، لا أذكر اسم صاحبه. يثبت البحث تشابهاً كبيراً في التعليم، واختيار الوظيفة، والشريك أيضاً، والأمر المثير أنّ هذا يحدث حتّى مع التوائم التي تتربّى منفصلةً على مدار عقود. هذه الثرثرة لليمين... قلت صائحاً: «ماذا تقصد بثرثرة؟»... عن البيئة المحدّدة لكلّ شيء، يمكن التعامل معها بوصْفها... قاطعته اليونانيّة في هذه الّلحظة. كان أوم إيريش يجلس إلى المائدة، يدمدم بينه وبين نفسه، إلى أن استغرق في النوم، صوته خافتٌ خفوتاً مذهلاً، لا نسمع نفسه تقريباً، رأسه يميل إلى جنب، وشفته السفلى متدلّية. استيقظ فجأةً، فنظر في دهشةٍ إلى دائرة الجالسين، وأومأ إلينا برأسه، ونهض وانحنى انحناءً بسيطاً، ورَجا للجميع الراحة، وخرج

متّجهاً إلى غرفته الواقعة مثل غرفتي على السطح، ولكنْ كانت نافذته تطلّ على الغابة المظلمة الكئيبة بسهولها الصغيرة.

قصّة الشبح الذي يتجوّل في الدَّور الأعلى كانت القصّة التي تُحكى وقت الجلوس عند المدفأة، كأنّها قصّةٌ من تأليف هيدفيج كورت مالر.

-مقطع غير مفهوم-

كاتبةٌ للقصص المسلّية، كانت تنشر نحو أربعين روايةً في العام؛ أجزاء مركّبة، ومجهّزة مُسبقاً. لا. بالطّبع كتبها لمْ تكن في القبْو؛ أكستهيلم كان سيعدّ ذلك إهانةً، وإنْ كنت أحبُّ وضْع كتبها مع كتب غريم، ويوست، وفيسبر، وكورت مالر. كانت قصصاً حادّةً، ربّما كان لذلك علاقة بالزمن الذي وقع فيه الكثير من قصص المغامرات المذهلة، فوجدت الشكل الأدبيّ المناسب، كذلك القرّاء. صارت اليوم القصص ذات النهايات السعيدة والحافلة بالأمل أمراً نادراً؛ تقدّم الحياة باستمرارٍ قصص القتل، بكمٍّ كبيرٍ. كيف وصلت إلى كورت مالر؟

الشبح.

صحيح، أحاديث عند المدفأة في المساء، في الدَّور الأعلى الخطوات، واليونانيّة تحكي عن هذه السيّدة، أنازتازيا، أمّها، التي تذهب وترجع في اضطّراب. ولدت في القسطنطينيّة لأبٍ يونانيٍّ، وكان مراقباً على الحبوب في السودان، مثل وظيفة يوسُف في مِصْر. توفّي مراقب الحبوب بسبب حجرٍ سقط فوق رأسه، فتزوّجت الأم بعد فترة الحِداد يونانياً آخر، كان طبيب السُّلطان. رأى السُّلطان الفتاة، التي تسير فوق رؤوسنا الآن، وهي في عمر المئة، وصاح سعيداً، وقارنها بالوردة. أهداها، وهي راحلةٌ إلى أوديسا من أجل التعليم، ثلاثة أهلّةٍ مرصّعة بالماس. هربت من هناك مع مدرّسها الألمانيّ الخاصّ، عازف البيانو، والملحّن ليتسمان، وزوجِه

المطربة. استغنوا عن الهلال الأوّل المرصّع بالماس. حضر الثلاثة إلى ميونخ، وعاشوا حياةً رغيدةً، فاستغنوا عن الهلال الثاني. ألمْ تقع مشاهد غيرة؟ كيف سارت الأمور؟ رجُلٌ، وشابّةٌ، وسيّدة؟ كان الشبح يلتزم الصمت في هذا الموضوع، ولكنّها كانت تحكي كثيراً عن محاولات الملحّن ليتسمان البائسة للعثور على مخرجٍ مسرحيٍّ لأوبّريت «السُّلطان والفتاة اليونانيّة». سافر الثلاثة إلى باريس، واستغنوا عن الهلال الأخير المرصّع بالماس. لمْ يجد للأوبّريت، ولا لفرقة عزفه الرباعيّة وكيلاً فنيّاً، على الرّغم من توسيع زوجِه فتحة الصدر في أثناء زيارة وكيل الحفلات الموسيقيّة. قال أوم إيريش في هذه اللّحظة: «طبعاً»، ثمّ ضحك بصوتٍ خافت. يأخذ الشبح، الذي نسمع خطواته في الدَّور الأعلى، دروساً في الرسم، تذهب إلى اللّوفر، وتظهر في الرسم موهبةً أكبر من موهبة ليتسمان في التلحين. تنفد أموال الهاربين الثلاثة، وديون في الفندق، وفي المطعم، ولدى مصمّم الملابس، ومدرّس الرسم. تشتري الفتاة بالفرنكات الأخيرة ثلاث ورقات يانصيب، تربح واحدةٌ منها الجائزة الأولى السنويّة، مليون فرنكٍ ذهبيّ. تصير الفتاة اليونانيّة الشابّة بين يومٍ وليلةٍ شديدة الثراء، وتستردّ الهلال الأخير الذهبيّ المرصّع بالماس. يقرّر الثلاثة القيام برحلةٍ حول العالم: إلى البرازيل، والأرجنتين: بوينس أيريس. يركب السفينة القنصل الألمانيّ نوردينهولس. يرى عينين لامعتين وداكنتين، مثل التوت الناضج، كما كتب لأمّه في بريمن. ترى هي عينيه الزرقاوين، وتكتب إلى أمّها في القسطنطينيّة إنّها مثل الزفير. حُبٌّ من النظرة الأولى، ثمّ أربعة أطفال. كان هذا التاجر القادم من بريمن، والقنصل في بوينس أيريس، يملك مزرعة عُجولٍ، اسمها جرمانيا، ومساحتها مثل مساحة بريمن. بعد مرور عشرين عاماً، لمْ يحتمل الشبح الموجود في الدَّور الأعلى

العُجول، ولا المشويّات، ولا الشوارع المعفّرة في بوينس أيريس، التي تتحوّل في الشتاء إلى طين. هاجر الرجُل، تحصُل على الطلاق، وتعود إلى القسطنطينيّة، ثم تذهب من هناك إلى برلين. تبعث ابنتها الصغرى، أنيتا التي تجلس عند المدفأة وتحكي، إلى دروس الرسم. تُظهر الفتاة موهبةً مذهلةً، ترسم وتنحت، لا تتزوّجني، بلْ تتزوج الصديق، وترث بعد موت تاجر بريمن أرضاً، وأبقاراً، ومنازل، وأسهماً، ومبالغ نقديّة. اشترت من الأموال الغابة الواسعة، والقصر، حيث تدوس فوقنا صاحبة المئة عام بأقدامها.

– لا أفهم العلاقة كاملة، أعني...

– لا يمثّل هذا أيّة أهمّيّةٍ، المهمّ أنّ الإرث قد وصل إليها في النهاية، حاملاً الكثير من الأموال. ودّع الصديق –الذي سمع هذه القصص كثيراً– الحضورَ، وتوجّه إلى أبحاثة في تحسين النسْل. استغرق أوم إيريش في النوم، ثمّ استيقظ، وقال: «طبعاً». عاد إلى النوم مرّةً أُخرى. ظلّ الأحفاد يستمعون، يريد الأطفال سماع القصص نفسها مِراراً؛ لأنّهم يسمعون الاختلافات في أثناء الحكي. يحبّون التنويع البسيط، ويسألون عن الاختلافات. لمْ أُرزق بالأطفال مع الأسف.

–مقطع غير مفهوم– ثمّ بوضوح: ... هل هذا صحيح؟

– يجب ذِكر أنّ هناك زيارة كانت متوقّعة. ذهبت اليونانيّة إلى غرفتها في الدَّور الأعلى، ونزلت الدَّرج مرّةً أُخرى، إلى القاعة ذات الثريّا، وفي شَعرها الكثيف المرفوع الهلال الذهبيّ المرصّع بالماس. يا له من بريق! كان الجوّ دافئاً. يوزَّع مشروب التوت الخالي من الكحول. أجلْ، كانت أجواءً مريحةً، ولكنّني كنت أفكّر بقلقٍ في رفاقي الذين كانوا يحاربون في برلين. تعلّقت المسألة بالنظام الديمقراطيّ المدعوم بالمستشارين، الذي

كان يحاربه كلٌّ من الديمقراطيّين الاجتماعيين، والمحافظين، والجيش، بالأسلحة. كنت أشعر بالطمأنينة في القصر، ولكنْ ليس بالراحة.

لقد انحرفت عن المسار قليلاً.

- أنا أحبّ متابعتك.

- شكراً، أجلْ، كان يحضر الضيوف بين الحين والآخر: أساتذةٌ، وأطبّاء، وعلماء أنثروبولوجيا، وأحياء، وحيوان. بينهم كثيرٌ من الدارسين على وجْه الخصوص، من العلماء الشباب الباحثين عن كرسيٍّ علميٍّ، ثمّ أصحاب الأموال الذين كانوا يعملون في مجالات بحثٍ غريبةٍ نظراً لاكتفائهم الماديّ؛ أطبّاء كانوا، مثل الصديق القديم، مقتنعين بما يقومون به، ومقتنعين بوجوب إنقاذ الشعب من السقوط، ويرون أنّ الأمراض العقليّة والجسديّة ستدمّر المجتمع من الداخل. أنت تعرف أنّ حركة تحسين النسْل قد ظهرت في عدّة بلدان. كانت حركةً دوليّةً. ألقى الصديق محاضرةً في عام 1903 في مؤتمرٍ دوليٍّ يناهض إدمان الكحول. اعترض فيها على علماء الأحياء الثلاثة الإنجليز: هايكرافت، ورايد، وهيدلي. رأوا في الكحول فرصةً كبيرةً للتخلّص من البشر الأقلّ قيمة. إنّها حربٌ ضدّ الانحدار والانحطاط. رأى بلوتز -على عكس الإنجليز- خطورةً كامنةً في انتشار مُدمني الكحول الذين ينجبون المزيد من المُدمنين. عرفت من خلاله عن مرض إدمان الكحول، ولكنْ كان الاستماع إلى الحديث عن الأعطال الجسديّة، والمحرومين من الموهبة، والانتقاء، من الصعوبة بمكان. تزايدت الأصوات التي لا تطالب بالانتقاء الواعي للشريك؛ أيْ تحسين النسْل الإيجابيّ فحسْب. يجب أيضاً محاربة النوع السلبيّ بالتعقيم، ويجب محاربة اعتراض الكنائس. الشعب، ثمّ الشعب مرّةً أُخرى.

كان النقاش معهم مُرهقاً. حين تحوّلت تصوّراتهم لاحقاً إلى حقيقةٍ،

وجّهت إلى نفسي لوماً عنيفاً؛ لأنّني لم أكتب ضدّ هذه الظاهرة، ولمْ أُلقِ في النقابات محاضرةً واحدةً تناهض تحسين النسْل. هذا التقصير جزءٌ من ذنبي. يمكنني القول: «إنّني كتبت واتّخذت موقفاً، بحسب قدراتي، من هذا الهُراء المتعلّق بالإله أودين والربّة فالكور». حضر هؤلاء العلماء كلّهم، الذين كانوا يحتفون بالصحّة والقوّة، إلى القصر، ليس من أجل العِلم فحسب، بلْ من أجل الطعام الفاخر. كما قلت: «لقد كانت سنوات عِجافاً»، ولكنْ كان لليونانيّة أموال في سويسرا. كانوا يجلسون شِباعاً وبجبينٍ منعقدٍ بسبب التفكير، يتحدّثون عن الصراع من أجل البقاء، ويفكّرون في أصل الآريّين، ومن ينتمي إليهم. من بين الضيوف الذين تعرّفتهم، كانت هناك أيضاً شخصيّاتٌ غريبة الأطوار: واهمون، وحالمون، ومغامرون، ودجّالون.

أتذكّر واحداً منهم بدقّة، الباحث في التيبت، السيّد شالر، كان دارساً للأنثروبولوجيا، وهاوياً لعلم الحشرات، رجُلاً طويل القامة، ونحيفاً، ينحني عند الباب حين يدخل أيّة غرفةٍ في القصر. يقول بعد ذلك: «أومممم» ليوسّع صدره، ويفرد قامته، ويقترب من سقف الغرفة. كان يرتدي معطفاً مخصّصاً للسفر، اشتراه من إنجلترا، بدا من الّلحظة الأولى عمليّاً بسبب الجيوب العديدة، كان مصنوعاً من التويد، شرح شالر أنّ ألوان هذه الخامة كانت تشير في السابق إلى الوضع الاجتماعيّ. لمْ يرتدِ في القرن السادس عشر هذا القماش الآمن من التهتّك، والمنسوج من أربعة، أو ستّة ألوان، لا أتذكّر، سوى النبلاء الإنجليز، أو المهرّجين. قال بضحكةٍ ماكرةٍ: «لكم أنْ تختاروا إلى أيّة مجموعةٍ أنتمي»، ثمّ أخرج الغليون من الجيب الجانبيّ المغطى لمعطفه، أمسك بالغليون من دون إشعاله، أمسك به كأنّه يقدّمه أُضحية. لمْ أره يدخّن قطّ. كان وسط سُترته ضيّقاً قليلاً، وفيها حزامٌ مثبّتٌ

بأزرارٍ قابلةٍ للفتح في قماش التويد. شرح للجالسين إلى المائدة أنّ هذا الحزام يصلح لربط المفاصل في حالات الإصابة، ويمكن أيضاً إدخال حبلٍ في ثقبَيّ الأزرار، واستعمال الحزام المقوّى بالجلْد من الداخل لرفع الأغراض وحمْلها. حكى بعد ذلك عن رحلةٍ قام بها في مرتفعات التيبت التي زارها لمدّة ثلاثة أعوام، وموّلها أحد أعضاء نادي الصيد الأغنياء. استعمل في أثناء توجّهه إلى أحد الأدْيرة التي تنتسب إلى عقيدة التيبت هذا الحزام لجاماً لحيوان القطاس. وجد، مقارنةً بالأبقار الأوروبيّة؛ أنّ موضع الخِصْيتين عند حيوان القطاس بالقرب من أسفل البطن، بسبب ارتفاع مستوى الثلوج، أمرٌ مثير. انطبق ذلك أيضاً على موضع الضروع عند جاموس حيوان القطاس. يمنع ذلك تجمّد هذه الأعضاء الحسّاسة. حكى عن الهدايا المقدّمة إليه في لاسا باسْم الدالاي لاما: الخراف المجفّفة، والخنازير المحنّطة، وعَلف الخَيْل والأرزّ.

كان مؤيّداً لنظريّة العصر الجليديّ الكونيّ، وهي نظريّةٌ أثارت الكثير من النقاش. كان يبحث عن إنسان الجليد، هذا الكائن الضّخم، الذي كان يظهر في القصص النادرة للرحّالة إلى أرض التيبت. كانت هذه الأرض بمنزلة الأرض المحرّمة للغرباء. أقول اليوم: «عن حقّ».

-مقطع غير مفهوم-

كان لديّ سابقاً رأيٌ مختلف. يجب أنْ يتاح الرخاء، والتكنولوجيا، والعلم، في أبعد نقطةٍ على الأرض. إنْ ذهبت إلى باريس في يومٍ من الأيّام، فأرجوك أنْ تذهب إلى البانتيون، وإلى القبْو؛ لترى مقبرة روسو، إنّه معبدٌ صغيرٌ، تخرج من بوّابته يدٌ تحمل شُعلة، إنّه نور حركة التنوير. أجلْ، لقد تقدّمنا، لمْ يعد هناك مكان للأشباح والساحرات الشرّيرات، ولكنْ للماكينات التي تسحق كلّ شيء. أفكّر أيضاً في القنبلتين اللّتين ألقتهما

حكومتك على اليابان، لقد قرأت الخبر في الجرائد. هل تعرف المزيد عن هذا الأمر؟

- لا، لا أعرف إلّا ما هو مكتوبٌ في الجرائد. للقنابل تأثيرٌ مرعبٌ، ولكنّها أدّت إلى استسلام اليابان.

- ألمْ يكن التهديد هو القرار الأصْوب، ثمّ تنفيذه بإلقاء قنبلةٍ على منطقةٍ خاليةٍ من البشر؟ والأهمّ: لماذا قنبلتان؟

- لا أعرف، ولكنْ حفظت بهذا الإجراء حيوات العديد من زملائي من الموت.

- أنا أخالفك الرّأي. هذا هو منطق الحرب، وليس السلام. مثل الغاز المسمّم الذي استعمل في الحرب العالميّة، التي يجب وصْفها الآن بأنّها الأولى. ينطبق ذلك على القصف الناريّ في مدينة فردون الفرنسيّة. كتب كارل ماركس في هذا الشأن، وكيف محَت شِباك العنكبوت القديمة الخرافات والدّين. كان يرى ذلك صحيحاً، ولكنْ ماذا اختفى بوقع هذا المَحْو؟ الدمار الذي لحق بالتنوّع الثقافيّ وفقدان الأدب؟ ما أمرَ به معلّمو ديانة التيبت من منْع الأغراب من الغرب، أصحاب الأنوف الطويلة، هؤلاء الشياطين، كان يمثّل الفرصة الوحيدة لحفظ هذه الحضارة الجميلة والغامضة التي صُنعت على مدار آلاف السنين. كانوا يعرفون أنّ الباحثين، والمبشّرين، والتجّار، سيدهسونهم. مُنع أيضاً سفين هيدين تحت التهديد بالقتل من دخول البلاد؛ أمّا شالر، الذي قدّم نفسه بوصْفه رحّالةً من الرايخ الألمانيّ، فسُمح له بالدخول عبْر وادي شومبي، والانتقال إلى لازا.

قال شالر: إنّه يفضّل اسم (اليتي)؛ لأنّ الأسماء الأُخرى لهذا العملاق كثيف الشَّعر، الذي عُرف في الأبحاث باسْم إنسان الثلج، أو دبّ التيبت، كانت تحدّد انتماءه إلى مملكة الحيوانات، أو البشر. ربّما كان بالفعل

درجةً أوّليّةً لبشرٍ من نوعٍ مختلفٍ، مثل همزة وصْل؛ أي: كائنٌ قادمٌ من العهد القديم للعصر الجليديّ الكونيّ، وربّما يكون الجدّ الأوّل للجنس الآريّ كلّه. كان هذا الكائن مرئيّاً على نحوٍ متكرّرٍ، من بعيدٍ، بشَعرٍ كثيفٍ، يسير مستقيماً، شديد الخجل، وبأقدامٍ ضخمةٍ مذهلةٍ، وكان يسير على الرّغم من الثلج والصقيع حافياً. قال شالر: «خرجت التقارير من أساطير أهل التيبت، أو بالعكس، تأثّرت أساطير السكّان الأصليّين بالتقارير، ولمْ يكن إثبات أيٍّ من الحالتين مُتاحاً». كان مقتنعاً بوجود هذا الكائن، وأنّه رأى ذات مرّةٍ شبحاً أسْود كبيراً وسط الثلج. حاول أنْ يتحرّك بحذاء الثلج ليتواصل مع هذا الكائن، فلمْ يُفلح؛ ابتعد الكائن في خجلٍ، والتفت مرّةً وحيدةً إليه إلى الخلف. صور آثار الأقدام الضّخمة لهذا الكائن في الثلج. سلّم الصورة دليلاً لاتّحاد الصيد، وأهدى الصورة إلى صاحب مصنع الأحذية المعطاء هاوزفالد، الذي موّل الرحلة. كان لشالر نفسه، بحُكم حجمه الضّخم، أقدامٌ كبيرةٌ جدّاً. كان يفصّل حذاءه؛ لأنّ المقاس لم يكن متوفّراً في السوق.

يجب الاعتراف بأنّ شالر كان يمتلك -على عكس بلوتز وضيوف العلم جميعاً- مقداراً كبيراً من الحسّ الفكاهيّ والسُّخرية من الذات. كان يستطيع أنْ يقول عن نفسه: «إنّ آثار قدمه تغري أيّة أنثى لكائن (اليتي) مستعدّة للتزاوج». ادّعى أنّ المرّة الوحيدة التي قابل فيها (اليتي)، هرب الأخير، وأنّ هذا دليلٌ قاطعٌ على كونه من الذكور.

وصفه المدرّس المنزليّ شوبرت، صاحب الرأي الناقد، بأنّه مولعٌ بالأساطير، ولكنْ من القطع الكبير.

من المؤكّد أنّ شالر بحكاياته المتنوّعة كان ضيفاً محبوباً داخل أيّ مجتمعٍ، وكان هناك عددٌ يكفي من أصحاب الأموال المصابين بالملل،

الذين كانوا يقبلون بتسليته لهم، وهو يتنقّل من قصرٍ إلى آخر، كما كانوا على استعدادٍ لتمويل الرحلة الاستكشافيّة: الثانية، والثالثة.

إلّا أنيتا، قالت: «لنْ نعطي». لمْ تقل: «لنْ أعطي، إنسان الثلج هذا ملّيماً واحداً». قالتها بحسم، لدرجة أنّ الصديق القديم التزم الصمت، مع أنّه لمْ يكن رافضاً لفكرة دعْم شالر. صحيحٌ أنّه كان ينظر إلى الحديث عن قدرات أهل تيبت التنبؤيّة بوصْفها عبثاً، ولكنّه اهتمّ بنظريّة عصر الجليد الكونيّ، وإنْ عدّها معقّدةً على المستوى العلميّ.

يجب ذِكرُ شيءٍ غريبٍ آخر؛ الكلب الألمانيّ الذي كان بحجم العِجْل، وتُبعد عيناه الصفراوان اللّئيمتان أيّ دخيل، وكان يرتمي تحت أقدام شالر بمجرّد دخوله القصر. يئنّ وينظر إليه، كأنّه ينتظر أوامره.

طائر الهزار



طُلب هانزن إلى مقرّ القيادة الرئيس بعد مرور أسبوعين. التقى بالعقيد ميدلتون، الذي قال له: «هناك شكوى. فيلق مكافحة التجسّس قد أبلغ السُّلطات الأعلى، الجهات كلّها. من المؤكّد أنّ الموضوع تافهٌ، ولكنّ القائد العسكريّ لمدينة كوبورج قد أبلغ بأنّ هانزن قد دسّ له عُمدةً شيوعيّاً للمدينة».

- ما المقصود بكلمة «دسّ»؟ الرجُل كان نقابيّاً، وسُجن. لمْ أسأل إنْ كان شيوعيّاً أم لا. لمْ يكن نازيّاً، ألمْ يكن هذا هو الفيصل، أيّاً كان الشخص، اشتراكيّاً أم شيوعيّاً؟

القيادات تهتمّ بهذا الشأن، على الأقلّ مؤخّراً، وهناك شكوى أُخرى: السيّارة الكابريوليه الجميلة. الصيدليّ النازيّ قد تقدّم بشكوى إلى نائب القائد العسكريّ؛ أي: إلى جهةٍ عليا. قال ميدلتون: «عدد الحالات التي كان يجب أنْ يوصِل إليها الأدوية، للنازيّين المرضى الطيّبين بالطبع». قال ميدلتون: «إنّه تعامل مع الموضوع بتساهلٍ في البداية، ولكنْ لنْ يتمكّن هانزن من التجوّل بالكابريوليه في طبيعة بافاريا الجميلة بعد اليوم». سأل هانزن عن الرائد إنجل، وعن المهمّة التالية، بعد انتهائه من التحقيق.

قال ميدلتون: «إنّ إنجل يذهب ويأتي. للحقّ: أنا لا أعرف».

عاد هانزن إلى المنزل، ووجد جورج بالنظّارة المكبّرة في الحديقة، وهو يراقب شجر البلّوط العتيق. **مدهشةٌ هذه الكائنات التي تزحف، أو تطير هناك.**^

أشار إلى عصفورٍ ببطنٍ، لونه أصفر في أخضر، **طائر الهزار الأحمر**^، صغيرٌ في العمر. عصفورٌ ينتمي إلى عائلة الشرشوريّات، التي كانت تبهر داروين.

أعطى جورج هانزن النظّارة المكبّرة، ولكنْ كان العصفور قد طار. الشيء المميّز هو منقاره المهجّن، الذي قد تعجز به العصافير عن الالتقاط بدقّة، ولكنّها تزيل بهذا المنقار المدبّب والمهجّن قشور أكواز الصنوبر، ما يُظهر تأقلمها الذكيّ مع بيئتها. ها هو واحدٌ آخر، ولكنّه متقدّمٌ في العمر. كان ذيله أحمر. أراد هانزن أنْ يسأل تلقائيّاً عن عصفوره المفضّل. لمْ يفكّر جورج طويلاً: **الغراب.**^

بدأ بعد ذلك بِعَدِّ الأشياء الرائعة كلّها التي تميّز الغربان: ذكائها، وريشها الأسْود البرّاق. ذكاؤها مميّزٌ وسط العصافير كلّها؛ لقد جرّب بنفسه، بعد معايشة طلقة البندقيّة، تستطيع الغربان التفرقة بين البندقيّة والعصا التي تُستعمل مثل البندقيّة. مع العصا تبقى الغربان في مكانها، في حين أنّها تطير بعيداً مع البندقيّة.

– وماذا عن النعيق البغيض؟

اقتنع جورج بالنظريّة التي تقول: «إنّ هذا النعيق يوضّح الرغبة في الغناء، فالغراب طائرٌ مثاليٌّ، ويكمن الحُزن في هذا الغناء الذي يجب أنْ نعترف أنّه مريرٌ، حُزنٌ على قطعة جُبنٍ مفقودة». ظنّ هانزن أنّ جورج قد شرب الجنّ، وتناول معها الجُبْن حينما دخل المنزل. تذكّر لاحقاً قصّة

الكاتب إيسوب، واندهش من المعرفة الخفيّة التي يمتلكها هذا الرجُل القادم من تكساس.

-16 آب/ أغسطس-

(Crossbill)، باللّغة الألمانيّة: الهزار بالمنقار المهجّن في شجر التنوب. المصطلح الألمانيّ الذي يستعمل الإضافة «شجرة التنوب" يُعدّ أكثر دقّة.

ميدلتون، استعمال كلمة «حضرتك» في الألمانيّة تخلق أوضاعاً واضحة. عندنا -هل أكتب حقّاً «عندنا»-تخلق كلمة «أنت» نوعاً من التقارب، حين لا نستعمل معها كلمة «سيّدي»، ولكنْ هناك التنويعات البسيطة عبْر اختلاف النبْرة. ليس من الوارد أنْ أخاطب ميدلتون باللّغة الألمانيّة بكلمة «أنت»، وهو بهذا الشارب الرماديّ.

«القطع اللّيليّة». قرأت الأسبوع الماضي نصَّ «المنزل المهجور». تنطبق الجملة الأولى علينا هنا أيضاً: «كان ثمّة اتّفاقٌ على أنّ الظواهر الواقعة في الحياة تكون في أحيانٍ كثيرةٍ أروع ممّا يخترعه الخيال الخصب كلّه».

-17 آب/ أغسطس-

جلس الرجال في الساحة الأماميّة لمحطّة قطار شتارنبرغ. شَعرهم مقصوص، وملابسهم غريبة: السُّترات التي لا تتّسق مع البناطيل، ولكنّها مصنوعةٌ من خاماتٍ جيّدةٍ، بتصميمٍ جيّد، والأحذية الأنيقة لافتةٌ للنظر، بكعبٍ أبيض، والبنطال بلونٍ أخضر فاقع، وسُترةٌ معها بنطالٌ مقلّمٌ

بالأسْود، والحذاء بلونٍ بنّيٍّ فاتح. لمْ يتّسق هذا مع ذاك. عمّالٌ أجانب، نازحون^، يتجوّلون في البلاد، ويأخذون الآن لأنفسهم ما كان ينقصهم عبْر شهورٍ وسنواتٍ من الجوع والقهر، لولا علمنا بما وقع في الماضي؛ إذْ كانوا يرتدون الملابس الرثّة، لوصْفنا ما يحدث بالسرقة. إنّها جيوشٌ من البشر تتحرّك في اضطّرابٍ من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، نزوحٌ للشعوب. في الماضي كانت مثلّثات صغيرة مثبّتة في ملابسهم توضّح الموطن الأصليّ، يُكتب عليها من الشرق، أو من الغرب. يمكن تعرّف هؤلاء المضطّربين الآن من خلال قطع الملابس التي تجمع بين الغالي وبين الرخيص. الآن، يبدي الذين عانوا لسنواتٍ من الإهانة فظاظةً شديدةً في أحيانٍ كثيرةٍ، وكذلك فيما بينهم.

-19 آب/ أغسطس-

انتهت أيام السعادة، بدون سيّارة أدلر عليه الآن التقدّم بطلبٍ للتنقّل. مع ذكر سبب.

أحضر ساعي البريد في يوم جمعةٍ على درّاجته خطاباً لهانزن. كان أوّل خطابٍ يصل إليه في هذا المنزل. باقي الإخطارات، والخطابات، والتلغرافات كان يأخذها من مقرّ القيادة.

أرسل الخطاب منذ ثلاثة أشهر، وكان غلافه مزدحماً بالعناوين. حُذفت عناوين، وكُتبت عناوين جديدة، أُعيدَ إرسال الخطاب إليه عبْر جهاتٍ عديدةٍ خدم فيها: أنتفيربن، وفرانكفورت، وكوبورج، وفرانكفورت مرّةً أُخرى، وفيزبادن، وميونخ، وأخيراً هيرشينغ. لمْ يفهم سبب بقاء الخطاب لمدّة ستّة أسابيع في فرانكفورت، فضْلاً عن فتح الخطاب من جهةٍ ما في

فيزبادن. هذا ما جعل هانزن، بعد قراءة الخطاب، يثور غضباً، ويصرخ قائلاً: «إنّ رجال المخابرات يحشرون أنفسهم في كلّ شيء».

عزيزي ميشائيل:

أردتُ الكتابة إليك منذ مدّةٍ طويلةٍ، ولكنّني لمْ أتمكّن من ذلك؛ لأنّني لمْ أعرف مكانك، ولا عملك، وإذا كنت على قيد الحياة. كان خاطراً يحزنني، كما أنّني كنت أشعر بالخجل من أسلوب وداعي لك.

ذهبت بعدها إلى متحف تاريخ الطبيعة، وسألت عن أبيك، تحدّثت إليه، وسمعت أنّك بخير، وقلّما تكتب خطابات. رأيت بعض حيواناته المحنّطة: رأيت حيواناً مدرّعاً ضخماً، ودبّاً رماديّاً في القاعة (أي إل)، كان منظره مثيراً للخوف. والدك فنّانٌ حقيقيٌّ، يحوّل الموت إلى حياةٍ لا تتحرّك. عمله قدْ يقارن بالتصوير، ولكنّه ثلاثيّ الأبعاد، ومرتبطٌ بالرغبة بلمْس الحيوان. في لحظةٍ لمْ يكن أحدٌ يراقبني، مسحت على الدبّ الرماديّ، وهو فعلٌ ممنوع، وكان شَعره خشناً مثل نشارة الخشب.

انتهت الحرب في أوروبّا، وأردتُ أنْ أقول لك: إنّني سأعود في الخريف، أو الشتاء إلى فرنسا. أنا سعيدةٌ لرؤية أُسرتي قريباً. الوالد، والوالدة، والأخ بخير. عادت منطقة الإلزاس إلى فرنسا مرّةً أُخرى، وصرنا فرنسيّين مرّةً أُخرى. كان أبي في الماضي فرنسيّاً مرّتين، وألمانيّاً مرّتين. عاد أبي ليعمل طبيباً في كولمار، كما عاد أخي إلى المنزل. من المؤكّد أنّه مرّ بالكثير، ولكنّه لا يريد أنْ يكتب عن هذه التجربة. أظنّ أنّ هذا سيعود عليه بالنفع إنْ فعله، تماماً مثل كتابة هذا الخطاب الذي يفيدني أيضاً.

كان لدينا مع بداية الصيف في نيويورك موجةٌ حارّةٌ، عكس العاصفة الثلجيّة التي مرّت بنا. كنت أجلس يوماً في هذه الحانة، أشرب القهوة،

وأتناول الشطائر. فكّرت فينا، حين جلسنا هنا، وحولنا هؤلاء البشر كلّهم، وزجاج النوافذ مغطّى بآثار الرطوبة؛ بسبب ملابسنا المبتلّة. كنّا نتحدّث باللّغة الألمانيّة. ربّما تكون الكتابة الآن باللّغة الفرنسيّة أسهل، أو الإنجليزيّة أيضاً، ولكنّني فكّرت في وجوب كتابة الخطاب باللّغة التي تحدّثنا بها وقتها. (وإنْ كنت قد كتبت صيغة أولى منه).

لقد انفصلت عن هوراس، كان موعد حفل العُرس محدّداً، أهداني خاتماً جميلاً للخطوبة، بقطعة ماسٍ كبيرة. الغريب أنّ هذا الخاتم كان يضايقني في يدي. هذا البريق المزعج، كان يطلق إشعاعاً وضوءاً؛ شعرت أنّني منارة. صحيحٌ أنّ النيّة كانت طيّبةً، ولكنّ هذا الإشعاع أربكني. حدث بعدها شيءٌ غريب؛ استيقظتُ بعد حُلم ذات ليلةٍ قضيتها إلى جانب هوراس، وسمعت أنفاسه. ظللت مستلقيةً وأنصتُّ، وفكّرتُ في أنّ هذه ليست الأنفاس التي أودّ سماعها لسنواتٍ وعقود. نهضتُ وسط اللّيل، وجلستُ إلى المائدة في المطبخ حتّى حلّ الصباح، ثمّ صارحته بأنّ الأمور لنْ تسير على هذا النحو، وأنّني لنْ أستطيع الزواج به.

كان متماسكاً، سأل عن السبب. لمْ أتمكّن إلّا من قول: «لنْ تسير الأمور». قال: «**خذي وقتكِ**»[8]، ولكنّني لست في حاجةٍ إلى هذا الوقت.

هذه هي أخبار العالم الجديد.

أرجو أنْ تكون بخير، سأكون سعيدةً بلقائنا.

كاثرين.

اليوم الحادي عشر

- لقد وصل إليّ -أمس- خطابٌ قضى رحلةً مدّتها ثلاثة أشهر، خُتم الخطاب بعبارة: «أرجو أنْ تكون بخير». هل هذه العبارة دارجة اليوم؟

- نعم، قديمة نسبيّاً، ولكنّها عبارةٌ جميلة.

القصر... -مقطع غير مفهوم-... الثورة... -مقطع غير مفهوم-.

أجلْ، لمْ أتمكّن داخل القصر من متابعة التطوّرات في بافاريا إلّا من بعيد. كان رئيس الوزراء أيزنر قد اغتيل في شباط/ فبراير 1919. أيزنر كان اشتراكيّاً متحرّراً، محبّاً للسلام الراديكاليّ، إنْ صحّ التعبير. رفض، بوصْفه رئيساً للوزراء، تأميم البنوك والمؤسّسات الصناعيّة. كان مثاليّاً ومؤمناً ببناء مجتمعٍ مسالمٍ ومتساوٍ من خلال الحُجّة فقط. أدخل يوم العمل ذا الثّماني ساعات، وحقّ المرأة في التصويت، والتأمين ضدّ البطالة. أطلق عليه الملازم، الكونت أركو، الرصاص في الشارع.

كان تصرّفاً بلا أيّ داعٍ؛ لأنّ أيزنر كان في طريقه إلى الاستقالة بعد هزيمته في الانتخابات. كان الكونت أركو عضواً في جمعيّة ثول(*)،

(*) جمعية ثول (Thule Society): مجموعةٌ تأسّست بعد الحرب العالميّة الأولى، واشتهرت برعايتها لحزب العمّال الألمان الذي أُعيد تنظيمه لاحقاً ليسبق جزءاً =

ويفصح الاسْم، ثول، عن البرنامج العنصريّ، المتمسّك بالشمال، والمناهض لليهود.

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، كان أيزنر يهوديّاً، ولكنّه ليس مؤمناً، كما كان يُقال. ملحدٌ في الأغلب. لمْ يؤدّ اغتيال أيزنر إلى أيّ انتصارٍ للرجعيّين، بلْ إلى العكس؛ إلى قيام الجمهوريّة السوفييتيّة الشيوعيّة. سمعت عن قيام الجمهوريّة السوفييتيّة الشيوعيّة في 7 نيسان/ إبريل. لمْ أتمكّن من البقاء في القصر أكثر من ذلك، ذهبت إلى محطّة القطار، وذهبت إلى ميونخ، على الرّغم من مرضي، وأنا ملتفٌّ بمعطف الصديق المبطّن بالفراء، بعد أن دفعتني اليونانيّة لارتدائه. ميونخ التي تشبه القرية ببحيرتها المنهمرة داخل الجبال، وسكّانها المرتدين للزيّ الرسميّ، وأشجار الزعرور، والسُّحب المرسومة في السماء الزرقاء، وحفلات الكرنفال المتحرّرة. كنت أحبُّ المدينة إلى أنْ وقعت هذه الأحداث. كنت أظنّ أنّ السَّكَن هناك مثل قضاء العطلة. أجلْ، تظنّ أنّك في إجازة. كان الوضع أيضاً هادئاً وسط الثورة، بصرف النظر عن الطائرات القادمة من بامبيرج التي كانت تلقي المنشورات، حيث هربت الحكومة الاشتراكيّة الديمقراطيّة. كانوا يجمعونها ويعلّقون عليها ضاحكين، نظراً للتهديد المكتوب في المنشور بهجوم الفرق العسكريّة. لمْ تصدّق الطبقة البرجوازيّة هذا كلّه، وعدّته مزحةً كرنفاليّةً من الذين تولّوا الحُكم من فنّاني شفابنج والحركة البوهيميّة فيها: أنصار الحركة الفوضويّة، والأدباء، والفنّانين، ومنهم: إرنست تولر، وإيريش موزام، وإرنست نيكيش، وسيلفيو جيزيل، وجوستاف لانداور الذي أقدّره

= من الحزب النازيّ. سُمّيت نسبةً إلى ثول، أو ثولي، وهي جزيرةٌ تقع في أقصى شمال الأرض بحسب الأدبيّ اليونانيّ. (م).

كثيراً، كان وزيراً لتنوير الشعب، ووقعت في نطاق مسؤوليّاته المدارس والجامعات أيضاً.

في يومٍ باردٍ من نيسان/ إبريل، مكان الاجتماع الوزاريّ للتكوين الشعبيّ كان في مطعم «المرساة الذهبي». لا يوجد نهرٌ، ولا سفينةٌ في المنطقة بأكملها. يبدو أنّ صاحب المطعم هو أحد سكّان بافاريا المولعين بالبحر. أمام المطعم شجر زعرورٍ صغير، وعليه علاماتٌ لرموزٍ مختلفة: مقصّ ومطرقة، مسحج ومسطرين، ومعها شرائط زرقاء وبيضاء. في الداخل رائحة اللّحم المحمّر، والجعّة، ودخان السجائر، وملابس مبتلّة. كان هناك نقصٌ في الخشب والفحم؛ ولذلك جلس المبعوثون بالمعاطف البنيّة الداكنة والسوداء في هذه الحانة إلى جانب المستمعين. السبب يرجع إلى أنّ هذا المجلس التنفيذيّ كان يجتمع يوميّاً، وكان من حقّ الجميع إلقاء الكلمات. أطلقوا على هذا الوضع ديمقراطيّة القاعدة. مرّت النادلات قويّات البنيان بخصورهنّ الممتلئة بصعوبةٍ عبْر الممرّات الضيّقة بين الكراسي، وهنّ يحملن من أربعةٍ إلى ستّة أكوابٍ من الجعّة. جلس الرجال بذقونٍ طويلةٍ، وشعرٍ طويلٍ، ويجب أنْ نعرف أنّ ترك الشَّعر يطول كان يمثّل اعتراضاً على قصّة الشَّعر القصير المفروضة على جيش بروسيا. جلست بينهم بعض السيّدات، بشعرٍ رماديٍّ، وبعضهنّ في عُمرٍ صغير، ومنهنّ من تشارك ببدهيّةٍ في المناقشات التي كانت تتناول تأثير حصص التاريخ في المدارس؛ إذْ أراد لانداور إلغاءها إلغاءً كاملاً في البداية؛ حتى أنْ تُستبعد الكتب المدرسيّة ونصوصها التي تمجّد الحرب. كان الوضع معقّداً على نحوٍ كافٍ؛ لأنّ المدرّسين لنْ يتمكّنوا بسرعةٍ من تقديم مفهومٍ جديدٍ عن التاريخ من خلال المناقشات والتدريب؛ لأنّهم تربّوا وتعلّموا على النظام القديم. العظماء الذين صنعوا التاريخ: فريدريش الأكبر،

والأمير الكبير، وسائر العظماء، خاصّةً بسمارك، ثمّ بسمارك مرّةً أُخرى، ومولتكة، وسيتن، وهيندنبورج، وهذه المذابح كلّها ووصفها، ولكنْ هناك أيضاً تاريخ الرجُل البسيط. قال لانداور: «هذا هو ما يحرّكنا حقّاً، إنّها لحظات البؤس، والحلول الوسط، والاختراعات، والهزائم».

ارتفعت الأصوات المنادية بضرورة التمهّل في الحديث، ومحاولات التفسير، وتغيير التفسير. نهض جوستاف لانداور، وصاح على غير عادته: «من يملأ رؤوس الأطفال بهذه العبارات: إلى التراب بكلّ بأعداء براندنبورج، وكورال لويتن، واحتفال سيدان، والساديّ «فريتس العجوز»، عليه أوّلاً الحديث عن 16,000 قتيلٍ، وعن قاذفي القنابل النمساويّين والقادمين من بروسيا الذين تحوّلوا إلى مُعاقين». ربّما غنّى هذا الكورال؛ ليغطّي على صراخ الذين ماتوا في الصقيع. هذه هي حقيقة التاريخ. كان الملك الجديد المُحتفى به يتحدّث بلغةٍ ألمانيّةٍ شديدة الركاكة، وما كتبه كان أكثر ركاكةً، بصرف النظر عن منعه التعذيب المدنيّ، لمْ يكن نظام حُكمه إنسانيّاً؛ فقد أبقى على التعذيب العسكريّ، والضرب بالسوط على الظَّهْر.

صاح أحدٌ من الحضور مردّداً مقولة الملك: «إنّ لكلّ واحدٍ الحقّ في أنْ يسعد بقناعاته».

يقع ذلك عندما تكون لديه قناعةٌ من الأصل. تبدأ الحُرّيّة بالتفكير، ولكنّها لا تتحقّق إلّا من خلال العمل، حينها فقط تتحرّر من أشباح أصحاب السُّلطة. يرمي هؤلاء بظلالهم، ويتركون إنجازات الآخرين في الظلام.

صاحت البارونة ليتاو، الجالسة أمامي، وهي كاتبةٌ شابّةٌ كانت تؤيّد العلاقات المتحرّرة، مثل زميلتها السابقة البارونة ريفينتلوف: «هذا صحيح!».

- ماذا كان مفهوم:.... علاقات متحرّرة؟

- لا للزواج الأحاديّ؛ للسيّدات الحقّ أيضاً في الحياة مع أكثر من شريك. إذنْ، جلست هذه البارونة، وعلى الرغم من البرد القارس، بفستانٍ مفتوح الصدر، مثل لوحة سوزانا الجالسة في الحمّام. رفع العديد من أصحاب الذقون الطويلة رؤوسهم للفوز بنظرةٍ إلى داخل الفستان.

ناقش الجالسون إلى منضدة القيادة في مقدّمة القاعة كيفيّة عرْض هذه الحرب التي انتهت منذ خمسة أشهر مضت. ما هي الأسباب؟ من الذي أدّت أفعاله إلى هذا القتل الجماعيّ؟ من جنى الأموال من وراء ذلك؟ هل من الصواب أنْ نمنح الأوسمة لهؤلاء الأبطال الذين قتلوا الكثير من البشر؟ قالت البارونة: «ارتداء الأوسمة والتجوّل بها فعلٌ فاحشٌ». انتفض شابٌّ وصاح: «من يدافع عن الوطن يخاطر بحياته؛ هذا ما ترمز إليه الأوسمة، هذه الشجاعة تمثّل أعظم أشكال الإيثار». عَلت أصوات الاستنكار في المطعم. ذُكرت أعداد القتلى والإحصائيّات. كان الطيّار المقاتل يحصل، في حالة إطلاقه عشرين ضربة على طائرات العدوّ، على وسام الاستحقاق، أو ماكس الأزرق، نسبةً إلى الطيّار الألمانيّ ماكس إيملمان. عشرون قتيلاً على الأقلّ، الوسام موضوعٌ بفخرٍ فوق الرقبة.

قال لانداور: «أجلْ، هذا عملٌ مُشين».

كيف يمكن عرض هذه الحرب؟ لمْ تعد المسألة تقتصر على المعركة فوق الخيل السعيد، ملايين القتلى، وملايين المُصابين، فردان ونهر سوم، ودولة يحكمها لوياثان.

أثار السؤال عن مسؤوليّة الحرب في هذا التجمّع شجاراً كبيراً. يجب أنْ تعرف أنّ أيزنر قد أعلن مسؤوليّة ألمانيا عن الحرب، وهذه هي قناعتي أيضاً. المسؤوليّة عن الحرب الكبرى؟ ألمانيا! القيصر! أركان الحرب،

حرب هجوميّة، خطّة «شليفن». اكتُسحت بلجيكا المحايدة. صاح شخصٌ ما: «عار!»، شخصٌ آخر أعلن عن استنكاره، تداخلت الأصوات مرّةً أُخرى: صراخٌ، نبْرةٌ عدوانيّةٌ. نهض رجُلٌ معترضاً من مكانه ليترك القاعة، فاصطدم بالنادلة التي كانت تحمل أربعة أكواب جعّة، وسقطت الجعة على صدرها، وعلى اثنين آخرين من الضيوف الجالسين بالقرب منه. صرخت: «انتظر! عليك دفع ثمن هذه المشروبات».

لولا صعود لانداور، هذا الرجُل الهزيل، فوق أحد المقاعد، وإجباره الحضور على الصمت والاستماع إليه، لتحوّل الموقف إلى تشابكٍ بالأيدي داخل المطعم.

قال: «لقد أحسن الرفيق كورت أيزنر صُنعاً، حين أعلن عن قيام ولاية بافاريا الحُرّة. الاستقلال عن ألمانيا المحكومة بسُلطة بروسيا هي الخطوة الأولى لمجتمعٍ ألمانيٍّ مسالمٍ، لا يعتمد على الجيش والصراعات. أليس مستحبّاً أنْ نخلقَ في بافاريا، القريبة من إيطاليا، مجتمعاً ألطف، ومنتمياً إلى الجنوب، ويعتمد على الدعم المتبادل؟ يجب، من أجل هذا الهدف، القضاء على دروس التاريخ المتعطّشة للدّماء، والمعتمدة على عرض المذابح والأبطال».

أجرى لانداور في النهاية استفتاءً، وحصل على أصوات الأغلبيّة لإيقاف حصص التاريخ على الفور في المدارس. عدتُ آخر المساء إلى القصر، كانت حرارتي مرتفعةً للغاية، داخليّاً وخارجيّاً، إنْ صحّ التعبير. حكيت للصديق ولليونانيّة عن الّلقاء. أعطاني الصديق دواءً ضد الحمى؛ ليخفض الحرارة قليلاً. حكيت عن جلوس المبعوثين مع المهتمّين بالشأن، والسماح للجميع بالمشاركة، وعن طرح الأسئلة جميعها بصراحةِ

ومن دون استياء، وعن الحديث عن أسباب الحرب، هذه الكارثة التي حلّت بأوروبّا كلّها. يبدو أنّ مضمون حديثي كان متداخلاً؛ لأنّ الجلسة نفسها كانت فوضويّة.

كان بلوتز، بوصْفه عالماً لتحسين النسْل، ضدّ الحرب تماماً؛ إذْ كان يموت في الأغلب البشر أصحاب الجينات الجيّدة: الشجعان، والأقوياء، والمقدامون، وأصحاب الشخصيّات القويّة. كان يرى في البلشفيّة الروسيّة من ناحيةٍ أُخرى خطراً؛ لأنّ المساواة الاجتماعيّة تمنع انتقاء جنسٍ أقوى وأرقى، ولكنْ لا يمكن الربط بين الحكومة القائمة على المستشارين والبلشفيّة على الإطلاق. كانت أهداف جوستاف لانداور، وإيريش موزام، وسيلفيو جسيل، وإرنست تولر، عكس أهداف الأحزاب الشيوعيّة المتحكّمة، لا لدكتاتوريّة الطبقة البروليتاريّة. كانوا أحراراً، ويميلون إلى الفوضويّة المحبّة للسلام، داخل الحركة الفوضويّة أيضاً. عارضوا بيان الستّة عشر بقوّة. كانت مجموعةٌ من الفوضويّين، مثل: كروبوتكين، وجان جريف، الذين أيّدوا -مع الأسف- فوز الحلفاء ضدّ ألمانيا والنمسا. رفض الفوضويّون المتجمّعون في ميونخ أيّ دعمٍ لحزبٍ حربيٍّ في ظلّ القتل الذي تباركه الدولة. كانت قناعات لا تتأثّر بإدمان القوميّة، والدعاء من أجل الفوز، وهزيمة القوميّات الأُخرى. هذا الحديث في صيف 1914 عن النار المطهّرة للحرب، كانوا يقاومونه، يدخلون السجون، أو يرحلون إلى المنفى من أجل قناعاتهم، هكذا كنت أتحدّث، متأثّراً بعض الشيء بالحمّى التي أصابتني.

قال: «آهٍ، أنت لا تزال متعلّقاً بتصوّراتك القديمة. أعرف هؤلاء الرجال القذرين، ورائحة الجعّة التي تفوح منهم. إنّهم ثوريّو المقاهي، باستثنائهم هُم، لا أحد يأخذهم على مَحمل الجدّ. يتناقشون، ويتكلّمون ويتكلّمون.

هُم مجموعةٌ طيّبة القلب وساذجة، ولكنّهم لا يصلحون لتنفيذ رغبةٍ سياسيّة. فكِّرْ في مجموعتنا من الإيكاريّين، حديث لا ينتهي، كلمة وكلمة مضادّة، وهُم فخورون بذلك، ولكنّهم يمنعون التنفيذ وتحمّل المسؤوليّة. صاحب الأفعال لا يعرف الضمير، وإلّا لنْ ينفّذها. هؤلاء البعيدون عن الحياة، الضعفاء، لن يغيّروا شيئاً».

قلت: «لا، الضعفاء هُم من يغيّرون الوضع، ويعرفون النقصان، إنّهم الضعفاء الذين يحملون داخلهم الأمل في خطأ الطبيعة المتبلّدة القائمة على القوّة والدم. الضعفاء -ونحن جميعاً ضعفاء بحُكم المرض والموت- هُم من يطالبون بالسعادة لنا، وللتعساء كلّهم. ليسوا ممّن ينعمون بالقوّة، بلْ هُم المُعاقون الذين يعانون من أنفسهم، ومن العالم، ويحملون داخلهم نور المعرفة. الضعفاء هُم الأقوياء؛ لأنّهم يطالبون بالعدالة، مجرّد وجودهم يمثّل قوّة. إنّهم يدعموننا في كفاحنا ضدّ الظلم والبطش، وضدّ العدالة الذاتيّة لمن يتمتّعون بكامل الصحّة. شعرتُ بإثارتي، وخرجت الكلمات ساخنةً من فمي، مثل نوبات الحرارة التي كانت تجعل أسناني تتخبّط. هل تتذكّر الطبيب في بورج هولسل؛ ما كان اسْمه؟».

لمْ يستطع تذكّر اسْمه.

- ذلك الطبيب الذي قادنا في المكان، فكّرت فيه كثيراً، وفي هذا المعطف الأسْود القطنيّ، بأكمامٍ تحكمها حلقة مطّاطيّة. كان يدافع عن الضعفاء؛ لأنّهم يعرضون علينا سعادتنا التي لا نستحقّها، وصحّتنا. ما كان اسمه؟

أصابتني الحمّى بالرعشة، لدرجة أنّ أسناني كانت تصطدم ببعضها. انتبهت أنيتا، هذه السيّدة الجميلة التي امتلأ قوامها وصدرها، والتي كنت لا أزال أرى فيها السيّدة الشابّة اللّيّنة، التي كانت تقف في مرسمها، وترسم،

وتشكّل الفخّار، وتفرده. لأيّ مدّةٍ تدوم اللّهفة إلى ما انزرع داخلنا من الأماني؟ أردتُ أن أقول لها: «أنتِ وصورتكِ الماضية ترافقاني، هل تعرفين ذلك؟ أنتِ هنا، الماضي هنا، في اللّحظة الحاضرة». لمْ أعبأ بالصديق الذي كان يجلس إلى جانبي. أجلْ، كنت مصاباً بالحمّى. يبدو أنّها كانت تعرف بما سينطق لساني؛ لأنّها قالت سريعاً وبموضوعيّةٍ واضحةٍ: «اذهب فوراً إلى الفِراش، وإلّا ستموت».

أخذت يدي الساخنة، مثل جبيني وأفكاري المشتعلة، وقادتني إلى غرفتي في السطح: الخزانة، والمنضدة، والمقعد، والبندقيّة على الحائط، تلك التي لمْ ألتفت إليها، والفراش الجاهز للنوم، والمدفأة الصغيرة التي أشعلتها مديرة المنزل. «اخلع ملابسك، واستلقِ في الفِراش. سوف أحضر المناشف، وأجهّز الكمّادات». استلقيتُ في الفراش، وحضرت، لمْ نكن بهذا القرب من قبل، ولو على نحوٍ بسيط. وضعت فوطةً قطنيّةً سميكةً على الفراش، ولفّت هذه الفوط الباردة والمبتلّة حول ساقيّ. إنّها تذكرةٌ بجسدي، أثارت هذه الرعشة الساخنة التي أصابتني لحظة سعادةٍ، مثل الطفولة. مرورٌ غامضٌ للأفكار والصور أمام عيني، وهي تقف أمام حامل الصور، وعلى معطفها الأبيض اللّونان: الأخضر، والأزرق، وأمام النافذة اللّون الأحمر الداكن لشجرة الزان الحمراء. طوفانٌ من الأفكار في الحُلم: ما الحُرّيّة، وما الحُبّ؟ يقف النادل بين موائد المطعم ولانداور، حاملاً أطباقاً بها وجبة كُرات الخبز الساخنة بين أكواب الجعّة المغطّاة بالرغوة الكثيفة.

حضر الصديق أيضاً، حقّقت انتصاراً صغيراً؛ لأنّ الغيرة دفعته في الأغلب إلى القدوم خلفنا، قائلاً إنّه حضر للاطمئنان عليّ. لا، حضر للاطمئنان علينا. كان يكره شعور الشفقة، ربّما ظنّ أنّ النساء، بحُكم

عاطفتهنّ الخاصّة، تنساق إلى التقارب غير المألوف مع شخصٍ يعاني، وفي حاجةٍ إلى مساعدة. لا أقصد موقفاً غير لائق، لا، بلْ تقارباً يفوق مجرّد الإمساك بالأيدي، خاصّةً أنّها كانت تدعم حُججي في أثناء حديثي المضطّرب معه، وتوافقني على آرائي، وهو أمرٌ نادر الحدوث، بتعليقاتٍ مثل: هو محقّ، وله الحقّ فيما يقول، ثمّ قالت في النهاية: «إنّ التعساء والمرضى هُم من يقومون بالأعمال العظيمة. مينسل صغير الحجم، يا لجمال الّلوحات التي رسمها! وليناو التعِس، الذي توفّي، وهو مريضٌ نفسيّاً. قصيدتي المفضّلة: الغجر الثلاثة، قمت بإلقائها: «لقد علّمني الثلاث، حينما نواجه ليل الحياة، كيف ننهيه، ونقضيه نوماً، ونخسره، ونحتقره ثلاث مرّات.

قال ألفريد وقتها: «حسناً».

ها هي جالسة الآن إلى جانب فراشي لتضع فوطةً باردةً جدّاً على جبيني.

وضع هو الآخر يده على جبيني ليقيس الحرارة، ثمّ أعطاني مشروباً آخر من الدواء الذي صنعه بنفسه. جلس مدّةً إلى جانب فراشي، وظلّ يقنعني بشرب الدواء المرّ كاملاً. ربّما اختلفت الأمور لو أنّه مارس مهنة طبيب الأرياف، ولكنْ قام طبيبٌ من القرية، اسْمه الدكتور شميدنجر، بتشخيص مرضي بأنّه التهابٌ رئويٌّ، وأمرني بالراحة الضروريّة في الفراش. كان رجُلًا قويّ البنيان، له ذقنٌ، ويتقن الّلغة البافاريّة، وشخصاً يجسّد الصحّة، والقوّة، والعُمر المديد.

بقيت أسبوعين في الفراش تحت رعايتها. طالبت الحكومة الهاربة في بامبرج بالكفاح ضدّ الحكومة السوفييتيّة في ميونخ. تحرّك جيش الرايخ من برلين، وتكوّنت مجموعاتٌ شبه عسكريّةٍ في منطقة بافاريا العليا. قيل:

الكفاح ضدّ الفوضويّة! الكفاح ضدّ البلشفيّة اليهوديّة! الكفاح ضدّ ما هو عدوٌّ للشعوب، وضدّ اللّون الأحمر، وضدّ اليهود أعداء الشعب. عِلماً بأنّ اليهود تقدّموا أيضاً في بامبرج للانضمام إلى الفرق شبه العسكريّة المضادّة للجمهوريّة السوفييتيّة. قرأت التقارير التي دخلت القصْر، كانت صحيفةً شعبيّة.

لمْ يكن الابن الأكبر للصديق قد بلغ التاسعة عشرة بعْد، وكان عائداً حالاً من الحرب. نظّم الحصول على الأسلحة، وهو أمرٌ لمْ يكن صعباً على الفرق العائدة: البنادق، والقنابل اليدويّة، وبندقيّة آليّة. حُفِر خندقان يتّسعان لشخصٍ واحدٍ على الطريق المؤدّية إلى القصر. أرادوا الدفاع عن الممتلكات أمام أصحاب الاتّجاه الأحمر، يا لَسُخرية الموقف! أنا الزائر في المنزل كنت أنتمي إلى هؤلاء. قيل: إنّ المعركة دائرةٌ في محيط ميونخ. يمثّل كلٌّ من رودلف أيجلهوفر، وهو بحّارٌ شابٌّ، والكاتب الدراميّ إرنست تولرو، الذي كان عريفاً أوّل في الحرب، القيادة العليا للجيش الأحمر.

– تولر؟ إرنست تولر؟

– نعم، الذي اشتريت أنت كتابه. نجح بالفعل في ردّ الفِرق شبه العسكريّة في منطقة داخاو. داخاو تحديداً، حيث أُجبرتُ أنا، بعد مرور أربعة عشر عاماً، على جرّ آلة المدحلة إلى داخل معسكر المعتقل هناك. قامت في يوم 13 نيسان/ إبريل دولةٌ سوفييتيّةٌ جديدةٌ تحت قيادة الحزب الشيوعيّ. سمعت في القصر عن المعركة، أظنّ يوم 16 نيسان/ إبريل. قيل بعد مرور عشرة أيّام: «إنّ الفِرق شبه العسكريّة قد وصلت إلى ميونخ». لمْ أحتمل في اليوم الأوّل من أيار/ مايو البقاء في الفِراش، حتّى مع محاولات اليونانيّة إقناعي. أردت الذهاب إلى ميونخ. أجلْ، أنا مُحبُّ السلام، أردتُ

دخول الحرب، أردتُ على الأقلّ دعم الحكومة، وأنْ أكتب المنشورات، وأنْ أقوم بأيّ شيءٍ، وألّا أظلّ راقداً في القصر منتظراً. ذهبت، على الرّغم من الحمّى البسيطة، مرتدياً معطفه المبطّن بفرو الكيت. أجبرتني اليونانيّة على ذلك. لمْ تسأل الصديق؛ اشترته من أموالها. أمرتني: «سوف ترتدي هذا المعطف، يجب أنْ تبقى دافئاً». ارتديته، مع أنّ الطقس لمْ يكن بارداً. رحلت بهذا المعطف المُحترم، وحماني بالفعل من هجوم الجيش الأبيض. كانت محطّة القطار محتلّةً من قِبَل جيش الرايخ: عربات مصفّحة، وبنادق آليّة، وقنّاصة. تحلّق في السماء طائرات حكومة هوفمان الهاربة إلى بامبرج. اقتصرت المعارك على منطقتين في المدينة. كان الجيش الأحمر، المتكوّن من العمّال والثوريّين، يدافع عن نفسه بصلابة. أجلْ، شجاعة في مقابل قوّة سُلطةٍ مُفرطة. بعض الطلقات الفرديّة كانت مسموعةً، ولكنّ الفِرق شبْه العسكريّة كانت قد انتصرت. تمكّنتُ، بفضل المعطف البرجوازيّ المبطّن بالفرو، وياقته المبطّنة أيضاً، من عبور حواجز الفِرق البيضاء جميعها. لمْ يسألني أحدٌ عن أوراقي. رأيت هنا بالمناسبة أوّل الصلبان المعقوفة، كانت مرسومةً باللّون الأسْود على شارات فوق الأذرُع. لمْ يكن الحزب النازيّ قد نشأ بعد. ربّما كانوا رجالاً من جمعيّة ثول. رأيت العمّال الذين دافعوا عن حكومتهم، وتصرّفوا وفقاً للقانون، في مجموعاتٍ تُعذّب وتقتل بالرصاص. كانت عربات النقل تتجوّل بالجنود القادمين من بوتسدام في المدينة، عرفتهم من الجمجمة المرسومة على خوذاتهم الحديديّة. سألت وأردت لقاء جوستاف لانداور، ولكنّني سمعت أنّه قُبض عليه، ورُحِّل إلى شتارنبرغ، حيث كان يقيم قادة الفرق شبْه العسكريّة، الذين أطلقوا على أنفسهم بفخرٍ زائفٍ اسْم: الفرقة القياديّة غرب.

هل يبعث حديثي على الملل؟

- بالعكس، لقد عايشت في هامبورغ مع بداية عام 1932 الخلافات التي وقعت بين الحزب الاشتراكيّ الألمانيّ وبين الحزب الشيوعيّ الألمانيّ. هاجم المتظاهرون بعضهم بالهراوات. لقد سافرنا في آب/ أغسطس، ولكنّني أتذكّر كيف أنّ أمّي كانت تحكي عن الأحد الدمويّ في ألتونا. كان ذلك في تموز/ يوليو، حينما أطلقت الشرطة النيران على ستّة عشر شخصاً، معظمهم من الشيوعيّين والديمقراطيّين الاجتماعيّين. كانت سعيدةً بحصولها على التأشيرة، وأنّنا تمكنّا من السفر إلى نيويورك. هل كنت أنت وقتها عضواً في الحزب الديمقراطيّ الاجتماعيّ؟

- لا، كنت قد تركت الحزب؛ لأنّ الكتلة الديمقراطيّة الاجتماعيّة قد وافقت على قروض الحرب؛ أيْ: وافقت على الحرب الوطنيّة. لمْ أتركه فوراً؛ لأنّ لي رفاقاً أحبّهم، وكنت أشعر تجاههم بالالتزام والحُبّ، وحاولوا في مناقشاتٍ طويلةٍ ثَنْيي عن قراري. من الصعب الرحيل سريعاً، حين تشارك الآخرين على مدار سنوات العمل والكفاح. لمْ تكن خطوةً هيّنةً، ولكنّني قمت بها في النهاية. كانت في البداية خطوةً نحو الوحدة، بين عشيّةٍ وضحاها امتنع العديد من الرفاق والأصدقاء عن تحيّتي، انقطعوا عنّي؛ لقد كنت خائناً. لقد تبنّى تنظيم الحزب الديمقراطيّ الاجتماعيّ شيئاً من جيش بروسيا: الأعلام والغناء، والطابع الدوليّ، واختيار المعركة بديلاً للاستسلام؛ استبدلوا كلمة زميل بكلمة رفيق. كانت هناك ثقة بلا حدود. حضر إلى هنا في متجر الكتب القديمة زميلٌ قديمٌ منذ ثلاثة أسابيع. قبل أربعة أشهر، كان أكستهيلم سيخرجه من الباب، ويقول لي أنْ نلتقي في الحانة. كنت أعرفه من فترة بيبل المشتركة، حكى أنّ عَلم الديموقراطيّين الاجتماعيّين أُنقذ في منطقة لوراخ من بين أيدي رجال وحدة العاصفة، وضعه زميلٌ في عربة طفلٍ، وغطّاه بكيسٍ من القشّ، ثمّ وُضع الطفل

الرضيع فوقه، فدفعت سيّدةٌ شابّةٌ بعربة الطفل الصارخ عبْر الحدود إلى سويسرا، هكذا أنقذوا العَلم. هل تفهمني؟ هذا أشبه بوضع الحرس الجمهوريّ، يجب الدفاع عن العَلم، وكان الأخير يلقي نفسه، وهو يموت فوق العلم. لقد أُنقذ. إنّه أقدم أعلام حركة العمّال. لقد رأيته يوم الحزب الاجتماعيّ الاشتراكيّ في عام 1905 في مدينة ينا، حَمَله نائبٌ من بادن، كان عَلماً أحمرَ بشراشيب، وكُتب على القماش باللّون الذهبيّ: «اتّحاد العمّال العام. قسم لوراخ 1872». في الوسط هناك صورةٌ مطوّقةٌ بإكليلٍ من شجر البلّوط، تعرض الصورة عروسَ بحرٍ أمام أفقٍ لونه ورديّ، وسماءٍ بلونٍ أزرق فاتح. تخرج العروس من بحر أمواجه ثائرةً، ولونه أزرق داكن. تحمل في يدها سيفاً، إنّه رمزٌ للعدالة. تصوّرٌ تحكمه السذاجة؛ إذْ تمثّل هذه الزرقة بالسُّحب المرسومة داخلها الأمل الذي سعى الرفاق على مدار سنواتٍ وعقودٍ للكفاح من أجله، لقد ذهبوا من أجل هذه الزُّرقة، والأفق الورديّ إلى المنفى، أو إلى السجن. عذراً لحديثي العاطفيّ، أردت القول: «إنّ الخروج من الحزب كان صعباً عليّ. كنت كثيراً ما أحلم وقتها أنّني أُطرد من منزلٍ، ومن يطردونني لا يظهرون الشماتة، بلْ يلتزمون الصمت فقط. حين مددتُ يدي، رفضوا مصافحتي، ثمّ يأتي قطار، أرى بخار القطار الذي يحيط بي، ثمّ ينتهي الحلم».

سلّمت كتاب الحزب الأحمر الصغير الخاصّ بي، ومعه طوابع دفع الاشتراك، في كانون الثاني/ يناير لعام 1915 إلى مجموعتي الحزبيّة. لمْ أدخل بعدها أيّ حزبٍ آخر، لا الحزب الديمقراطيّ الاجتماعيّ المستقلّ، ولا الحزب الشيوعيّ الألماني.

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، كانت لديّ اتصالاتٌ مع الحزب الديمقراطيّ الاجتماعيّ

المستقلّ لألمانيا، ولكنْ لمْ أكن عضواً، ظللتُ محارباً فرديّاً، لديّ التزامٌ تجاه نفسي فقط. كنت بعدها أعمل بين الحين والآخر لصالح اتّحاد ألمانيا للعمّال الأحرار، وهو اتّحادٌ للعمّال الفوضويّين، كنت ألقي المحاضرات، وأكتب المقالات، وأصحّح المنشورات. كما قلت: رأيت لانداور للمرّة الأولى في المؤتمر الاشتراكيّ الدوليّ للعمّال في زيورخ، كان ذلك في عام 1893، حينما استبعدت المجموعة الفوضويّة لرفضهم الانتخابات البرلمانيّة. رأيته بعدها غير مرّةٍ في برلين، في البداية كانت مصادفةً؛ إذْ كان لانداور يعمل هناك في متجر كتب، ثمّ رحل بعدها بسبب ضيقةٍ ماليّةٍ مع أُسرته إلى جنوب ألمانيا، إلى كرومباخ.

- هل كانت هناك معرفة بين لانداور وبلوتز؟

- أجلْ، ولكنْ تجنّب كلٌّ منهما لقاء الآخر. كان جوستاف لانداور عكس الصديق القديم على طول الخطّ، ابنٌ لتاجر أحذيةٍ يهوديٍّ من كارلسروهة، شخصٌ ضعيف البُنية، بأطرافٍ هزيلةٍ، وعقليّة عالِم. من الصعب تصوّره في ساحة المبارزة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد ساحات مبارزة اتّحادات الطلّاب. لا يمكن تصوّره، وهو يضرب بسيف الشيش شخصاً آخر. يحيط بوجهه شعرٌ بنّيٌّ فاتحٌ، له جبينٌ عالٍ، قد يصفه الباحثون عن العِرق الجرمانيّ بأنه منتفخ. كان أدبه متواضعاً وهادئاً، اشتراكيّ عن قناعة، يرى في امتلاك الأرض أوّل خطوةٍ نحو العبوديّة. كان يتحدّث عن النبات والحيوان بوصْفهما إخوة الإنسان وأخواته. يجب الدفاع عن الحياة في شكلها الشامل. تخرج من هذه الفلسفة الواحديّة قدرتنا على استيعاب الأبديّة داخلنا؛ نحن العالم، ويمكننا مشاركته في جماله. كان يكتب المقالات عن شكسبير،

ويترجم والت ويتمان، وطاغور، وأوسكار وايلد. انشغل بدراسة بلوتين والمعلّم إيكارت، الذي ترجمه إلى الّلغة الألمانيّة الحديثة أيضاً. كان يستطيع صياغة عباراتٍ جميلةٍ مثل: «هناك اختلافٌ بين صياح الديك وقول «كيكا ريكي»، وكذلك: أمرٌ قاتلٌ أنْ يحلِّ محلّ الربّ القديم عالمٌ محمودٌ ومُبهجٌ، يتقدّم دوماً إلى الأمام. أمرٌ قاتلٌ؛ لأنّ هذا العالم يجلب معه كوارث النموّ».

خرج لانداور، كما سمعت، من الحكومة بعد تولّي الشيوعيّين بقيادة أوجين ليفينيه المسؤوليّة. على الرّغم من ذلك ألقي القبض عليه، ورحل إلى شتارنبرغ.

حاولت الاتّصال من فندقٍ صغيرٍ بميونخ بالصديق، أردتُ أنْ أطلب إليه المساعدة في إخلاء سبيل لانداور. توقّعت أنّه على معرفةٍ بأعضاء اتّحاد الصيد الذين كان بعضهم قادةً في المجموعات شبه العسكريّة، ولكنّه كان قد سافر إلى لاندزهوت، ولا يتوقّع أنْ يعود قبل المساء. طلبتُ إلى اليونانيّة أن تخبره بضرورة الاتّصال بي. وعدتني بذلك، ولكنّها سألت: «ماذا تريد لهؤلاء؟ أنت لست منهم».

قلت: «بلى». كانت عبارةً لمْ أنسها قطّ. كم كانت معلوماتها عنّي قليلةً، وعمّا يحدث في العالم الخارجي. عبارة أبعدتها عنّي، أكثر ممّا كنت أريد أنْ أعترف به. اختلفت حينها حياتنا؛ أنا أبحث عن الثوريّ لانداور، الذي أحاول مساعدته، وهي تجلس في قصرها، الذي يقف أمامه الابن ببندقيّةٍ آليّة.

سافرت إلى شتارنبرغ، إلى المقرّ القياديّ للمجموعة شبه العسكريّة. كلمة «سافرت» توحي بسهولة الأمر. لقد أُوقِف القطار، ودخل رجال المجموعة شبه العسكريّة لتفتيش الركّاب، باحثين عن أتباع التوجُّه

الأحمر. كان معطف بلوتز الباهر، بياقته المبطّنة بالفراء، بمنزلة جواز المرور. وجّهوا إليّ التحيّة العسكريّة، ونظرتُ بخجلٍ من النافذة.

توصّلت في شتارنبرغ إلى أحد القادة، وجلست في غرفةٍ على حائطها خريطة لمدينة ميونخ، بدبابيس رؤوسها زرقاء وحمراء. سمعت فجأةً من الغرفة المجاورة صوت صفْعٍ، وأنيناً، وصرخة ألم. قال القائد حين رأى نظرة عيني: «نحن نقوم بحوار. يجب طرْح بعض الأسئلة على هذه الحثالة الحمراء، كثيراً ما تعلو الأصوات في هذا السياق».

سألت عن جوستاف لانداور.

لقد سلّمنا لانداور، هذا الخنزير، مع ثلاثةٍ من مستشاري العمّال في شتارنبرغ إلى ميونخ. أوحى هذا الوصف لي بأنّ الخطوة التالية ستشمل نوعاً من العقوبة. يبدو أنّهم كانوا يحاولون في حالة لانداور الحفاظ على الواجهة القانونيّة؛ لأنّه شخصيّةٌ معروفة. كان هذا أمراً غريباً؛ لأنّ دائرة شتارنبرغ معروفةٌ بوصفها قلعةً للرجعيّة. طبيعة خلّابة، ولكنّها محتلّة من الثوابت، والأصالة، والثقة بالنفس. أنت كنت هناك، أليس كذلك؟

-مقطع غير مفهوم-

اضطّررتُ إلى المبيت في شتارنبرغ؛ لأنّ حظر التجوّل كان في الأغلب سبباً لعدم قيام القطارات إلى ميونخ. وصلت ظهر اليوم التالي إلى محطّة القطار الرئيسة، وقابلني زميلٌ، نصحني بسرعة مغادرة المدينة، إلى لايبتسيج، أو برلين؛ لأنّ الرجعيّين يسفكون الدماء. لقد قتلوا العمّال، وكذلك وزير الثقافة جوستاف لانداور. قد نظنّ أنّ السجن في بافاريا مكانٌ أكثر أماناً من البقاء حُرّاً، ولكنّ رجالاً من المجموعات شبه العسكريّة في إيب قد أطلقوا النار عليه، وهو في طريقه إلى الزنزانة. يجب عدم نسيان هذا الاسم: فرايهير فون جاجرن، فهو الذي ضرب لانداور حتّى سقط

على الأرض، وضربه بحذائه في رأسه. بعد محاولة لانداور النهوض مرّةً أُخرى، أطلق أحد الجنود النار على صدغه الأيسر. ظلّ يتحرّك، محاولاً النهوض مرّةً أُخرى، قبْل أنْ يقتله بطلقتين. لمْ يُخْفِ أحدٌ جريمة القتل هذه، بلْ حكى عنها الجُناة بوقاحةٍ وصراحة. قيل: «لقد دهسنا هذا الصرصار». لانداور، هذا المحبّ للسلام الذي لمْ يؤذِ أحداً قطّ، تعرّض للتعذيب، والضرب، والقتل. نهب العساكر ممتلكات هذا الميت. يجب أنْ أذكر أيضاً أنّ فرايهير فون جاجرن قد حُكم عليه في العام نفسه بغرامةٍ ماليّةٍ قدْرها خمسمئة مارك بسبب تعذيبه سجيناً. الجنديّ الذي شارك في قتله وسرقته حُكم عليه في عام 1920 بالسجن لمدّة خمسة أسابيع بسبب الإصابة الجسديّة والتستّر. كان لانداور هو الشخص الذي انصبّت عليه كراهية هؤلاء الفلّاحين الشباب الحمقى، مُرتدي الزيِّ الشعبيّ، والعائدين من مذابح الحرب بحالةٍ من التوحّش. لمْ يقتلوا المدافعين عن جمهوريّة السوفييت فحسْب، بلْ ذبحوهم مثل الماشية. كان جوستاف لانداور يجسّد ما يصعب عليهم نَيله كلّه: قارئ، ومثقّف، ومهتمّ، وإنسان يرى في النبات الروح، ويدعو إلى عالمٍ بلا كراهيةٍ، ويناصر العدل، ويناهض العنف.

أنت دارسٌ لعلم الأدب، هل لي أنْ أنصحك بقراءة مقالة لانداور عن هولدرلين؟

-مقطع غير مفهوم-

لمْ أعُد إلى بحيرة أمارزي. منعني من ذلك التفكير في مجموعة الشباب القوميّين هناك، ببنادقهم الآليّة، والقذائف اليدويّة، ولكنّ عبارتها أيضاً: «هؤلاء ليسوا جماعتك»، «بلى، هُم جماعتي، الذين قتلوا وضربوا في ميونخ».

استأجرت غرفةً في فندقٍ بالقرب من محطّة قطار ميونخ الرئيسة، وقضيت ثلاثة أيّامٍ بسبب الحمّى في الفراش.

الحديث عن برلين والأجواء هناك سيبعدنا عن الموضوع.

ولكنْ لي إضافة بسيطة: كثيرٌ ممّن كانوا في المجموعات شبه العسكريّة شاركوا لاحقاً في هذا الوباء. دعنا نسترح قليلاً.

- متى شعرت للمرّة الأولى أنّ هذه الحرب ستنتهي بالهزيمة؟

- في مرحلةٍ مبكّرةٍ للغاية، مع الهجوم على الاتّحاد السوفييتي.

- كنت تعرف معتقل داخاو عن تجربة شخصيّة، ولكنْ ماذا عن سائر المعتقلات التي قُتل فيها اليهود؟

- كانت هناك إشاعاتٌ بالطبع، وحديثٌ هامس. ما كان يعرفه الجميع: كان الجيران يختفون. قيل: إنّ هذه إعادةٌ للاستيطان، تحدّثوا عن الغيتو في مكانٍ ما في الشرق، والشرق كان بعيداً. المطلوب أنْ يصير الشرق وطناً للألمان. التعامل معي كان يتّسم بالحَذر، وكان معروفاً أنّني كنت معتقلاً. إبداء التفهّم لحالتي كان يظهر من خلال إيحاءاتٍ: بمدح كتابٍ محظورٍ، أو فيلمٍ ممنوع. قال أحدهم لي: «شارلي شابلن هذا رائعٌ بذقنه الصغير. مهرّجٌ رائع!». هل تفهم؟ العبيد يستعملون الّلغة بهذا الأسلوب، ولكنْ عودةً إلى سؤالك: عرفت معلومات دقيقة عن قتل اليهود في عام 1943، من شخصٍ معروف، كان ذلك في نهاية شباط/ فبراير، في ظهيرة أحد الأيّام.

كنت أجلس إلى المنضدة المصنوعة من خشب البندق، وسط متجر الكتب القديمة. كان أكستهيلم يقول: «إنّه اشتراها من فلّاحٍ في منطقة أوكسنفورت». قطعة أثاثٍ قديمة، ليست ضخمةً، ولكنْ يظهر عليها الاستعمال الحريص، طولها خمسة أمتار، وعرضها مترٌ ونصف. القصّة التي يحكيها أكستهيلم عن أصل هذه المنضدة جزءٌ لا يتجزّأ منها. كان

يجب على الفلّاح، على الرّغم من صغر سنّه، الانسحاب من عمله إلى داخل منزلٍ خاصٍّ صغير. تولّى الابن مسؤوليّة العمل؛ كان المطلوب تصغير مساحة منزل الفلّاح الكبير، الذي بُني في عام 1800 من الطوب الرمليّ. أراد الابن بناء حائطٍ، ولمْ تتبقَّ مساحةٌ لهذه المنضدة التي صُمّمت خاصّةً لهذا المنزل. قال أكستهيلم: «يبدو أنّ الفلّاحة الشابّة، القادمة من مدينة إيبرت الصغيرة، طلبت قطعةً نظيفةً وألوانها زاهية». كانت هناك أيضاً فكرةٌ مطروحةٌ بفصْل المنضدة وتحويلها إلى منضدتين صغيرتين، ولكنّ الزوجة الشابّة رأت بعدها منضدة مطبخٍ بيضاءَ بحافّةٍ حمراءَ في نافذة عَرْض محلّ أثاثٍ في نورينبرج. اشترى أكستهيلم هذه المنضدة المصنوعة من خشب البندق، ونظّف القُرص، ولكنْ من دون أنْ يمحو آثار الاستعمال، ثمّ طلب تلميعها بمادّة الشيلاك. لقد رأيتها مؤخّراً، إنّها قطعة أثاثٍ رائعة. فوقها وضعت الكتب التي يفضّل أكستهيلم أغلفتها لأسبابٍ جماليّةٍ، ولأسبابٍ تسويقيّةٍ أيضاً: طبعات أولى، وكتب مصوّرة. يجب أنْ تلفت نظر الزبون، يتعلّق الأمر بالدرجة الأولى بإعجاب أكستهيلم الشخصيّ؛ قد يقضي صباح يومٍ كاملٍ في ترتيب الكتب، بحسب اللّون، والخطّ، والحجم. جامع الأشياء لا ينظر إلى هذه العمليّة بوصفها عمليّة صيدٍ بالقصبة المخصّصة لذلك، إنّما بالشبكة في بحيرة سمك شبّوطٍ صغيرة. أنا مقتنعٌ بأنّ جامع الأشياء الشغوف يبحث عن الشيء المميّز، والاكتشاف السعيد، يريد أنْ يعثر على الشيء النادر والفريد وسط المعتاد.

جلس أكستهيلم في الجزء الخلفيّ من المتجر، إلى مكتبة «السكرتير» التي يرجع طرازها إلى عصر البيدرماير. إنّها قطعة أثاثٍ متميّزةٌ أيضاً، وإنْ تُمعِن النظر فيها، تجدْ فيها ترصيعاً لأعمال هرقل داخل خشب الأبنوس.

– أردت الحديث عن....

أجلْ، أجلس في فترات عدم العمل في القبْو إلى جانب منضدة خشب البندق الفارغة من الكتب، على يمين الباب. جلست حينها في هذا المكان، وكنت أكتب «الكتالوغ» الذي يصدره أكستهيلم مرّتين في العام، عن الكتب المعروضة. إنّها توصيفاتٌ دقيقةٌ للكتب، وآثار الاستعمال، وحالة التجليد، ونوع الورق ولونه، ودار النشر، وسنة الإصدار، والطبعة، والإهداءات، والعلامات الموضوعة في الكتاب، هناك أيضاً ملحوظةٌ خاصّةٌ عن تصنيف الكتاب في سياق مُجمل أعمال الكاتب. كما قلت: كنّا في نهاية شباط/ فبراير لعام 1943، في يومٍ تُنبئ نسمته الدافئة بقدوم الربيع. نُبقي الباب مفتوحاً كلّما سمح الطقس بذلك. كنت في الحال قد نزلتُ إلى القبْو، كان القبْو جافّاً بسبب الورق المخزّن في الأسفل، ولكنْ كانت له رائحةٌ عفنةٌ بعض الشيء. خرجت من الفتحة المؤدّية إلى السّلّم، ونظرت نحو الأعلى إلى بنطالٍ أمامي، تماماً مثلما حدث مع الصديق، ولكنْ كان لون البنطال في هذه المرّة رمادياً، وعلى الجوانب شريطٌ أحمرُ يرمز إلى أركان الحرب. وقف أمامي مقدّمٌ شابٌّ، عُمره أصغر من رُتبته بكثير، بزيٍّ موحَّدٍ مفصّلٍ بأناقة، وقماشٍ جيّدٍ ونادرٍ في هذا الوقت، صنعته يَد شخصٍ متخصّصٍ في الأزياء الموحّدة. أومَأ الضابط إليّ برأسه، وقال: «نهارك سعيد»، ولمْ يقل: «هايل هتلر». عادةً، يكون نوع التحيّة مؤشّراً للشخص الذي سأتعامل معه؛ إنْ كان عضواً مقتنعاً في الحزب أم رجُلاً له تحفّظاتٌ قد تصل إلى حدّ المعارضة للنظام، والحزب، وهتلر.

جلست، وظهري لأكستهيلم وللضابط المقدّم، إلى المنضدة المصنوعة من خشب البندق، ودوّنت التفاصيل كلّها المطلوبة للكتالوغ، أتذكّر حتّى هذا اليوم أنّها كانت لإصدارٍ جميلٍ للكاتب مارتيال.

كعب الكتاب مكسوٌّ بالجِلد، ومكتوبٌ عليه بماء الذهب: ماركوس

فاليريوس مارتيال، مقتطفٌ واحدٌ باللّغة اللاتينيّة والألمانيّة. إنّها ترجماتٌ أدبيّةٌ لعدّة كُتّابٍ، جمعها كارل فيلهيلم راملر، في لايبتسيج عام 1787. بصرف النظر عن أثار دودٍ في الركن الأيمن الأعلى للكتاب، كانت حالته قياساً بعمره جيّدة.

كان في الكتاب إعلانٌ عن أربعة أجزاءٍ تاليةٍ، وتمنّيت وجود واحدٍ منهما على الأقلّ في مجموعتنا في القبو. نزلت إلى أسفل، ولكنّني لمْ أجد شيئاً مع الأسف. احتفي براملر سابقاً بوصفه هوراس الألمانيّ، ثمّ تعرّض بعد ذلك بعقودٍ لتشهيراتٍ تدّعي أنّه مجرّد متدرّبٍ أدبيّ، وما يثير الاهتمام أنّه تدخّل في هذا العدد في النصوص المترجمة للكاتب أوبيتس، وحذف أجزاءً منها لأسبابٍ أخلاقيّة. كانت هذه هي المواضع المفضّلة للقراءة.

عكفتُ على المراجع، متصفّحاً هذا الإصدار الذي كانت بداخله بعض العلامات المكتوبة بالحبْر، سمعت أكستهيلم يتحدّث إلى هذا المقدّم، وعلى غير عادته، بدون رسميّات. لمْ تكن هناك علاقةٌ أُسريّةٌ فيما يبدو، ربّما يعرفه من حلقة الكاتب جورجه.

حكى هذا المقدّم أنّه تلقّى بمحْض المصادفة أمراً، قبْل استيلاء الروس على المطار الأخير في منطقة التطويق بستالينغراد، بالطيران إلى مقرّ القيادة الرئيس لتقديم تقريرٍ عن الوضع. وصل إلى هناك بزيِّه المتّسخ، ولحيته الطويلة، ورفضوا هناك الاستماع إليه. قيل له: «إنّ عليه الرجوع إلى منطقة التطويق». كان الوقت قد تأخّر على العودة. سمعته، وهو يحكي لأكستهيلم عن الأوضاع المزرية هناك: العجز في رعاية المُصابين، ولسعات الصقيع، وبحث الجنود الألمان الذين تبقّوا هناك مع المدنيّين الروس، في منطقة التطويق، وعن الطعام وسط المخلّفات. كانت الإمدادات التي وافق جورينج على إرسالها بالسلاح الجوّيّ أكذوبةً، ولمْ تكن في أيّة مرحلةٍ

بالقدْر الكافي. يبدو أنّ الضابط قد سأل أكستهيلم، وهو ينظر إليّ أنا، المنشغل بالكاتب مارتيال، عن إمكانيّة الحديث بحُرّيّةٍ، ويبدو أيضاً أنّ أكستهيلم هزّ رأسه موافقاً؛ لأنّه تحدّث بعدها عن الرؤية المشوّشة في المقرّ الرئيس للقيادة، وخاصّةً القائد هتلر، وعن القرارات التكتيكيّة الخاطئة المتعلّقة باستمرار الوضع، ورفْض تحجيم الجبهة. بسؤال أكستهيلم عن تقييم الوضع في ستالينغراد، بوصْفه منعطفاً حاسماً ومهدّداً للانتصار الألمانيّ، أجاب المنتمي لأركان الحرب: «أنّ هذا المُنعطف جاء في توقيتٍ مبكّرٍعن ذلك، في موسكو في عام 1941». ما جاء بعدها كان مجرّد تأجيلٍ للهزيمة، على الرّغم من المناطق التي سُيطر عليها عام 1942. هذه المكاسب التي وصلت حتّى القوقاز قد أرهقت القوى: طلبات الإمداد الإضافيّة، والبعد، ووسائل الاتّصال. ما نعيشه الآن كان من الممكن التنبّؤ به وقتها، وما يتعلّق بالهزيمة كلّه أيضاً.

قال بعد استراحةٍ طويلةٍ: «إنّها ويلاتٌ مرعبةٌ، هو نفسه لمْ يعشها، ولكنْ هناك صديقٌ ورفيقٌ كان شاهداً على عمليّات قتلٍ جماعيّةٍ لآلافٍ وآلافٍ من اليهود، بالقُرب من كييف. أجلْ، ما يُقال سرّاً في أركان الحرب شيءٌ يفوق التصوّر والوصف: معسكراتٌ ضخمةٌ، وأكواخٌ للتخلّص من الجثث، ومعاناةٌ لا توصف، وقتلٌ بطُرقٍ لمْ نسمع عنها من قبْل، ولا في وصف الجحيم لدانتي».

سأل أكستهيلم: إذنْ، هذه ليست إشاعاتٍ تنشرها إنجلترا لتشويه سمعة ألمانيا عالميّاً؟

سمعته يقول: «لا، هذه حقيقة».

بعد استراحةٍ طويلةٍ، تطرّق الحديث إلى موضوعاتٍ أُخرى، وأخيراً إلى سبب الزيارة؛ أيْ: شراء طبعةٍ خاصّةٍ من «مرثيّات دوينو" للكاتب

ريلكه. كُتب على صفحة العنوان بثلاثة خطوطٍ قديمةٍ ومختلفةٍ اسْمُ راينر ماريا ريلكه، تحته بخطٍّ أكبر «مرثيّات دوينو»، ثمّ مربّعٌ كبيرٌ خاوٍ وداخله توقيع ريلكة، تحته في الوسط عام 1923، ثمّ خطٌّ فاصلٌ، واسْمُ دار النشر: دار إينزل في لايبتسيج.

كان إصداراً جميلاً، وفيما يخصّ المعاملات التجاريّة لمْ يمنح أكستهيلم دائرة الأديب جورجه أيّة تخفيضاتٍ، على الرّغم من العلاقات الوطيدة.

تحدّث الاثنان من خلفي عن المرثيّة الثامنة، وعن الملاك الذي يجب أنْ يسمع المديح عن العالم. فكّرت: أيّ عالم؟ وفكّرت بالأخصّ في أنّ الإشاعات المنتشرة قد أصبحت -من خلال حديث هذا الرجُل، الذي يجب أن يكون مُطّلعاً على الحقيقة- واقعاً، قتل اليهود.

ودّعني المقدّم حينما خرج بكتاب الشِّعر المغلّف بورقٍ ناعمٍ من المتجر، كان حينها أكستهيلم جالساً إلى مكتبه الصغير من طراز بيدرماير، هزّ رأسه، ودَمْدم: «شيءٌ مرعبٌ، ولا يصدّقه عقلٌ». توجّه إليّ: «الكتمان ضروريٌّ، هل تفهمني؟».

- نعم.

لمْ يذكر اسم المقدّم، لمْ يثق بي إلى هذه الدرجة، ولكنّني لمْ أسأل أيضاً.

نقل البيانات البحثيّة

جاء اتّصالٌ من مقرّ القيادة الرئيس. المطلوب نقل النتائج البحثيّة لعالِم تحسين النسْل إلى منطقة فيزبادن. سيقوم عالِم أحياءٍ هناك بالاطّلاع على البيانات، لتُشحن بعد ذلك عبْر البحر إلى الولايات المتّحدة.

حضرت إلى القصر في الصباح السيّارة المُعلن عنها، سيّارة أوبل بليتز متوسّطة الحجم. السيّدة العجوز، اليونانيّة، لمْ تعترض حينما سمعت أنّ إنجاز حياة زوجها سيُنقل. ربّما كانت لا تزال خائفةً من مصادرة القصر، وربّما وقع ما يحدث كثيراً مع الأرامل الواثقات بأنفسهنّ: سعادتها باختفاء إرْث زوجها، وتوفير مساحاتٍ خاوية. لقد بدأت مرحلةً حياتيّةً جديدة؛ انتهت الضغوط التي امتدّت إلى سنوات، وضرورة الالتزام بالصمت التامّ؛ حتّى لا يشعر العالم المتبحّر في أفكاره بأيّ إزعاج. لمْ تعُد تشعر بتأنيب الضمير حين ترى بقايا نتيجة أبحاثه.

أطْلع هانزن الضابطين، اللّذَين لمْ يسمعا شيئاً من قبْل عن عِلم تحسين النسل، على مكتب البروفسور، وأمرَ بإفراغ المكتب من محتوياته، ونقلها في عربيّة النقل الصغيرة، خاصّةً بطاقات البيانات التي كانت بالآلاف، وكتُبت عن التجارب والدراسات الممتدّة إلى سنوات، عن الأرانب التي كانت في حالة سُكْرٍ مستمرّةٍ، وتحوّلت إلى مجرّد أرقام.

ولكنْ كانت في العربة ثلاثة صناديق تحتوي على الملفّات الخاصّة برئيس القضاء النازيّ.

حتّى مع التغليف الدقيق، اتّضح أنّ نصف البطاقات والملفّات فقط كان لها مكانٌ في العربة. ما لمْ يكن متاحاً هو نقل الزجاجات بشرائح الدماغ والأوراق المنبتة المنقوعة في الكحول.

طلب هانزن إلى السائق الحضور مرّةً أُخرى.

بسؤال هانزن عن أصْله، أكّد الجنديّ، باسْمه المعبّر، بورت مانكيلر، أنّه من الهنود، من شيروكي. قال: «إنّه لمْ يكلّف إلّا بهذه النقلة، وأنّه سيعود اليوم إلى فيزبادن، وغداً إلى فورتسبورج».

رأى هانزن عربة النقل الصغيرة، وهي تتأرجح عبْر الطريق الزراعيّ، حاملةً نصف الموادّ البحثيّة التي تكوّنت على مدار عدّة عقود.

حضر جورج ومعه الكاميرا. قال: «**رائع! لقد رأيت عَربة المخلّفات. سينتهي وقتنا هنا قريباً، حياتنا ستتحرر. ما مخطّطات السيّدة؟**».^

- **ستأتي بعد الظهر.**^

ذهب جورج إلى بحيرة الشبّوط الصغيرة، وهي أشبه بالمستنقع، ليصوّر عصفور «ملك الأسوار»، عصفور يمثّلهما؛ لأنّه يعيش مع أكثر من أنثى، وأحياناً، وإنْ كان ذلك نادراً، يكون له شريكٌ واحد.

-21 آب/ أغسطس-

التباسات.

حكى الرائد إنجل: «هيملر لمْ يتمكّن من حسْم السؤال إنْ كان هو شخصيّاً نسخةً من هاينريش الأسد أم من القيصر هاينريش الأوّل. مرّةً

هذا، ومرّةً ذاك». فحص المشرّح وخبير الأعراق، البروفسور أوجين فيشر، الهيكل العظميّ لهاينريش الأسد، واكتشف التحاماً في الخصْر. كان البطل، فارس المنطقة الشرقيّة، يعْرُج. هل كان هذا خطأً وراثيّاً؟ صرّح البروفسور فيشر، في محاولةٍ لحلّ المسألة، أنّ سبب الالتحام هو وقوع حادثة صيْد.

ثمّ تأتي أفضل النتائج على الإطلاق: كان الهيكل العظميّ لسيّدة.

-بدون تاريخ-

شخصٌ من أصلٍ يهوديّ.

نظرةٌ تبحث عن سُبل التهجين.

أعراقٌ من دَم غريبٍ وطفيليّة.

أشخاصٌ أدنياء بحُكم الوراثة.

مرضى الجينات الوراثيّة.

اشترى هانزن بعض الأغراض من المتجر المخصّص للجيش: الخبز، والجُبن، والسّجق المصنوع من الكبِد، والنبيذ الذي أصبح مؤخّراً مُتاحاً للبيع. بحث في البداية عن نبيذٍ من منطقة الإلزاس، ولكنّ المتجر لمْ يكن قد وصل إلى هذه الدرجة بعد؛ وجد نبيذاً أبيض من إيبهوفن، زجاجتين وضعهما في الثلاجة، ثمّ ذهبا بسلّة النزهة إلى البحيرة. كانت مولي ترتدي فستاناً أبيض، وحذاءً رياضيّاً مستهلكاً قامت بتبييضه بالطباشير، وارتدتْ مرّةً أُخرى الجوارب الملفوفة إلى أعلى، وسُعِد في أثناء صعودهما المركب؛ لأنّه سيقول لاحقاً: «ابقي مرتديةً الجوارب».

اقتربت نهاية آب/ أغسطس، كان الطقس دافئاً، ولكنّه لمْ يعد حارّاً.

الشمس ليست حارقةً. خرج بحِرصٍ من الميناء الصغير، ثمّ إلى البحيرة متّخذاً منحنى على ميمنة المركب، رفع محرّك الوقود إلى الأمام. بأناقةٍ شكّل المركب أمواجاً عاليةً يميناً ويساراً، وارتفعت مقدّمة المركب إلى أعلى من الماء، وبعثرت الرياح شعرها، وقالت: «هيّا نحلّق في الهواء».

وصلا عبْر البحيرة إلى منطقة ديسن، وربطا المركب في رصيفٍ هناك، ثمّ تسلّقا هضبةً مؤدّيةً إلى أحد الأديرة. غمر الضوء الشرقيّ الكنيسة، فتلألأت الأشعّة الذهبيّة فوق المذبح، وفوقها رسْمٌ لسماءٍ مُشرقةٍ، ورسومات السقف بألوانٍ زاهيةٍ، مع القدّيسين ومؤسّس الكنيسة الذي يمسك بنموذجٍ لها في يده. فكّر هانزن في حجم تأثير هذا المشهد على الفلّاحين والصيّادين حينها. من المؤكّد أنّه فتح شهيّتهم للآخرة، لولا هذا الخوف من الذنوب التي لمْ يكفّروا عنها، ولكنْ كيف تسمح هذه السماء، التي امتدّت فوقهم بألوانها الزاهية، بالتفكير في الذنوب؟ هذه السماء المرسومة كمعجزة. قالت مولي: «كم هذا جميل!»، ثمّ بكتْ.

أزعجه لاحقاً خجله من تأثّرها من دون أن يحتضنها، قال: «أجلْ» فحسب، و«أجلْ» هذه لمْ تكن إلّا اعترافاً بعجزه. بعناقها كان سيظفر بلحظة قربٍ كبير.

وقفا لاحقاً أمام ملاكٍ مصنوعٍ من الخشب، بدا كأنّه يحلّق فوق حوض التعميد في الهواء.

نحن لا نعرف في الشمال هذه الملائكة المحلّقة، لهم وزنٌ ثقيلٌ؛ ولذلك يبقون في الأرض.

لمْ يتمكّن هانزن مرّةً أُخرى من قول أيّ شيء؛ لأنّه لمْ يكن لديه أيّ تصوّرٍ عن الملائكة في الشمال. لمْ يتذكّرهم على أيّ حال، وحتّى لا يصمت قال: «هل هو بالفعل كذلك؟».

ردّت: «بكلّ تأكيد».

فكّر في الكلمة القديمة التي كان يستعملها أستاذه في سانت لويس ليصف بها الجهلاء من الفلّاحين البسطاء، ووصف بها نفسه.

هذا كلّه علمٌ لا يمكن تحويله إلى أفعال.

عادا إلى رصيف المركب، وعبَرا البحيرة إلى الشاطئ المقابل. رمى المرساة أمام حزامٍ طويلٍ من زرع الغاب، الذي بدتْ خلفه غابةٌ كثيفة. علّق سُلّم الحبل على جسد السفينة الخارجيّ. خلعا ملابسهما، وقفزا من المركب إلى المياه متشابكي الأيدي. كانت المياه باردةً وصافية.

بعد عودتهما إلى المركب فتح زجاجة النبيذ الأبيض، وفردت هي مفرشاً بمربّعاتٍ بيضاء وزرقاء فوق الطاولة الصغيرة القابلة للطيّ، ثمّ وضعت فوقها الخبز الأبيض، والجُبن، وعلب السمك، ونقانق الكبِد. جلسا وتناولا الطعام والشراب. كانت نسمة تحمل بين الحين والآخر رائحة شجر السرْو، ورائحة الأرض الجافّة والدافئة من الشاطئ. كانت البحيرة خاويةً تماماً، وساد الهدوء التامّ.

بسبب ملحوظةٍ منها، تحدّثا لاحقاً عن قانون منْع التآخي.

- ماذا سيقول رؤساؤك في العمل إنْ رأونا معاً؟

- لا أعرف، ولا يهمّني.

رأيها في سلوك الأمريكان أنّهم كذّابون. استقامة النفس التي تمارسها القوى المنتصرة، والاتّهام بالذنْب الجماعيّ يُعدّ بمنزلة الفضيحة، فهؤلاء أطفال وضحايا للنازيّين أيضاً.

وافقها هانزن أنّها سياسةٌ كاذبة.

- لقد أسقطتم قنبلتين على اليابان، قيل: «إنّ مئة ألفٍ من البشر قد ماتوا».

- لمْ أُلقِها أنا.

- هل من الصواب قتل المدنيّين؟ مثلما حدث عندنا. استهداف المناطق السكنيّة، وقتلى بالآلاف في هامبورغ ودريسدن.

- ما هو الصواب في هذه الحرب؟

- أنتم تتحدثّون عن جرائم حربٍ اقترفناها، ولكنْ أليست هذه جرائم حرب؟

قال هانزن: «لا أعتقد ذلك، لقد أنهينا بذلك الحرب، الحرب التي بدأتموها أنتم واليابانيون».

أصرّت: «لا، أنتم تقيسون بمقياسَيْن، وهذا مثيرٌ للسخط».

- لقد اخترتم هؤلاء الأشخاص بمحْض إرادتكم. لمْ يقم النازيّون بانقلابٍ عسكريٍّ، ولا لاحقاً. لقد اخترتم أنتم. رجُلٌ بذقنٍ مدبّب...

- ماذا؟

- رجُلٌ بذقنٍ مدبّبٍ، من أنصار الملكيّة، حكى لي ذلك. لقد وافق الجميع، عَدا الديمقراطيّين الاجتماعيّين. عدم أهليّةٍ ذاتيّةٍ بطرائق ديمقراطيّة.

- لا يمكنكم الحُكم على ذلك، من السهل إظهار الذنْب عند ثبوت الجريمة، ولكنّ الخطوات المؤدّية إلى ذلك تكون عادةً صغيرةً، وغالباً غير خاطئةٍ، ولا يمكن وصفها بالذنْب. لمْ يحدث ذلك بين عشيّةٍ وضحاها. كانت عمليّةً بطيئةً. قوى تمارس -على مراحلَ، وبجُرعاتٍ صغيرةٍ- عدم أهليّةٍ ببطء. بالتأكيد كان هناك الكثير من القُصَّر المستعدّين لذلك.

انتهى النقاش فجأةً. حينما أراد هانزن فتح الزجاجة الثانية، وقعت منه الفتّاحة في الماء. خلع ملابسه مرّةً أُخرى، وقفز في الماء، غطس غير مرّةٍ،

والتقط أنفاسه، وغطس مرّةً أخرى، حتّى التقط الفتّاحة من قاع البحيرة. عاد إلى المركب، وجلس شاعراً بالبرد، وشفتاه ترتعشان قليلاً، وضحك أيضاً.

قالت: «أنت صبيٌّ شجاعٌ، سأدفّئك». جلس والمنشفة تغطّيه. جفّفت جسده، وردّدت: «أنت صبيٌّ شجاعٌ». بالطّبع شَعَر أنّها لا تأخذه على مَحمل الجدّ، ولكنْ لمْ يعبأ في ظلّ قربها منه بهذا الأمر. شربا النبيذ القادم من ايفهوفن، وتناولا كسرات الخبز المغموسة في زيت السمك المعلّب. فكّر، وهُما يجلسان معاً، في سؤالها عن إمكانيّة الذهاب معه إلى الولايات المتّحدة. قالت، كأنّها توقّعت هذا السؤال: «إنّها لا تتخيّل قدرتها على مغادرة هذا البلد. ليس الفراق وارداً». قالت بعد وهلةٍ: «بسببه أيضاً». كانت تقصد في الأغلب الرجُل في الصورة بالإطار الفضّيّ.

لمْ تكن الشمس قد غربت بعْد، استلقيا في المساء من دون ملابسهما في الفِراش. كانت مولي ترتدي جواربها البيضاء الملفوفة إلى أعلى، حينما عبّر عن رغبته، قالت: «هذا مطلبٌ شاذٌّ»، ثمّ ضحكت: «تصاب قدميّ بالبرد». كانت النافذة مفتوحةً. قالت مولي: «الهواء مُعبّأ بروائح الخريف: حريق الحقول، ونار محصول البطاطس، والأوراق المتساقطة التي يتحوّل لونها إلى اللّون البنّيّ، وأوراق شجر الزان التي تلتفّ في الشتاء فتكون أشبه بحيوانات الحلزون الصغيرة». وَعدته بأنْ تُطلعه على هذا كلّه، في حالة بقائه في البلد.

- أنا أسعد رجُلٍ في هذا البلد^.

- حسناً.^



-22 آب/ أغسطس-

كان يجب أنْ أعبّر عن سعادتي باللّغة الألمانيّة، فكلمة سعيد، وكلمة أجمل، تُذكّر بكلمة العبور، العبور من الذات إلى الخارج، من هنا إليك. مجرّد مسافةٍ بسيطةٍ، ولكنْ حتّى هذه المسافة لا نقدر عليها.

اليوم الثاني عشر

- لقد نُقلت المستندات والإحصائيّات المتعلّقة بأبحاثه. ليس كلّها؛ لأنّ عَربة النقل لمْ تكفِ، ستعود مرّةً أُخرى.

- إلى أين ستُنقل؟

- ستُنقل مغلّفةً إلى أمريكا. ربّما سريعاً.

- وماذا عن أحاديثنا.

- سيُجمع كلّ شيء، وتُعاد كتابته، ربّما ستُستعمل لرفع دعوى.

- لقد مات.

- الجُناة الآخرون على قيْد الحياة. سيُحاسبون. يجب أنْ تسود العدالة بعد عصْر الظلم، ويجب أنْ نعرف كيف وصلنا إلى هذه الحال، ويجب أيضاً دفْع ثمن الجرائم. لا يمكن أنْ يتكرّر ما حدث مرّةً أُخرى.

- يمكن أنْ يتكرّر دائماً.

- لا، سيأخذ القانون مجراه.

- ليست الحُرّيّة والعدالة من المسلّمات؛ يجب الدفاع عنهما باستمرار، حتّى في أصغر، أصغر الحدود.

- صحيح، لقد تحدّثت عن نهاية جمهوريّة السوفييت.

- هربتُ وقتها من ميونخ إلى برلين، وعُدتُ في شباط/ فبراير لعام 1931. ليس بسبب الصديق، لا، بلْ من أجل السيّدة التي حالفني الحظّ للحياة معها لمدّة عامين وشهر. كانت قد حصلت على وظيفة مصمّمة أزياء في مسارح ميونخ. ذهبتُ وراءها؛ لأنّني لمْ أكن مرتبطاً وظيفيّاً بمكانٍ محدّد. يجب أنْ أذكُر أنّني لمْ أحبّ العودة إلى ميونخ؛ كانت صور الذكريات حاضرةً بوضوحٍ في ذهني: ذكريات المرحلة التي افترت فيها القوى الرجعيّة في هذه المدينة، وهذا الأسلوب البافاريّ الغليظ لضابط المجموعات شبه العسكريّة أوبرلاند، وهذه الأعمال الوحشيّة حينما انتُهِكَ المدافعون عن جمهوريّة السوفييت، وأُطلقت عليهم النار: إيجلهوفر، القائد العسكريّ للجيش الأحمر، وجوستاف لانداور. لمْ يُقتل هذان الاثنان فحسْب، بلْ أكثر من ألفيْ شخص.

«القوى تسفك الدماء»، هذا ما قاله لي الرفيق، الذي حذّرني قبْل موت لانداور بيومٍ من البقاء في المدينة. يجب أنْ أضع في الحسبان أنّ اسْمي مكتوبٌ في القوائم السوداء، قوائم خَونة الوطن. كانوا يطلقون بالفعل هذا الوصْف وقتها. ما أخذه النازيّون كلّه لاحقاً في برنامجهم للحُكم كان موجوداً، وترجع جذوره إلى هذا الانقلاب اليساريّ. لقد فازت القوى الرجعيّة في ميونخ؛ لهذا السبب تكوّن الحزب البنّيّ هنا، واكتسب قوّته من هذا التفكير السطحيّ في العِرق الآريّ. ربّما رأيت الّلافتات على حدود المدينة. أُعيدت الكتابة عليها، ولكنّها مقروءة: ميونخ، مدينة التغيير.

لقد سبق أنْ حكيتُ عن عودتي إلى برلين بعد مَقتل لانداور وسائر الجمهوريّين. ربّما، لا، من المؤكّد، كنت سأحضر دفنه، لولا أنّهم ألقوا بجثّته في مقبرةٍ جماعيّة. بعد مرور أربعة أعوامٍ، طلبت ابنته شارلوت استخراجه ودفنه في مدفن الغابة. لمْ أسافر حينها إلى هناك؛ لأنّني لمْ أملك

المال. قام هتلر والجنرال لودندورف في العام نفسه بانقلابٍ ضدّ الحكومة المُنتخَبة. لِحُسْن الحظّ أنّ هذا الانقلاب، الذي أُطلق عليه لاحقاً الاسْم الاحتفاليّ: المسيرة إلى قاعة القائد، قد أطلقت الشرطة النار عليه.

لا، أردتُ ذِكر شيءٍ آخر: نحن؛ أيْ: القطاعات الفوضويّة في العام 1925، جمعنا الأموال من أجل إقامة تمثالٍ لجوستاف لانداور، كانت مسلّةً طولها خمسة أمتار. هدّها النازيّون لاحقاً، وفتّتوا الأحجار في داخاو بأيديهم، واستعملوها في بناء الشوارع.

أُعطي وعاءُ رماد جثّة لانداور إلى اليهود، ودُفن إلى جانب أيزنر في المدافن اليهوديّة الجديدة. أذهبُ كلّ عامٍ يوم 2 أيار/ مايو إلى المدافن، وأضع حصى من نهر الإزار على المقام الصغير؛ لا يجب نسيانهما.

- أردتَ أنْ تحكي عن زوجِكَ.

- هل لي أنْ أطرح عليك سؤالاً؟ حكيتُ لك الكثير عنّي، وعن صديقي القديم، وعن اليونانيّة. هل أحببت من قبْل؟ اسْمح لي بهذه الصياغة: إلى درجة أنّك كنت مستعدّاً للتّخلّي عن كلّ شيءٍ من أجل بدايةٍ جديدة؟

- لستُ متأكّداً، ربّما. لا، لا، لمْ أتخلّ عن الكثير.

- وماذا بعد؟

- لقد أوقفتْ هذه الحرب القصّة.

- كيف أوقفتها؟

- حسناً، كانت قصّةً قصيرةً، وهناك أطرافٌ أُخرى فيها. كانت سيّدةً شابّةً تعرّفتُ إليها في القطار، في الشتاء. وصلنا إلى نيويورك، وشلّت عاصفةٌ ثلجيةٌ حركة المرور تماماً. كُتلٌ من الثلج أوقفت المرور. جلسنا جنباً إلى جنبٍ مدّةً طويلةً داخل حانة، كان يجلس فيها المنتظرون كلّهم.

جلسنا وتحدثنا مدّة ثلاث ساعاتٍ تقريباً، ظللنا نتحدث. أُلفةٌ جميلة. هل لي أنْ أصفها كذلك؟

- نعم.

- كانت أضواء السيّارات تمرّ على مهلٍ أمامنا. التقينا لاحقاً، مرّاتٍ قليلة. قبْل أنْ أغادر بالسفينة إلى أنتفيربن كنّا معاً، وكانت مخطوبةً. سافرتُ بعدها، وجاءت إلى الرصيف على الرّغم من اعتراضي. حينما حاولت عناقها وتقبيلها لحظة الوداع، قالت بوقاحةٍ: «لا تلمسني».

- أمرٌ غريبٌ للغاية! ولكنْ هل لي أنْ أقول لك: «كلّ حُبٍّ جديدٍ يحمل ذنباً، بصَرف النظر عن الحُبّ المبكّر البريء الذي يبقى من دون نتائج. هو في الأغلب مقياسٌ لمشاعرنا؛ نعرف من خلاله ذواتنا. هل لديك أسبابٌ لتأثّرك بهذه السيّدة؟

- لقد أعجبتني، كما يقال: «من النظرة الأولى». ثمّ جاء بعد ذلك الحوار والموقف. هذه المدينة بإمكاناتها التقنيّة كلّها: مترو الأنفاق، والقطارات، والحافلات، تتوقّف بسبب الثلج تماماً. لقد أعادت الطبيعة السيطرة. سادَ هدوءٌ عامٌّ بحُكم الثلج المتساقط مثل القطن.

- أنتَ على حقّ؛ الموقف والمحيط العامّ يقرّبان شخصاً بعينه إلى أنظارنا. إنّه اختراقٌ لداخلنا. قد تبدو نبرة احتفاليّة لكلامي، ولكنّه إحساسٌ بالآخر، نرجو من خلاله أنْ يكون هو إضافةً لذاتنا غير المُكتملة. نخطئ النظر؛ أيْ: لا نرى بدقّة، ولكنْ نرى شيئاً آخر ومختلفاً، شيئاً يثرينا نحن والشخص الآخر.

- وماذا عن رفيقتك؟

- كان ينقصني الكثير ممّا كان لديها؛ كانت بسيطةً بوجهٍ خاصٍّ، وتغنّي. تخيّل أنّها كانت تغنّي في الصباح، وترسم، وتبكي. ليس حُزناً،

ولكنْ من فرط السعادة. كنّا في ديسن، هذه الكنيسة بالدير. أنصحك بضرورة الذهاب إلى هناك.

- نعم كنت هناك.

- أعجبتك؟

- إنّها غاية في الجمال.

- كنّا هناك في عام 1931، في الصيف، ليزافيتا. كنتُ رجُلاً كبيراً؛ تخطّيت منتصف الستّينيّات، في حين كانت هي في نهاية الأربعينيّات، ولكنْ بدتْ أصغر بكثير. لمْ تهتمّ بفارق السِّنّ، ولا بآراء الناس. يغلب على شخصيّتها الثبات، أقصد فيما يخصّ رؤيتها للبشر. شخصيّةٌ متفهّمةٌ، ولكنّها حاسمةٌ في أحكامها، وخاصّةً: كانت لها ضحكةٌ رائعةٌ تخرج بعفويّةٍ، كأنّها تغنّي. قد تتفاجأ؛ لمْ أسمع ضحكتي قطّ قبل أنْ أعرفها. كنت أضحك بالطبع، ولكنّ الغريب أنّني لمْ أسمع نفسي، كأنّني أصمُّ وأبْكَم. ربّما كانت ضحكتي صامتةً، أو يبدو أنّني كنت شخصاً أصمَّ وأبْكمَ حين أضحك. أسمع ضحكتي من خلال ضحكتها. أمرٌ غريبٌ، أليس كذلك؟ كانت المرّة الوحيدة التي عشت وسكنت فيها مع امرأةٍ، أستيقظ معها، وأخلد إلى النوم معها. أريد القول: إنّها كانت مرحلةً سعيدةً؛ كانت لنا شقّةٌ صغيرةٌ في منزل خردواتي قديم، وكان المنزل على طرف قطعة أرضٍ كبيرةٍ في منطقة شفابنج. صاحب المصنع هارتل، الذي كان يصنع الأدوات الصحّيّة، في عصْرٍ بدأ فيه الاستحمام المنزليّ، كان قد بنى لنفسه هناك فيلّا ضخمة وساحرة. احتفظ بهذا المنزل الصغير والقديم على طرف الحديقة تذكاراً للعائلة. كان هذا المنزل الصغير بمتجر الخردوات ملكاً لجدّه، كما عمل والده هناك في مراحل تدريبه المهنيّ، قبْل أنْ يخترع مرشّة الحمّام المتحرّكة. الابن؛ أيْ: المالك الحاليّ، توسّع في الإنتاج،

وحالفه الحظّ في الاستثمار في تجارة الأسْهُم، فصار رجُلاً ثريّاً. كان مُحبّاً للمسرح. تمكّنت ليزافيتا من خلاله من استئجار المنزل الصغير المكوّن من ثلاث غُرفٍ، والمُحاط ببعض شجر التفّاح والكرز. كانت حديقةً صغيرةً، احتفظت بالطابع الريفيّ لمنطقة شفابنج القديمة. فقط أريد التعبير عن حالة السعادة التي غمرتنا وقتها؛ كنت أكتب مقالاتي لجريدة النقابة تحت شجرة كرز. حياةٌ مثاليّةٌ، أجلْ، لقد عشتها أيضاً في حياتي. كانت قصيرةً، ولكنّها ظلّت في وجْداني حتّى اليوم. كانت ليزافيتا تُعِدُّ كعكة يوم الأحد، لمْ تماثلها كعكةٌ أُخرى. نجلس في المساء إلى جانب شجيرة الخمان الأسْود القديمة. لمْ تكن الطريق إلى المسرح بعيدةً. أراها وهي تركب الدرّاجة بفستانها الصيفيّ، أو معطفها وغطاء الرأس المقاوم للماء تحت الأمطار الخفيفة، تلتفت إلى الخلْف، وتلوّح لي بيدها. إنّها صورٌ ترسّخت في الذاكرة، مثل المرّة الأولى التي رأيتها فيها.

- زوجُكَ؟

- نعم، يمكنني أنْ أقول إنّها زوجي، على الرّغم من عدم زواجنا. هي ليزافيتا، السيّدة التي عشت معها عامين وشهراً. تعرّفت إليها في حفل افتتاحٍ في برلين في عام 1930؛ مسرحيّة «الإجراء» لبريخت. كنت مدعوّاً من أجلِ كتابة مقالةٍ نقديّةٍ، فرأيتها وهي تتحدّث إلى سيّدةٍ أُخرى، نسيت وجْه الأُخرى وفستانها، وقوام شَعرها؛ أمّا هي، فوقفت أمامي. سأسمح لنفسي بمَدحها، والتعبير عمّا في قلبي: صوتها نغمٌ، لها لهجةٌ تشير إلى أصلها الشرقيّ؛ نغمةٌ ممتدّة، وشَعرها الأسْود الداكن مثل خشب الأبنوس، وبشرتها مثل الحليب. كان كلّ شيءٍ فيها رقيقاً: أنفها، وساقاها، وذراعاها، وصدرها، ويداها. عيناها فقط كانتا واسعتين وكالحَتيّ السواد. كانت رقيقةً، ولكنّها تملك قوّةً تفوق الوصف.

تعلّمت الحياكة في بوزن، ثمّ جاءت إلى برلين. لمْ تكن تفصّل فحسْب، بلْ تصمّم الأزياء أيضاً. تعلّمت تصنيع الملابس بحسْب النموذج، ودرست تاريخ الأزياء. زُرتها لاحقاً بعض المرّات في أتيليه المسرح. ترافقني صورتها، وهي تقف بمعطفها الأبيض المخصّص للعمل، وأمامها لوحٌ خشبيٌّ موضوعٌ فوق مسندَيْن، وترسم خطوطاً سريعةً، بقلم رصاصٍ ليّنٍ، المعطف الذي سترتديه ماري ستيوارت، وهي تعمل على تكوين نموذجٍ للتفصيل بالمسطرة والمثلّث. أنْدم على أنّني لمْ أتعلّم حِرفة. يزداد إعجابي بها، حينما يكون في معصمها حلقة مثبّتة فيها الدبابيس، وبين شفتيها دبّوسان تصحّح بهما تصميم الفستان الأوّليّ. ترفع القماش هنا قليلاً، وتقصّره في موضعٍ آخر. أجلْ، لقد جَمعَنا المسرح.

كنت أكتب -بين الحين والآخر- مقالات نقدٍ مطوّلةً لمجلّة «الإدراك والانطلاق»، كانت مجلّةً صغيرةً ذات اتّجاهٍ فوضويٍّ، لا يتعدّى إصدارها خمسة آلاف نسخة، أو أكتب تعليقاتٍ سياسيّةً لجريدة «النقابي»، وهي جريدة اتّحاد العمّال الأحرار لألمانيا. لمْ يكن توزيعها هي الأُخرى كبيراً؛ لذلك كان أجْري بسيطاً، ولكنّني كنت حُرّاً فيما أردتُ كتابته. أنا كاتبٌ بطيءٌ، كنت أقول: «إنّ المسألة أشبه بصُنع الشاي؛ يأخذ وقتاً حتّى يغلي الماء، ثمّ تعبئة الشاي وتركه يثقل». كنت آخذ وقتي في التفكير، وفي الصياغة، هذا ما حدث مع المقالة النقديّة لمسرحيّة «الإجراء» لبريخت أيضاً؛ كانت مسرحيّةً سياسيّةً تعليميّةً، وعُرضت للمرّة الأولى في كانون الأول/ ديسمبر لعام 1930 في مبنى قاعة الأوركسترا القديم في برلين. خطّط بريخت لهذه المسرحيّة أنْ تكون بالأقنعة مثل مسرح «النو»؛ يُرسل خمسةً من المتخصّصين الثوريّين إلى الصين؛ لتحريض عمّال اليوميّة المضطّهدين هناك على العنف والوصول إلى المقاومة. يرتدي الخمسة

هذه الأقنعة، بوصْفهم رموزاً للعمل السرّيّ والتكيُّف مع عمّال اليوميّة، ثمّ يبادرون بعمليّة التحريض، ولكنْ لا يلتزم رفيقٌ شابٌّ منهم بقانون المنطق الصارم للكفاح السرّيّ؛ يقوم بردّ فعلٍ عفويٍّ، يُظهر تعاطفاً، ويخْلع القناع، ليتخلّى عن دور المسؤول الثوريّ، ويصير، على غير المتوقّع، الشخص المتفرّد. يُكشف بذلك سرُّ الثوريّين، ويصبحون مهدّدين بالانكشاف والموت، ويقرّرون –من أجل استكمال مسيرتهم وبموافقته– قَتله. يجب على الثوريّين الأربعة تسويغُ قتْل زميلهم أمام لجنةٍ رقابيّةٍ في روسيا. بالمناسبة، غنّى هانز أيزلر، الذي لحّن موسيقا هذه المسرحيّة التعليميّة، مع كورال اللّجنة الرقابيّة المكوّن من ثلاثمئة عامل. من الواضح أنّ أيزلر قد استند إلى قطعة «الآلام» لباخ. يجب القول: «إنّ العرْض كان مؤثّراً ومثيراً للعواطف»، وكذلك بالنسبة إليّ، على الرّغم من رؤيتي الناقدة للرسالة والمحتوى. كتبتُ في مقالتي النقديّة أنّ هذا تنفيذ إعدامٍ حاسمٍ للفرْد الذي يتصرّف من منطلق الإحساس بالمسؤوليّة. لا يساوي ما نعيشه في الحاضر شيئاً في مقابل المجتمع السعيد الخالي من الطبقات، الوسائل متاحةٌ كلّها في هذا السبيل، ولكنْ يمثّل الحاضر في الحال، وفي الّلحظة كلّ شيءٍ بالنّسبة إلينا، وتكمن فيه السعادة كلّها، ويتعلّق الأمر بأكمله بهذه الموازنة، كيف نقتسم السعادة مع التعساء. هذا هو قرار كل فرد في هذا الموقف المحدّد. هذه هي الحُريّة التي تربطنا بالآخر. هل لك اهتمامٌ بهذه القصّة، أقصد بهذه المسرحيّة؟

– نعم، قرأت القليل عن بريخت. أستاذي في سانت لويس كان يقدّره، ويقدّر هذه المسرحيّة أيضاً.

– دارت –بعْد العَرض، في وقتٍ متأخّرٍ من الّليل– مناقشةٌ ساخنة. شاركتُ فيها، وعبّرتُ بعفويّةٍ عمّا قلتهُ باستفاضةٍ في مقالتي النقديّة: «لا

تنطلق المسرحيّة من الحاضر بوصْفه مكاناً للحياة المتحقّقة. تتحقّق السعادة للجميع في مجتمعٍ بلا طبقات، ولكنْ يجب المرور بمراحل التعاسة قبْلها. لا، أنا قلت: السعادة متاحةٌ فقط في هذه الّلحظة، يحدّ الموت من أيّة فرصةٍ للتصحيح؛ لا مجال للإعادة. يجب التفكير مع سعادة الفرد في تعاسة الآخرين. لا لمنطق معركة التحرير، الذي يوافق الرفيق من خلاله على قتله؛ هذا الإجراء يتنبّأ من خلال المسرح بما حدث فعلاً في عام 1936 من وقائع سياسيّةٍ في الاتّحاد السوفييتي». كانت الأخبار في ألمانيا وقتها تتحدّث باستفاضةٍ عن هذا الأمر؛ لأنّ البلشفيّة اليهوديّة كانت العدوّ الرئيس للنازيّين. تحدّثت الصحافة الخاضعة للسيطرة عن الأحكام المفروضة على زينوفايف وكامينيف، ثمّ سافر ريبنتروب إلى موسكو، واتُّفِقَ على حلْف هتلر-ستالين. كان عاراً أبديّاً على روسيا. كنت ألتقي في ميونخ بين الحين والآخر برفيقٍ من الحزب الشيوعيّ الألمانيّ الممنوع. دافع، الذي كنت معه في المعسكر، عن هذا الحلْف الملعون بحُجّة أنّ الاتّحاد السوفييتيّ كان مُجبراً على الموافقة. لمْ يكن الاتّحاد السوفييتيّ مستعدّاً للحرب بعْد، وفي حاجةٍ إلى وقت. لا أبالغ إنْ قلت: «إنّ هذه الحُجج السفسطائيّة تصيبني بالغثيان. ستالين هو أكثر الشخصيّات انحطاطاً في تاريخ الاشتراكيّة».

- عقد روزفلت اتفاقيةً مع ستالين ليُخضع هتلر والنازيّين. ماذا كان البديل؟ كان روزفلت يعرف أنّ ستالين ليس ديمقراطياً. كان الاتّحاد السوفييتيّ يكبت الحُرّيّات؛ مئات الآلاف في المعتقلات. ماذا كان البديل...-مقطع غير مفهوم-

يستعمل ماكس فيبر مصطلح أخلاقيّات المسؤوليّه. بالمناسبة، دارت مناقشةٌ بين بلوتز وماكس فيبر في عام 1910، خلال مؤتمر علماء الاجتماع

الأوّل، حول مصطلح العِرق. انتقد فيبر بلوتز بشدّةٍ بإشارته إلى تأثّر المجتمعات بالثقافة والمحيط، وهذا التأثير أقوى من حُكم الوراثة. يكفي هذا التصوّر حول الكائنات الرّخوة الخاصّ بالأعراق الحيويّة. بالرجوع إلى الحِلْف بين روزفلت وستالين، أشير إلى أنّ ماكس فيبر قد فرق بين أخلاقيّات الاعتقاد وبين أخلاقيّات المسؤوليّة. أخلاقيّات الاعتقاد قد تمنع هذا الحلْف؛ أمّا أخلاقيّات المسؤوليّة فقد تفرط عقْد هذا الحلْف. كان الصديق يسوّغ على النحو التالي: الشعور بالشفقة والاهتمام في المجال المجتمعيّ له توابع تضرّ على المدى البعيد بالمجتمع، الذي كان يستعمل له المصطلح البديل «الشعب». الشفقة مهمّةٌ ومطلوبةٌ للفَرد، ولكنْ على المستوى الأعلى يجب ألّا تشعر بالشفقة في سياق تحمّل المسؤوليّة.

-مقطع غير مفهوم-

لمْ يؤمن ستالين بأخلاقيّات الاعتقاد. حين عقد هذا الحلْف لأسباب السيطرة السياسيّة، لمْ يفعل ذلك لمحاربة سلوك ألمانيا العدوانيّ، على العكس، لقد تحالف مع ألمانيا، ودعمها بالقدْر المطلوب للقيام بالحرب. لمْ تتغيّر سياسته إلّا حين هَجم هتلر -أنا أُشَخْصِن الأمور هنا- على الاتّحاد السوفييتيّ. لمْ تسمح أخلاقيّات الاعتقاد بالطبع بالتحالف مع ستالين، ولكنْ تطلّبت أخلاقيّات المسؤوليّة ذلك. كان روزفلت مُحقّاً في ذلك؛ كان هذا هو السّبيل الأوحد للانتصار على إرهاب النازيّين. أنا أيضاً كنت على الرّغم من عقيدتي المناهضة للحرب أرى حربكم أنتم: أمريكا، وإنجلترا، والاتّحاد السوفييتيّ، مسوّغة. يا له من تناقضٍ مؤلمٍ أنْ تعيش في بلدٍ تحبّها بقوّة: بمدنها، وطبيعتها، وأنهارها، وهؤلاء البشر فاقدي البصيرة. في الوقت ذاته تسلّمها للقنابل التي تدمّر مدنها، وكنائسها

القوطيّة، ومكتباتها، أجلْ، والبشر أيضاً، آه. كانت قناعةً تعارض أيّة عاطفة، تقول: «أهلاً بالنار، والحريق، والدمار! هل تفهمني؟».

- أردت أن تحكي عن زوجِكَ.

- يا لها من كلمةٍ جميلةٍ تخرج من فمك: زوجُك. أجلْ، صحيح، كانت زوجِي، ليزافيتا. رأيتها كما قلت بعد العرْض، كان في وقتٍ متأخّرٍ من الّليل. مجموعاتٌ واقفةٌ، وكانت هي منخرطةً في حوارٍ ساخن. كان المثير للدهشة في هذا العرض كثافة هذه المحادثات وحماسها، تصادمت الآراء. أجلْ، يجب وصْفها بهذه الدراميّة. رأيتها، وهي تتحدّث إلى سيّدةٍ أُخرى، ولكنْ غطّت عليها مثل ظلٍّ في ذاكرتي. كان وجهها أحمر من الحرارة، وتحرّك يديها. حين وقفت إلى جانبها، نظرتْ إليَّ وقالت: «أنا أدافع عنك؛ لأنّ ما قلته قد أقنعني». ثمّ أمسكت بكمّ معطفي، وسحبتني إلى جانبها. وصل إليها بعد شهرين في برلين عَرْضٌ من مسرح الغرفة في ميونخ و...

- وماذا عن بلوتز؟

عُذراً، لقد ابتعدت عن الموضوع. لمْ أره لمدّة سنواتٍ، ثمّ وصل إليّ خطابٌ. سمع أنّني موجودٌ في ميونخ، وعرف عنواني من رفيقٍ سابقٍ في مجموعة الباسيفيك، هاينريش لوكس. إنّه اسْمٌ على مسمّى: متخصّصٌ في تقنيّات الإضاءة،(*) ومحامٍ لبراءات الاختراع. من المؤكّد أنّه عرف من لوكس؛ لأنّني لمْ أخبره بانتقالي إلى ميونخ.

جاءت الدعوة من بلوتز، ووافقت. يبدو أنّني أردتُ أنْ أحكي له عن سعادتي، عن سعادتي المتأخّرة التي لمْ تجلب لي ولليزافيتا الأبناء مع الأسف. أجلْ، كان هذا الخاطر يشغلني أيضاً، لحظة من الحزن بسبب

(*) كلمة لوكس أو لكس هي وحدة شدة الضوء في نظام الوحدات الدولي. (م).

حرماننا من الأطفال، بسبب الحُبّ والانجذاب القويّ، وليس بدافع التكاثر وزيادة الشعب. ربّما أردتُ أن أشرح للصديق معنى الحُبّ الذي لا يقتصر على التكاثر فحسْب. لمْ ترغب ليزافيتا في الحضور، ربّما لم يسمح وقتها، وأظنّ أنّها كانت تشعر أنّ هذه الزيارة ستؤذيها. لمْ نعرف بعضنا وقتها بالقدْر الكافي. كنت قد حكيت لها عنه، ليس باستفاضةٍ، ولكنْ عن رحلتنا المشتركة إلى إيكاريا. كانت قد قرأت اسْمه في الجرائد، وسمعت عن جمعيّة تحسين النسْل، وقرأت أيضاً عن أبحاثه. لمْ ترغب في مرافقتي على أيّ حال، قالت: «إنّ لديها أعمالاً يجب إنجازها».

إذن، ذهبت وحْدي إلى القصر، وأقلّني الابن الأكبر بسيّارةٍ كبيرةٍ من محطّة القطار. وجّه ألفريد وأنيتا تحيّتيهما إليّ عند بوّابة القصر. كان يرتدي كعادته بزّةً داكنةً، وربطة عنقٍ رماديّةً، وهي بإشراقتها وطيبة قلبها، وزنها لا يزال زائداً، وخصلتان رماديّتان في شَعرها الكثيف، ترفعهما إلى أعلى في قَصّة شَعرٍ شبابيّة.

المائدة في الحديقة مجهّزةٌ تحت الشجرة. كان الهواء نقيّاً، ورؤية جبال الألب مُتاحة. كعكة تفّاحٍ مخبوزةٌ ومغطّاةٌ بطبقة سُكّر. قالت: «أنت تحبّ هذه الكعكة»، ثمّ ضغطت على يدي. خسارة أنّك لمْ تحضر معك زوجك، كما تطلق عليها. حكيت عن عملها في المسرح. سألتني عن اسْمها ومدينتها، بوزن، نظر هو إليّ. قلت: «أجلْ، إنّها يهوديّة». أومأ برأسه، وكنت أعرف أنّه صار شخصاً آخر. كان قد سحب في مقالاته من اليهود نسبهم إلى العِرق الآريّ، وعدَّهم جنساً متفرّداً. اضطّررت إلى أنْ أضحك. لماذا تضحك؟ من دون سببٍ محدّد. لمْ أهتمّ بما يفكّر فيه. شربنا القهوة، وتناولنا كعكة التفّاح، وتجنّبنا الحديث في موضوعاتٍ سياسيّة. لا عراك، من أجلها هي. كنّا نعرف موقف كلّ واحدٍ منّا. كانت تمدح فترة

بقائها في برلين، وتحكي عن زيارتي المتكرّرة إلى المرسم، وأهمّية ذلك لعملها.

– هل ما زلتِ ترسمين؟

– نادراً؛ هناك الكثير الذي يجب إنجازه هنا.

قاطع حديثي معها، وقال: «هيّا، سأقودك إلى منشأتي البحثيّة». أوحى أسلوب قوله السريع والحاسم برغبته في إنهاء أيّ حديثٍ عن رسمها، كأنّ كلمة «منشأة بحثيّة» التي أكّد عليها هي المسوّغ لتوقّفها الآن عن الرسم.

قادني إلى المنشأة الكبيرة، يُحيط سورٌ بحظائر الأرانب الخشبيّة المرقّمة ومتوسّطة الارتفاع، كأنّها ثكناتٌ عسكريّةٌ صغيرةٌ، أو نموذجٌ مصغّرٌ منها. 1600 حيوانٍ هنا، تُعلَف وتُسقى بانتظام. اثنان من المساعدين، يرتديان مئزرين رماديّين، ومسؤولان عن نظافة الحظائر.

في محور هذا المعسكر ثلاث ثكنات أكبر في المساحة، تحت مسؤوليّة سبعةٍ من المساعدين. دخلنا إلى غرفةٍ مدهونةٍ باللّون الأبيض، نظيفةٍ تفوح منها رائحة المطهّرات. كان أحد المساعدين قد أحضر في الحال حيواناً من الحظيرة، أرنباً بلونٍ أسود وأبيض. كان يحاول الهروب بشدّة، أمسكه بإحكامٍ من تحت ذراعه اليسرى، وثبّت بيده اليسرى الكفّ الأماميّة، وباليد اليمنى الرأسَ المتحرّك يميناً ويساراً. وضع مساعدٌ آخر آلةً معدنيّةً في فَم الأرنب، أشبه بالكمّاشة، ولكنْ بتقنيةٍ معكوسةٍ، فتحت فكّه. صبّ المساعد بوساطة كوبٍ مدبّبٍ السائل في فَمِ الأرنب.

قال بلوتز: كمّيّة الكحول لها جرعةٌ محدّدةٌ، ليس خالصاً بالطبع، بلْ نمزجه جيّداً بالماء والسُّكّر؛ كي تستطيع شُربه. كان هناك خلف هذه الثكنات بيتٌ أكبر من الخشب بسقفٍ سطحه أملس، والنوافذ والأبواب مدهونة باللّون الأبيض. هنا قاعات التشريح مع الكشْف المجهريّ،

وكتابة النتائج في جداول. كان لكلّ حيوانٍ بطاقة عليها أكثر من مئة بيانٍ عن حياته. كُتبت على ظهر البطاقة بيانات التشريح، ووُضِعت شرائح الدماغ وفلقات المشيمة الخاصّة بالأرانب في برطماناتٍ زجاجيّةٍ داخل كحول. يُكتب على القصاصات الملصقة بيانات عن أصل الأرنب، الجيل الذي ينتسب إليه، وتاريخ نزع الدماغ. كانت هذه هي مهمّة المساعدين العلميّين. كانت سيّدةٌ شابّةٌ بمعطفٍ أبيضَ تحمل أرنباً على ذراعها إلى قاعة التشريح. يُقتل الأرنب بكمّاشةٍ كهربائيّة. قال: «ثمّ يُؤخذ من جسده الدماغ، والكبد، والغدد التناسليّة، ويُكشف على الشرائح تحت المجهر».
قال: «إنّها سلسلةٌ من الأبحاث الشاملة والممتدّة لسنوات، أراد من خلالها إثبات أنّ الكحول يغيّر فلقات المشيمة». أوْضَح: «أمامنا في سلسلة التجارب الأولى زوجان من الأرانب؛ أخٌ وأختٌ من أُسرةٍ واحدة. يأخذ الذكر من المجموعة الأولى الكحول لدرجة السُّكّر، ثمّ يُزاوجُ بينه وبين الأنثى من المجموعة الثانية. يحدث الشيء نفسه مع الأنثى التي تتزاوج مع ذكر المجموعة الثانية الذي لمْ يشرب الكحول».

كان الهدف من سلسلة التجارب الأولى، التي أُجريت بالطبع على عددٍ كبيرٍ، ومجموعاتٍ عديدة، هو البحث في فرضيّة أنّ تناول الكحول، وإنْ كانت مرّةً واحدةً، وبكمّيةٍ كبيرةٍ، وقبْل الجِماع مباشرةً، تضرّ بالغدد التناسليّة، وعلى ذلك بالذّريّة. قد نقارن بالحالة البشريّة حينما يبالغ شخصٌ في الشُّرب في أثناء الاحتفالات بالكرنفال.

سلسلة التجارب الثانية: يتعرّض عددٌ من الأرانب على مدار أسابيع وشهور، بالمصطلح المتخصّص، لإدمان الكحول. تماثل هذه الحيوانات الإنسان الذي تعوّد على شرب من اثنين إلى ثلاثة لتراتٍ من الجعّة من دون أنْ يكون سكّيراً. قال: «إنّ الهدف من هذه السلسلة من التجارب واضحٌ

أيضاً؛ يجب الوصول إلى الحقيقة المتعلّقة بتأثير زيارة الحانات وشُرب الخمرة على الذرّيّة البشريّة».

سلسلة التجارب الثالثة: يُنقع الحيوان المنويّ لذَكر الأرنب في الكحول، ثمّ تلقّح به بويضةٌ أنثويّةٌ صناعياً. ينجح عادةً هذا التلقيح، ويتعرّض الكحول للاتّصال المباشر مع المنبت، ويؤثّر بنسبته البالغة عشرة في المئة، فتزيد بذلك احتماليّة إثبات الضرّر على الذرّيّة.

رسم لي بناء الدماغ. قال: «تمثّل الخلايا العقديّة المركز، هنا وهنا، هل تراها؟ هذه الخلايا هي محور الانفعالات العضويّة والنفسيّة كلّها، والمشاعر أيضاً. لا تظنّ أنّه يمكن الكشْف عليها معزولةً. لا، يحدّدها هي الأُخرى الاستعداد الوراثيّ بِقَدْرٍ كبير. إنْ أُصيبت هذه الخلايا عبْر أجيالٍ بسبب تناول سموم الكحول، يسقط هذا الشخص المعنيّ، ومعه جنسٌ بالكامل إلى القاع. إذنْ: دعْم سلامة العِرق هو أساس أيّة سياسة، ومحكّ اختبارٍ للمُثُل الإنسانيّة كلّها.

يكون القتل بوساطة كمّاشةٍ كهربائيّةٍ صمّمتها بنفسي. توضع هنا عند صدغ الحيوان. يستغرق الأمر وقتاً قصيراً، ويكون بلا ألم. هل تريد المشاهدة؟».

تردّدتُ لوهلةٍ، ولكنْ فكّرت في ضرورة رؤية ما يحدث لأكون شاهداً. مع كلّ معاناةٍ لكائنٍ حيٍّ يقع شرْخٌ في هذا العالم.

أجلْ، شاهدتُ ما يحدث، كانت أذنا الأرنب تتحرّكان منذ لحظاتٍ قصيرةٍ مضتْ، تتوجّه عيناه الكبيرتان إلى الرجُل الممسك بالكمّاشة، ويظهر بياض العين الخائفة والمجروحة، وتوضع الكمّاشة عند الرأس المتحرّك، ثمّ ينتفض جسد الحيوان، ويوضع على منضدة التشريح.

جلسنا لاحقاً في مكتبه، تحيط بنا مئات البرطمانات الزجاجيّة، بأحجامٍ

مختلفة، وفيها مستحضرات الخلايا التناسليّة والأدمغة. كانت هذه الغرفة بزجاجات الكحول هذه كلّها تأكيداً ذاتياً على الخلوّ من الكحول، وفي الوقت ذاته يمكن تفسيرها بأنّها تعبّر عن كراهيةٍ دفينةٍ للقهر الذي يتعرّض له، حين يرغب ببساطةٍ في تناول كوب جعّةٍ في يومٍ حار. حين كنّا ندخل من شدّة الحرّ إلى حانةٍ في بريسلاو، ويأخذ الرشفة الأولى، ويقول بمنتهى الاستمتاع: «ياه، هذا يبرّد ناري!». كانت ليزافيتنا، التي قرأت فرويد، تقول: «هذه الأرانب كلّها تعاني؛ لأنّه منع نفسه من الاستمتاع بشُرب كأس نبيذ. إنّه ينتقم باسْم العلم من هذه الكائنات البريئة».

حينما سمعت أنّ العشاء أرنب في الفرن، ودّعتهم بحُجّة أنّني مضطرٌّ إلى إنهاء كتابة مقالة.

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، ربّما الحزن هي الكلمة الصحيحة لوصف مشاعري، وأنا عائدٌ في القطار إلى ميونخ، حُزنٌ على فقداني لشعوري القديم بالقرب. جلست في عربة القطار، ونظرت من النافذة، فكّرت في هروبنا من بريسلاو، ورحلتي الطويلة الأولى إلى أمريكا والعالم الجديد.

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، شيءٌ غريب! كان هناك شيءٌ أشبه بالوداع، لمْ تكن مبادرةً من طرفي، لا، بلْ منه هو. دَعا قبل موته بوقتٍ قصيرٍ أصدقاءه ومعارفه جميعهم، مع بداية عام 1940. كانت الحرب قد توقّفت، أو هكذا بدا الموقف. قُضي على بولندا في حملةٍ سريعةٍ؛ حربٌ، ثمّ سقوطٌ، والمقصود القنابل التي أُسقِطت فوق بولندا. نقل الاستيطان بداية لعمليّات التهجير كلّها التي جاءت بعد ذلك، والقتل، والتفكير في القضاء على السلافيّين، والبولنديّين، واليهود، والتعقيم أيضاً. كانت هناك تجاربُ لتعقيم السيّدات

بالأشعّة، وقتلهنّ بالجوع والأوبئة. كنّا في عام 1940 إذنْ. يواجه الجنود الألمان الجنود الفرنسيّين والإنجليز على نهر الراين. حربٌ زائفةٌ. هدوءٌ. لمْ تكن حمْلة الغرب، التي استهدفت سحْق هولندا، وبلجيكا، وفرنسا؛ قد بدأت بعْد. كانت فكرةً مرعبةً، ولكنْ بدا أنّ الرايخ الذي أعلن عنه التيّار البنّيّ سيبلغ مئة عامٍ من العمر. ذهبتُ بالقطار إلى هيرشينغ، ثمّ أخذتُ من المحطّة سيّارة أُجرةٍ إلى القصر، وكان ذلك في ظهيرة يومٍ في منتصف شباط/ فبراير، يوم تشعر فيه بقُرب حلول الربيع؛ الرياح الدافئة تذيب بقايا الثلوج، وغناءٌ بسيطٌ لطيور القرقف، كأنّها في مرحلة التدريب، والرياح الناعمة تجعل البحر يتلألأ تحت أشعّة الشمس، وكانت الرؤية واضحةً، وتمتدّ حتّى الجبال البعيدة، ثمّ مررنا عبْر هذه الغابة المظلمة والغريبة بشجر التنوب، ووصلنا إلى القصر. كان مُعظم الضيوف يقفون في الخلاء، رأيت بعض تلاميذه الذين صاروا أساتذةً الآن يقفون إلى جانبه، ويقف شالر بعيداً، من دون معطفٍ، وببزّةٍ مصنوعةٍ من قماش التويد. انضممتُ إليه.

سألته: «ألا تشعر بالبرد؟».

– «تذهب مرّةً واحدةً إلى سقف العالم، فتصبح محصّناً ضدّ البرد». ضحك ثم قال: «لا». إنّه يرتدي تحت البزّة بلوفراً مصنوعاً من صوف الياك، ليس بالطبع من فراء الحيوانات الكبيرة الأشبه بنشارة الخشب؛ بلْ من أنعم أنواع الصوف على الإطلاق. إنّه زغبٌ يُؤخذ برفقٍ من رقبة العُجول التي لمْ يتخطّ عمرها الأسبوع، ثمّ يُغزل. البلوفر هديّةٌ من كاهنٍ بوذيّ.

قادتنا مساعدةٌ للصديق إلى القصر، وإلى داخل مكتبه بالإضاءة الخافتة. مقعدان فقط إضافةً إلى مقعد مكتبه الذي رُسم على ظهره بالطباشير نجمةٌ خماسيّةٌ صغيرة. تعارف الجميع فيما بينهم، ولكنّهم تجنّبوني: البروفسور

فيشر، مدير معهد القيصر فيلهيلم، والمتخصّص في الأنثروبولوجيا، وعِلم الوراثة، وتحسين النسْل، مدّ لي يده، وسألني عن اسْمي، وقال: «آه، هذا أنت إذنْ»، ثمّ انصرف عنّي، وشالر فحسْب، الذي قاطعه الآخرون أيضاً، واصل الحديث معي، وحكى عن ديرٍ يقع بالقرب من لازا، متخصّصٍ في تحنيط الخنازير. لمْ أهتمّ بقصصه، إنّما تابعتُ تقرير مؤسّس عِلم تحسين النسْل في السويد، البروفسور هيرمان لوندبورج، طبيب الأمراض النفسيّة والعصبيّة، وهو رجُل عجوزٌ قويٌّ، تحمرّ وجنتاه حين يتحدّث عن الخبرات الجيّدة في تعقيم المصابين بالإعاقات الذهنيّة في السويد. قال: «إنّ الحكومة الديمقراطيّة الاجتماعيّة أدركت أخيراً المسؤوليّة الشعبيّة، وقامت في عام 1935 بإجراءات تنفيذ العمليّة. حمداً لله! اقتنعت كنيسة الدولة اللّوثريّة، ولمْ تُثر كثيراً من البلبلة، على عكس المتوقّع، دعم العديد من علماء الدين هذه العمليّة». كان ضليعاً في تفاصيل اللّغة الألمانيّة العامّيّة. واصل حديثه قائلاً: «إنّ القانون سيُطبّق أخيراً على أصحاب السلوكيّات غير السويّة اجتماعيّاً». أومأ برأسه إلى أجنيس بلوم من معهد القيصر فيلهيلم، فضلاً عن القصر: «مدمني الجنْس. يمكن في هذه الحالات، بعد أخْذ رأي طبيبَيْن، تعقيم المريض من دون موافقته. أوضح الدكتور نيتشه، مدير مستشفى بيرنا زونينشتاين لسنواتٍ طويلةٍ، أنّ بيولوجيا الأعراق ستتطوّر، خاصّةً بعد تجارب الحرب الحاليّة، ومتطلّبات توفير أماكن للجنود المصابين في المعركة. ظلّ مصطلح «نمط العلاج باللّومينال» عالقاً في ذهني. قال: إنّه قد جرّبه». توقّفت الأحاديث بعدها، انتظرنا، وتساءلنا عن سبب هذه الدعوة التي جاءت على غير المتوقع.

ظهرت اليونانيّة، شَعرها الذي زادت شيبته مرفوعٌ إلى أعلى بِعَصا سوداء مثل التقاليع اليابانيّة، فستانها مصنوعٌ من القطيفة الزرقاء الداكنة،

ومشدودٌ على صدرها قليلاً، وياقته لها طرف أبيض. خطرت على بالي فكرةٌ أربكتني؛ أنّ حلوانياً قد وضع الكريمة البيضاء على طرف الياقة. رحّبتْ بنا، وطلبت تناول المشروبات المنعشة. حملت الخادمة صينيّة المشروبات. أومأت اليونانيّة برأسها إليَّ، ثمّ غادرت الغرفة. واصل الجميع الحديث، ضحكة مكتومة بين الحين والآخر. ساد الصمت فجأةً، ودخل الصديق القديم إلى الغرفة، كعادته بالبزّة السوداء، والصديري، وربطة العنق. تحوّل لون شَعره وذقنه إلى الأبيض. قال: «أرحّب بكم، أنا على علاقةٍ وطيدةٍ بمعظمكم منذ مدّةٍ طويلةٍ، وأرحّب أيضاً بمن شاركوني ودعموني لاحقاً في أبحاثي. أستطيع القول، وأنتم تعلمون ذلك: البحث العلميّ في العقْد الأخير، والتجارب، والإحصائيّات، والمحاضرات المُصاحبة، هذا كلّه آتى ثماره، وأحْدث تأثيراً بفضل الرغبة السياسيّة الموجودة حاليّاً. وصلت إلى الخارج، عزيزي لوندبورج، يمكننا القول: إنّنا وصلنا إلى الكثير. ما فكّرنا فيه منذ أربعين سنة، وما طالبنا به، صار واقعاً. حاز عِلم تحسين النسْل اعترافاً، ولا يمكن فصْله عن العلوم الألمانيّة. لمْ أدْعُكم اليوم للاحتفال بهذا النجاح، بلْ للاعتراف بإخفاقٍ وقع».

الْتزمَ الصمت، وانتشر قلقٌ ملموسٌ وسط الحاضرين، ورأيت الوجه الحائر لإرنست رودين.

واصل بلوتز: «لقد خسرت المعركة. يا رفاق السنين، أنتم تعلمون أنّني جاهدتُ في الأعوام الماضية؛ لأثبت من خلال التجارب العمليّة التالي: أنّ الكحول المدمّرة والفاسدة لا تقضي على جسد الشارب فحسْب، بلْ أيضاً على أجساد ذرّيّته، وأنّ الآثار المدمّرة تتوغّل بخبثٍ في فلقات المشيمة، والحيوان المنويّ، والبويضة، ليكون لها على الجنين تأثيرٌ مفسدٌ بشكل... كيف أعبّر عن ذلك!».

أنا الذي كنت أعرفه مدّةً طويلةً، لَحظتُ نظراته الحائرة، وقلت: «على نحوِ مُتنامٍ». قال: «نعم، صحيح، أهلاً بصديقي من مجموعة الباسيفيك البعيدة، وإنْ قادك الزمن في اتّجاهٍ مختلف. أستطيع القول: إنّنا جاهدنا، وجاهدتُ أنا، لمْ نبخل بالمال والوقت، ويجب أنْ أشكركِ أنتِ». توجّه إلى اليونانية. كتم شالر ضحكته، وحاول أنْ يتظاهر بأنّه يسعل. واصل: «من دونك أنتِ لمْ تكن هذه التجارب مُتاحة. دَعوتكم اليوم؛ لأحتفل بما لا يُحتفل به عادة: بالإخفاق. لمْ أنجح في إثبات نظريّتي. نجحت في إثبات عكسها. لقد أسأت التقدير، وأوهمني الأمل أنّني اقتربت من النجاح. ذهب مجهود السنوات الماضية هباءً، ولكنْ ليس بلا فائدةٍ تماماً؛ لأنّ نفي المتوقّع يخلق الحقيقة أيضاً. لا، تناول الكحول بأيّ كمّيّةٍ لا يفسد فلقات المشيمة، وليس له تأثيرٌ مفسدٌ على الذُّرّيّة. فلْنشرب نخب ذلك».

أُدخل الخمْر، وصُبَّ في الكؤوس. أخذ الجميع كؤوسهم، ثمّ حدث ما لم يُتوقّع، وتعجّب منه الحضور: أخذ الصديق القديم كأساً، وقال: «من أجل الخطأ». أخذ رشفةً، وظهر في وجهه تأثّره بالطعم، ووجهه الذي أحاط به ذقنه الأبيض، بدا عليه الإمعان في التفكير، تذوّقٌ يصْحبه تفكيرٌ رجع خمسين عاماً إلى الوراء.

لمْ أجدْ فرصةً للحديث إليه؛ أحاط به أصحاب الذقون الرماديّة، وظلّوا يتحدّثون إليه. توجّهتُ عبْر غابة شجر التنوب المظلمة إلى القرية، ومن هناك إلى محطّة القطار، ثمّ المنزل.

-مقطع غير مفهوم-

سمعت بعد مرور ثلاثة أسابيع عن وفاته. رنّ جرس الهاتف في متجر الكتب القديمة، وقال أكستهيلم: «هناك رجُلٌ يسأل عنك».

كان هذا أمراً غير معتادٍ على الإطلاق؛ أنْ أتلقّى مكالمة. لا يوجد

في شقّتي على السطح هاتفٌ كما تعرف، ولمْ يطلبني في متجر الكتب القديمة أيّ شخصٍ على الهاتف، باستثناء اليونانيّة. صوتٌ ذكوريٌّ ذكر اسْم اليونانيّة.

سألت: «من المتحدث؟». ذَكر هذا الصوت اسْماً لمْ أفهمه، ثمّ قال: «لقد مات». عرفتُ في الحال أنّ المقصود هو الصديق القديم. سألت: «متى؟». «أمْس، بسبب النفاخ الرئويّ الذي يعاني منه. لمْ تكنْ ميتةً سهلةً، مثل المصابين بالربو جميعاً، الذين يموتون بسبب نوبةٍ، وموتهم أشبه بالاختناق»، ثمّ لحظة صمت.

قال هذا الصوت: «كأنّ شخصاً كان يخنقه».

سألتُ مرّةً أخرى عن اسْم المتّصل؛ لأنّ هذا الوصف للموت بدا لي عنيفاً على نحوٍ غريب. لمْ يكن الاسْم مفهوماً للمرّة الثانية، تشويش يغلب على الكلام، ثمّ أغلق الخطّ. ظللتُ ممسكاً بالسمّاعة على أذني، وسمعتُ صوت حرارة الهاتف الرتيبة.

يبدو أنّني ظللت على هذا الوضع لوقتٍ طويل.

سأل أكستهيلم: «ماذا حدث؟».

- لقد مات.

- من؟

- هو، الدكتور.

هاتفتُ -بعد مرور بضع ساعات- اليونانيّة. أعطاني أكستهيلم السمّاعة من دون أيّة كلمة. كانت تبكي. عرفتها من صوت بكائها، وقبْل أنْ تقول شيئاً، ستقول لي: إنّ هذا طبيعيٌّ بعد المكالمة السابقة. لا، لقد تعرّفت صوتها، على الرّغم من أنّني لمْ أسمع بكاءها من قبل، ثمّ قالت لي: «لقد مات».

حكيت لها أنّني عرفت عن موته من شخصٍ اتّصل بي على الهاتف.

تعجّبت وسألت: «من كان هذا؟».

لا أعرف، لمْ أفهم الاسْم. قالت: «ربّما كان الطبيب الذي طلبوه للاستشارة إلى جانب الطبيب المعالج، الدكتور شميدينجر. ولكنْ من أين يعرفك؟ وكيف استطاع الوصول إليك؟». أكملت اليونانيّة: «أنت كنت حاضراً، وسمعته حين قال إنّ نظريّته، التي أعطاها قيمةً هائلةً، ومنحها طاقةً كبيرةً مقارنةً بعدم اهتمامه بنفسه وبأُسرته، كانت نظريّةً خاطئة. أفكّر كثيراً في حوارنا الأخير».

تردّدت بسببها في الذهاب إلى دفنه. ليس من مصلحتها أنْ يراها أحدٌ بصحبة معتقلٍ سابقٍ، ولكنْ قلت لنفسي لمْ تعُد له، ولا لأُسرته، أهمّيّة خاصّة. لا أعرف إنْ كان ينتمي إلى مجموعة المعتوقين، مثل: الممثّل جروندجنز، والأديب هانز يوست، والنحّات أرنو بريكر. كانت رغبة هتلر ألّا يتعرّضوا للأذى. حصلوا على إعفاءٍ من الجيش، وكان من المفترض أنْ يعيشوا في أماكن محميّةٍ من القنابل، ومن أيّ تأثيرٍ للحرب. كان يوماً بارداً من آذار/ مارس، الغيوم تحجب ضوء الشمس، وبقايا الثلج تغطّي طرف الطريق إلى المدفن الصغير. كنت أظنّ أنّ الأرض جافّةٌ على المجراف. تجمّعت العديد من الشخصيّات المعروفة عند قبره: معاطفُ سوداء، وقبّعاتٌ، وشَعرٌ رماديٌّ، وذقونٌ رماديّة. العديد من الدكاترة، والأساتذة، والمتقاعدين. بعض الرجال في الزيّ الموحَّد، بالألوان: الرماديّ، والأسْود، والبنّيّ. خناجر، وشارات الصليب المعقوف، وتلمع أحذية الجيش المنظّفة بعناية. وأشرقت الشمس، وتكوّم جبلٌ حقيقيٌّ من الأكاليل والزهور المربوطة: في المقدّمة الأكاليل الفاخرة لممثّل القائد رودلف هيس، ووزير داخليّة الرايخ الدكتور فريك. تحدّثت شخصيّةٌ

قياديّةٌ عن العِرق الآريّ، ونقاء العِرق، والصفات المحمودة للشمال، مثل: الشجاعة والوفاء، وتحدّث البروفسور رودين، صديقه، ونسيبه، ورفيقه، عن طاعته لأدولف هتلر من خلال إنجازات حياته، وجدّيّته الكبيرة، وأمله في مستقبلٍ مشرقٍ للشعب الألمانيّ. لخّص البروفسور لينس حديثه قائلاً: «إنّ الرجُلَ الذي يُدفن الآن قد أسْهم إسهاماً جوهريّاً في تأسيس الفكْر النازيّ».

بحث شالر، بمعطفه الأسْود المتهالك، والأكمام القصيرة، عن رفقتي، وهمَس بغمزةٍ لي أنّ آلهة أساطير الشمال سيأخذونه إليهم.

لمْ آخذ معي إكليلاً، ولا وروداً. دُفن وعاء رماد جثّته في الحفرة. عزّيت بعدها اليونانيّة، وهي واقفةٌ بملابسها السوداء.

قالت: «شكراً أنّك حضرت».

لمْ أذهب إلى مأدبة العزاء، على الرّغم من دعوتي إليها، بلْ عدت إلى ميونخ. نزلت إلى القبْو، وجلستُ على المقعد. سمعتُ جرس المتجر في الأعلى، وخُطى زبونٍ يمشي فوقي. وصلت الخطوات إلى رفوف كتب النثر الألمانيّ، ثمّ إلى اليمين، إلى الإصدارات الأولى لهانز يوست، وكولبنهاير، وبلونك، وغرهارت هاوبتمان أيضاً. بعضها موقّعٌ، وبعضها الآخر غير موقّع. أحسستُ وقتها أنّ الرايخ الذي توّج نفسه سيبقى كما قيل لألف عام. ندمت على عدم بقائي في أمريكا في عام 1912 في أثناء زيارتي الثانية هناك، ولكنّني أردت حينها العودة، وظننت أنّ عليَّ البقاء في بلدي؛ لأعمل وأساعد في تحسين الأوضاع، والعمل من أجل مزيدٍ من العدالة والمساواة. هل تفهم ذلك؟ كنت أتمنّى، في حال قيام ثورةٍ، أنْ تكون لدى ألمانيا، هذا البلد الصناعيّ بعمّاله المثقّفين سياسيّاً، وتنظيماتهم، وحزبه الديمقراطيّ الاجتماعيّ القويّ، القدرة على تقديم نموذجٍ للدّول الأُخرى،

مختلفٍ عن العبوديّة الأسيويّة، كما حدث في روسيا البلشفيّة. توجّهت الخطوات أعلى إلى أكستهيلم الذي كان يجلس إلى مكتبه، ودُفعت الفاتورة. ربّما كان الإصدار الأوّل للكاتب هانز يوست عن شخصيّة «شلاجيتر»، والمهداة إلى أدولف هتلر. تذكّرت المرّة الأخيرة التي رأيت فيها الصديق القديم هنا، بحذائه الذي ظهر فيه ثقب. استحضرت الّلحظات الأولى التي سمعته فيها يتحدّث عن الظلم في العالم، حين هاجم أصحاب المصانع، والأغنياء، وظلم الطبيعة حين تهدي شخصاً عقلاً ضعيفاً، وآخر نعمة الذكاء. كيف يمكن لنا تعويض هذا الظلم؟ كيف يمكن تصحيح تهوّر الطبيعة؟ حينما يكون هناك ظلمٌ، فلا داعي لأنْ يكون المجتمع ظالماً أيضاً. هذا مثيرٌ للاعتراض؛ قاوموا وانهضوا!

تذكّرتُ في القبْو السيّدة الشابّة، مساعدته، بوجهها الّلطيف الّلافت، وعيونها التي تظلّلها رموشٌ طويلةٌ داكنة. كانت تمسح برفقٍ على أذن الأرنب الطويلة، تثني واحدةً منهما قليلاً لتتدلّى نحو الأسفل. تذكّرت الكمّاشة، التي كانت توضع على رأس الحيوان، والتشنّجات التي كانت تصيب جسده. تيبّسٌ للحظاتٍ، ثمّ يسقط الرأس إلى جنب.

الاستطلاع

طُلب هانزن مرّةً أُخرى إلى مقرّ القيادة الرئيس. حقّق معه قائدٌ من الإدارة العسكريّة حول السيّارة الكابريوليه التي صادرها، وحول المنزل، المنزل المطلّ على البحيرة. ستّ غرف، هل هذه مزحة؟ لقد انتشر هذا الخبر، مكانٌ لشخصين فقط: الطبيب، وهانزن. لا يعرف أحدٌ عموماً ما يفعله هانزن في الوقت الحاليّ. قال: إنّ أرشيف عالِم تحسين النسْل موجودٌ هناك، والمستندات جميعها، فضْلاً عن مقاطع نسيجيّة، كما أنّه يحقّق مع رفيقٍ قديمٍ لعالِم تحسين النسْل ذاك.

وافق الضابط، ولكنّه استفسر عن الأمر في قِسم علوم التاريخ التابع للجيش الأمريكيّ، وكان الردّ أنّ الاهتمام بحالة بلوتز يأتي في المرتبة الثانية، أو الثالثة على مقياسٍ من واحدٍ إلى عشرة.

– لمْ أنتهِ من المشروع بعد.

– هناك مشاريع أكثر أهمّيّة.

اضطّرّ هانزن إلى كتابة مذكّرةٍ يشرح فيها سبب مصادرته للسيّارة الأدلر. هو ضابطٌ فقط، السيّارة الكابريوليه لا تجوز إلّا لضابط رُكن؛ أيْ: رائد، وما يعلوه من رُتب.

قال جورج في المنزل على البحيرة: «ببساطة، أكتب أنّ أحداً لنْ يتعامل معك بجدّيّةٍ على الإطلاق إنْ قدمت ماشياً، أو راكباً درّاجة. كيف سيمكن أنْ تطلب في كلّ مرّةٍ سيّارة جيبٍ بسائق. كيف سيتمكّن المرء من إجراء هذه الأبحاث كلّها؟ هذا الصيدليّ النازيّ يعاقبك». ^

ظهر الصيدليّ بعد مرور يومين، جاء سيراً على الأقدام. كانت الأمطار تهطل، وهو قد ارتدى معطفاً مطاطيّاً بلونٍ أخضر داكن. رآه هانزن من نافذة المطبخ، وهو يقترب من النُّزل، وفكّر في أنّ هذا هو شكل الموظّفين الذين كان فاغنر يتجنّبهم.

رنّ جرس الباب.

تركه هانزن ينتظر، جرس متكرّر بعد توقّفٍ طويل.

فتح هانزن الباب: «ماذا تريد؟».

- مفتاح السيّارة، هذا أمرٌ مكتوبٌ من قيادتك يؤكّد على إلزامك بردّ السيّارة فوراً.

- «فوراً؟». أمره هانزن: «انتظر». أغلق الباب، وترك صيدليّ الحيّ واقفاً تحت المطر.

شرب قهوته على مهلٍ، وانتهى من تدخين السيجارة، وأحضر بعد ذلك المفتاح، وناوله الصيدليّ، الذي كان يقف تحته بثلاث درجاتٍ من درجات السُّلّم في المطر، كأنّه يمدّ قطعة نقانقٍ لكلب. حين مدّ الصيدليّ يده، رفع المفتاح إلى أعلى. شَعَر بعدها أنّ هذه اللّعبة غبيّةٌ، فرمى إليه المفتاح.

وقف ينظر إلى السيّارة المبتعدة: لونها الأزرق الداكن الجميل، والغطاء الأماميّ للسيّارة بلونه الرماديّ الفاتح. ابتعدت السيّارة على

الطريق الزراعيّ، رآها قبْل أنْ تنعطف إلى الطريق العموميّ بالإشارة الوامضة، على الرّغم من عدم وجود أيّة سيّارةٍ أُخرى.

استقلّ هانزن بعدها بيومين سيّارة جيب يقودها عسكريٌّ إلى ميونخ. كان على موعدٍ مع مولي في المقهى: الجوّ مشمسٌ، فكان اللّقاء في حديقة هوفجارتن. جاءت كعادتها في الموعد، مرتديةً فستاناً أزرق بنقطٍ صغيرةٍ، وحذاءٍ بكعبٍ عالٍ، وجواربَ حريريّة. عناقٌ سريعٌ، ثمّ جلست إلى جانبه إلى المائدة، وضعت ساقاً فوق ساق، وخلعت القفّازات الجلديّة الخفيفة بلونها الأزرق الداكن، ووضعتها على المنضدة. جاء النادل الألمانيّ بسُترةٍ بيضاء كبيرة، وأكمامٍ مُهلهلة. أراد هانزن طلب مشروب الجنّ الكحولي.

- لا، ليس مُتاحاً.

فكّر هانزن في أنّ الأمور بدأت تعود إلى طبيعتها، معاملة النُدُل سخيفة. «ماذا لديك؟».

- عصير اللّيمون.

- الجعّة؟

- لا.

- حسناً، أحضر عصير اللّيمون.

قالت: «هذا أفضل، الوقت غير مناسبٍ لهذه المشروبات؛ لمْ تغرب الشمس بعْد».

خلعت نظّارتها الشمسيّة، ونظرت إليه بعينيها الزرقاوين الشفّافتين، أمسكت بيده، وهو أمرٌ لمْ تقم به من قبل، ثمّ قالت من دون تردّدٍ، ومن دون مقدّمات: «لنْ نتمكّن من اللّقاء مرّةً أُخرى».

- «لماذا؟». شعر فجأةً بضربات قلبه.

- لقد تعرّفتُ إلى شخصٍ آخر.

- من؟

قالت: «لا تسأل، أنا لا أسألك أيضاً».

- هل أعرفه؟

- لا، لا تعرفه، ولا يهمّ ذلك أيضاً. يجب أنْ أطوّر عملي. معاش زوجي قليل، وأنا لا أحصل على أيّ شيءٍ في الوقت الحاليّ. يجب أنْ اعتني بابني، وأنْ يكون حاله أفضل.

أحضر النادل عصير اللّيمون، ثمّ قالت: «دعْنا نشرب نخْب المستقبل، مستقبلك أنت أيضاً».

حكت بعد ذلك عن المتجر، انتهت من تفصيل الفساتين الأولى، ونجحت، كما قالت، من خلال علاقاتها في الحصول على تصريح لإنتاج الملابس. فكّر في نوع هذه العلاقات، فلمْ يعد يتابع تطوّر إنشاء المتجر. احتاجت أيضاً إلى تصريحٍ للبيع، وبعدئذٍ عدّة تصريحات. إنّ الإدارة الأمريكيّة بالبيروقراطيّة نفسها التي مارستها الإدارة الألمانيّة قبل ذلك، فضْلاً عن عدم فهْم الأمريكان للأمور. تمكّنت من خلال علاقاتها من تعجيل الإجراءات، وحصلت على الأختام جميعها. أراد السؤال عن هذه العلاقات، ولكنّها قاطعته بحركة يدها. أجلْ، يمكنني البدء الآن، ويمكنني مواصلة حياكة الملابس. ووفِقَ أيضاً على استعمال نسيج الحرير المستعمل في تصنيع المظلّات. هي، ببرودها، كانت تتحدّث الآن بحرارةٍ، احمرّت وجنتاها، وفي عينيها لمعة السعادة بالعمل التجاريّ. كان وجهها مُشرقاً. «تخيّل! يُسمح لي بتصدير البضاعة إلى منطقة الاحتلال البريطانيّة».

- مُبارك.

- متى سترحل؟

- لمْ أعرف بعد.

كرّرتْ، وهي تمسك بكأس عصير اللّيمون: «دعْنا نشرب نخب...». استجاب لها، تناول مشروبه، وهو شارد الفكر. قبّلته حينها، للمرّة الأولى، من فمه أمام الجميع. توجّهت النظرات إليهما، كان أمراً جيّداً أنّه لا يبدو عليه أنّه كتيبةٌ محدّدةٌ، أو أنّه في الخدمة. كان فقط مدنياً بزيٍّ موحَّد.

تحدّثا عن بعض الأمور الأُخرى، ثمّ جلسا لوهلةٍ صامتَيْن يدخّنان، ثمّ نهضت، وأخذت حقيبة يدها الصغيرة والمصنوعة من الجلد الأزرق. قبّلته على وجنته: «سلام، وشكراً». غادرت بحذائها الجلديّ الذي لم يره من قبل، وعَبرت طريقاً مغطّاةً بالحصى، تحت شجر الكستناء، في اتّجاه المتحف العسكريّ المُحطّم.

جلس مرّةً أُخرى، وفكّر في أنّه من المفترض أنْ يسْكر الآن، ولكنْ شَعر أنّ هذا تصرّفٌ تافهٌ؛ لأنّه أشبه بمشهدٍ من فيلمٍ سينمائيّ. ماذا كان ينتظر؟ علاقة مستقرّة؟ ما سيفتقده هو أسلوبها الفنّيّ والبارد معه. ربّما لمْ يكن ذلك مُتاحاً إلّا مع غياب المشاعر عن اللّعبة. أجلْ، يمكن وصفها باللّعبة. عنصر المفاجأة، تغيّر بين الانجذاب القصير غير المبالي والواهي وبين هذا الابتعاد. فراقٌ مفاجئٌ، وعدم التزامٍ بالارتباط. لا تقارن بزوجة مندوب الماكينات الزراعيّة، التي كان يلتقي بها على مدار أسابيع في سانت لويس، من دون عِلم زوجها. تعلّقت به تعلّقاً متزايداً، وهدّدت بهجْر زوجها. هل كان يحبّها؟ في الأغلب لا. وماذا عن كاثرين، التي قضى معها ليلةً قبل مغادرته؟ في الأغلب نعم. ومولي؟ على وجْه الخصوص، ظنّ أنّ الإجابة: نعم. يجب القول: «إنّها لمْ تكن تحت أمره فحسْب، كانت مستمتعةً بالعلاقة، ولكنْ بأسلوبٍ باردٍ ومحسوبٍ، وتَمحْوَر حول ذاتها».

جلس لاحقاً في شرفة المنزل المطلّ على البحيرة، يدخّن، ويشرب

كأساً من البوربون. اعتراه شعورٌ واضحٌ بأنّ شيئاً ما انتهى داخله أيضاً، ظنّ: ربّما براءتي؟ ولكنْ لماذا؟ لا، هناك شيءٌ آخر. لقد ضاق أفق المستقبل، هذا ما خطر على باله، وافتقد في هذه الّلحظة وجود جورج، الذي كان يحبّ الحديث إليه عن المستقبل القريب، **المستقبل الضيّق**^. لا ليس هذا المعنى الصحيح. تناول كأسه الثانية على معدةٍ خاوية. لقد عجزت الّلغة الإنجليزيّة بأفعالها كلّها عن وصْف كلمة المستقبل بمعنى ما هو قادم. القادم هو المعهد، أو الجامعة، وتدريس التاريخ الألمانيّ، والأدب الألمانيّ.

لنْ يكون الذهاب إلى كولومبيا، أو هارفارد؛ إنّه يعرف حدوده. إيفانزفيل؛ لأستاذه اتّصالاتٌ جيّدةٌ هناك. جامعةٌ صغيرةٌ بسُمعةٍ طيّبة.

كان هناك ذات مرّة، حينما رافق كوبيتش إلى محاضرةٍ ألقاها. كان ذلك في أثناء الحرب، كما يستطيع الآن وصفها. كان الأمريكان قد وصلوا في الحال إلى شمال إفريقيا، وحاربوا من أجل جزيرة غوادلكانال. سمع حينها محاضرةً عن هاينريش هاينه، وكارل كراوس، ووصف البروفسور كوبيتش هذه المحاضرة الناقدة بالمنفّرة. تجوّل هانزن في المساء وحْده في الشوارع، وسمع إشارات القطارات العابرة لجسر أوهايو. مرّ من أمام المنازل الصغيرة بالحدائق الأماميّة، والنجيلة، والأحواض. مدينةٌ نظيفةٌ ومنظّمةٌ، وهدوءٌ؛ لا يزعجه حتّى نُباح الكلاب.

سألته: «متى ستعود».

– من يعرف هذا؟ أنا لا أعرف، ربّما سأبقى.

اليوم الثالث عشر

- لقد اقترب حوارنا من النهاية. هل من الممكن أنْ تحكي لي عن الزيارة الثانية؟ أقصد إلى الولايات المتّحدة. لقسمي اهتمامٌ خاصٌّ بهذه الرحلة. لا تسألني لماذا، هناك سببٌ ما.

- هل سترجع إلى أمريكا؟

- ربّما قد أذهب إلى برلين. لا أعرف مهمّتي هناك بعْد، ولا يُسمح لي في الأغلب بالحديث عن ذلك، وإنْ لمْ يكن سرّاً حربيّاً. أقصد أنّ كلّ شيء في الوقت الحاليّ سرٌّ حربيّ. فجأةً، هناك علاقاتٌ غاية في التوتّر مع الاتّحاد السوفييتيّ: الشيوعيّون يتلصّصون ويخترقون. أجواءٌ غريبةٌ. فلْتحكِ لي عن الرحلة الثانية.

- رحلتي الثانية لا يشوبها أيّ غموض. سافرت في عام 1912. كان والدي قد توفّي قبلها بسنواتٍ، وترك لي -كما قلت من قبْل- إرثاً سمح لي بتمويل هذه الرحلة. لمْ أحجز على سطح السفينة المتوسّط، بلْ على الدرجة الثانية المريحة. كانت رحلةً هادئةً بالسفينة في الصيف، اسْمها القيصرة أوغوست فيكتوريا، سفينة تحوي الرفاهية كلّها التي قد تخطر على بالك. تعرّفت في أثناء الرحلة إلى مطربةِ أوبراليّةٍ يابانيّة، اسْمها يو، سيّدة ضئيلة الحجْم، لا تصدّق أنّ جسدها يخرج منه هذا الصوت الجبّار. حين

سمعتها في مسرحٍ في نيويورك كان العرْض رائعاً. أنت تعرف مطرباتنا، خاصّةً مطربات أعمال فاغنر، أحجامهنّ ضخمة. كانت اليابانيّة في أثناء هذه الرحلة مرشدةً غنيّة المعرفة في الفنّ والأدب اليابانيّ.

كانت المدينة قد تغيّرت في العشرين سنة الماضية. مدينة مختلفة. كم كان تمثال الحُرّيّة بالشعلة في لحظات الدخول إلى الميناء آسراً. كان هديّةً من فرنسا. كنت أتساءل: لماذا لمْ يُهدِ الألمان العالم الجديد هذا الرمز الجميل؟ هل كان ذلك وارداً؟ لا، نحن جلبنا لهُم عصا الضّرب، بفضل الجنرال شتويبن. حسناً، كان هناك كارل شورس الثوريّ من عام 1848، الذي حارب لاحقاً من أجل تحرير العبيد، ولكنْ بخلاف ذلك؟

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، ذهبتُ مرّةً أُخرى إلى الإيكاريّين، إلى الجماعة، ذلك الحلم الجميل في شبابي. لمْ يكن هناك الكثير لأراه: توفّي أعضاء الجماعة المسنّون، وحصل آخرون على الأرض، ولمْ تكن هناك عقودٌ تحكم إنهاء الملكيّة الجماعيّة؛ لأنّ فكرة الإخفاق لمْ تكن واردةً؛ لذا، صار هؤلاء فجأةً من المليونيرات. تحوّلت الفكرة إلى النقيض، ونجحت الأوضاع التي كان من المفترض تجاوزها. كان لينا وفريد يعيشان في المستوطنة، ورُزقا بستّة أطفال. كانا يعملان موظّفين عند المحامي الذي استولى على معظم الأراضي، وهو شخصٌ مستبدٌّ، كريهٌ، كان يعيش في منزلٍ جديدٍ فيه الخَدم. اعترض طريقي، حينما دخلت محيط منزله، داخل حنطور، وضرب بالسوط أمامي، قائلاً: «هذا ملكٌ خاصٌّ! الدخول ممنوع! أنت تعرف أنّ استعمال المسدّس مسموحٌ لي هنا بحسْب القوانين».

قالها بالحرف: «استعمال المسدّس». كانت لغته الألمانيّة مضبوطةً قواعديّاً، وإنْ تأثّرت باللّغة الإنجليزيّة.

كنت قد زُرتُ -في أثناء زيارتنا الاستكشافيّة الأولى- جماعة الأمانا أيضاً، لمدّةٍ قصيرةٍ؛ أسبوعين فقط. بينما كان الصديق يجلس في المكتبة في شيكاغو، ويدرس بنشاطٍ عنيفٍ تاريخ تأسيس الجماعات. كنت أنا أحطّم الخشب. كان هو يدوّن الملحوظات، وأنا أضع الحبوب في المطحنة، وأتناول الوجبات مع بشر يصلّون قبل تناول الطعام. لمْ أكن مؤمناً، ولمْ يجبرني أحدٌ على الصلاة، ولكنْ زادت الحوارات القلقة التي كانت تصف آلام المسيح، والتي كانت تحدّثني عن أهمّيّة المشاركة في الصلاة؛ لأكون جزءاً من الإلهام. يجب الإنصات إلى الصوت الداخليّ، ويجب أنْ ينبّهه صوتٌ آخر من الخارج. هل تسمع؟ نظر الرجُل صاحب الذقن المستدير بقلبٍ مخلصٍ إلى عينيَّ، وقال: «أريد رؤيتك بعد حياتنا الدنيويّة القصيرة مرّةً أُخرى. في نور سيّدنا السيّد المسيح. آمين».

كنت قد ذهبت إلى جماعة الأمانا، التي قيل عنها: «إنّها تنمو وتزدهر منذ عقود». لماذا انهارت الجماعات السياسيّة ذات التوجّهات الاجتماعيّة؟ لماذا استمرّت الجماعات الدينيّة مدّةً أطول؟ مثل جماعة شاكر، المينونيت، أو الأميش؟ من واقع تجربتنا: هل آلت حركة إيكاريا في النهاية إلى جماعةٍ ريفيّةٍ من الطبقة البرجوازيّة الصغرى؟

لقد استقبلوني مرّةً أُخرى بحفاوةٍ شديدة. كان هناك فارقٌ لفتَ نظري من قبل: تتحدّث جماعة الأمانا باللّغة الألمانيّة؛ أمّا في مستوطنة إيكاريا فقد ساد الاضطّراب اللّغويّ. لمْ تكن اللّغة الألمانيّة لغة القوم، أو الشعب لجماعة أمانا، بلْ لغة الإلهام، ولمْ تهدف إلى التعبير عن المعتاد، ولكنّها كانت اللّغة التي يحدّثهم بها الربّ. الروح تستعمل أدواتها؛ المُلْهَمون. لمْ تكن جماعة الأمانا تنتمي إلى هذا العالم؛ أمّا مستوطنة إيكاريا، فهي أوروبّا، نموذجٌ مصغّرٌ عن أوروبّا نُقل إلى إلينوا، تُحكى فيه الفرنسيّة،

والألمانيّة، والسويديّة، والإيطاليّة، والإسبانيّة، والإنجليزيّة. الّلغة المشتركة كانت الّلغة الإنجليزيّة. أدّى ذلك إلى سوء فهمٍ بالطّبع؛ لأنّهم لمْ يتقنوا الّلغة الإنجليزيّة إتقاناً متساوياً. لمْ يكن الهدف المثاليّ للمساواة متحقّقاً في الّلغة. المساواة هدفٌ مجرّدٌ، نكاد لا نقترب منه إلّا من خلال الحوار المتّصل، والمجهود العمليّ. يتعرّض هذا الهدف من خلال الّلغة إلى التصحيح المستمرّ. ستلْحظ أنّني حاضرتُ غير مرّةٍ في هذا الشأن، على عكس الجماعات الدينيّة، مثلها ومثل جماعة الأمانا، التي يكون الرباط الداخليّ الوحيد فيها هو الرباط الروحيّ، أكثر من الرباط العقلانيّ: أشكال التعاملات الروحيّة، والصلاة الجماعيّة، وانتظار الإلهام، والأجواء المتشوّقة إلى المستقبل. لهذا كلّه قوّة توافقيّة وتناغميّة، تشمل الوعد بأنْ تكون حياة الجماعة بمنزلة الواحة وسط الصحراء، مثل واحة إيليم، وينابيعها الاثني عشر، والسبعين نخلة التي تمنح القوى للوصول إلى جنّة عَدن. لمْ ينلْ هذا كلّه اهتمام الصديق القديم، لقد كان ماديّاً. الدين بالنسبة إليه وهمٌ، مثل الرجُل الموجود في القمر الذي اكتشفنا عدم وجوده مع اختراع المكبّر؛ أمّا جماعة الأمانا، فارتبطت من خلال الإلهام، والّلغة، لغة الملائكة، كما كانوا يطلقون عليها.

– لغة الملائكة؟ كيف كانوا يسمعونها؟

– إن كان لك اهتمامٌ بهذا الشأن، أستطيع...

– لدينا بعض الوقت.

– دمدمة غير مفهومة–

– أنصحك بقراءة التقرير الذي أعدّه الاقتصاديّ روبرت ليفمان من فرايبورغ، الذي زار جماعة الأمانا بعد الحرب الكبرى الأولى. لدينا في متجر الكتب القديمة نسخة. يمكنك مراجعة أسلوب خطاب المُلهمين،

ونصائحهم المقدّمة إلى الجماعة، إنّها أشبه بتجربة عيد العنْصرة، هُم الأدوات الربّانيّة، والكُتّاب هُم الحواريّون، إنّهم يكتبون الكلمة. من المهمّ أنّ الشيوعيّة لمْ تنشأ هنا من خلال دراساتٍ اجتماعيّةٍ معقّدةٍ، بلْ عبْر الإلهام الذي أوصاهم بذلك.

ينصبّ اهتمامي على هذا العنصر الروحيّ تحديداً، الذي كان له تأثيرٌ سحريٌّ في جماعة الأمانا. قد يصفها الصديق القديم بأنّها غريبة. ما كان باهراً هو ظهور شيءٍ عقلانيٍّ في هذا السياق، في الوقت الذي دمّرت فيه جماعة إيكاريا -القائمة على العقل ونبْذ ما يخالفه كلّه- هذه العقلانيّة. كان ينقصهم هذا الترابط على نحوٍ غريب. لا يُسْهم العقل وحْده في تحقيق الوعد بالسعادة وقيام التوافق، الروح لها دورها أيضاً، وهو تصوّرٌ فقدناه في العلوم، الروح التي تتوسّط بين العاطفة والعقل.

- قد أقبل بلغة الملائكة، ولكنْ ماذا عن الجانب الاقتصاديّ؟ وعن الجانب الشيوعيّ؟

- شملت المساواة الكاملة بين الأعضاء الأطفال أيضاً؛ كان عنصر الّلعب جزءاً من الحصص المدرسيّة، وظهر مجتمع المدرسة بوصْفه أُسرةً كبيرة.

لمْ أرَ في أثناء فترة بقائي هناك طفلاً يتعرّض للضرب. التعامل الهادئ لافتٌ، وشعار العمل: لمْ تقم الدنيا في يومٍ واحد. ينطبق ذلك على مطاحن الحبوب، ومصانع النسيج، والمطابع، إلى جانب فترات الراحة الطويلة، والطعام الجيّد، ولكلّ شخصٍ مقعد في مكان عمله. أقصّ عليك هذه التفاصيل كلّها؛ لأنّني وجدتُ جزءاً من الآمال الخاصّة بجماعة إيكاريا متحقّقة هنا. ما لفت الانتباه في الحال: العمل هنا يختلف عن الأحداث المضطّربة والسريعة المعتادة في المصانع والورش، ناهيك عن إيقاع

الإنتاج الضخم. هذه الملحوظة مهمّة أيضاً: لمْ ألْحظ أيّ شخصٍ كسلان، أو غشّاش في أثناء العمل. بعضهم بطيءٌ، والآخر سريعٌ، كلّ واحدٍ بحسب إمكاناته، ولكنْ ليس هناك من يتكاسل على حساب الآخرين؛ ما يؤدّي عادةً إلى المشكلات والنزاع. الاختراعات والتجويد لا تأخذ براءة الاختراع؛ إذْ يفترض أنْ تفيد الجميع، حتّى من يعمل ويعيش خارج الجماعة، فالمسألة تتعلّق بتحسين ظروف العمل والإنتاج، وليس استهداف المكسب الأكبر. ألا توافقني أنّ هذا هدفٌ محمودٌ لأيّ مجتمع؟ علماً أنّ هذا المبدأ ينفي الشكل الاقتصاديّ الرأسماليّ من الأساس.

-مقطع غير مفهوم-

هذا السؤال أطرحه على نفسي أيضاً: هل الدعم الدينيّ مطلوبٌ لبناء مجتمعٍ شيوعيّ؟ أنا شخصيّاً مقتنعٌ بعدم وجود ضرورة ذلك، ولكنّ المطلوب رغبةٌ أخلاقيّةٌ وجماليّةٌ، وتهذيبٌ للمشاعر. الأساس هو تنمية شعور الإحساس بالآخرين، مدرسة للخطاب الناقد والرأي الآخر، مع تجنُّب التجريح والاحتقار الشخصيّ. يجب رؤية النفس، ورؤية الآخر.

- أنت تقصد التضامن.

- نعم، هل يمكن إنهاء حديثنا اليوم؟

العودة إلى المنزل

وقفت سيّارة الجيب منتظرةً أمام المنزل، إلى جانبها سائقٌ أسمرُ يدخّن. كان قد وضع صندوق هانزن وحقيبته على المقعد الخلفيّ، ثمّ شدّ غطاء السيّارة؛ لأنّ سحُباً داكنةً هبّت من الشمال.

حضر رجُلٌ شابٌّ قريبٌ لمالك المنزل لاستلام المفتاح. ظلّ يتجوّل في المنزل، كأنّه المؤجّر المتكرّم، ومعه قائمة جَرْد. دفع بطرف قدمه أرضيّة الباركيه المؤدّية إلى الشرفة. قال: «لقد تبلّلت بالماء، وتلفت، هل ترى ذلك؟ لقد وصلت الأمطار إلى هنا. من سيتحمّل تكاليف الإصلاح؟».

قال هانزن: «حسناً، نحن لا نستعمل الأبواب في أمريكا. هذا المنزل قد صودر، ولمْ يؤجّر». نظر الشاب إليه بجبينٍ مُقطّبٍ، ومن دون تفهّمٍ، ثمّ سأل عن الإدارة التي يمكن مطالبتها بالتعويض عن الخروج من المنزل.

فكّر هانزن: «هذا هو شكل الإنسان الخارق الآريّ، يتحدّث عن الخروج من المنزل. يا لهم من أوغاد صغارٍ بخلاء!». كمْ ودّ أنْ يضرب هذا الشابّ على مؤخّرته.

تجاهله على النحو الذي وصفته مولي: ننظر إلى الأجير من أعلى إلى رأسه، وليس إلى عينيه. زعمت أنّ هذا كان السلوك المطلوب من رجال الاستعمار البريطانيّ. لا يرون حينها الكراهية المربكة في عيونه.

كان قد ردّ عليها حينها: «ولكنْ لن ترى أيضاً الّلحظة التالية التي سيقطع خلالها رقبتك».

نادى هانزن السيّدة زاكس، وأعطاها خمسين دولاراً. تعمّد القيام بذلك أمام هذا الإنسان الخارق، متمنّياً ألّا يكون ضعيفاً في الرياضيّات. أرادت السيدة زاكس تقبيل يده، ولكنّ هانزن رفض ذلك.

قال لها: «إنّه شَعر هو وجورج بالراحة هنا بفضل قيامها بعملها، وأنّ المهمّة قد انتهت».

نزل في فندقٍ في ميونخ صادره الجيش الأمريكيّ. كان قبل ذلك فندقاً راقياً، ولكنّ قذيفةً دمّرت سطح المبنى، وغُطّي مؤقّتاً. لمْ يحتج إلى أيّ إطفاءٍ، ولذلك لمْ يقع أيّ تلفٍ بسبب الماء. فُرشت الممرّات بالسجاجيد الثقيلة، وعلى الحيطان لوحاتٌ لعائلة فيتلزباخ، وكذلك لبسمارك بلونٍ أزرق سماويّ. عامل الفندق، رجُلٌ عجوزٌ، ولكنّه قويٌّ، بمئزرٍ أزرق داكنٍ، وجّه التحيّة إلى هانزن، فردّ هانزن بـ«أهلاً». حمل له الحقيبة إلى المصعد، وأراد جلْب الصندوق لاحقاً. هذا ما قاله بلغته الألمانيّة البافاريّة، ولمْ يكن هانزن متأكّداً من فهمه. الغرفة كبيرة، ونوافذها تصل إلى الأرض. اقتسمها تلك الّليلة مع جورج، الذي كان من المفترض أنْ يسافر بمستنداته المجمّعة في اليوم التالي إلى نورينبرج. نُقل جورج إلى هناك؛ ليساعد في تحضير الادّعاء ضدّ الأطباء الذين عملوا في المعسكرات ومستشفيات القتل الرحيم.

فكّر هانزن أنّه كان يجب عليه دراسة الطبّ؛ ليكون فعّالاً.

ذهب إلى مكتب القيادة الرئيس، وطلب مقابلة العقيد.

بدا ميدلتون مستغرقاً في أفكاره، بذقنه الرماديّ، وجسده النحيل. كان جالساً في حالةٍ من التركيز الهادئ، وطلب إلى هانزن الجلوس.

- ما وضْع حالة عالِم تحسين النسْل التابعة لك؟

قال هانزن: «التحقيق الفعليّ قد انتهى، ولكنّ الرجُل العجوز يريد التحدّث إليّ مرّةً أُخرى. يُفرّغ التسجيل على الأوراق، لقد وجدنا سكرتيرةً ألمانيّةً، كانت تعمل قبل ذلك في صناعة الحُلْي، حُلْي من الزجاج. كانت قد هربت من منطقة السوديت. لقد أدّت مهمّتها بنشاطٍ، وأنْهت نصف العمل المطلوب. هل ألقيت نظرةً على النَّصّ؟».

قال العقيد: «نعم، بدأت القراءة. هناك جزءٌ أكبر من المطلوب عن ذلك الشخص الذي يُدعى فاغنر، كأنّها سيرةٌ ذاتيّةٌ مزدوجةٌ، الكثير من الكلام والتفاصيل الفرعيّة. شارك أيضاً في القراءة مكتب المخابرات المضادّة، وانفعلوا قليلاً. يسألون: ما هذا؟ ليس لديهم اهتمامٌ بقصّة الهندسة الوراثيّة، بلْ بمجموعة الباسيفيك، الشيوعيّين. هل هناك أيّة علاقةٍ بينهما؟ انتشر شعور عدم الثقة سريعاً. أمرٌ غريبٌ ما يراه هؤلاء البشر مع هذا الهَوس بحُكم الوظيفة!».

سأل هانزن عن مصير المادّة العلميّة المتبقّية، والمقاطع النسيجيّة الموجودة في القصر.

- اتركها مكانها مبدئيّاً، سيقرّر الشخص الذي يخْلفني في الوظيفة هذا الأمر.

- أين ذهبت بقيّة المادّة العلميّة؟

- أين؟ ليس لديّ أدنى فكرة. ربّما في فيزبادن، وربّما نُقلت إلى أمريكا. جاء الأمر من القيادات العليا. لمْ يعُد لهم، فيما يبدو، اهتمامٌ

كبيرٌ بعالم الأرانب هذا. نفخ ميدلتون دوائر الدخان الصغيرة الرماديّة في الهواء، فتطايرت ببُطء.

دخّن هانزن سيجارته، وميدلتون الغليون، وجلسا في صمتٍ متجاورين، ينظران من النافذة إلى أوراق الشجر الخريفيّة، شجرة تلمس فروعها النافذة مع هبوب الرياح القويّة.

قال ميدلتون بعد وهلةٍ: «هل تعرف ماذا سأفعله أوّلاً بعد ثلاثة أسابيع؟ سأذهب إلى برونسفيك للصيْد».

كان في المساء على موعدٍ مع جورج في نادي الضبّاط الموجود داخل بيت الفنّ الألمانيّ.

كانت أمسيةً في شهر سبتمبر/ أيلول هبّت فيها الرياح الدافئة، وبقي دفئُها حتّى حلول الظلام. فكّر في الرجُل العجوز الذي يعاني الآن من الصداع. جلس هانزن إلى جورج في إحدى القاعات التي عُلّقت فيها سابقاً الّلوحات التي تعرض الفلّاحين في أثناء عمليّة الحرْث، والعساكر الذين يرمون القنابل اليدويّة، والسيّدات العاريات. تناولا مشروب البوربون.

- يا لها من أمسيةٍ مثيرة!^

قال هانزن: لقد كنّا فريقاً جيّداً، والعصافير كانت جميلةً جدّاً.^

- صحيح.^

قال هانزن: «إنّه قد تعلّم من جورج الكثير عن العصافير، وعن الفروق بين الّلغات، وبدأ في مدح خصوصيّة الّلغة الألمانيّة وجمالها». تحدّث ببطءٍ، مشدّداً على حروف كلامه الساكنة، عن الإحباط الذي أصابه من الاسْم الإنجليزيّ البسيط والمفتقد للتاريخ لعصفور النمنمة، على عكس الاسْم الألمانيّ (ملك الأسوار)، الذي رأى أنّه يصف العصفور وصفاً

مناسباً: براعته في تسلّق عواميد السياج السميكة والقديمة بأسلاكها الصدئة، ثمّ غناءه الأسطوريّ على قمّة الشجر، بالفعل غناءٌ ملكيّ.

توجّها هانزن وجورج بعد مدّةٍ إلى الخارج، حيث كانت فرقةٌ كبرى تعزف موسيقا السوينج. يخدم النُدُل الألمان بسُتراتهم البيضاء الضبّاط الأمريكان، الذين كان معهم بعض الضبّاط الإنجليز والفرنسيّين أيضاً. كانت أجواءً احتفاليّة. حقيقة الفوز بالحرب ما زالت قائمة. عادت دفعةٌ أولى من الضبّاط إلى أمريكا. تعزف الفرقة الموسيقيّة أغنية (العودة إلى المنزل).

احتسى هانزن وجورج عدداً من كؤوس البوربون، شرب هانزن على غير العادة كأساً، أو اثنتين أكثر من جورج. انضمّ إليهما في هذه اللّحظات الرائد ليو ألكسندر إلى المائدة. سأل بنبرته اللّطيفة ولهجته النمساويّة عن حالهما.

أجاب هانزن، على نحوٍ مفاجئٍ باللّغة الألمانيّة، بأنّهما استمتعا في الأسابيع الماضية في المنزل، ومشهد الطبيعة، والعصافير، وبعض الشخصيّات. كان هذا كلّه بمنزلة التعويض عن التنقيب في هذه القاذورات، وهذا الخراء الذي وقع. على الأقلّ بالنسبة إليه.

قال ألكسندر: «إنّه لمْ يُرد إفساد أمسيتهما، ولكنّني تعرّضتُ اليوم لما يلي: البروفسور الدكتور فيرنر كاتل، ليس المُحكّم الأعلى في مجال القتل الرحيم للأطفال فحسْب، بلْ قد اخترع أيضاً قانوناً جديداً؛ أيْ: إنّه عالمٌ في الحقوق أيضاً. كتب: الأشخاص المصابون بالجنون الكامل ليسوا بشراً من المنظور الدينيّ أيضاً؛ لأنّهم لا يملكون شخصيةً. التخلّص منهم لا يُعدُّ قتلاً؛ بلْ هي حالةٌ لم يتناولها القانون من قبل. سأستعمل لها مبدئياً مصطلح (الإمحاء)».

قال هانزن: «إنّه سفسطائيّ، سوف نُلحقه بالدائرة السفلى في الجحيم، ليست مخصّصةً للخَونة، بلْ لممارسي هذا الإمحاء. سنضع رؤوسهم في الثلج، بسبب هذا التلطيف اللّفظيّ «إمحاء». إنّ النظام القديم عائد. لقد اشتكت أُسرة القاضي الأعلى للحزب النازيّ من أنّ المركب المدفوع بالمحرّك به بعض الخدوش. هل تتخيّل ذلك؟ لا أحد يعلم مصير كاتل هذا أيضاً، ربّما سيعود إلى كرسيّه العلميّ». ردّ ليو ألكسندر بحسْم: «لا، هذا لنْ يحدث».

حضرت سارة متأخّرةً، وانضمّت إليهم إلى المائدة، طلبت ويسكي مع صودا، ثمّ حكت عن حادثةٍ تسبّب فيها ضابطٌ أمريكيّ، كان في حالة سُكْرٍ شديدةٍ، ودخل إلى متجرٍ لبيع الحليب، ثمّ هدّد البائعة والزبائن بالمسدّس.

أعلنت الفرقة عن عزف أغنية: (قفزة على الساعة الواحدة).

أرادت سارة الرقص، وحاولت سحْب هانزن معها، ولكنّه قال: «إنّه شرب كثيراً، وليس واثقاً من خطواته». تحدّث بالألمانيّة التي لمْ تفهمها سارة، وضحك ليو الذي لمْ يسمع المصطلح الألمانيّ للثقة في الخطوة من قبل.

رأى هانزن مولي في هذه اللّحظة قادمةً، بصُحبة العقيد. مرّتْ عبْر الموائد، مرتديةً فستاناً أزرق داكناً، وفوقه فراء ثعلبٍ أبيض؛ لأنّ الطقس قد يكون بارداً في اللّيل. شَعرها الأشقر، الأشعث بلمسةٍ فنّيّةٍ، مربوطٌ بقطعة قماشٍ من لون الفستان نفسه. كان حذاؤها هو الشيء غير المتوقّع؛ كعبٌ عالٍ، ومصنوعٌ من جِلد الثعبان الرماديّ. ظهورها كان بمنزلة عرْض الأزياء، النظرات تتابعها من الموائد كلّها.

الرؤوس تتحرّك نحوها، شخصٌ جالسٌ إلى المائدة المجاورة قال: «أسطورة».[8]

قال جورج: «**انظر من وصل الآن، لقد وصلت بالفعل، أربع رُتب إلى أعلى، العقيد. في صحّتكم!**».^ قالت سارة: «**هل هذه هي؟**». لمْ تنتظر ردّاً: «**لك ذوقٌ جيّدٌ، يمكنني التصديق على ذلك**».^

قال جورج: «**لدينا بطلٌ حقيقيٌّ على هذه المائدة**^؛ لأنّ هانزن قد حصل على النجمة البرونزيّة مع درجة الدخول في معركة».

سأل ألكسندر: «ما سبب هذه النجمة البرونزيّة؟».

قال هانزن إنّه ضلّ طريقه، ووجد نفسه فجأةً وسط نيران العدوّ، ألقى بنفسه في خندقٍ في الشارع، وفقد خوذته الحديديّة، وأطلق النار من مسدّسه في الهواء. هذا كلّ شيءٍ، الأمر لا يستحقّ.

- لا يوجد يا عزيزي شيءٌ في الحياة لا يستحقّ.

أعلنت الفرقة عن قطعةٍ موسيقيّةٍ جديدةٍ تماماً: (**أحبّني، أو اتركني**).

طُلبت سارة للرقصُ على الفور، وذهبت مع ملازمٍ إلى ساحة الرقص.

نهض هانزن بعد وهلةٍ، ببعض التردّد. قال جورج: «هيّا اجلس! أرجوك، لا تسبّب المشكلات». ذهب هانزن بخطواتٍ ثقيلةٍ إلى المائدة التي يجلس إليها العقيد ومعه رائدٌ آخر، ظلّ هانزن واقفاً أمام مائدتها، تأرجح قليلاً، وانحنى انحناءةً كاملةً أمام مولي، وطلب إليها هذه الرقصة. لوّح العقيد بيده، وصدّه بأدب.

لمْ يقبل هانزن برفضه، لمْ يقل إنّه آسف، بلْ أعاد طلبه: «هل تسمحين لي بالرقصة؟». نظر إليها، إلى عينيها: «يجب أنْ نرقص، لقد فعلنا كلّ شيءٍ إلّا الرقص. **الآن، وإلّا لا إلى الأبد**».^

لَحظ للمرّة الأولى كيف أنّ هذه السيّدة المتحكّمة في نفسها، والباردة، تفقد السيطرة على نفسها. قالت متلعثمةً: «لا، من فضلك، توقّف».

قال: «لكنّني أريد ذلك». كان مقتنعاً بما قاله بلسانٍ ثقيلٍ، وغضبٍ عارمٍ، لنْ يسمح برفضه. استند إلى المائدة، ليس بسبب الدوار الذي أصابه فحسْب، بلْ للتأكيد على ما قاله، والاقتراب من مولي. لم تحتمل المائدة وزنه، فانقلبت، وتفتّتت الكؤوس التي سقطت على الأرض. قال جورج في وقتٍ لاحقٍ: «إنّ الملاك المنقذ قد حضر»؛ الرائد ألكسندر، رجُلٌ ذو خبرةٍ، ومتخصّصٌ في عِلم النفس والتنويم المغناطيسيّ. قدّم الاعتذار إلى العقيد، وقال: «إنّ الملازم هانزن كان يحتفل بحصوله على النجمة البرونزيّة من فئة (ف) للمقاتلة، وبدهيٌّ أنّه قد بالغ في الشُّرب». سحب هانزن عن المنضدة المنقلبة وشظايا الزجاج.

نام هانزن في اللّيل داخل فندق الجيش لاحقاً كالمُخَدَّر، نومه كان عميقاً لدرجة أنّه لمْ يسمع شخير جورج العالي والمستمرّ. لمْ يستيقظ إلّا في الصباح، على الطّرق الشديد على باب الغرفة. حضر السائق الذي سيقلّ جورج إلى نورينبرج. كان جورج في حالةٍ سيّئةٍ، وسأل إنْ كان اليوم هو الاثنين، وحينما جاءه الردّ بالإيجاب، توجّه إلى الحمّام.

حمل عامل الفندق العجوز صندوق جورج إلى الخارج. ظلّ هانزن مستلقياً في الفراش؛ كان يشعر بأنّ رأسه مثل الرصاص، ثقلٌ يضغط عليه.

خرج جورج من الحمّام، ربطة العنق متدلّيةٌ ولمْ يربطها، حاملاً سُترة الزيّ الموحَّد على ذراعه، ولمْ يربط حذاءه أيضاً. قال: «**أنا ما زلت موجوداً في هذه الدنيا**».^ ثمّ أردف: «يا ملك الأسوار، حظّ سعيد».

لوّح عند الباب إلى هانزن بيَده، وخرج وسط الضوء المؤلم.



اليوم الرابع عشر

- أجلْ، كان قويّاً ومستمراً مع حلول اللّيل.

- أنا أيضاً، أصابني الصداع. ربّما بسبب الويسكي الذي احتسيته. وداعاً. كنت تريد أن تحكي لي عن شالر والأديان.

- نعم، ربّما يكون لك اهتمامٌ بهذا الشأن. لقد زارني شالر في هذا العام في متجر الكتب القديمة، في شباط/ فبراير. كان قد سمع من اليونانيّة أنّني أعمل هناك. الثلوج تتساقط منذ أيّامٍ عديدةٍ، ولا يوجد إلّا عددٌ قليلٌ من البشر في الشوارع. بقي أكستهيلم بسبب الثلوج المتساقطة في المنزل. كانت الأيّام الأخيرة للرايخ صاحب الألف عام، والزبائن أمرٌ نادر. رنّ جرس المتجر، ودخل شالر. قال: «هايل هتلر». أضاف: «إنْ كنت قادراً على قول ذلك». خلع معطفه القصير، وأزال عنه الثلوج برفقٍ، قائلاً: «إنّ هذه الثلوج تذكّره بيومٍ في طريقه إلى منطقة لازا، حينما سُمح له بزيارة الدالاي لاما، بعد طول انتظار، وبرفقة زميلٍ إنجليزيٍّ، رايس ويليامز، عالِم الدراسات الهنديّة الذي كان متخصّصاً في ثقافة التيبت». أخرج حينها ويليامز زجاجة جيب فضّيّة اللّون من غلافها داخل معطفه، وقدّمها إليَّ. قال: «إنّ عمرها عشرون عاماً». أخذتُ رشفةً، يا لها من تجربةٍ مذهلةٍ! رشفة ويسكي فوق قمّة العالم. شيءٌ نادرٌ؛ لأنّه يجب إخفاء هذه الزجاجة،

أو اثنتين، أو ثلاث، حملها إلى أعلى، بطريقةٍ تمنع تحطمها. حسناً، قد يكون قد شرب قليلاً منه. طعم الويسكي المذاب مثيرٌ للاهتمام.

قلت لشالر: «لا يمكنني تقديم الويسكي لك، إنّما الشاي، وإنْ كان ليس من نوع الدارجيلينج. رائع!».

اشترى أكستهيلم من مهاجرٍ روسيٍّ سخّان ماءٍ روسيّاً (ساموفار) يعمل بالكهرباء، كان اسْمه الأمير ميرسكي، ويكسب قوت يومه من متجر أنتيكاتٍ قديمة. قال شالر: إنّ صوت غليان الماء الخفيف يذكّره برحلته العلميّة إلى كالميكيا في روسيا؛ كان حينها سخّان الساموفار يشعل الحواس، حين ترجع متجمّداً من الخارج في أيّام الظّلمة والطقس البارد، إلى المنازل المصنوعة من الخشب.

- سخّانٌ يشعل الحواس؟

- نعم، ضوء الشموع المنعكس على النحاس الأصفر، والدفء وغليان الماء يعبّران عن السعادة المتوقّعة، التي لا تتحقّق إلّا بالنظر إلى الشمس.

أظنّ أنّني لمْ أجبه إلّا بهَمهمة. تكوّنت تحت حذاء شالر المصنوع من جلد كلب البحر، والأشبه بقارب الكاياك، بركةٌ من المياه، فوق الباركيه الذي قامت عاملة السُّخرة، بولنديّة الجنسيّة، بتلميعه بالزيت بعناية.

أمسك شالر بكوبه، دفّأ يديه، وقال: «طعمه رائع!». سأل إنْ كانت لدينا كتبٌ عن التيبت للكاتب شيفر.

- هل تقصد إرنست شيفر؟ نعم، كتاب (الجبال وبوذا والدببة)، نسخة من عام 1933، الطبعة الأولى، وموقّعة من الكاتب.

هذا المشعوذ مثيرٌ للسُّخرية. أخرج شالر الغليون من جيب سُترته الصفراء ذات المربّعات البنّيّة. أصابني قليلٌ من الإحباط؛ لأنّه تخلّى عن

سُترته المصنوعة من قماش التويد بألوانها العديدة. يبدو أنّه لَحظ نظراتي؛ لأنّه قال: «إنّ قماش التويد متينٌ للغاية، ولكنّه ارتدى هذه البزّة على مدار ثلاثين عاماً، وقد تمزّق القماش في موضعين حسّاسين، وكان من الصعب إصلاحه والحصول على هذا التويد الملوّن في فترات الحرب». ردّد، وهو مستغرقٌ في أفكاره: «هذا المشعوذ». كان يعبث بالغليون البارد. قال: «أنت تعرف معنى كلمة مشعوذ؟». لمْ ينتظر إجابتي: «البائعون الصائحون في الأسواق، أشخاصٌ قادمون من المنطقة الإيطاليّة سيريتانو، محتالون ونصّابون. لمْ يمنع هذا الرجُل رحلتي الاستكشافيّة الثانية فحسْب، بلْ أطلق شائعاتٍ سيّئةً عنّي؛ أنّني لمْ أكن في منطقة التيبت على الإطلاق، ولكنْ من أين جاءت إذن الخنازير المحنّطة التي أهديتها إلى متحف علم الشعوب في ميونخ؟ ومن أين حصلت على صوري الفوتوغرافيّة؟ حاول بكلّ قواه منْع تعييني في مكتب الوراثة العِرقيّة التابع إلى وحدة العاصفة (إس إس). أؤكّد لك أنّني لمْ أسْع إلى هذا الأمر على الإطلاق، ولمْ أكن أعرف مميّزاته. أنا مدركٌ لتوجّهاتك، أنت تعرّضت للاعتقال الصعب؛ لذلك أريد التحدّث بصراحة. ظلّت هذه الشائعات المُطلقة بانتظامٍ تلاحقني، هذه الشائعات التي أطلقها شيفر ورفاقه قد ضرّتني على مدار أعوام. لا تتخيّل حجْم الضَّرر، خاصّةً ادّعاؤه أنّني لمْ أكن في التيبت، وعدم وجود صور فوتوغرافيّة. ماذا عن الصور أمام قصر الدالاي لاما، والصور التي أظهر فيها إلى جانب حيوان الفطاس بفمه الكبير؟ وآثار أقدام إنسان الثلج؟ هذه الصور كلّها مُتاحةٌ لمن يريد رؤيتها. صحيحٌ أنّ صوري مع حيوان اللاما لمْ تكن موجودةً. ظلّت في منطقة كونيجس برج، مع باقي مستنداتي. أنت تعرف أنّ الروس قد حاصروا كونيجس برج. تتعرّض متعلّقاتي هناك للقصف من جانب المدفعيّة الروسيّة

باستمرار. لقد دُمِّرت جامعة كانط، ومعها هذه المدينة القديمة الجميلة بالكاتدرائيّة القوطيّة. ما لمْ يدمّره هجوم القنابل الإنجليزيّة، تدمّره الآن قنابل المدفعيّات. المكتبة والأرشيف، أرشيفي أنا، تلتهمه النيران، وما يتبقّى يسرقه البلشفيّون. بعد هذه السنوات كلّها تفاجئني دعوة صاحب الرايخ غريب الأطوار. أنا أعرف توجّهاتك. أنت تعرف أنّ دعوةً كهذه تثير الفزع في البداية، خاصّةً في هذه الأيّام. ذهبت إلى برلين، ونزلت في غرفةٍ محجوزةٍ من قِبل وحدة العاصفة في فندق أدلون. أخذتني في اليوم التالي سيّارة عملٍ من طراز مرسيدس إلى فيلّا خارج برلين. أُدخِلتُ إلى غرفةٍ مخصّصةٍ للتدخين، وكان ينتظرني داخلها هيملر، مرتدياً زيّاً مدنيّاً، وبنطالاً رماديّاً، وسُترةً من الصوف. عرض عليَّ سيجارةً ورفضتها. قدّم خادمٌ بسُترةٍ بيضاء القهوة والبسكويت، ثمّ الكونياك. شكرتهم، وقلت: «إنّني لا أتناول الكحوليّات». أنت ملتزمٌ، مثل القائد هتلر. حينما وجدته جالساً أمامي، فكّرت في أنّه يجب عليه، بوصْفه القائد الأعلى للمجموعة العسكريّة المسؤولة عن منطقة نهر الفيستولا، أنْ يكون بالقرب من الجبهة؛ إذْ عبَر الروس النهر بالفعل، وكانوا يقتربون من برلين، ولكنّه لمْ يتحدّث عن المعارك المقاومة والهجوم المضادّ، بلْ سألني عن تجربتي مع توارد الأفكار في منطقة التيبت. شيفر، المتخصّص في منطقة التيبت، يتجنّب الردّ عن هذا السؤال حين يُطرح عليه. ذكرت له بعض الأمثلة المذهلة؛ إذْ اقتربتُ من الفناء داخل عاصفةٍ ثلجيّةٍ، لولا أنّ صوت راهبٍ عجوزٍ، قابلته قبلها بيومٍ، قد قادني إلى الكوخ. كان صوتاً قادماً من أعلى العاصفة الثلجيّة، بلغة التيبت. ردّدتُ العبارة أمام قائد الرايخ العسكريّ. طلب إليّ كتابتها، ففعلت ذلك. سحب نفساً من السيجار، وشرب الكونياك الفرنسي، ثمّ حكى عن هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي، الخبيرة في عِلم حكمة

التيبت القديمة، كان لها اتّصالٌ مباشرٌ مع القيادة الروحيّة في التيبت، وعلّموها كلّ شيءٍ عن التنجيم. أراد أنْ يسمع رأيي، والمؤشّرات التي تؤكّد الاستيطان القديم للجنس الآريّ الأصليّ في التيبت. كان معتقداً أنّ هذا هو مكان الخلاص، النعيم وما يسمّى «شانغري-لا». بدا الرجُل مريضاً، وبشرته شاحبةً، وعيناه متورّمتين. علقت فتات البسكويت بذقنه. تخيّل أنّني كنت أفكّر طوال حديثه كيف أقول لصاحب المعتقلات هذا الأمر. هل أقول له ذلك من الأصل؟ أيّها القائد العسكريّ للرايخ، لديك فتات بسكويتٍ عالقةٌ في ذقنك. مستحيل! مدّ يده مرّةً أُخرى إلى قطع البسكويت الجافّة، وعرض عليَّ قطعةً، وأخذتها ممسكاً بها بحِرصٍ بين أصابعي، من دون أنْ أقضم منها؛ أمّا هو، فظلّ يشمّ في قطعة البسكويت، وقضم قطعةً منها، مثل السنجاب. تطرّق حديثنا بعد ذلك إلى العصْر الجليديّ الكونيّ، الذي تكوّن خلاله -بحسْب اعتقاده- قوسٌ جليديٌّ كونيٌّ امتدّ حتّى الهيمالايا. من المفترض أنّ كائناتٍ آريّةً ظلّت هناك، وهُم بشر الثلج. كان مفتوناً بقولي إنّني رأيت هناك من بعيدٍ كائناتٍ ضخمةً، ولكنّها خجولة. كانت آثار الأقدام الكبيرة واضحةً في الثلج، وصوّرتها فوتوغرافيّاً. لمْ أقل له: إنّ الصور قد ضاعت في الأغلب في كونيجزبرج في أثناء القصف الروسيّ».

أراد قراءة تقريري في الحال.

- لمْ أتمكّن في عام 1914 إلّا من طباعة عددٍ محدودٍ في دار نشرٍ فرديّة.

- قد تعرف سبب مجيئي إليك. ربّما يكون الحظّ السعيد قد دفع بالمصادفة بنسخةٍ إليك هنا في المخزن؟

قلت: «لا، أنا أعرف محتويات المتجر جيّداً. أنا مضطرٌّ إلى إحباط أَمَلك؛ ليست لدينا نسخةٌ، ولمْ تقع عيني على نسخةٍ من قبْل».

شكرني شالر، ارتدى معطفه، وخرج وسط الثلوج المتساقطة.

-مقطع غير مفهوم-

لا، ربّما نعم. لقد حكيت لك قصّة شالر لتفهم أنّ المسؤول عن هذا الهَلع ليس وحشاً بأجنحةٍ، بلْ شخصاً منغلق الفكر، ويطرح الخُرافات. كان في الحقيقة هو الشخص الذي يمثّله، موظفٌ محاسب. كنّا نضحك منه في البداية، إلى أنْ تولّى الإشراف على جهاز الشرطة، فماتت ضحكاتنا. يمكن إدارة الإرهاب أيضاً؛ كان موظّفاً يدير هذا الهَلع.

بالمناسبة، لقد طلبت إلى شالر كتابة ما قاله هذا الصوت: «انظر هنا، هذه العلامات كانت ستعجب ليزافيتا بكلّ تأكيد؛ بدتْ مثل آثار سَير العصافير».

- أين تعيش زوجُك الآن؟

- لا أعرف. هربت إلى فرنسا بعد إلقاء القبض عليّ، وذهبت من هناك إلى الأرغواي، ثمّ الأرجنتين إلى عمٍّ كان قد هاجر في عام 1920 إلى هناك. تلقّيت بعد الإفراج عنّي ثلاثة خطاباتٍ منها. كانت تعيش في بوينوس أيروس، وتمنّت الحصول على فرصة عمل مصمّمة أزياء مسرحيّةٍ في أوبرا «تياترو كولون» هناك. حكيت لك أنّني اضطّررتُ بعدها للانتقال إلى سرداب متجر الكتب القديمة لبضعة أشهر. كانت مراسلاتي البريديّة جميعها في أثناء هذا الوقت مراقبةً؛ تثير الخطابات إلى الخارج خصوصاً شكّ الغيستابو. كتبت بعد مرور بضعة أشهر إلى عنوانها المكتوب على الخطاب الأوّل، فعاد الخطاب إليَّ بعد أربعة أشهر: «المُرسل إليه مجهول» باللّغة الإسبانيّة. اُنظر، هذا هو شكل خطابٍ قد عبَر خطّ الاستواء مرّتين. إنّها طريقٌ طويلةٌ، آخذه في يدي لأشعر بهزّة السفن. غريبٌ أنّ الخطاب قد عاد مرّةً أُخرى، غير مفتوحٍ، ولا حتّى من شخصٍ هنا، من هؤلاء

المتلصّصين مدفوعي الأجْر! أنا أيضاً لم أفتحه، ربّما سيجد السيّدة التي كان موجّهاً إليها، الآن، بعد تحسُّن الأحوال.

-مقطع غير مفهوم-

أجلْ، رأيت اليونانيّة للمرّة الأخيرة أواخر صيف عام 1944، كانت تزورني مرّةً أُخرى في متجر الكتب القديمة. كنت منشغلاً بترتيب مكتبة دار نشر إينزل؛ إذْ وصلت إلينا بسبب حالة وفاة. أحضر إلينا حفيد المتوفّى، الذي كان أستاذاً في علم العُملات، مجموعة الكتب في سلّة غسيل. كان بعضها ذا قيمةٍ عاليةٍ، واستطاعت النجاة من المراقبَيْن التابعَيْن للحزب: شتيفان تسفايغ، وألدوس هكسلي. كان بيع هذه الكتب ممنوعاً بالطبع. لدينا قائمةٌ بالكتب الممنوعة، بينها ثمانيةٌ وعشرون كتاباً من دار إينزل للنشر. سألت نفسي: من هذا الشخص الذي يكتب قائمةً من هذا النوع، تحدّد الكتب التي يجب إقصاؤها؟ توقّعتُ أنّه شخصٌ متخصّصٌ في الأدب. من هُم أولئك البيروقراطيّون الذين يقومون بهذا العمل؟ هل كان يجلس في مكتبه بوزارة الداخليّة أم في وزارة الثقافة؟ يُخرج الفطيرة من العلبة، فيقضمها، ومعها السجق الجيّد المصنوع من الكبِد، ويكتب أسماء بريخت، وهاينريش مان، وألفريد دوبلين، وفويشتفانجر. كانت حالات واضحة؛ كلّهم من اليهود، ثمّ شتيفان تسفايغ، وياكوب فاسرمان، وهاينريش هاينه. لا مجال للتفكير، ولكنْ ماذا سيفعل بعمل «لوريلاي» للكاتب هاينه؟ ثمّ أعمال هاينه التي لحّنها شوبرت؟ أسئلة وراء أسئلة. لم يستطع سؤال مديره الذي لمْ يقرأ هاينه قطّ. كان يعمل جزّاراً سابقاً، ولكنّه توجّه بالمارش العسكريّ إلى قاعة القيادات الحربيّة، حصل على وسامٍ ملطّخٍ بالدّم، فجنّده الحزبُ، وفاءٌ يقابله وفاء. يبدو أنّه وضع فطيرته على ورق الغلاف، ثمّ أضاف الاسْم إلى القائمة. الأفضل منْع كتابٍ إضافيٍّ عنْ إغفال كتابٍ ما، هذه هي الطاعة المتطلّعة إلى المستقبل.

أردت الحديث عن اليونانيّة. كنّا في نهاية آب/ أغسطس، في يومٍ دافئٍ، وباب المتجر كان مفتوحاً حين دخلت منه. كانت تزورني بين الحين والآخر، فيقبّل أكستهيلم يدها، ويقول: إنّه قد تشرّف برؤيتها، ويغار من صُحبتها لي. كان يبتسم ابتسامةً خفيفةً، وهو يُطلق تعليقاته المعبّرة عن إعجابه، ويشدّ منديل بزّته إلى أعلى، ويلوّح بيده ليودّعنا. كنّا نذهب عادةً إلى مقهى لويتبولد القريب، الذي دمّرته -مع الأسف- القنابلُ منذ عدّة أشهر. تحضر لي في كلّ مرّةٍ العسل، وقطعة دهن، وخبزاً. كانت ترتدي في ذلك اليوم البروش بالهلال المرصّع بالماس. لقد حكيت لك القصّة من قبل. لمْ يكن أكستهيلم موجوداً في تلك المرّة؛ إذْ ذهب إلى أرملٍ أراد أنْ يشتري منها المكتبة التي تركها زوجها. كان وقت الظهيرة، جلست أنا واليونانيّة على جانب المنضدة المصنوعة من خشب شجر عين الجَمل. أعددتُ لنا شاياً خفيفاً، يذكّر من بعيدٍ بنوع شاي فريزيا الشرقيّة، الذي كان موجوداً في هذه العلبة. أخذت السُّكّر، وبدأت حديثاً عن مصير منطقة النورماندي بعد هجوم الأمريكان والإنجليز، على الرّغم من عدم تناولها للسيّاسة من قبل. وماذا عن الهجوم الصيفيّ للروس؟ تعرّضت المجموعة الوسطى للجيش لهجومٍ غادرٍ من الروس. مئات الكيلومترات من مكاسب الأرض. خرجتْ من فمها مصطلحاتٌ عسكريّةٌ لمْ تتفوّه بها من قبل: الهجوم الصيفي، والاختراق الأماميّ، وعجْز المخزون، ومكاسب الأرض. وصلت الهموم إلى القصر إذنْ. الروسيّ ليس ببعيدٍ عن الحدود الشرقيّة الألمانيّة. كانت دوماً تتحدّث عن الروسيّ بالمفرد. ألا يجب السعي من أجل مفاوضات السلام الآن؟

قلت: «إنّ مفاوضات السلام تمثّل كارثةً في هذه المرحلة؛ لأنّها ستؤدّي بعد عقد اتفاقيّة السلام إلى حالةٍ من عدم الرضا الداخليّ، كما حدث بعد الحرب العالميّة الأولى. أكذوبة طعنة اليسار، وحزب الديمقراطيّين

الاجتماعيّين، والنقابة، في ظهر الجيش الشجاع الذي لا يُقهر. كان البطل الألمانيّ الكبير هيندنبورج قد ضغط بالفعل لإصدار أمرٍ بوقْفٍ فوريٍّ لإطلاق النار، ولكنْ صار المساعد إرتسبيرجر فجأةً هو المُذنب. المركز، والديمقراطيّون الاجتماعيّون، والشبّان غير الوطنيّين، والجيش الألمانيّ الذي لا يُقهر. لا، يجب في هذه المرّة أنْ تكون الهزيمة كاملةً، مثل الحرب الكاملة التي نادى بها النازيّون. هذا هو السبيل الوحيد لحرق السّمّ الذي تجمّع في تفكير ألمانيا وسلوكها».

- أيّ سُمّ؟

سُمُّ العِرق المُختار، هذا التصوّر عن العَظَمة، والقوّة، والبطولة، والالتزام، والطاعة، والطاعة مرّةً أُخرى. سُمٌّ يكمن في مقولة «الكرامة هي الوفاء»، سُمّ أسطورة نيبلونجن، وأرمين الكيروسكي. سُمُّ الإنسان الرائد، والعِرق الآريّ، والقوط، والفندال، والفيدار، والفريزيّين أصحاب الشَّعر الأشقر. نعم، خرج منّي هذا كلّه، ولمْ يكن بسبب الشاي الذي شربت منه فنجاناً واحداً كان خفيفاً، كان غضباً يزيد ويتراكم داخلي منذ فترةٍ بعيدةٍ، بسبب ما كنت أتجنّب قوله من قبل، مراعاةً للمشاعر والقواعد، وأيضاً بسبب ذكرياتي المتعلّقة بمراحل حُبّي الأولى، الحقيقة المتعلّقة به، هذا المفكّر الكبير بذقنه، والرائد في تطوير الإنسانيّة. يجب على الإنسان تخطّي الحدود: العِرق الآريّ الغربي، والجرمانيّين، والألمان.

لمْ تُظهرْ أيّ اهتمامٍ بالسيّاسة من قبْل. كان المجال الرسميّ الذي تتشكّل فيه الآراء، وتظهر فيه أشكال التعاون، والأحزاب، والاتّحادات، مجالاً غريباً عليها. قبْل تولّي النازيّين الحُكم بفترةٍ طويلةٍ، سألتها عن السُّلطة السياسيّة، قالت: «إنّ امتلاك السُّلطة، والسعي إليها، من الأمور الغريبة عليها». قالت في تقليلٍ لطيفٍ من شأنها: «أنا مسؤولةٌ عن ميزانيّة

المنزل؛ ليتفرّغ هو لأبحاثه». هذه سُلطةٌ أيضاً. لمْ تعرف تحديداً موضوع أبحاثه، ولمْ تهتمّ بهذا الشأن. حينما تُسأل عن عمله تجيب: «إنّه يجب سؤال ألفريد». لمْ تكن عقلاً يتوقّع ويحلّل، ولكنّها كانت بالذكاء الكافي لتفهم أنّ أهداف أبحاثه محلّ شكوكٍ عميقة. كانت ترفض الإمعان في النظر، وطرْح الأسئلة، والتفكير؛ لإدراكها قيام التجارب على البشر، وإن كانت وقتها على الأرانب مبدئيّاً.

كان زوجها يجلس في معملٍ أشبه بمعمل الخيميائيّ، تحيط به زجاجاتٌ صغيرةٌ، تحتوي على الكحول بالمقاطع النسيجيّة لأدمغة الأرانب وفلقات المشيمة. كان عددها ألفاً وستّمئة أرنب، والمساعدون مسؤولون عن غذائهم وشربهم. يأخذ الأرانب الكحول من خلال أكمامٍ للفَم، وأقماعٍ صغيرةٍ، تأتي بعد ذلك مرحلة التزاوج في حالةٍ من السُّكْر، ليجري بعد ذلك الكشْف على السُّلالة، على الأضرار الواقعة على طبقة فلقات المشيمة والدماغ. كان هدف هذه السّلسلة من التجارب تعرّف الجينات الوراثيّة الضارّة والضعيفة، والتخلّص منها.

قالت: «لا»؛ لتمنعني ممّا سأقول. بلى، لقد عمل لصالح هذا كلّه، وكان عالماً مُجدّاً؛ أسّس الجمعيّات: اتّحاد الشمال السرّيّ، وحلقة الشمال السرّيّة، ونادي الصيد في ميونخ، واتّحاد فيدار الألمانيّ. كلمة «الشمالي» هذه هي بشرٌ أقوياء البنيان، بشَعرٍ أشقر، وبعيونٍ زرقاء بقدْر الإمكان، اختيارٌ موفّقٌ للشريك الجنسيّ، كما كان يُطلق عليه. ألمْ يكن هذا تطهيراً عرقيّاً؟ لقد موّل إرنْك هذا كلّه: المجلّة، والمعهد البحثيّ للتطهير العِرقيّ، ومشروع الأرانب، ثمّ يأتي ويقول: «إنّ النتائج ليست مؤكّدةً، ولا تصلح للعَرض». لا، كان يجب أنْ يقول: «إنّ هذا كلّه هباءٌ، وعبثٌ، وإهدارٌ للمال، وتعذيبٌ لآلاف الحيوانات وقتْلها، من دون أيّة فائدة».

- هذا هو العِلم.

- هذا هو العِلم! لا، ليس هذا هو العِلم، هذه شعوذةٌ بنتائج قاتلة. قدّم مقترحاتٍ لطيفةً لتربية الإنسان الخارق: أنْ يلتقي أصحاب الجماجم الطوليّة مع أقرانهم؛ أمّا أصحاب الجماجم المستديرة، فهُم العمّال وعامّة الشعب، وضئيلو الجسم، ويتّصفون بالقُبح، ناهيك عن اليهود. حينما أفكّر فيما اعترف به المقدّم في رئاسة الأركان، يمكنني قول شيء، ولكنْ لا يمكن البوح به؛ لأنّه الجحيم. ليس ذلك الجحيم اللّطيف بالغلّاية، والشيطان اللّطيف بالقرون والشوكة الكبيرة، الذي يشوي الملعونين، إنّه جحيمٌ يتمتّع بالتقنيّة: الأسلاك الشائكة، والبلاط، والأفران. لمْ يكن هذا الجحيم موجوداً وقت وفاته، ولكنْ كانت هناك أشكال تمهيديّة له، يتدرّبون فيها، ويقتلون المرضى، والمختلّين، والمصابين. من ضمن هذه الأشكال المبدئيّة للجحيم هذا الإجراء أيضاً: اجتماع أصحاب الجماجم الطويلة من الشبّان مع فتياتٍ بجماجم طويلةٍ في حمّامات السباحة المطلّة على البحيرات. أنتِ تهزّين رأسك؟ يمكنك مراجعة الكتب في ذلك. كان المطلوب أنْ يلتقوا في حالة استرخاءٍ في أثناء الحفلات، وتدريبات الصباح، والفَطور. «أيّها القائد، هل تناولني الملح؟». «شكراً». وقت الظهيرة يتناولون الشاي مع الرقص، رقصة الفوكستروت. إنْ انزعج صاحب الجمجمة الطوليّة من كون الرقصة أمريكيّةً، يرقص الفالس النمساويّ. في المساء يراقبون غروب الشمس على شاطئ بحر البلطيق، وفي أقفاص الخيزران المخصّصة للشاطئ يتمّ التزاوج لإنجاب إنسانٍ خارقٍ بجمجمةٍ طويلةٍ صغيرةٍ، بعد الكشْف على بطاقة الأصول، والبطاقة الصحّيّة -كنت قاسياً مع هذه الإنسانة التي أحببتها- هذه هي تربية السُّلالات، يُتخلّص من أصحاب الجماجم المستديرة، والأقدام المسطّحة، المتلعثمين في الحديث، والمكتئبين. نحن في جنّة التطهير

العِرقيّ؛ يربّى الإنسان الخارق، ويحافظ على سُلالته. نحن أمام خيارين: إمّا أنْ ينتصر تعاطفنا، ونقدّم الحماية للضعفاء، ونخاطر بكفاءة عرقنا وجماله، وإمّا أنْ نقدّس كفاءة عرقنا وجماله، ونرضى بهذا العذاب كلّه الصعب تجنّبه، كفاءة عرقنا وجماله. كلّ ما لا يحقّق ذلك يُعقّم، الخطوة التالية هي الموت الرحيم لعديمي الفائدة، والمسوخ، وغير الطبيعيّين، وكذلك الأطفال غير الطبيعيّين. يتحدّد مصيرهم من قِبل الآلهة أصحاب الزيّ الأبيض، الذين يضعون في الملفّ علامةً على الموت، ويعطونهم قبْل حرقهم في غرف الغاز حقنة المورفين والسكوبولامين لتهدئتهم. لا يسعني إلّا أنْ أقول: «إنّها جلست أمامي متحجّرةً، هرب الدّم من وجهها». في أوّل ردّ فعلٍ، مخطئٍ وساذجٍ، سألتها إنْ كانت في حاجةٍ إلى كوبٍ من الماء. قالت: «لا، لا. أنا أعرف أنّه لمْ يقم بذلك قطّ. لا».

لا، لمْ يقم بذلك، ولكنّه عمل لصالح ذلك منذ عودته من إيكاريا، جمَع الإحصائيّات، والخُطب، والمقالات. كان ذلك في برلين، في مرحلةٍ لمْ تتعرّفي إليه فيها بعْد، ربّما لمْ تعرفيه قطّ، أو لمْ ترغبي في ذلك.

نهضت بعدها، وتوجّهت إلى الباب. تردّدت مدّةً، ثمّ خرجت، إلى هذا اليوم الصيفيّ الدافئ. استدارت مرّةً أُخرى في الشارع، ورأيتها في هذه اللّحظة مثل شبحٍ غريبٍ في المشهد، لونها مُظلمٌ، ولكنْ تلألأت -مع شعاع شمسٍ منعكسٍ على إحدى النوافذ- فصوصُ الماس للهلال الذي كانت ترتديه على فستانها، أشبه بالألعاب. وقفت، وأرادت لوهلةٍ قول شيءٍ. هزّت رأسها، ورحلت.

- حسناً، لقد أنهيت مهمّتي، ولكنّني سأحضر مرّةً أُخرى. أرجو لك الخير كلّه.

- شكراً، ولكِ أيضاً الخير كلّه.

الزيارة الأخيرة

صعد هانزن السُّلّم الضيّق إلى شقّة السطح. كان معه في حقيبةٍ من الكتّان خاصّةٍ بالجيش علبتان: رطلان من السُّكّر، ورطلان من القهوة، وعلبتا سجائر، وعلبة كاكاو، وعلب عديدة من سمك التونة، والزبدة، ودهن الخنزير، في علبٍ أيضاً. كانت أغراضاً يمكن استبدالها بسهولةٍ، إنْ لمْ يرغب في تناولها. اشترى هانزن لفاغنر أيضاً بلوفراً شتويّاً من متجر الجيش الأمريكيّ، لونه رماديّ فاتح، من صوف الخراف، بثلاثة خيوط، من المفترض أنّه يدفئ في برد الشتاء.

قال هانزن: «افتح العلبة في وقتٍ لاحق». جلس مرّةً أُخرى، وللمرّة الأخيرة، على مقعدٍ يُصدر صريراً أمام فاغنر في غرفة السطح. أراد فاغنر معرفة خطوات هانزن التالية.

قال: «إنّه لا يعرف إنْ كان سيبقى، أو يذهب إلى برلين، أو ربّما إلى الولايات المتّحدة؛ تسريح».

- وماذا بعد ذلك؟

تنتظره هناك جامعة إيفانزفيل، مدينة صغيرة على نهر أوهايو.

- هل لك رغبة في ذلك؟

- لا، ليست رغبةً كبيرةً، بلْ صغيرةً، صغيرةً للغاية. ربّما هناك مهمّةٌ أُخرى. لقد اقترحت إقامة قاعة قراءةٍ للمجلّات الأمريكيّة، والأدب الأمريكيّ، هنا في ميونخ. يمكن للألمان الحصول على معلوماتٍ عن السياسة والثقافة. ربّما المراجع أيضاً، والقواميس. لقد أظهر رئيسه في العمل اهتماماً، ولكنّ المقدّم ميدلتون سيعود قريباً إلى بوسطن.

أراد فاغنر مرافقة هانزن إلى أسفل، ولكنْ طلب الأخير عدم القيام بذلك. تصافحا عند باب شقّة السطح.

- أشكرك بشدّةٍ على القهوة والأشياء المتميّزة الأُخرى، خاصّةً على اهتمامك بقصّتي، وعلى صبْرك. لي طلبٌ آخر: سأكون شاكراً إنْ تمكّنت بعد عودتك إلى الولايات المتّحدة من زيارة جماعة الأمانا، وإرسال رسالةٍ قصيرةٍ عن وضعها الحاليّ. أتمنّى ألّا يكون جشع المضاربات على الأراضي قد الْتهم هذه المدينة الفاضلة الصغيرة التي صارت واقعاً. تبدو فكرة قاعات القراءة هذه جيّدة. أكمل فاغنر: إنْ كانت متماشيةً مع فكر المؤسّسين لنشر حُرّية الرأي سيكون أمراً مفيداً؛ سيتيح لألمانيا الحاليّة فرصة الاقتراب من الغرب. من يعلم، ربّما ستكون هناك بدايةٌ جديدةٌ، ومجتمعٌ يقوم على المساواة، والحُرّية، والأخوّة. سنجني الكثير إنْ صار العَلم البسيط لاتّحاد العمّال الألمانيّ، بعروس البحر التي ترفع سيف العدالة إلى السماء، هو العَلَم الوطنيّ. هل تريد التقدّم بفكرة قاعة القراءة هذه؟

- نعم، أودّ ذلك، إنْ سمحت الفرصة. عادةً نُستدعى، ونؤمر بالعمل في مكانٍ محدّد. أنا أفضّل البقاء هنا.

الغربان

دعت اليونانيّة هانزن إلى حفل زواج ابنها الأصغر. ربّما كانت هذه لفتة شُكرٍ لعدم مصادرة هانزن القصر. حضر فاغنر أيضاً، وجلس على دكّةٍ بيضاء، وادّعى أنّه جلس عليها في زيارته الأولى للمكان. حضر هانزن مع سارة؛ كان قد أُلغي قانون منْع التآخي، وسُمح للاثنين بارتداء الزيّ المدنيّ من دون الحصول على تصريح. اشترى لنفسه من مخزنٍ خاصٍّ بمتجر الجيش بزّةً لونها رماديّ فاتح. ارتدت سارة فستاناً حريريّاً أسْود بياقةٍ بيضاء، كان ضيّقاً عليها، ويقرصها في طبقة الدهن البسيطة فوق خصرها، كما كان ضيّقاً عند منطقة الصدر؛ إذْ برز نهداها مثلما كان يحدث عادةً مع باقي ملابسها. الفستان قصير أيضاً. جلست سارة إلى جانب فاغنر، وتحدّثت إليه باللّغة الإنجليزيّة، قالت: «حينما ذهبت مع هانزن إلى البوفيه: **يا له من رجُلٍ مثيرٍ للاهتمام! الآن أفهم لما منحته هذا الوقت كلّه**».[٨]

كان البوفيه متواضعاً، ولكنّه فاخرٌ مقارنةً بالعجْز السائد في البلاد: سلطة البطاطس مع النقانق. عزفت فرقةٌ موسيقيّةٌ أغانيَ شعبيّةً، ثمّ مقطوعة الفالس. صحنٌ كبير للكحول، وفاكهةٌ معلّبةٌ منذ سنوات: الكرز، والكمّثرى، وأنواع التوت. كانت خلطةً قويّةً، قويّةً بسبب الكحول. تناول الضيوف المشروبات، وأُلقيت القصائد عن العروسين. رجا الجميع لهما

عُمراً مديداً، وذرّيّةً تتمتّع بالصحّة، والقوّة، والموهبة. كان الرجُل العجوز سيسعد بهذا بكلّ تأكيد.

قالت سارة: «**هذا المشروب جيّد، طعمه رائع!**».^ شرب هانزن أيضاً، وبَدت له السماء بعيدةً، وتدعوه على نحوٍ رائعٍ إلى الطيران. توقّفت الفرقة الموسيقيّة عن العزف من أجل استراحةٍ، تناولَ الموسيقيّون الجعّة، وتجشّؤوا. وضع أحد الشباب من هذه الأُسرة الجرمانيّة أسطوانة موسيقا على المشغّل: مقطوعة (**على المزاج**) لفرقة غلين ميلر. نهض هانزن وأمسك بيَد سارة، التي شدّت فستانها الضيّق نحو الأسفل. توجّها إلى ساحة الرقص. قال: «يا له من يومٍ رائعٍ، وأمسيةٍ رائعةٍ، المشروب الكحوليّ رائع!». رقص الاثنان وقفزا، صورٌ غريبةٌ ظهرت أمامهما، ثمّ سقطا لاهثين فوق العشب المبتلّ. نهض هانزن مرّةً أُخرى، وذهب للتبوّل في مكانٍ أبعد. رأى تحت ضوء المساء غرابَيْن ينقران ويأكلان شيئاً ما. ناداهما هانزن: «مرحباً». كان قد شرب كثيراً، وظلّ طوال اليوم يتحدّث إلى سارة باللّغة الإنجليزيّة. «**أيّها الغرابان، ماذا تفعلان في هذه اللّيلة المباركة؟**».^ اقترب من الغرابَيْن الناعقين، ولكنْ لمْ يكن صوتهما كما المعتاد، العنيف والجافّ، بلْ صوتاً منغّماً، غناءً بسيطاً. أجلْ، لا شكّ أنّه غناء. سأل هانزن الغرابين بجدّيّة: «**ماذا قلتما؟**».^ أجلْ، كانا يغنّيان أغنية (**عندما كان جيني رين فتيّاً**). صاح هانزن: «أنتم ملوك الأسوار بكلّ تأكيد». كان الغرابان يغنّيان، يركضان، ويسقطان على نحوٍ متكرّرٍ، ولكنّهما يواصلان الغناء. صاح هانزن: «أيّها الغرابان، أنتما تعجزان بثقلكما عن الطيران». طار الاثنان إلى أعلى على مسافةٍ صغيرةٍ، ثمّ انحرفا إلى جنب، مع عدم انتظام ضربة الأجنحة، رفرفة، ثمّ سقوط على الأرض. «**هيّا، حاولا وانجحا!**».^ تمكّنا أخيراً من التحليق في الهواء والطيران فوق السور بغير اتّزانٍ إلى داخل الغابة.

جلس إلى جانب سارة على الدكّة، وتناول كأساً أُخرى معها. **«اسأله كيف أعدّوا هذا المشروب الرائع!».^** سأل عن كيفيّة حصولهم على هذا الكمّ كلّه من الكحوليّات في هذه الأوقات العسيرة.

سمع من فاغنر الإجابة: إنّه الكحول الذي كان يحوي أدمغة الأرانب، مقطّرٌ بعناية. قام بعد ذلك شخصٌ ما، يبدو أنّه من المدينة، وجاهل، بإلقاء الأدمغة في السماد. لمْ يعرف القاعدة العامّة التي تمنع إلقاء أيّ نوعٍ من اللّحوم في السماد؛ لأنّها تجذب الجرذان!

يُقال إنّهم لمْ يلحظوا ذلك إلّا بعد رؤيتهم الغربان، وهي تقفز في حالةٍ من السُّكْر. سألت سارة: «ماذا قال؟ **قلْ لي ماذا قال لك؟».^ «قال لي: إنّ الغربان قد التقطت بعض قطع الفاكهة وسَكرت، ثمّ بدأت تغنّي مثل عصفور النمنة، هل تصدّقين ذلك؟».^**

ولكنْ جاء إلى سارة ضيفٌ فخورٌ بلغته الإنجليزيّة الضعيفة، وشرح لها مصدر الكحول.

جلست سارة للحظةٍ كأنّها تفكّر في الأمر. نظرت إلى هانزن باحثةً عن مساعدته، نهضت سريعاً، وتمكّنت من الابتعاد خطوةً، قبْل أن تخرج موجةٌ قويّةٌ من فمها، تتكوّن من النقانق التي لمْ تُهضم بعد، مخاط داخله سلطة البطاطس، والخلّ، وصلصة الخردل، والفاكهة المعلّبة.

بحث هانزن عن منشفة، أحضر الماء، ومسح فمها، وعلى فستانها.

قالت: «إنّها لا تريد البقاء لحظةً واحدةً في هذا المكان».

- نعم، أنا أؤمن بالخرافات.^

عاد هانزن إلى ميونخ. سارة جالسة إلى جانبه ونائمة. كان قد شرب الكثير، ومن المفترض ألّا يقود السيّارة بالطبع، ولكنّه كان يقود ببطءٍ، متأنّياً، عابراً المناطق الطبيعيّة الغارقة في الظلام الدامس. مرّ على القرى

والمناطق النائية، وظهرت أطلال المدينة، لا يوجد ضوءٌ كهربائيٌّ، إمّا أنّ هناك انقطاعاً للكهرباء، وإمّا أنّ هناك تحميلاً زائداً على الشبكة. ظهرت سماء الّليل بقمرها في النوافذ الخالية لواجهات الأبنية الباقية، ونارٌ موقدةٌ داخل حُطام المنازل. يجلس حولها البشر باحثين عن الدفء. من المؤكّد أنّ هذا مشهدٌ من بدايات البشريّة، حينما كانت النار محروسة.



الملحق الأوّل:

في سياق إجراءات إصلاح التعليم افتُتحت في أكتوبر/ تشرين الأول لعام 1945 أوّل مكتبةٍ أمريكيّةٍ في قاعة القراءة الطبيّة بميدان بيتوهوفن بلاتس في ميونخ. تأسّست بعد ذلك سبعة وخمسون من المراكز الأمريكيّة على مستوى العالم.

الملحق الثاني:

حصص الحدّ الأدنى التي كان الجيش الأمريكيّ يبيعها كانت من عالمٍ مختلف. ثمن العلبة ثلاثون فينينج، تحتوي على البسكويت، وعُلب المربّى، والبودرة الفوّارة، والعسل، والعلكة، والجُبن، وسيجارتين في بعض الأحيان. ربّما كان هذا الطعم المختلف، ربّما سيّارات الجيب، أو العساكر بحركاتهم وروائحهم المختلفة، وبنزينهم، وسجائرهم. ربّما أيضاً كلمة «أوكي» المذهلة، التي كان لها وقعٌ مختلفٌ عن كلمة «تمام»، والانصراف بلفتةٍ عسكريّة. ربّما كان هذا كافياً للتشكيك في سُلطات الأب الأكبر، الذي كان يرفض الأمريكان المنتصرين، ولغتهم، وثقافتهم، التي عجز عن مقاومتها. ذهبت من دون أنْ ينصحني، أو يدفعني شخصٌ إلى المركز الأمريكيّ المطلّ على نهر الألستر الداخليّ. جلست هناك، وقرأت بمساعدة قاموسٍ متوفّرٍ هناك رواية «العجوز والبحر» لهيمنغواي.

النهاية

كلمة شكر:

تعود بدايات مشروع «إيكاريا» إلى عام 1978، الذي كنت انتهيت فيه من رواية «مورينجا». توقّفت عن العمل على المشروع؛ لأنّني لمْ أجد بناءً نثريّاً يناسب هذه المادّة، فضْلاً عن عدم توفّر الأموال المطلوبة للعمل على هذه الرواية لفترةٍ طويلة. نتجَ عن مراحل التخطيط والتصميم الطويلة، والكتابة أيضاً، أنّ أصواتاً عديدةً، أدبيّةً بعيدةً، وشفهيّةً قريبةً، قدْ وجدت طريقها إلى هذا العمل. دخلت -أيضاً- أصوات من التقارير، والمقالات، والكتب المختلفة.

أشكر داجمار خاصّةً، التي رافقت رحلة نشأة هذا الكتاب على مدار سنوات، مُبديةً النقد والتشجيع، إضافةً إلى عددٍ من الأصدقاء: كيث بوليفانت؛ لدعمه البحث التاريخيّ، وترجمته بعض الحوارات إلى الّلغة الإنكليزية، ومارتين هيلشر الذي كان شريكاً مهمّاً في الحوار في السنوات الماضية، واستعنتُ بمقترحاته في النَّصّ، ومُحرّري الدائم، أولاف بيترسون، ورومان ريتر، الذي قام بالتحرير النهائيّ للمسوّدة، والناشر هيلجة مالخوف بالطّبع.

وأدين بالشُّكر أيضاً -لإبدائهم ملحوظاتٍ مهمّةً- إلى ميشائيل فون كراناخ، وباول ميشائيل لوتسيلر، ونوربرت ميكلنبورج، وإيجون

شفارتس، وباتريسيا رايمان، وماري رودينا، وبيتر شبرينجل، وأولريكة فيجينر. ساعدت لاورا فيلتين في الحصول على كتبٍ ووثائقَ مهمّة.

أشكر في النهاية العاملين في دار النشر؛ لعملهم على وصول هذا الكتاب إلى قارئه.

قائمة المراجع:

ليست الرواية رسالة دكتوراه، ولكنْ يجب ذِكْر بعض الأعمال التي كانت لها في سياق البحث أهمّيّة، واستُشهِدَ بها.

Peter-Emil Becker: Zur Geschichte der Rassenhygiene. Wege ins Dritte Reich. Stuttgart 1988

(أُضيف إلى هذا العمل ملحوظة أنّ مؤلّفه، أستاذ عِلم الوراثة البشريّ منذ عام 1957 في جوتينجن، كان له منذ عام 1934 منصب قياديٌّ في وحْدة العاصفة).

Karl Binding/Alfred Hoche: Die Freigabe der Vernichtung lebensunwerten Lebens. Ihr Maß und ihre Form. Leipzig 1920

Johanna Bleker/Svenja Ludwig: Emanzipation und Eugenik. Die Briefe der Frauenrechtlerin, Rassenhygienikerin und Genetikerin Agnes Blum an den Studienfreund Alfred Ploetz aus den Jahren 1901–1938. Husum 2007

Gilbert Keith Chesterton: Eugenik und andere Übel. Berlin 2014

Michael von Cranach/Hans-Ludwig Siemen (Hrsg.): Psychiatrie im Nationalsozialismus. Die Bayerischen Heil- und Pflegeanstalten zwischen 1933 und 1945. München 2012

(هذا العمل يحتوي فضلاً عن قائمة المراجع المفصّلة حول إشكاليّة القتل

الرحيم، على معلوماتٍ عن وفاة إرنست لوسا. أنتج أولريش ليمر فيلماً مؤثراً عن أقدار لوسا بعنوان: «ضباب في أغسطس»

Werner Doelke: Alfred Ploetz (1860–1940). Sozialdarwinist und Gesellschaftsbiologe. Frankfurt 1975

Gerhart Hauptmann: Die großen Beichten. Berlin 1966

Stefan Heym: Nachruf, München 1988

Ernst Klee: «Euthanasie« im Dritten Reich. Die «Vernichtung lebensunwerten Lebens«, Frankfurt am Main 2010

ders.: Das Personenlexikon zum Dritten Reich. Wer war was vor und nach 1945. Frankfurt am Main 2005

ders.: Was sie taten – Was sie wurden. Ärzte, Juristen und andere Beteiligte am Kranken- oder Judenmord. Frankfurt am Main (13.Auflage) 2012

Victor Klemperer: Man möchte immer weinen und lachen in einem. Berlin 2016

Gustav Landauer: Nation, Krieg und Revolution. Ausgewählte Schriften. Band 4. Lich/Hessen 2011.

ders.: Die Revolution. Münster 2003 Melvin J. Lasky: Und alles war still. Deutsches Tagebuch 1945.Berlin 2014

Robert Liefmann: Die Kommunistischen Gemeinden in Nordamerika. Jena 1922

George L. Mosse: Die Geschichte des Rassismus in Europa. Frankfurt am Main 2006

Medizin ohne Menschlichkeit, Dokumente des Nürnberger Ärzteprozesses. Herausgegeben und kommentiert von Alexander Mitscherlich und Fred Mielke. Frankfurt am Main 1995

Benno Müller-Hill: Tödliche Wissenschaft. Die Aussonderung von Juden, Zigeunern und Geisteskranken 1933–1945: Reinbek 1984

(هذا العمل الشامل لأستاذ عِلم الوراثة في كولونيا يوثِّق -أيضاً- الحوارات التي أجْراها مع الأطبّاء وعلماء الأنثروبولوجيا من المرحلة النازيّة، وكذلك مع أبنائهم ومعاونيهم. مطلوبٌ إعادة طباعة هذا العمل المهمّ، نظراً أيضاً إلى دراسات العقليّات المُدْرجة فيه).

Alfred Ploetz: Die Tüchtigkeit unserer Rasse und der Schutz der Schwachen. Ein Versuch über Rassenhygiene und ihr Verhältnis zu den humanen Idealen, besonders zum Sozialismus. Grundlinien einer Rassen-Hygiene, 1. Teil. Berlin 1895

ders.: Ziele und Aufgaben der Rassenhygiene. Braunschweig 1911 ders.: Volksaufartung. Erbkunde. Eheberatung. 1930

ders.: Archiv für Rassen- und Gesellschafts-Biologie. 1904–1944. Herausgegeben bis 1939 von Alfred Ploetz Richard Saage: Zu Étienne Cabets utopischem Roman «Reise nach Ikarien.«

UTOPIE kreativ, H. 108 (Oktober 1999), S. 73–85

Hans-Walter Schmuhl: Rassenhygiene, Nationalismus, Euthanasie, 1890–1945. Göttingen 1987

Stephen Spender: Deutschland in Ruinen. Heidelberg 1995 Peter Sprengel: Gerhart Hauptmann. Bürgerlichkeit und großer Traum. München 2012

Utopie Kreativ, H. 108. Berlin 1999

Peter Weingart/Jürgen Kroll/Kurt Bayertz: Rasse, Blut und Gene. Geschichte der Eugenik und Rassenhygiene in Deutschland. Frankfurt 1992

Ludger Weß (Hrsg.): Die Träume der Genetik. Gentechnische Utopien von sozialem Fortschritt. Frankfurt (2. Auflage) 1989

Wikipedia. Die freie Enzyklopädie.

(يمكن هنا مراجعة السِّيَر الحياتيّة للشخصيّات المشاركة في عمليّات القتل الرحيم، وتطوّر مسيرتهم العلميّة لاحقاً في جمهورية ألمانيا الاتّحاديّة).

يشكر الكاتب قيادات الأرشيف لأكاديميّة الفنون في برلين؛ لسماحهم له بالاطّلاع على مُراسلات كارل هاوبتمان، كما يشكر قِسْم المخطوطات لمكتبة الدولة ببرلين لاطّلاعه على الرسائل المتبادلة بين ألفريد بلوتز وبين جرهارد هاوبتمان.

أوفا تيم:

وُلد أوفا تيم في عام 1940، ويعمل كاتباً حُرّاً منذ عام 1971، وهو عضوٌ في أكاديميّة الفنون في برلين.

درس الفلسفة في ميونخ وباريس، وحصل على شهادة الدكتوراه في الأدب الألمانيّ في عام 1971.

تتحدّث أعماله عن التاريخ الألمانيّ، وصدر له العديد من الأعمال، منها: «بُرج مونتاني» في عام 2015، و«مرعى الطيور» في عام 2013، و«مائدة خاوية» في عام 2011، و«هذه الحياة مثالاً» في عام 2010، و«نصف ظِلّ» في عام 2008، و«الصديق والغريب» في عام 2005، و«مثلاً أخي» في عام 2003.

حصل أوفا تيم على عدّة جوائز، منها: جائزتَيْ: بريميو نابولي، وبريميو مونديلو في عام 2006، وجائزة هاينريش بول عام 2009، وميداليّة كارل زوكماير في عام 2012.

تُرجمت أعماله إلى لغاتٍ عديدةٍ، ومنها: رواية «مثلاً أخي» التي تُرجمت إلى أكثر من عشرين لغة، ومنها العربيّة.

هبة الله فتحي:

أستاذ في الأدب الألمانيّ الحديث والمعاصر في كلّيّة الآداب بجامعة القاهرة. تعمل منذ عام 2002 بصفتها مترجِمةً حُرّةً للّغة العربيّة والألمانيّة.

أقامت سلسلةً من ورش عمل الترجمة؛ لدعم شباب المترجمين، وحصلت عام 2012 على جائزة المترجمين من الألمانيّة إلى العربيّة، التي يمنحها المركز الثقافيّ الألمانيّ (معهد جوتة) عن ترجمة رواية «حجرة في دار الحرب» للكاتب الألمانيّ كريستوف بيترس، كما ترجمت أيضاً رواية «ذاكرة اليعاسيب» للكاتبة ماريسا بودروجيتش، ورواية «روعة الحياة» للكاتب ميشائيل كومبفمولر، والسيرة الحياتيّة للكاتب فرانز كافكا «السنوات الأولى» للمؤلّف راينر شتاخ.



إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



متأثرَيْن في حُلم المدينة الفاضلة، وأفكار الفيلسوف الفرنسيّ كابيه في كتابه "الرحلة إلى إيكاريا"، ينطلق الصديقان بلوتز وفاغنر في رحلةٍ إلى العالم الجديد، للمشاركة في بناء المجتمع المثاليّ هناك، إلّا أنّهما يفترقان عند العودة بالتزامن مع التغيّرات الهائلة التي تشهدها أوروبا في بدايات القرن العشرين، وفيما ينغمس بلوتز في تحقيق الأحلام النازيّة الراغبة في بناء المجتمع المثاليّ؛ ليصبح أحد أعلام نظريّات تحسين النسْل والتطهير العِرْقيّ، ينعزل فاغنر عن الحياة؛ إذْ يعمل سرّاً في مكتبةٍ تُخفي الكتب الممنوعة.

على الرغم من القطيعة بينهما، فإنّ مصائرهما تعاود الالتقاء بعد سقوط الرايخ الثالث؛ بسبب مهمّةٍ يُرسل إلها هانزن الضابط الأمريكي؛ لاكتشاف خفايا حياة "بلوتز"، وذلك باستجواب ذلك الصديق الذي رافقه في فتراتٍ طويلةٍ من حياته.

عبْر الأسرار التي تكشفها الحوارات المطوّلة بين مُحبّي الكتب، ومذكّرات ضابطٍ منتصرٍ في بلده الأمّ المنهزم، يرصد أوفا تيم -في روايته إيكاريا- المدى الذي قد ينحدر إليه البشر في سعيهم إلى بناء المجتمع المثالي.




دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع


9 789933 641078